



سوينغ تايم

زيدي سميث

ترجمة أماني لازار

زادي سْمِث

سوينغ تايم

أو

زمن التأرجح

ترجمة أماني لازار



سوينغ تايم

هذا الكتاب بدعم من:



سوينج تايم

تأليف: زادي سْمِث
ترجمة: أماني لازار
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 7-173-24-9948-978



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae



إلى أمي، إيفون.

عندما تتغيّر الموسيقى، كذلك يفعل الرّقص.

من أمثال شعب الهوسا

استهلال

اليوم الأول من أيّام إذلالي[1]. وضعت في طائرة وأعدت إلى الوطن، إلى إنكلترا، بحوزتي عقد إيجار مؤقّت في حي سانت جونز وود. أطلّت نوافذ الشقّة الواقعة في الطّابق الثّامن على ملعب الكريكت. كان مردّ اختيارها، أغلب الظّن، إلى البوّاب الذي لم يفسح المجال لأي استفسار. لبثت في البيت. رنّ الهاتف المثبّت على جدار المطبخ مرارًا لكني كنت قد أخطرت بعدم الرد وبإغلاق هاتفي الشّخصي. شاهدت لعبة الكريكت وهي لعبة لا أفهمها، لم تقدّم لي أي تسلية حقّة، مع ذلك كانت مشاهدتها أفضل من النّظر إلى أرجاء تلك الشّقة، وهي شقّة خاصّة باذخة صُمّم كل ما فيها كي يبدو محايدًا تمامًا، وقد دُوّرت جميع الزوايا الهامة مثل جهاز آي فون. عندما انتهت لعبة الكريكت حدّقت نحو آلة تحضير القهوة الملساء المثبّتة على الجدار، وإلى صورتين لبوذا – واحدة نحاسيّة والأخرى خشبيّة – وصورة فيل جاثٍ قرب فتى هندي صغير كان بدوره جاثيًا أيضًا. نمّت الغرف الرماديّة عن ذوق سليم، يصل فيما بينها رواق نظيف مفروش ببساط صوفي منسوج من خيوط سمراء اللون. أمعنت النظر إلى البساط. مرّ يومان على تلك الحال.

---

1) للعنوان أكثر من معنى، فهو عنوان فيلم موسيقي أنتج عام 1936 ، واسم جنس موسيقيّ أيضًا، ولو شئنا ترجمَته لكان: زمن التّأرجح. «إنّه يتعلّق بصدمة الشّتات،» على حدّ قول سْمِث في حديث لها مع مجلة تي. «امتلكنا حياة في مكان... ثم نُقلنا من تسلسل الأحداث الزمنية ذاك، ووضعنا في مكان مختلف كليًّا، ومعطّل جذريًّا».

اتّصل البوّاب في اليوم الثّالث ليخبرني إنّ الرواق خالٍ. نظرت إلى هاتفي الموضوع على النّضد في وضعية الطّيران. لم أكن متّصلة بشبكة الهاتف طوال اثنتين وسبعين ساعة وأتذكر شعوري بأن هذا ينبغي احتسابه من بين الأمثلة العظيمة على رباطة الجأش والجَلَد الأخلاقي في زماننا. ارتديت سترتي ونزلت إلى الطّابق الأرضي. لاقيت البوّاب في الرّواق. انتهز الفرصة ليشتكي بمرارة: «لا تحملين أيّ فكرة عن كيف كان الحال عليه هنا في الأسفل منذ بضعة أيام، كان أشبه بساحة بيكاديلي سيركس لعينة!». مع ذلك كان واضحًا لي أن كلامه يناقض مظهره المُحبَط قليلًا، فقد شعر بالخزي من الخمود الذي عاد حوله بعد أن شعر طيلة ثمانٍ وأربعين ساعة بأهميّة بالغة. روى لي باعتزاز ما قاله لعدّة أشخاص: «أن يبدؤوا التّصرف بطريقة أكثر كفاءة وإيجابية»، وأنه جعل فلانًا وعلّانًا من النّاس يعرفون أنهم إذا اعتقدوا بأفضليّتهم عليه «فعليهم إعادة النّظر في معتقدهم». اتكأت على مكتبه وأصغيت إلى حديثه. كنت خارج إنكلترا وقتًا طويلًا، وقتًا يكفي كي تبدو الكثير من العبارات البريطانية البسيطة العامية الآن غريبة وتكاد تفتقر إلى المعنى. سألته هل سيتواجد مزيد من الأشخاص ذلك المساء، فنفى، وقال إنه لم يأت أحد منذ اليوم السّابق. أردت معرفة إذا ما كان آمنًا استقبال زائر خلال الليل. قال بنبرة جعلتني أشعر بسخافة سؤالي: «لا أرى أية مشكلة». ثم تنهّد مستأنفًا: «يوجد دومًا الباب الخلفي». وفي اللحظة نفسها توقّفت امرأة لتسأله إذا كان في وسعه تسلّم ملابسها من المصبغة، لأنها في طريقها إلى الخروج. كان سلوكها فظًا نافد الصّبر وبدلًا من أن تنظر إليه وهي تتحدث حدّقت إلى التقويم الموضوع على مكتبه والمؤلّف من كتلة رمادية ذات شاشة رقمية أعلمت أي شخص واقف أمامها عن الوقت بدقّة تامة. كان الخامس والعشرين من شهر تشرين

الأول سنة ألفين وثمانية، الساعة الثانية عشرة وست وثلاثين دقيقة وثلاث وعشرون ثانية.

استدرت بنيّة المغادرة، تباحث البوّاب مع المرأة وخرج مسرعًا من خلف مكتبه ليفتح لي الباب الرئيس. سألني عن وجهي، قلت إني لا أعلم. خرجت إلى المدينة. كان أصيلًا لندنيًا خريفيًا مثاليًا، باردًا لكنه وضّاء، تحت عدد من الأشجار تناثرت كمية من أوراق ذهبية اللون. مررت بملعب الكريكت وبالمسجد، بمتحف الشّمع مدام توسود، اجتزت شارع جودج ثم طريق توتنهام كورت رود، عبرت ساحة الطّرف الأغر، ووجدت نفسي أخيرًا في ايمبانكمانت، من ثم عبرت الجسر. فكّرت – كما يحدث غالبًا حين عبوري الجسر – برجلين شابين، طالبين، كانا يسيران عليه ذات ليلة في وقت متأخر جدًا عندما تعرضا للسلب ورميا من فوق السّياج في نهر تيمز. نجا أحدهما ومات الآخر. لم أفهم كيف تمكّن من النّجاة في الظلام، في البرد المطلق، بالإضافة إلى الصّدمة المريعة وهو منتعل حذاءه. وأنا أفكر به، لزمت الجهة اليمنى للجسر على طول السّياج وتفاديت النظر إلى المياه. عندما وصلت إلى ضفّة النهر الجنوبيّة، رأيت أوّلًا ملصقًا دعائيًا لحدث سيقام مع مخرج سينمائي نمساوي «في المحادثة»، موعده بعد عشرين دقيقة في مسرح الرويال فيستيفال هول. قررت فجأة محاولة الحصول على بطاقة دخول. تقدّمت واستطعت الحصول على مقعد في الصّفوف الخلفية العلوية، الصّف الأخير. لم أتوقّع الكثير، أردت فقط شيئًا يلهيني عن التفكير بمشاكلي إلى حين، أن أجلس في الظلمة وأسمع نقاشًا عن أفلام لم أشاهدها من قبل، لكن في وسط البرنامج طلب المخرج من الشّخص الذي يجري معه اللقاء عرض مقطع من فيلم سوينغ تايم، وهو فيلم أعرفه جيدًا، شاهدته مرارًا وتكرارًا في طفولتي. جلست متباهية في مقعدي. رقَص على الشّاشة

الضّخمة أمامي فرِد آستر مع ثلاث شخصيات ظليّة. لم يتمكنوا من مجاراته، بدأوا يفقدون إيقاعهم. أخيرًا اعترفوا بهزيمتهم صانعين تلك الإيماءة الأميركية للغاية باليد اليسرى لكل واحد منهم: «أوه فوي[2]»، وغادروا المنصة. رقص آستر وحيدًا. فهمت أن الظلال الثلاثة كانت صورة ظلية لفرِد آستر أيضًا. هل عرفت ذلك عندما كنت طفلة؟ لا يضرب أحد آخر الهواء بذلك الشّكل، ما من راقص آخر يميل بركبتيه بتلك الطريقة نفسها تمامًا. في هذه الأثناء تحدّث المخرج عن نظريته حول «السّينما النّظيفة»، حيث بدأ يعرّفها قائلًا: «تفاعل بين الضّوء والعتمة، معبّر عنه كنوع من الإيقاع مع مرور الوقت»، لكني وجدت هذا المسار من التفكير مملًّا ويصعب تتبّعه. من خلفه أعيد تشغيل المقطع نفسه لسبب من الأسباب، فيما قدماي في انسجام مع الموسيقى، نقرتا على المقعد أمامي. شعرت بخفّة مدهشة في جسدي، سعادة سخيفة بدت قادمة من اللامكان. قد أخسر عملي، نسخة محققة من حياتي، خصوصيتي، مع ذلك بدت كل هذه الأمور ضئيلة وتافهة إزاء هذا الإحساس بالبهجة الذي شعرت به أثناء مشاهدتي الرّقصة وأتابع إيقاعاتها الدقيقة في جسدي. شعرت بأني أفقد أثر مكاني المادي، أعلو فوق جسدي، أعاين حياتي من نقطة بعيدة جدًا، أحوم فوقها. ذكرتني بالطريقة التي يشرح فيها الناس تجارب المخدّرات المسببة للهلوسة. رأيت كل سنواتي دفعة واحدة، لكنها لم تكن مكوّمة بعضها فوق بعض، تجربة بعد تجربة، تتراكم لتكون شيئًا راسخًا – بل النقيض. كانت حقيقة تتكشف لي: أنني لطالما كنت أحاول ربط نفسي بضوء أناس آخرين، وأنه لم أحظ يومًا بضوئي الخاص. اختبرت نفسي كنوع من ظل.

---

2) تعبيرًا عن عدم التّصديق.

عندما انتهى الحدث عبرت المدينة عائدة إلى الشّقة، اتصلت بلامين الذي انتظرني في مقهى قريب، وأخبرته أن في مقدوره القدوم إلى الشقة بسلام. كان مطرودًا أيضًا لكن بدلًا من تركه يذهب إلى الوطن، إلى السّنغال، جلبته إلى هنا، إلى لندن. وصل عند السّاعة الحادية عشرة مرتديًا سترة ذات طاقية تحسّبًا من وجود كاميرات مراقبة. كان الرواق فارغًا. بدا في طاقيته أكثر شبابًا وجمالًا وبدا لي الأمر أشبه بفضيحة إذ أنني لم أتمكن من العثور في قلبي على مشاعر حقيقية نحوه. بعد ذلك استلقينا جنبًا إلى جنب في السّرير كل واحد مع كمبيوتره المحمول، ولأتجنب تفحّص بريدي الإلكتروني بحثت عبر محرك البحث غوغل بداية جُزافًا، ثم على نحو هادف: كنت أبحث عن ذلك المقطع من فيلم سوينغ تايم. أردت أن أريه للامين، أردت أن أعرف رأيه على اعتبار أنه هو نفسه راقص الآن، لكنه قال إنه لم يسبق له أن شاهده ولم يسمع عن آستر، وبينما اشتغل المقطع جلس في السّرير متجهّمًا. بالكاد فهمتُ إلام كنا ننظر: فرِد آستر بوجه أسود. كنت قد جلست في الرويال فيستيفال هول في الصفوف الخلفية، دون أن أضع نظارتي، والمشهد يفتتح على آستر في لقطة طويلة. لكن لم يشرح شيء من هذا حقًا كيف تمكنت من محو صورة الطّفولة من ذاكرتي: العيون المتقلّبة، القفازات البيضاء، تكشيرة البوجانجلز[3]. شعرت أني شديدة الحمق، أغلقت جهاز المحمول ونمت. استيقظت باكرًا صباح اليوم التّالي، تركت لامين في السّرير، أسرعت إلى المطبخ وفتحت هاتفي. توقعت المئات من الرسائل، بل الآلاف، حصلت ربما على ثلاثين واحدة. إيمي هي من أرسلت لي مئات الرسائل في يوم واحد سابقًا، والآن أخيرًا فهمت أن إيمي لن ترسل لي

---

3) Bojangles: بيل روبينسن (1878 – 1949) راقص (الرقص النقري) أميركي وممثل، أشهر الراقصين الأفرو-أميركيين في القرن العشرين.

رسالة أخرى بعد الآن. لا أعرف لماذا استغرقني الأمر وقتًا طويلًا لأفهم ما يحدث. استعرضت قائمة محبطة: قريب بعيد، بعض الأصدقاء، عدّة صحفيين. لمحت واحدة معنونه بعاهرة. حملت عنوانًا عديم المعنى مكوّنًا من أرقام وحروف ومرفقًا بها ملف فيديو لم يفتح. احتوت الرسالة على عبارة واحدة: الآن الجميع يعرفونك على حقيقتك. كان نوعًا من المكاتيب التي يمكن أن ترسلها إليك فتاة حقودة لا يتجاوز عمرها سبع سنوات وتملك فكرة حازمة عن العدالة. وبالتّأكيد ذلك هو ما حدث بالضّبط – لو استطعت تجاهل مرور الزمن.

الفصل الأوّل

باكورة الأيّام

واحد

إذا اعتبرنا جميع أيام السّبت في العام 1982 يومًا واحدًا، فقد التقيت بتريسي عند السّاعة العاشرة صباحًا في السّبت من ذاك العام. سرنا على الحصى الرملي لباحة الكنيسة، كل واحدة ممسكة بيد والدتها. على الرغم من وجود الكثير من الفتيات الأخريات، لكن لأسباب واضحة لاحظنا بعضنا، التشابهات والفروقات، كما ديدن الفتيات.

لبشرتنا درجة السّمرة ذاتها بالضّبط - كما لو أن رقعة واحدة من الجلد الأسمر فُصّلت لصناعتنا نحن الاثنتين - والنّمش تجمّع في المناطق نفسها، وتساوينا في طول القامة. لكن وجهي كان مملًا وكئيبًا مع أنف طويل جادّ، وعينَيّ تحدّرتا نحو الأسفل، حالَ فمي. كان وجه تريسي مرحًا وممتلئًا، بدت مثل الممثلة شيرلي تيمبل وإنما أكثر دكنة منها، سوى أن أنفها شابه أنفي، استطعت رؤية هذا القدر الوافر في الحال، أنف مضحك - ارتفع عاليًا باستقامة في الهواء مثل خنّوص صغير. ظريفان لكن فاحشان أيضًا: كان منخراها ماثلين للعيان بشكل دائم. فيما يخص الأنوف يمكنك أن تسمّيه تعادلًا. فيما يخصّ الشّعر فقد فازت فوزًا بيّنًا. كان شعرها عبارة عن خصل مجعّدة لولبية وصلت حتى مؤخرتها جمعت في ضفيرتين طويلتين، صقيلة بزيت من نوع ما، مربوطتين عند طرفيهما بشريطتين صفراوين من قماش السّاتان. لم تسمع أمي عن ظاهرة شرائط السّاتان الأصفر. شدّت شعري المجعّد

الكثيف إلى الخلف في سحابة مفردة عُقدت برباط أسود. كانت أمي نسويّة. شعرها بطول نصف بوصة، كتلة كثة مستديرة «آفرو»، شكّلت جمجمتها بإتقان، لم تضع الزينة يومًا واختارت لكل منّا زيًّا بسيطًا قدر المستطاع. الشّعر ليس أساسيًّا عندما تبدو مثل نفرتيتي. لم تكن بحاجة للزينة أو لمستحضرات تجميل أو جواهر أو ملابس باهظة الثّمن، وبهذا الشكل توافقت ظروفها المالية وسياستها وجماليتها جميعًا بشكل ملائم. لم تفعل الإكسسوارات شيئًا إلا التضييق على أسلوبها، بما فيها ذات وجه الحصان – ذات السبع سنوات التي إلى جانبها، أو هكذا شعرتُ بنفسي في ذلك الحين. بالنظر نحو تريسي شخّصت المشكلة المقابلة: لأمها بشرة بيضاء، سمينة، مبتلاة بحَبّ الشّباب. سرّحت شعرها الخفيف الأشقر إلى الخلف بإحكام شديد فيما عرفت أن أمي قد تسميها «عمليات تجميل كيلبورن». لكن سحر تريسي الشّخصي كان الحل، فهي شخصيًّا أكثر إكسسوارات والدتها لفتًا للأنظار. مُحيّا العائلة، ولو أنه ليس من النّوع الذي يعجب أمي، وجدته آسرًا: شعارات، وأساور من الصّفيح وأطواق، كل شيء من المجوهرات المزيفة، أحذية رياضية باهظة الثّمن من النّوع الذي رفضت أمي الاعتراف بوجودها في العالم – «ذلك ليس بحذاء». ورغم المظاهر فإنه لم يكن هناك الكثير لكون عائلة إحدانا أفضل من الأخرى، فكلتانا من المجمّعات السّكنية، لم تتلق واحدة منا المساعدات (مسألة فخر لأمي، وإهانة في نظر والدة تريسي: حاولت مرات عدّة – وفشلت – في «الحصول على إعانة العجز».) من وجهة نظر أمي تلك التّشابهات الظّاهرية بالضّبط منحت مسائل الذائقة أهمية كبيرة. وهكذا، فقد ارتدت لباسًا من أجل مستقبل لم يأت بعد، لكنّها توقّعت وصوله.

وتلك كانت الغاية من بنطالها البسيط الأبيض من قماش

اللينين، وكنزتها المخططة بالأزرق والأبيض من ماركة بريتون، وحذائها الخفيف المهترئ، ورأسها الأفريقي الجميل القاسي – كل شيء بالغ الوضوح، مفهوم للغاية، متماشٍ تمامًا مع روح الزمان والمكان. ذات يوم سوف «نخرج من هنا»، سوف تكمل دراساتها وتصبح أنيقة راديكالية[4] بحق، ربما حتى يؤتى على ذكرها في نفس الوقت مع الناشطة الأميركية انجيلا ديفيس والصّحفية النسوية جلوريا ستينم... شكّل حذاء ذو نعل من القش جزءً من هذه الرؤيا الجريئة، توجّهت فردتاه ببراعة نحو المفاهيم العُليا. كنت شيئًا ثانويًّا فقط، بمعنى أنني في بساطتي ذاتها عبّرت عن تحفّظ أموميّ باهر، في الدوائر التي طمحت أمي إليها اعتُبرَ ذائقة رديئة أن تُلبسي ابنتك مثل بغي صغيرة. لكن على نحو غير مخجل كانت تريسي مطمح والدتها وأفاتارها[5]، فرحها الوحيد في تلك الشرائط الصّفراء الأخّاذة، تنورة مزينة بكثير من الكشاكش وكنزة قصيرة تكشف عن بطن بندقي اللون طفولي.

عندما انضغطنا إزاءهما في هذا الطريق المزدحم بالأمهات والبنات ندخل الكنيسة شاهدت باهتمام عندما دفعت والدة تريسي الفتاة التي تتقدمها وتتقدمنا، مستعملة جسدها كوسيلة للإعاقة، يتأرجح اللحم على ذراعيها وهي تدفعنا إلى الوراء، حتى وصلت إلى حصّة رقص الآنسة ايزابيل، تعتلي وجهها نظرة من فخر عظيم وقلق، مستعدة لإيداع حمولتها الثمينة في عناية الآخرين المؤقتة.

نمّ موقف والدتي، على العكس من ذلك، عن ضجر وعبودية

---

4) Radical chic: هو مصطلح صاغه الصّحفي توم وولف لوصف تبنّي المشاهير والشّخصيات الاجتماعية وطبقة المجتمع الرّاقي القضايا السّياسية الراديكالية وترويجها. على النقيض من الناشطين المتفانين أو الثوريين أو المنشقين، فإن أولئك المنخرطين في» الأناقة الراديكالية « يظلّون محرضين سياسيين تافهين. إنهم يستثمرون أيديولوجيًا في قضيتهم المفضّلة فقط بقدر ما تساهم في تحسين مكانتهم الاجتماعية.

5) أي صورتها الرمزية.

نصف تهكمية، فقد وجدت صفّ الرّقص سخيفًا، كان لديها ما هو أفضل للقيام به. وبعد بضع حصص أخرى – جلست فيها مسترخية في أحد الكراسي البلاستيكية المصفوفة إزاء الجدار إلى اليسار، بالكاد قادرة على احتواء ازدراءها للتمرين برمته – جرى تغيير وتولّى أبي الأمر. انتظرت أن يتولّى والد تريسي أمر ابنته لكنه لم يفعل قط. تبين – كما خمّنت أمي في الحال – أنه لم يكن متواجدًا «والد تريسي»، على الأقل ليس بالمعنى التقليدي الزوجيّ. كان هذا أيضًا مثالًا على ذائقة رديئة.

اثنان

أريد الآن أن أصف كُلًّا من الكنيسة والآنسة إيزابيل. بناء بسيط يعود إلى القرن التاسع عشر شُيّدت واجهته من أحجار كبيرة رملية اللون، لا تختلف عن الكسوة الرخيصة التي تراها في المنازل الأكثر قذارة – ولو أنه لا يمكن أن يكون ذاك – وبرج كنيسة مُرْضٍ، مستدقّ الرأس يرتفع فوق مكان عاديّ، أشبه بالإسطبل. تُدعى كنيسة سانت كريستوفر. بدت تمامًا مثل الكنيسة التي شكلناها بأصابعنا عندما غنينا:

ها هي الكنيسة

ها هو البرج

افتح الأبواب

هناك الناس جميعًا.

روى الزّجاج الملون قصّة القديس كريستوفر حاملًا الطفل يسوع على كتفيه عبر نهر. منفّذة برداءة: بدا القديس أبتر بذراع واحدة. نسفت النوافذ الأصلية خلال الحرب. انتصب مقابل القديس كريستوفر عقار باسق ذو سمعة رديئة، وهذا هو المكان الذي أقامت فيه تريسي (كان منزلي أجمل، أقل ارتفاعًا، ويقع في الشّارع المجاور). بُني في السّتينات، حلّ محلّ صفٌّ من المنازل الفيكتورية التي فُقدت في القصف نفسه الذي دمّر الكنيسة، لكن هنا انتهت العلاقة بين المبنيين.

اتخذت الكنيسة لعجزها عن حثّ السكّان على عبور الطريق من أجل الله قرارًا براغماتيًّا لتمتد نشاطاتها إلى مجالات أخرى: حضانة أطفال، فريق رياضات إلكترونية، تدريب سياقة. تلك النشاطات شاعت ورسخت بين الناس، لكن صفوف الرّقص صباح السّبت كانت إضافة جديدة ولم يعرف أحد تمامًا ما الذي يجري فيها. الصّف نفسه يكلّف جنيهين ونصفًا، لكن انتشرت إشاعة أموميّة حول معدّل أسعار أحذية الباليه، فقد سمعت امرأة أن ثمنه يساوي ثلاثة جنيهات، وأخرى سبعة، أقسمن أنه لا يمكنك الحصول عليها إلا من متجر فريد، في حي كوفنت جاردن، حيث قد يأخذون منك عشرة جنيهات لقاء مجرد النظر إليك – تخيّل إذن كم يبلغ ثمن حذاء الرّقص النّقري أو حذاء الرّقص الحديث! هل يمكن انتعال حذاء الباليه للرقص الحديث؟ وما هو الرقص الحديث؟ لم يكن هناك أحد لتسأله، وما من أحد تحذو حذوه، أنت عالق هناك وحسب. ونادرة هنّ الأمهات اللاتي يتطاول فضولهن حدّ الاتصال بالرقم المكتوب على النّشرات الإعلانية منزلية الصّنع، المثبتة على الأشجار. العديد من الفتيات اللواتي من الممكن أن يصبحن راقصات ممتازات لم يجتزن الطريق قط خوفًا من منشور منزليّ الصّنع.

كانت أمي شخصية نادرة: لم تخش من المنشورات المنزلية الصّنع. بفطرتها الرائعة أدركت أعراف الطبقة الوسطى. على سبيل المثال، عرفَت أن مزادًا في صندوق سيارة خلفي – على الرغم من اسمه غير الواعد – يمكنك أن تجد فيه نوعية أفضل من الأشخاص، وكتبًا قديمة صّادرة عن دار بنغوين للنشر ورقية الغلاف، أحيانًا لأورويل، وأواني حبوب الدواء القديمة المصنوعة من الخزف الصيني، وفخاريات متصدعة من إنتاج شركة كورنيش، ودواليب خزفيّة. زخرت شقتنا

بمثل تلك الأشياء. أمّا الزهور البلاستيكية التي تتلألأ بندى زائف والتماثيل الكريستالية الصّغيرة فلم تكن لنا. وهناك أشياء كرهتها حقًّا، مثل حذاء أمي الخفيف، وتبيّن لي لاحقًا أنها تجذب نوعًا من الناس كنا نحاول استمالتهم، وتعلّمت عدم التشكيك بطُرُق والدتي، حتى عندما تضعني في مواقف مخزية.

قبل أسبوع من الموعد المزمع لبدء حصص الرقص، سمعتها تتحدث بصوتها الأنيق في المطبخ، لكن عندما أغلقت الهاتف امتلكت جميع الأجوبة: ثمن حذاء الباليه يساوي خمسة جنيهات – إذا ذهبت إلى مركز التسوق بدلًا من الذّهاب إلى البلدة – وحذاء الرّقص النّقري يمكن أن ينتظر إلى حين. يمكن استخدام حذاء الباليه للرقص الحديث. ما هو الحديث؟ لم تسأل. قد تؤدي دور الأم المهتمة لكن ليس دور الأم الجاهلة إطلاقًا.

أُرسل أبي لشراء الحذاء. اتّضح أن للجلد لون زهريّ أفتح بدرجة واحدة ممّا تمنّيت، بدا مثل لون بطن هُريرة، وكان للنعل باطن رماديّ له لون لسان هرّة ملوّث، ولم يكن هناك شرائط زهرية طويلة من السّاتان لتربط بشكل متصالب فوق الكاحلين، لا، فقط رباط بائس صغير من المطاط خاطه أبي بنفسه. شعرت بمرارة كبيرة. لكن ربما كان سليم الذوق مثل الحذاء القماشي الخفيف، مصنوعًا ليبدو «بسيطًا» عمدًا؟ لم يصعب التشبث بهذه الفكرة حتى لحظة دخولي القاعة، عندما طُلب منا تغيير ملابسنا وارتداء ملابس الرّقص قرب كراسٍ بلاستيكية والاصطفاف عند الجدار المقابل، إلى الحاجز. امتلك الجميع تقريبًا حذاءً زهري اللون من السّاتان، ليس الزهريّ الشّاحب، للجلد اللون اللحميّ الذي كنت عالقة في حُبّه، وبعض الفتيات اللواتي عرفت أنهن يتلقين المساعدات أو يتيمات الأب أو كليهما، امتلكن حذاءً

ذا أشرطة طويلة من السّاتان متصالبة حول كاحلَي كلّ واحدة منهن. تريسي التي وقفت قربي وقدمها اليسرى في يد أمها، امتلكت كُلًّا من السّاتان الزهري الدّاكن والمتصالب وأيضًا زي الباليه الكامل من قماش الشّاش الشّفاف الذي لم يخطر لأيّ أحد شراءه، كما لم يخطر لأيّ أحد جلب بدلة غوص إلى أوّل حصة في تعلّم السّباحة. في هذه الأثناء كانت الآنسة ايزابيل عذبة المحيّا وودودة لكنّها لم تعد شابّة، ربما في الخامسة والأربعين من عمرها. وقد سادها لونان، الزّهري والأصفر. خيّب مظهرها آمالي، فقد بدت ببنيتها المتينة أكثر شبهًا بزوجة مزارع من راقصة باليه. لم يكن لون شعرها أشقر بل أصفر مثل لون طائر كناري. بشرتها وردية للغاية، فجّة. أفكّر في الأمر الآن وأظن أنها عانت من مرض الورديّة. كان ثوب الرّقص زهريًّا، بطانة بذلتها الرياضية زهرية، السّترة الخاصّة بالباليه من الموهير والزّهري – غير أن حذاءها حريري وأصفر، له درجة لون شعرها نفسها. شعرت بالمرارة إزاء هذا أيضًا. لم يؤتَ على ذِكر الأصفر قط! كان قربها في الرّكن رجل أبيض البشرة هرمٌ للغاية يعتمر قبعة، جلس يعزف على بيانو أغنية «ليل نهار» التي أحببتها وشعرت بالفخر للتعرف عليها.

حصلت على الأغاني القديمة من أبي الذي كان والده مغنيًا متحمسًا في حانة، نوع من الرّجال الذين تُمثّل إجراميّته التّافهة، جزئيًّا على الأقل، وجود غريزة إبداعية مُحبَطة، أو هذا ما اعتقده أبي. دُعي عازف البيانو بالسّيد بوث. دندنتُ بصوت مسموع معه وهو يعزف على أمل أن يسمعني، مُضفية الكثير من التنويعات على دندنتي. كنت مغنية أفضل مني راقصة – لم أكن راقصة على الإطلاق – على الرغم من أني تباهيت كثيرًا في غنائي، على نحو ألفَته أمّي بغيضًا. أتاني الغناء طبيعيًّا، لكن الأمور التي تأتي على نحو طبيعي للإناث لم تؤثّر في أمي

على الإطلاق. من وجهة نظرها يمكنك أن تفخر بالتنفّس أو السّير أو الإنجاب أيضًا.

ساعدتنا أمهاتنا على التوازن وأسندن أقدامنا. وضعنا يدًا على أكتافهن، وقدمًا على ركبهنّ المحنيّة. كان جسدي بين يدي أمي -رُفع عاليًا وربط، ثُبّت وقُوّم، مُسّ برفق- لكني كنت أفكر بتريسي، وفردتي حذاء الرّقص خاصتها اللتين قرأت عليهما الآن كلمة «فريد» مدموغة بوضوح في الجلد. كانت شريطتاها طائرين طنّانين محلّقين، تنثنيان على نفسيهما. كانت قدماي مربعتين ومسطّحتين، بدتا أنهما تؤديان الوضعيات بصعوبة. شعرتُ كما لو أنني طفل من كُتَل خشبيّة بزوايا قائمة.

قالت إيزابيل: «رفرفي، رفرفي، رفرفي، نعم هذا جميل تريسي».

جعلت الإطراءات تريسي ترمي رأسها إلى الخلف وتفتح أنفها الصّغير كأنف الخنّوص بفظاعة. بمعزل عن ذلك كانت أنموذجًا للكمال، سلبت لُبّي. بدت والدتها مفتونة على حدٍّ سواء، فتكريس نفسها لتلك الصفوف التي ترتادها ابنتها هو السّمة الوحيدة المتساوقة مع ما قد ندعوه الآن «أمومتها». تردّدت إلى الصفّ أكثر من جميع الأمهات، وبينما هي هناك نادرًا ما تشتّتَ انتباهها عن قدمي ابنتها، فيما انصبّ تركيز أمي دومًا على مكان آخر، لم تستطع أبدًا الجلوس في مكان ما لتدع الوقت يمر، بل شعرت أنها يجب أن تتعلّم شيئًا. قد تصل في بداية الصّف وفي يدها، لنقُل، كتاب اليعاقبة السّود، وبحلول وقت اقترابي منها لأطلب تبديل حذاء الباليه بحذاء الرّقص النّقري تكون قد قرأت مئة صفحة. لاحقًا عندما تولّى والدي الأمر، كان إمّا ينام أو «يذهب ليتمشى»، وهو التعبير الأبوي الملطف للتدخين في فناء الكنيسة.

في هذه المرحلة المبكرة لم نكن أنا وتريسي صديقتين ولا

عدوّتين، ولا حتّى على معرفة ببعضنا: لم نتحدث إلا لمامًا. مع ذلك كان هناك دومًا وعي مشترك، رباط غير مرئي انتظم واصلًا بيننا ومانعًا إيانا من الضياع عميقًا جدًا في علاقات مع الآخرين. تقنيًّا، تحدّثت أكثر مع ليلي بينجهام – وهي زميلتي في المدرسة – وبديل تريسي دانيكا بابيك المسنّة الحزينة، بجواربها المفتوقة ولهجتها الغليظة، قطنت في الدهليز نفسه الذي تقطنه تريسي. مع ذلك، تضاحكنا وتمازحنا مع أولئك الفتيات البيضاوات أثناء الحصّة. وعلى الرغم من امتلاكهن الحق في استنتاج أنهن كنّ محطّ تركيزنا، اهتمامنا المركزي – لأننا كنا بالنسبة إليهنّ الصديقتين المقربتين كما اتضح لاحقًا – فإنّه حالما يحين موعد الفرصة وعصير الفاكهة السكواش والبسكويت، نقف أنا وتريسي قرب بعضنا، كلّ مرة، لا شعوريًا، مثل بُرادّتي حديد منجذبتين إلى مغنطيس.

تبيّن أن الفضول الذي اعترى تريسي لتعرف عن عائلتي كان مساويًا لما اعتراني من فضول لأعرف عن عائلتها، وراحت تجادل بقدر من السّلطة أننا امتلكنا الأشياء «بالنحو المعاكس الخاطئ». استمعت إلى نظريتها ذات يوم خلال الفرصة وأنا أغمس قطعة بسكويت بقلق في عصير برتقال.

قالت: «عند الجميع هو الأب» ولأني عرفت أن قولها يكاد يكون دقيقًا لم أجد ما أقوله. وواصلت: «عندما يكون والدك أبيض البشرة هذا يعني...»، لكن في تلك اللحظة جاءت ليلي بينجهام ووقفت قربنا ولم أعلم أبدًا ماذا عنى أن يكون والدك أبيض البشرة. قامة ليلي طويلة، أطول بقدم من الجميع. شعرها أشقر سبط تمامًا، خداها متوردان ولها سجية سعيدة تلقائية، فبدت لكل منا، تريسي وأنا، النتيجة المباشرة للسّكن في 29 اكستر رود، منزل كامل، قد دعيت إليه مؤخرًا. بلهفة أبلغتُ تريسي – التي لم تزره أبدًا – أن له حديقة خاصّة،

وفيه جرّة مربى ضخمة مليئة «بقطع نقدية صغيرة احتياطية» وساعة سواتش كبيرة بحجم رجل معلّقة على جدار غرفة نوم.

إذن هناك أمور لا يمكنك مناقشتها في حضرة ليلي بينجهام، والآن أطبقت تريسي فمها وأقحمت أنفها في الهواء وعبرت الغرفة لتسأل والدتها عن حذاءها الباليه.

ثلاثة

ما الذي نريده من أمهاتنا عندما نكون أطفالًا؟ الامتثال التام.

أوه، القول إن امرأة تملك الحق كاملًا لحياتها، لطموحاتها، لحاجاتها، وهلمّ جرا، هو أمر في منتهى اللطف ومتعقّل ومحترم – إنه ما طالبتُ به أنا لنفسي دومًا – لكن كطفلة، لا، الحقيقة هي أنها حرب استنزاف، لا شأن فيها للعقلانية ولو قليلًا، كل ما تريده من والدتك هو أن تعترف مرة وإلى الأبد أنها أمك وأمك فقط وأن معركتها انتهت مع ما بقي من الحياة. عليها أن تسبل ذراعيها وتأتي إليك. وإن لم تفعل ذلك، إذن إنها حرب حقيقية، وقد اندلعت حرب بيني وبين أمي. فقط عندما بلغت سن الرشد أعجبت بها إعجابًا حقيقيًا – لا سيّما في السّنوات الأخيرة المؤلمة من حياتها – لأجل كل ما فعلته كي تخدش بمخلبها مكانًا لنفسها في هذا العالم.

عندما كنت فتيّة، رفْضها أن تذعن إليّ أربكني وجرحني لا سيّما عندما شعرت أنها لم تستعمل أيًّا من الأسباب المعتادة للرفض. كنت طفلتها الوحيدة وكانت عاطلة عن العمل – في ذلك الحين – وبالكاد تحدثت مع أفراد عائلتها. على حدّ علمي، لم تمتلك شيئًا سوى الوقت. ولكني مع ذلك لم أستطع الحصول على طاعتها التامة! تجلى فهمي المبكر لها في أنها امرأة تخطط للهرب مني، من دور الأمومة ذاته. أسِفتُ على والدي. كان لا يزال شابًا إلى حدٍّ ما، أحبّها، ورغب في إنجاب مزيد من

الأطفال – شجارهما اليومي – لكنها رفضت أن تتزحزح عن رأيها في هذه المسألة وفي كل المسائل. أنجبت والدتها سبعة أطفال وأنجبت جدّتها أحد عشر طفلًا. لم ترغب بالعودة إلى ذلك كله. اعتقدَت أن والدي أراد المزيد من الأطفال رغبة في توريطها، وكانت محقّة في الأساس، على الرغم من أن الفخ في هذه الحالة كان كلمة حب أخرى وحسب. كم أحَبّها! أكثر مما عرفَت أو عُنيت بأن تعرف، لقد عاشت في أرض أحلامها وافترضت أن من يحيطون بها جميعًا لديهم شعور مماثل لشعورها في جميع الأوقات بالضبط. وهكذا عندما بدأت في التفوّق على والدي، أوّلًا بوتيرة بطيئة، ثم بسرعة متزايدة، ثقافيًّا وشخصيًّا على حدٍّ سواء، توقّعت بطبيعة الحال أنه كابد العمليّة نفسها في الوقت نفسه. لكنه ظلّ على سابق عهده. يعتني بي، يحبها، يحاول مجاراتها، يقرأ البيان الشّيوعي بطريقته البطيئة الدؤوبة.

قال لي باعتزاز: «بعض الناس يحملون الإنجيل. هذا إنجيلي».

لقد بدا مؤثرًا – كان يفترض به أن يؤثر في والدتي – لكني لاحظت سلفًا أنه بدا يقرأ دومًا هذا الكتاب وليس سواه، حمله إلى جميع حصص الرّقص، ومع ذلك لم يتجاوز الصّفحات العشرين الأوائل. كانت لفتة رومانسية ضمن سياق الزّواج: التقيا أوّل مرة في اجتماع لحزب العمال الاشتراكي في منطقة دوليس هيل، لكن حتى هذا شكّل نوعًا من سوء الفهم، لأن والدي ذهب للقاء فتيات يساريات جميلات يرتدين تنانير قصيرة، لا ديّنيات، بينما ذهبت أمي من أجل «كارل ماركس» حقًّا. حدثت طفولتي في الفجوة المتّسعة تلك. شاهدتُ أمي التي علّمت نفسها بنفسها تتخطّى والدي بسهولة وبسرعة.

ازدحمت الرفوف التي ثبّتها في ردهتنا بكتب مستعملة، مقررات الجامعة المفتوحة، كتب سياسية، كتب تاريخية، كتب عن العِرق،

كتب عن الجندر، «كل المذاهب الأيديولوجية»، كما أحب والدي أن يدعوها كلما صدف أن زارنا جار ووقع بصره على التراكم الغريب. كان السّبت يوم «عطلتها»، عطلتها من ماذا؟ منّا، احتاجت أن تقرأ عن أيديولوجياتها. بعد أن صحبني والدي من حصّة الرّقص توجب علينا أن نواصل المضي بوجه من الوجوه، نجد ما نفعله لنبقى خارج الشّقة حتى موعد العشاء. أصبح طقسًا لنا أن نستقل سلسلة من الحافلات المتجهة جنوبًا، جنوب النّهر إلى بيت خالي لامبرت شقيق والدتي وصديق والدي الحميم. شقيق والدتي البكر هو الشّخص الوحيد الذي رأيته من بين أفراد عائلتها جميعًا. لقد ربّى والدتي وبقية إخوتها وأخواتها في الجزيرة عندما غادرت والدتهم إلى إنكلترا للعمل في التنظيف في دار للعجزة. عرف ما كان والدي يتعاطى معه.

سمعتُ والدي يشتكي ذات يوم فيما قيظ الصّيف في أشدّه: «أتقدّم خطوة منها وهي تتراجع خطوة!»

«هذا لا يؤثر فيها. لطالما كان هذا حالها».

كنت في البستان بين غراس الطماطم. قطعة أرض مخصصة للزراعة حقًا، لم يكن هناك شيء تزييني أو قُصد منه إثارة الإعجاب، كل شيء سيؤكل وسوف ينمو طُوليًا في خطوط مستقيمة مربوطة إلى عِصيّ البامبو. عند نهاية هذا كله يوجد مرحاض خارجي، آخر مرحاض من نوعه رأيته في إنكلترا. جلس كل من الخال لامبرت ووالدي على كرسيين قابلين للطي إلى جانب باب المرحاض الخلفي يدخنان الماريوانا، كانا صديقين قديمين، لامبرت هو الشّخص الوحيد الآخر في صورة زفاف والدي – وقد عملا عملًا مشتركًا: عمل لامبرت ساعي بريد فيما والدي هو مدير مكتب توزيع الرسائل في شركة رويال ميل. تقاسما حسّ دعابة مملّ ونقصًا متبادلًا في الطموح، استهجنته أمي في كلا الحالتين. وفيما

هما يدخنان ويتفجعان على الأشياء التي لا يمكن فعلها مع والدتي، مرّرْت ذراعي عبر عرائش الطماطم سامحة لها أن تنطوي حول رسغي. بدت لي معظم نباتات لامبِرت متوعّدة، ساوى طولها ضعف طول قامتي، وكل ما زرعه نما بوحشية: أجمة من العرائش وعشب طويل ويقطين من الفصيلة القرعية منتفخ على نحو فاحش. التراب من أفضل الأنواع في جنوب لندن – لدينا في شمال لندن أيضًا مزيدًا من الطين – لكن في ذلك الوقت لم أعرف عن ذلك وكانت أفكاري مشوّشة: عندما زرت لامبِرت اعتقدت أنني كنت أزور جامايكا، كان بستان لامبرت هو جامايكا بالنسبة إليّ، فاحت منه رائحة مثل جامايكا، وتناولتُ فيه مثلجات بنكهة جوز الهند. أتذكر حتى الآن الجو حار دومًا في بستان لامبرت وأنا عطشى وخائفة من الحشرات.

كان البستان طويلًا ورفيعًا ويتجه جنوبًا، جاور المرحاض الخارجي السّياج الأيمن، لذا أمكنَ رؤية غروب الشّمس من خلفه، وتموّج الهواء أثناء مضيها. شعرت برغبة شديدة في الذهاب إلى المرحاض لكنّي قررت كبح هذه الرغبة حتى عودتنا إلى شمال لندن – خفت من ذلك المرحاض الخارجي. كانت الأرض خشبية وثمّة أشياء نمت بين الألواح: أنصال عشب؛ وأشواك؛ وساعات الهندباء البرية التي تُتْرِب ركبتك فيما تنتقل نحو المقعد. شباك العناكب بين الزوايا اشتبك بعضها ببعض. كانت حديقة من وفرة وفساد: الطماطم شديدة النضج، والماريوانا قوية للغاية، كان قمل الغابات يختبئ تحت كل شيء. عاش لامبرت وحيدًا هناك وبدا لي مثل مكان محتضر. حتى في ذلك العمر وجدت الأمر غريبًا أن على والدي قطع ثمانية أميال إلى بيت لامبرت ليرتاح في حين بدا لامبرت يعاني نوعًا من الهجر خَشِيَهُ والدي للغاية. مرهقة من السّير عبر صفوف الخضراوات، تجولت عائدة عبر

البستان، وشاهدت الرجلان يخفيان لفافتيهما برداءة في قبضتيهما.

سأل لامبرت: «تشعرين بالملل؟»

اعترفت بأني كذلك.

قال لامبرت: «سابقًا امتلأ هذا المنزل بالأطفال، لكن أطفالهم لديهم أطفال الآن».

الصّورة التي كانت في ذهني عن أطفال في مثل عمري يحملون رُضّعًا بين أيديهم: قَدَرٌ ربطته بجنوب لندن. عرفت أن أمي غادرت البيت لتهرب من كل ذلك كي لا تصبح أبدًا ابنة لها طفلة مع طفلة، لأن أيّ ابنة من بناتها كانت ستفعل أكثر من مجرّد البقاء على قيد الحياة - كما فعلت أمي - سوف تنجح، تتعلم الكثير من المهارات غير الضّرورية مثل الرّقص النّقري. مدّ والدي يده نحوي وزحفت على حجره، مغطية بقعته الصلعاء المتعاظمة بيدي وأتحسس خصل الشّعر الرطبة الخفيفة التي سرحها عبرها.

«هي خجولة، ايه؟ هل تخجلين من خالك لامبرت؟»

احتقنت عينا لامبرت بالدماء ونمشه كان مثل نمشي لكنّه بارز، كان وجهه ممتلئًا وعذبًا، مع عينين بنيتين فاتحتين أكدتا ظاهريًا وجود نسب صيني في شجرة العائلة. لكني شعرت بالخجل منه. أصرت أمي بقوّة - التي لم تزر لامبرت يومًا سوى في عيد الميلاد - على أن نفعل ذلك أنا ووالدي، رغم أنها اشترطت علينا دومًا توخي الحذر وألّا نسمح لأنفسنا أبدًا أن «ننجرّ». إلى ماذا؟ لففت نفسي حول جسد والدي إلى أن صرت خلفه وتمكّنت من رؤية بقعة الشّعر الصغيرة التي أبقاها طويلة عند مؤخرة عنقه، أصرّ على الاحتفاظ بها. ولو أنه كان في ثلاثينياته فإنني لم أرَ والدي يومًا برأس كامل الشّعر، لم أعرفه أبدًا أشقر ولن أعرفه أبدًا أشيب الشّعر. عرفت هذا اللون البندقي الزائف، الذي يصبغ أصابعك

إذا ما لمسته والذي سبق أن رأيته في مصدره الحقيقي، علبة مدوّرة من الصّفيح ضحلة العمق تُركت مفتوحة على حافّة حوض الاستحمام، اصطبغت حافتها بلون بنّي زيتيّ القوام تآكل إلى رقعة جرداء في الوسط، تمامًا مثل والدي.

عبّر بقلق: «هي بحاجة إلى رفقة، الكتاب لا يفيد، هل يفعل؟ الفيلم ليس جيدًا. أنت بحاجة إلى شيء حقيقي».

«لا يمكنك أن تفعل شيئًا مع تلك المرأة. عرفت ذلك منذ صغرها. صلبة الإرادة».

ذلك صحيح. لا شيء يمكن فعله معها. عندما وصلنا إلى البيت كانت تشاهد محاضرة من «الجامعة المفتوحة»، في يدها مسند للكتابة وقلم رصاص، تبدو جميلة وساكنة، متكوّرة على الأريكة وقدماها الحافيتان تحت عجيزتها، لكن عندما التفتت استطعتُ رؤية انزعاجها، عُدنا مبكّرَين أكثر من اللازم، أرادت مزيدًا من الوقت والهدوء، من السّلام، ليمكنها أن تدرس. كنّا المخربَين الهمجيّين في المعبد. لم نعرف السّبب خلف رغبتها في دراسة علم الاجتماع والسياسة.

أربعة

قال الراقص جين كيلي: «إذا مثّل فرِد آستر الطّبقة الأرستقراطية، فقد مثّلتُ طبقة البروليتاريا»، وبهذا المنطق يجب أن يكون بيل بوجانغلز روبينسن راقصي حقًا، لأن بوجانغلز رقصَ لمتأنّقي هارلم، لأولاد الغيتو، من أجل المؤاكرين - من أجل أحفاد العبيد جميعًا. لكن بالنسبة لي كان الرّاقص رجلًا من اللامكان، دون أهل أو أشقّاء، دون أمّة أو شعب، دون التزامات من أي نوع، وأحببت هذه النوعية بالضّبط. الباقي، جميع التفاصيل، أسقطتها. تجاهلت حبكات تلك الأفلام السّخيفة: الإقبال والإدبار كما يحدث في الأوبرا، انعكاسات الحظ، الآثمين يلتقون في مصادفات ظريفة، الشّعراء الجوالين، الخادمات ورؤساء الخدم. بالنسبة لي كانت سُبُلًا تقود إلى الرّقص. القصّة هي الثّمن الذي تدفعه مقابل الحصول على الإيقاع. «المعذرة يا فتى، هل تلك التشاتنوجا تشو[6]؟» وجد كلّ مقطع لفظيّ حركته المطابقة في السّاقين والبطن والمؤخّرة والقدمين. في مقابل ذلك، في ساعة الباليه، رقصنا على تسجيلات كلاسيكية - سجلتها الآنسة إيزابيل من الراديو على سلسلة من أشرطة الكاسيت - دعتها

6) Chattanooga Choo Choo: هي أغنية من العام 1941 ألفها ماك غوردون ولحّنها هاري وارن. كانت في الأصل لحن سوينغ سجّله جلين ميلر وفرقته الموسيقية، وظهرت في فيلم Sun Valley Serenade عام 1941. إنها أول أغنية على الإطلاق تحصل على جائزة الأسطوانة الذهبية التي قدمها RCA Victor في عام 1942 لبيعها 1.2 مليون نسخة.

تريسي صراحة «موسيقى بيضاء». لكن بالكاد استطعت التعرف عليها كموسيقى، لم أستطع سماع ميزان موسيقيّ فيها، وبرغم أن الآنسة إيزابيل حاولت مساعدتنا وهي تهتف بعدد ضربات كل فاصل موسيقي، فإنني لم أتمكّن أبدًا بأيّ طريقة من ربط هذه الأعداد مع بحر اللحن الذي غمرني من الكمنجات أو الطّرق المدمّر لآلات النفخ النحاسية. ومع ذلك عرفت أكثر من تريسي: عرفت بوجود أمر غير صائب تمامًا في مفاهيمها المترمّتة – موسيقى سوداء، موسيقى بيضاء – أنه لابد من وجود عالم في مكان ما اتّحدت فيه الاثنتان. رأيت في الأفلام والصّور الفوتوغرافية رجالًا بيض البشرة يجلسون إلى البيانو بينما وقفت فتيات سود البشرة إلى جانبهم يغنين. أوه، أردت أن أكون مثل أولئك الفتيات! السّاعة الحادية عشرة والربع، بعد الباليه تمامًا، وسط استراحتنا الأولى، دخل السّيد بوث القاعة حاملًا حقيبة كبيرة سوداء من النّوع الذي اعتاد أطباء الريف حمله في السّابق، وفي هذه الحقيبة احتفظَ بالنوتة الموسيقية للحصّة. عندما كنت حرّة – أقصد عندما تمكّنت من الإفلات من تريسي – أسرعت نحوه أتبعه وهو يقترب من البيانو على مهل، ثم اتّخذت لنفسي موضعًا مثل الفتيات اللاتي رأيتهن على الشّاشة، وطلبت منه عزف مقطوعة «All of me» أو «الخريف في نيويورك» أو «الشّارع الثاني والأربعون». في درس الرّقص النّقري كان عليه أن يعزف ويعيد عزف الأغاني السّت نفسها مرارًا وتكرارًا وتوجب عليّ أن أرقص عليها، لكن قبل الحصّة – بينما انشغل بقيّة النّاس في القاعة بالحديث والطّعام والشّراب – حظينا بهذا الوقت لأنفسنا، وجعلته يعزف لحنًا بمرافقتي، أغني دون مستوى صوت البيانو إذا ما شعرت بالخجل، وأعلى قليلًا إذا لم أفعل.

عندما غنيت، راح الآباء الذين يدخنون خارج القاعة تحت

أشجار الكرز يدخلون ويستمعون إليّ أحيانًا، والفتيات اللواتي انشغلن بالاستعداد لرقصاتهن – يرتدين أثواب الرّقص ويعقدن الشّرائط – يتوقفن عن هذه الحركات ويلتفتن لمشاهدتي. أصبحت أعي أن صوتي – طالما لم أتعمّد الغناء دون مستوى صوت البيانو – امتلكَ شيئًا فاتنًا يحثّ الناس على الدّخول. هذه لم تكن موهبة تقنية: كان مدى صوتي صغيرًا جدًا. تعلّق الأمر بالعاطفة. استطعت التعبير عن مشاعري على اختلافها بوضوح شديد، تمكّنتُ من «إيصالها». جعلت الأغاني الحزينة أكثر حزنًا والأغاني السّعيدة مبهجة. تعلّمت عندما حان موعد «امتحاننا العمليّ» استعمال صوتي كشكل من أشكال التضليل، بالطريقة نفسها التي يجعلك بعض السّحرة من خلالها تنظر إلى أفواههم عندما ينبغي عليك النظر إلى أيديهم. لكني لم أتمكّن من خداع تريسي. رأيتها عندما نزلت عن المنصّة واقفة في جوانب المسرح بذراعين متصالبتين على صدرها فيما أنفها في الهواء. لم تكن يومًا قانعة مع أنها بزّت دومًا الجميع، فلوْح الفلّين في مطبخ أمها مثقل بالميداليات الذهبية، أرادت الحصول على الميدالية الذهبية في «فئتي» أيضًا – الغناء والرّقص – ولو أنها بالكاد تستطيع غناء نغمة واحدة. كان أمرًا متعذّرًا على الفهم.

شعرت أنني لو استطعت الرّقص مثل تريسي فلن أرغب أبدًا في أي شيء آخر من هذا العالم. فتيات أخريات امتلكن الإيقاع في أطرافهن، بعضهن امتلكنه في أوراكهن أو في مؤخراتهن الصّغيرة، لكنها امتلكت الإيقاع في أربطة عضلاتها، ربما في خلاياها. كل حركة من حركاتها كانت حادة ودقيقة كما يمكن لأي طفل أن يأمل في أدائها، استطاع جسدها أن يميل مع أي ميزان موسيقيّ مهما بلغت درجة تعقيده. ربما يمكنك القول إنها كانت مفرطة في الدّقة أحيانًا، ليست مبدعة على وجه الخصوص، أو خلوًّا من الروح. لكن ما كان لشخص

عاقل أن يختلف حول تقنيتها. كنت – وما زلت – أتهيّب تقنية تريسي.
عرفَت التوقيت المناسب لفعل أيّ شيء.

✧ خمسة ✧

ذات يوم أحد، أواخر فصل الصّيف. كنت على الشّرفة أراقب عددًا من فتيات طابقنا يقفزن على الحبل المزدوج قرب حاويات القمامة. سمعت أمي تناديني. ألقيت نظرة ورأيتها تدخل المبنى يدًا بيد مع الآنسة إيزابيل. لوّحْت ورفعت بصرها، ابتسمت وهتفت: «ابقي حيث أنت!» لم أرَ أمي مطلقًا مع الآنسة إيزابيل خارج الصّف وعرفت حتى من نقطة النظر هذه أن الآنسة إيزابيل كانت مدفوعة نحو شيء ما. أردت الذهاب للتشاور مع والدي الذي كان يطلي جدارًا في غرفة الجلوس، لكني عرفت أمي، فاتنة للغاية مع الغرباء وسريعة الغضب مع الأقربين، وأن ذلك الأمر «ابقي حيث أنت!» عنت بالضبط ذلك.

شاهدت هذا الثنائي المستغرب يجتاز العقار ويدخل بيت الدّرج، تنعكس صورته على الحواجز الزجاجية مثل نثار من ألوان الأصفر والزهري والبني الماهوغاني. في هذه الأثناء بدّلت الفتيات قرب الحاويات اتجاه حبل القفز، وهرعت من بينهن قافزةٌ جديدةٌ بشجاعة في الحلقة المتأرجحة الضّارية وبدأت أنشودة جديدة، تلك الأنشودة التي تتحدث عن قرد اختنَق.

أخيرًا لاقتني أمي، تتفحصني – تعلو وجهها نظرة حييّة – قالت بادئ ذي بدء: «اخلعي حذاءك».

تمتمت الآنسة إيزابيل: «أوه، لسنا بحاجة لفعل ذلك الآن»،

لكن أمي قالت: «أن نعرف الآن أفضل من لاحقًا» واختفت في الشّقة وعاودت الظهور بعد هنيهة تحمل كيسًا كبيرًا من الدقيق ذاتيّ الاختمار، بدأت ترشه في جميع أنحاء الشّرفة حتى تشكلت سجادة رقيقة بيضاء مثل بداية تساقط الثلج. توجب عليّ السير عبر هذا حافية القدمين. فكّرتُ في تريسي. تساءلت ما إذا زارت الآنسة إيزابيل منزل كل فتاة من فصل الرقص. يا له من هدر رهيب للطحين! جثمت الآنسة إيزابيل لتشاهد. استندت أمي على الشّرفة ومرفقاها يرتكزان عليها تدخّن سيجارة. كانت منحرفة عن الشّرفة والسيجارة مائلة في فمها، ترتدي قبعة بيريه، كما لو أن ارتداء البيريه هو أكثر الأمور طبيعية في العالم. كانت مرتكزة بانحراف بالنسبة لي، انحراف ساخر. وصلت الطرف الآخر للشرفة ونظرت خلفي إلى آثار قدمي.

قالت الآنسة إيزابيل: «آه، حسنًا ها أنت هناك»، لكن أين كنّا؟ في أرض الأقدام المسحاء. خلعت معلّمتي إحدى فردتي حذاءها وضغطت قدمها للمقارنة: في بصمتها رأيت الأصابع فقط، في بصمتي باطن القدم والكعب، المحيط المسطح الكامل لخطوة إنسان. اهتمت أمي للغاية بهذه النتيجة، لكن الآنسة إيزابيل قالت أمرًا لطيفًا وهي ترى وجهي: «تحتاج راقصة البالية إلى قوس، نعم، لكن يمكنك ممارسة الرّقص النّقري بقدم مسطحة، كما تعلمين، بالتّأكيد يمكنك». لم أظن أن هذا صحيحًا، لكنه كان لطيفًا وتشبّثت به وثابرت على حضور الصّف، وهكذا واصلت إنفاق الوقت مع تريسي، خطر لي لاحقًا أن هذا هو بالضّبط الأمر الذي كانت تحاول أمي إيقافه.

لقد استنبطت ذلك لأني وتريسي ارتدنا مدرستين مختلفتين، في حيين مختلفين، فقط صف الرّقص جمعنا معًا، لكن عندما حلّ فصل الصّيف وتوقّف صف الرّقص، لم يحدث فرقًا بأيّ حال، أصبحنا

أقرب إلى أن وجدنا أنفسنا بحلول شهر آب معًا يوميًّا تقريبًا. من شرفتي استطعت رؤية المبنى الذي تسكنه والعكس بالعكس، كنا في غنى عن إجراء اتصالات هاتفية أو ترتيبات رسمية، وعلى الرغم من أن أمهاتنا بالكاد أومأت واحدتهما إلى الأخرى في الشّارع، فقد أصبح أمرًا طبيعيًا دخولنا وخروجنا من مبنى واحدتنا إلى الأخرى.

✧ ستة ✧

كان لتواجدنا في شقة كل واحدة منا صيغة مختلفة. في شقة تريسي لعبنا وجرّبنا ألعابًا جديدة، بدا أنه يوجد منها مخزون لا ينضب. « دليل آرجوس» الذي سُمح لي بالاختيار من صفحاته ثلاث مواد رخيصة الثّمن في عيد الميلاد وغرضًا واحدًا بمناسبة عيد ميلادي، كان عند تريسي كتابًا مقدّسًا يوميًّا قرأته بورع وهي تدوّر خياراتها، بينما تكون في صحبتي غالبًا مع قلمي الصغير الأحمر الذي احتفظَت به لهذا الغرض. كانت غرفة نومها كشفًا. لقد قلبت رأسًا على عقب كل ما اعتقدت أني قد فهمته حول ظرفنا المشترك. لسريرها هيئة سيارة دمية باربي الرياضية زهرية اللون، ستائرها مكشكشة، جميع خزائنها بيضاء اللون ولماعة، وبدا كما لو أن أحدهم أفرغ مزلجة «سانتا» المليئة بالهدايا على السّجادة وسط الغرفة. توجب عليك أن تخوض عبر الألعاب. شكّلت بعض الألعاب المحطّمة الصّخرة التي تعلوها كل موجة جديدة من المشتريات في طبقات متطابقة تقريبًا مع إعلانات الألعاب التي تعرض على شاشة التّلفاز وقتئذ. كان صيف «الدّمية المتبوّلة». تغذيها بالماء وهي تبول في كل مكان. امتلكت تريسي عدّة نسخ من هذه التقنية المدهشة، استطاعت استخلاص جميع أنواع الحكايات المؤثّرة منها. راحت أحيانًا تضرب الدمية كي تتبول. أحيانًا تضعها خجلة وعارية في الركن، ساقاها البلاستيكيتان مطويتين بزاويتين قائمتين على مؤخرتها

الصّغيرة المثقوبة. لعبنا معًا دور والدَي طفلة مصابة بسلس البول، وفي الحوار الذي منحتني إياه تريسي كي أردّده سمعتُ أحيانًا أصداء غريبة محبطة من حياتها المنزلية أو من المسلسلات الكثيرة التي شاهدتها، لم يسعني التأكد.

«إنّه دورك، قولي: أيتها الخبيثة – حتى أنها ليست ابنتي! هل هو خطئي إذا تبوّلت على نفسها؟ هيا، دورك!»

«أيتها الخبيثة – حتى أنها ليست طفلتي! هل هو خطئي إذا كانت تتبول؟»

«اسمعي، يا رفيقة، خذيها! خذيها ولنرَ ماذا ستفعلين! قولي الآن: حظ سعيد، يا حبيبتي!»

ذات يوم سبت، ذكرتُ وجود الدمى المتبولة لأمي بخوف بالغ وحرصت على القول «تبول» بدلًا من «تشخ». كانت تدرس. رفعت بصرها عن كتبها بمزيج من القرف والتكذيب.

«تريسي تملك واحدة؟»

«لدى تريسي أربع دمى».

«تعالي إلى هنا دقيقة».

فتحت ذراعيها فتحسستُ بوجهي بشرة صدرها، مشدودة ودافئة، مفعمة بالحيوية تمامًا، كما لو أن امرأة أخرى شابّة وجميلة داخل أمي تتوق للخروج. كانت تطيل شعرها، «صفّفته» مؤخرًا، مجدولًا على شكل محارة مُثيرة في مؤخرة رأسها مثل منحوتة.

«هل تعلمين ما الذي أقرأ عنه الآن؟»

«لا».

«أقرأ عن السّانكوفا. هل تعلمين ما يكون ذلك؟»

«لا».

«إنه طائر يلتفت إلى الوراء ناظرًا إلى نفسه، هكذا»، وأدارت رأسها الجميل إلى أقصى حد ممكن. «من أفريقيا. إنه ينظر إلى الوراء، إلى الماضي، ويتعلّم مما حدث في السّابق. بعض الناس لا يتعلمون قط».

كان والدي يطهو في المطبخ الصّغير المُدمج بصمت، هو رئيس الطّهاة في بيتنا، وهذه المحادثة وُجّهت إليه في الواقع، هو الذي كان معنيًّا بسماعها. أخذا يتجادلان كثيرًا جدًّا حتى أنني كنت غالبًا المجرى الوحيد الذي يُمكن للمعلومات أن تمر عبره، أحيانًا على نحو مسيء – «اشرحي لأمك» أو «يمكنك أن تخبري والدك نيابة عني» – وأحيانًا هكذا، بتهكّم رقيق يكاد يكون جميلًا. تأوّهت. لم أرَ الارتباط بالدّمى البائلة. عرفت أن أمي تعمل كي تصبح أو تحاول أن تصبح مثقّفة، لأن والدي غالبًا ما ألقى بهذا المصطلح أثناء مجادلاتهما بقصد الإهانة. لكني لم أفهم حقًّا ماذا عنى هذا، سوى أن المثقّف هو من يدرس في الجامعة المفتوحة، يحبّ ارتداء البيريه، ويستعمل عبارة «ملاك التّاريخ[7]» كثيرًا، ويتنهّد عندما يرغب بقية أفراد أسرته بمشاهدة التّلفاز ليلة السّبت، ويتوقّف ليتجادل مع التروتسكيين عند محطة قطار كيلبورن هاي رود في حين يعبر الجميع الطريق لتفاديهم. لكن بالنسبة لي هذه المراوغة الجديدة المحيّرة في حديثها هي النتيجة الأساسية لتحولها. بدت دومًا تسرد نكاتًا للكبار تفوق قدرتي على الفهم لترفّه عن نفسها أو لتزعج والدي.

شرحت أمي: «عندما تكونين بصحبة تلك الفتاة، فهو أمر لطيف أن تشاركيها اللعب، لكنها تربّت بطريقة معينة والحاضر هو

7) لوحة صغيرة للرسام السويسري بول كلي (Paul Klee) بعنوان الملاك الجديد (Angelus Novu)، اشتهرت أيضًا باسم ملاك التاريخ، رسمها عام 1920 . اشترى الفيلسوف الألماني فالتر بنيامين Walter Benjamin هذه اللوحة في العام نفسه، وعلّقها في مكتبه. تمثّلت قراءة بنيامين للوحة في أنه رأى ملاكًا يتأمل تاريخًا حافلًا بالحروب والدمار، وبذلك فإن ملاك التاريخ هذا يعبّر عن ذاكرة لماضي البشرية الحزين وقلق على مستقبلها الغامض في الوقت نفسه. عندما كتب بنيامين أطروحاته الشهيرة حول مفهوم التاريخ، كانت هذه اللوحة الصغيرة هي مصدر إلهامه في العديد منها.

كلّ ما تملك، لقد نشأتِ بطريقة أخرى، لا تنسي ذلك. صفّ الرّقص السّخيف ذاك هو عالمها كله. هو ليس خطؤها، هذا ما تربّت عليه. لكنك ذكية. حتى لو أن قدميك مسحاوتان، لا يهم لأنك ذكية وتعلمين من أين أتيت وإلى أين أنت ذاهبة».

أومأت. استطعت سماع والدي يخبط الطناجر معبرًا.

«سوف لن تنسي ما قلته للتو؟»

وعدت بأني لن أنسى.

لم يكن يوجد دمى في شقتنا على الإطلاق وبالتالي اضطرّت تريسي عند مجيئها لاتّباع عادات مختلفة. هنا كتبنا ببعض الاهتياج في سلسلة من كراريس مسطرة وصفراء قياس صفحاتها A4 جلبها والدي من العمل. كان مشروعًا تعاونيًا. فضّلت تريسي الإملاء بسبب ما تعانيه من عسر القراءة مع ذلك لم نعرف أن ندعوه كذلك في ذلك الوقت بينما كافحت لمجاراتها. دارت جميع قصصنا تقريبًا حول راقصة باليه رئيسة أنيقة قاسية من شارع أكسفورد تكسر ساقها في اللحظة الأخيرة مما يسمح لبطلتنا المقدامة، وهي غالبًا خياطة ملابس للمسرح وضيعة، أو منظفة مراحيض مسرح متواضعة، بالتدخل وإنقاذ اليوم. لاحظت أن تلك الفتيات الشّجاعات كنّ دومًا شقراوات، لهن شعر «مثل الحرير» وعينان زرقاوان واسعتان. حاولت مرة كتابة «عينين بنيتين» فأخذت تريسي القلم من يدي وشطبتها.

على أرضية غرفتي كتبنا وكل واحدة منا مستلقية على بطنها وإذا حدث أن مرت أمي بنا ورأتنا على هذه الحال، كانت اللحظة الوحيدة التي نظرت فيها إلى تريسي بشيء من الولع على الإطلاق. انتهزتُ هذه اللحظات لأحظى بتنازلات إضافية لصديقتي – هل يمكن لتريسي أن تبقى لشرب الشّاي؟ هل يمكن أن تمضي تريسي ليلتها هنا؟

- مع ذلك عرفتُ أن أمي إذا ما توقّفت لتقرأ ما كتبناه في تلك الكراريس الصّفراء فسوف لن تسمح لتريسي بدخول الشّقة ثانية. في عدّة قصص «تربّص رجال أفارقة في الظّلال» يحملون قضبانًا حديدية لتكسير ركب راقصات ناصعات البياض، في واحدة من القصص امتلكت البطلة سرًا رهيبًا: كانت «مولّدة»، كلمة ارتعدتُ وأنا أدوّنها، لأنني عرفتُ عن تجربة كم أغضبَت والدتي.

لكن إذا ما شعرت بانزعاج من هذه التفاصيل فإنه شعور ضئيل لا يقارن بمتعة تعاوننا. كنت مأخوذة بالكامل بقصص تريسي، مسلوبة اللب بالتّسويف الدائم لمتعة السرد الذي كان شيئًا ربما حصلَت عليه من المسلسلات الطويلة أو مستمدًّا من الدّروس القاسية التي كانت حياتها تلقّنها إياها. لأنه تمامًا كلما اعتقدت أن النهاية السّعيدة قد أزفت وجدت تريسي طريقة جديدة ورائعة لتخريبها أو تحويلها عن سبيلها، وبذلك لم تبد لحظة الاكتمال قادمة أبدًا، وأظن أنها عنت لكل منا جمهورًا يهتف واقفًا. أتمنى لو أنني امتلكت تلك المفكرات الآن. من بين جميع آلاف الكلمات التي كتبناها عن راقصات الباليه اللواتي يتعرضن إلى خطر جسدي متعدد الصور، رافقتني عبارة واحدة فقط: «قفزت تيفاني عاليًا لتقبّل أميرها ومدّت أصابع قدميها، أوه، بدت مثيرة للغاية، لكن عندها اخترقت الرصاصة فخذها».

⟡ سبعة ⟡

في فصل الخريف التحقت تريسي بمدرستها الخاصّة بالبنات، في نيزدن، حيث جميع الفتيات تقريبًا كن هنديات أو باكستانيات وهمجيات: اعتدتُ رؤية الأكبر سنًا منهن عند موقف الحافلة، البزة الرسمية معدّلة – قميص غير مزرر، تنورة مرفوعة إلى الأعلى – تصرخن بالبذاءات على الفتيان البيض أثناء مرورهم. مدرسة صارمة فيها كثير من الشّجار. مدرستي في ويلزدن كانت أكثر تساهلًا وتمازجًا: نصف سود، ربع بيض، ربع جنوب آسيويين. الثلث على الأقل من النّصف الأسود «مولّدين»، أقلية ضمن أمة، ولو أن ملاحظتي لهم أزعجتني في الحقيقة.

رغبت أن أصدّق أن تريسي وأنا أختان ومتشابهتان في الميول والأفكار، وحدنا في العالم وبحاجة خاصّة لبعضنا، لكن في ذلك الوقت لم أستطع تفادي رؤية جميع أنواع الأطفال أمام ناظري، الذين أمضت أمي فصل الصّيف تحاول تشجيعي للاقتراب منهم، فتيات من خلفيات متشابهة، لكن دعتها أمي آفاقًا رحيبة. فتاة تدعى تاشا، نصف غوايانية، نصف تاميلية، انتمى والدها إلى «نمور التاميل»، ما أثار إعجاب أمي بقوّة، وبالتالي دعّم فيّ رغبة ألا تكون لي علاقة بتاتًا بالفتاة. فتاة بارزة الأسنان تدعى ايري، دومًا متفوقة في الصّف، كان والداها على نفس منوال أهلنا تمامًا، لكنها انتقلت من المبنى وأقامت في ذلك الوقت في «ويلزدن جرين» في بيت صغير فاخر. فتاة تدعى آنوشكا ووالدها من سانت لوسيا وأمها روسية، عمها حسبما قالت أمي: «أهم شاعر ثوري

في الكاريبي»، لكن كل كلمة تقريبًا من ذلك المديح استعصى فهمها علي. لم أكن أفكر بالمدرسة، أو بأي شخص من الأشخاص هناك. في الملعب أقحمت دبابيس الرسم في نعلي حذائي، وأحيانًا أمضيت نصف السّاعة كاملة من وقت اللعب أرقص بمفردي، قانعة بلا أصدقاء.

وعندما وصلنا إلى البيت قبل أمي، وبالتالي خارج نطاق سلطتها، رميت حقيبتي، وتركت أبي يعدّ العشاء وتوجّهت مباشرة إلى منزل تريسي، لنحظى بوقتنا – نخرج معًا إلى شرفتها، متبوعتين بطبق حلوى آنجل ديلايت لكل واحدة منا، وهو لم يكن طعامًا في نظر أمي، لكن في رأيي لا يزال لذيذًا. عند عودتي إلى البيت قد أجد مشاجرة منطلقة بكل زخمها كفّ طرفاها عن اللقاء. قد يكون أبي مهتمًا بمسألة منزلية تافهة: من كنس كهربائيًا، ماذا ومتى، من ذهب، أو عليه الذّهاب إلى المغسلة الآلية. في حين سوف تنحرف أمي، ردًا عليه، نحو مواضيع مختلفة تمامًا: أهمية امتلاك وعي ثوري، أو التفاهة النسبية للحب الجنسي بالمقارنة مع كفاح الناس، أو ميراث العبودية في قلوب وعقول الشّباب، وهلمّ جرا. أنهت في هذه الأيام المستوى أ، والتحقت بجامعة ميدلسكس للعلوم التطبيقية في هندون، ولم نستطع مجاراتها أكثر مما فعلنا سابقًا، كنّا لها خيبة أمل، توجّب عليها شرح مفرداتها باستمرار.

في منزل تريسي، الأصوات المرتفعة الوحيدة انبعثت من جهاز التّلفاز. عرفت أنه يجدر بي أن أشفق على تريسي لحرمانها من الأب – هذا البلاء يسِم كثيرًا من العائلات في دهليزنا – وأن أكون ممتنة لأني مُنحت والدين متزوجين، لكن كلّما جلست على أريكتها الجلدية البيضاء الضّخمة أتناول طبق حلوى آنجل ديلايت، وبسلام أشاهد فيلم موكب عيد الفصح أو الحذاء الأحمر – لم تطق والدة تريسي إلا الأفلام الموسيقية الملوّنة – لم أستطع تجاهل وداعة عائلة صغيرة جميع

أفرادها من الإناث. في بيت تريسي، شكّلت خيبة الأمل في الرّجل تاريخًا عريقًا: لم يأملوا منه شيئًا أبدًا لأنه لم يتواجد في البيت على الإطلاق. لم يتفاجأ أحد بفشل والد تريسي في تحريض الثورة أو فعل أي شيء آخر. مع ذلك أخلصت تريسي لوالدها وكانت وفيّة لذكراه، ومن المرجح أنها تدافع عنه في غيابه أكثر بكثير مما كنت لأتحدث بلطف عن والدي الذي يهبني الاهتمام كلّه. كلّما انتقدَته والدتها حرصت تريسي على أن تصحبني إلى غرفتها أو إلى بقعة معزولة أخرى لتدمج بسرعة ما قالته والدتها للتوّ في قصتها الرسمية التي تجلّت في أن والدها لم يهجرها، لا على الإطلاق، هو فقط شديد الانشغال لأنه أحد راقصي مايكل جاكسن المساعدين. قلّة من الناس استطاعوا مجاراة مايكل جاكسن عندما رقص – في الحقيقة، لم يتمكّن أحد من ذلك غالبًا، ربما وجد فقط عشرون راقصًا في جميع أنحاء العالم استطاعوا ذلك. كان والد تريسي أحدهم. لم يتوجّب عليه حتى إنهاء اختبار الدّخول – كان كفئًا إلى درجة أنهم عرفوا في الحال. هذا هو السّبب الذي جعل تواجده في البيت نادرًا: كان في جولة عالمية دائمة. ربما المرّة التالية التي كان مزمعًا أن يأتي فيها إلى البلدة ستحين في عيد الميلاد القادم عندما يغني مايكل في ملعب ويمبلي. في يوم صحو يمكن أن نرى هذا المدرّج من شرفة تريسي. يصعب عليّ القول الآن إلى أي مدى صدّقت هذه الحكاية – بالتّأكيد جزء مني عرف أن مايكل جاكسن وقد تحرّر أخيرًا من عائلته، رقص بمفرده الآن – لكن تمامًا مثل تريسي، لم آتِ على ذكر الموضوع في حضور والدتها أبدًا. كواقعة في عقلي كانت صحيحة وغير صحيحة في آن، ولعلّ الأطفال وحدهم قادرون على التوفيق بين حقائق ذات وجهين مثل هذه.

⟡ ثمانية ⟡

كنت في منزل تريسي أشاهد برنامج توب أوف ذا بوبس، عندما عرضت أغنية ثريلر المصوّرة، كانت المشاهدة الأولى لكلّ منا. تحمّست والدة تريسي كثيرًا: رقصت بجنون دون أن تنهض، تتراقص جيئة وذهابًا في ثنايا كرسيها.

«هيا يا فتيات! لنحظى بكما! تحركا – هيا!»

انتزعنا أنفسنا عن الأريكة وبدأنا نتزحلق جيئة وذهابًا على البساط، أنا على نحو رديء، تريسي بمهارة فائقة. دوّمنا، رفعت كل واحدة منا ساقها اليمنى وجعلنا القدم تتدلى مثل دمية متحركة، هزهزت كل واحدة منا جسدها مثل الجثث المتحركة الزّومبي. هناك كثير من المعلومات الجديدة: البنطال الجلدي الأحمر، السّترة الجلدية الحمراء، تحوّلت تسريحة الشعر الأفرو في السّابق الآن إلى ما هو أعظم حتى من خصلات شعر تريسي المجعّدة! وبالتّأكيد تلك الفتاة السّمراء الجميلة بالأزرق هي الضّحية المحتملة. هل كانت «مولّدة» أيضًا؟

جراء قناعاتي الشّخصية القوية،
أرغب في التشديد على أن هذا الفيلم يؤيّد
قطعًا اعتقادًا بالغيب.

هذا ما قالته الافتتاحية في البداية، تلك كانت كلمات مايكل، لكن ما الذي عنته؟ لم نفهم سوى جسامة هذه الكلمة «فيلم». ما

شاهدناه ليست أغنية مصوّرة على الإطلاق، بل عملًا فنيًا ينبغي مشاهدته في السّينما كما يجب، كان حقًا حدثًا عالميًا، دعوة صارخة. كنّا حديثين! تلك حياة عصرية! عمومًا شعرت بالبعد عن الحياة العصرية والموسيقى التي صاحبتها – صنعت أمي مني طائر «سانكوفا» – لكن حدث أن أخبرني والدي قصة عن فرِد آستر عندما جاء إلى منزل مايكل، قادمًا كنوع من تابع، وتوسّل مايكل أن يعلمه السير على سطح القمر، وأجد هذا منطقيًا حتى الآن لأن راقصًا عظيمًا لا يملك الوقت ولا الذريّة، يتجول حول العالم دون توقف، لذا أي راقص في أي مرحلة عمرية له أن يعترف به. من شأن بيكاسو أن يكون غامضًا في نظر رامبرانت، لكن راقص الباليه نيجينسكي كان سيفهم مايكل جاكسن.

صرخت والدة تريسي عندما توقفنا لنستريح لحظة قبالة أريكتها: «لا تتوقفا الآن، أيتها الفتاتان – انهضا! لا تتوقفا إلى أن تحظيا بما يكفي! تحركا!»

كم بدت طويلة تلك الأغنية، أطول من عمر. شعرت أنها لن تنتهي، وأننا كنا محصورتين في دائرة زمنية ويتوجب علينا أن نرقص بهذه الطريقة الشّيطانية إلى الأبد، مثل المسكينة مويرا شيرر في فيلم الحذاء الأحمر: «الزمن يمر سريعًا، الحب يمر سريعًا، الحياة تمر سريعًا، لكن الحذاء الأحمر يرقص». وحينئذ انتهت.

تنهدت والدة تريسي وقالت ساهية: « ذلك لا يقدّر بثمن». وانحنينا وركعنا وعدونا إلى غرفة تريسي.

عندما أصبحنا بمفردنا أسرّت لي تريسي: «تحبه عندما تراه على شاشة التّلفاز. إنه يعزز حبهما. تراه وتعرف أنه لا يزال يحبها».

سألتُ: «أي واحد من بين الراقصين هو والدك؟».

أجابت تريسي دون توقّف: «في الصّف الثاني، في النهاية، إلى اليمين».

لم أحاول – لم يكن ممكنًا – دمج هذه «الحقائق» المتعلقة بوالد تريسي مع القلة القليلة من المناسبات التي رأيته فيها، كانت أولها هي الأكثر فظاعة، بداية شهر تشرين الثّاني، بعد فترة قصيرة من مشاهدتنا أغنية ثريلر. كنا نحن الثلاثة في المطبخ، نحضر البطاطا المخبوزة المحشوة بالجبن مع اللحم المقدّد، كنّا ننوي لفها في ورق لنأخذها معنا إلى حديقة راوندوود بارك، حيث سنشاهد الألعاب النارية. كانت مطابخ الشّقق في المبنى الذي تسكنه تريسي أصغر من المطابخ في عمارتنا: عندما فتحَت باب الفرن كاد يحفّ بالجدار المقابل. عند تواجد ثلاثة أشخاص في المطبخ في الوقت نفسه، انبغى على أحدهم الجلوس على النّضد، تريسي في هذه الحالة. تجلّت مهمّتها في كشط البطاطا من قشرتها، ومن ثم مهمّتي، واقفة بالقرب منها، مزج البطاطا بالجبن المبشور وقِطَع اللحم المقدد المقصوصة بالمقص، ثم تضع والدتها المزيج في القشرة وتعيدها إلى الفرن كي تتحمّر. بالرغم من تلميح أمي المستمر إلى أن والدة تريسي مهملة وجاذبة للبلبلة، فقد وجدتُ مطبخها أكثر نظافة وترتيبًا من مطبخنا. لم يكن الطعام صحيًّا قط، ومع ذلك كان محضّرًا بجديّة واهتمام، في حين أمي التي نزعت إلى الطعام الصحي، لم يسعها قضاء خمس عشرة دقيقة في المطبخ دون أن ينتابها نوع من هوس رثاء الذات، وكثيرًا جدًا ما تأخذ التجربة منحىً خاطئ تمامًا (لتحضّر لازانيا نباتية، لابدّ أن تفعل «شيئًا» بالبامياء) فتعذّب الجميع وتختلق مشاجرة وعاصفة من الصراخ. كان ينتهي الأمر بنا إلى تناول فطائر فيندوس كريسبي المقليّة مجددًا. أمّا في منزل تريسي فقد كانت الأشياء أبسط: تبدأ بنيّة واضحة لصنع فطائر فيندوس كريسبي المقليّة، أو البيتزا الجاهزة، أو النقانق ورقائق البطاطا، وكانت كلها لذيذة، دون أن يصرخ أحد. كانت هذه البطاطا أمرًا خاصًا، تقليدًا خاصًّا بليلة الألعاب النارية. حلّت الظّلمة

في الخارج مع أن السّاعة لم تتجاوز الخامسة عصرًا، وكنت تشم رائحة البارود في كل مكان. امتلكت كل شقّة ترسانتها الخاصّة، بدأت الضّربات العشوائية والحرائق الصّغيرة المحدودة قبل أسبوعين، حالما بدأت محلّات الحلويّات ببيع الألعاب النارية. لم ينتظر أحد أحداثًا رسمية. شكلت القطط معظم ضحايا هَوَس الإحراق الشّامل هذا، لكن نُقل ولد إلى قسم الإسعاف بين حين وآخر. بسبب كل الضجة المدوية – وكم كنا معتادين على الضّجة – كان هناك قرعٌ على باب تريسي الرئيس لم يُسمع، لكن بعدها سمعنا شخصًا يتكلم بصوت يتراوح بين الهمس والصراخ، وميّزنا التحامًا بين الذعر والحذر.

سمعنا صوت رجل يقول: «دعيني أدخل. دعيني أدخل! أنتِ هناك؟ افتحي الباب، يا امرأة!»

حدّقتُ مع تريسي إلى والدتها التي وقفت تحدّق إلينا، تحمل في يدها صينية البطاطا المحشوة بالجبن بإتقان. حاولَت وضع الصينية على النّضد دون أن تنظر، فأخطأت التقدير وأوقعتها.

قالت: «لوي؟».

تلقّفَت كلّ واحدة منا، سحبَت تريسي عن النّضد، دسنا على البطاطا. جرّتنا عبر القاعة ودفعتنا إلى غرفة تريسي. لم يكن علينا أن نأتِ بنأمة. أغلقت الباب وتركتنا بمفردنا. ذهبَت تريسي مباشرة إلى سريرها، وشرعت تلعب لعبة باك مان. لم تنظر إلي. كان واضحًا أنه يتعذر عليّ سؤالها عن شيء، ليس حتى إذا ما كان والدها يُدعى لوي. وقفت حيث تركتني والدتها وانتظرت. لم أسمع قط مثل هذه المعمعة في منزل تريسي. كائنًا من كان لوي فقد فُتح له الباب الآن أو شقّ طريقه إلى الدّاخل عنوة، ولم يُسمع بعد ذلك سوى الشّتائم، وسمعت أصوات ارتطام عظيمة عندما قلَب الأثاث، وولْولة أنثوية

رهيبة، بدت مثل صراخ ثعلب. وقفتُ قرب الباب أنظر إلى تريسي التي لا تزال مندسّة في سرير باربي، لكن لم يبدُ عليها أنها تسمع ما سمعته أو تتذكر وجودي هناك: لم ترفع بصرها أبدًا عن الباك مان. انتهى الأمر بعد عشر دقائق: سمعنا صوتًا عنيفًا لباب ينغلق. بقيَت تريسي في سريرها ووقفتُ حيث تُركت عاجزة عن الإتيان بحركة. بعد حين سُمع قرع خفيف على الباب ودخلت والدة تريسي متورّدة من البكاء، تحمل صينية آنجل ديلايت، تشابه بلونها الزهري لون وجهها. جلسنا وأكلنا بصمت. ولاحقًا ذهبنا إلى الألعاب النارية.

✧ تسعة ✧

ساد نوع من قلّة الاكتراث بين الأمهات اللواتي عرفناهن، أو أنه بدا للغرباء أشبه بقلة اكتراث، لكننا عرفناه باسم آخر. ربما بدا بالنسبة للمدرسين في المدرسة كما لو أنهن لا يكترثن بما يكفي لحضور أمسية أولياء الأمور، حيث جلس المدرسون إلى المكتب تلو الآخر يحدقون في الفراغ، ينتظرون بصبر أولئك الأمهات اللواتي لم يأتين قط. ويمكنني أن أرى أن أمهاتنا لابد بَدَوْن مهملات قليلًا عندما أعلمتهنّ المدرّسة عن سوء سلوك حدث في باحة اللعب، وبدلًا من تأنيب أطفالهن، يبدأن بالصّراخ على المدرّسة. لكننا فهمنا أمهاتنا على نحو أفضل بقليل. عرفنا أنهن في زمنهن خشين من المدرسة تمامًا كما فعلنا الآن، خشين من القواعد التّعسفية وشعرن بسببها بالعار، من اللباس الجديد الذي لم يمتلكن ثمنه، من الهاجس المحيّر للتصويب المستمر للهجتهن العاميّة الأصلية أو لهجة الكوكني التي يتحدث بها أهالي شرق لندن، من الإحساس بأنهن لن يتمكنّ يومًا من فعل أي شيء صائب. قلق عميق حول «أن توبخنّ» – بسبب هويّتهن، بسبب ما فعلن وما لم يفعلن، والآن بسبب مآثر أطفالهن – لم يفارق هذا الخوف أمهاتنا أبدًا، كثير منهن أصبحن أمهات في حين لم يكنّ أكثر من أطفال هنّ أنفسهن. وهكذا لم تكن «أمسية أولياء الأمور» في أذهانهن بعيدة جدًا عن «الحجز». ظلّت مكانًا يشعرن فيه بالخجل. الفرق الآن أنهن راشدات ولا يمكن أن يرغمهن

أحد على الحضور.

أقول «أمهاتنا»، لكن بالتّأكيد كانت أمي مختلفة: شعرَت بالغضب لكن ليس بالعار. لم تتخلف عن حضور أمسية الأولياء. تلك السّنة وافَقَت أمسية أولياء الأمور يومَ عيد القديس فالنتاين: زُيّنت القاعة بانسياب بقلوب ورقية زهرية اللون مسمّرة على الجدران، وكل مكتب تباهى بزهرة ذاوية مصنوعة من مناديل ورقية مزركشة على قمة أنبوب تنظيف غليون أخضر اللون. سِرتُ في إثرها عندما شقّت طريقها في أرجاء الغرفة، ترهب المدرسين، تتجاهل كل المحاولات من طرفهم لمناقشة تقدمي الدراسي، وبدلًا من ذلك تعطي سلسلة محاضرات مرتجلة عن عجز إدارة المدرسة، والجهل وحماقة المجلس المحلّي، والحاجة المفرطة إلى «مدرّسين ملوّنين»، وتلك على ما أظن أوّل مرة سمعت فيها التعبير الجديد «ملوّن». تمسّك أولئك الأستاذة المساكين بحواف مكاتبهم خوفًا على حياتهم. وللتأكيد على أحد مرافعاتها البيانيّة، خبطت بقبضة قويّة على مكتب ما فتناثرت وردة ورقية وكثير من الأقلام على الأرض: «هؤلاء الأطفال يستحقون المزيد!» ليس أنا على وجه الخصوص «هؤلاء الأطفال». أتذكرها كثيرًا وهي تفعل ذلك وكم بدت رائعة مثل ملكة! شعرت بالفخر لكوني طفلتها، ابنة الأم الوحيدة المتحررة من العار في الحي. انجرفنا معًا خارج القاعة، أمي ظافرة وأنا في حالة من الرعب، لم تكن واحدة منا قد اطّلعت على كيفية أدائي في المدرسة.

أتذكر مناسبة واحدة مخزية، قبل بضعة أيام من عيد الميلاد في أصيل متأخر ذات يوم سبت، بعد حصّة الرّقص، بعد زيارة لامبِرت، وكنت أعيد مشاهدة مشهد أغنية «انهض بنفسك»، التي جمعت بين فرِد وجينجر في شقتي مع تريسي مرارًا وتكرارًا. طمحت تريسي إلى أن

تعيد بنفسها ذات يوم الوتيرة كلها، يبدو لي هذا الآن كما لو أنك تتطلع إلى كنيسة السيستاين وتأمل أن تعيد بعثها في سقف غرفة نومك – ولو أنها لم تتمرّن أبدًا إلا على الدّور الذكوري، لم يخطر لواحدة منا قط أن نتعلم دور جينجر في أي شيء. كانت تريسي تقف في مدخل غرفة الجلوس تؤدي الرّقص النّقري – لم يكن هناك سجادة – وكنت جاثية قرب جهاز تشغيل أشرطة الفيديو، أعيد الشّريط وأوقفه كلما دعت الحاجة. كانت أمي تدرس في المطبخ جالسة على مقعد عالٍ. «خرج» والدي وهذا كان استثنائيًا – دون أي تفسير، «في الخارج» وحسب حوالي السّاعة الرابعة دون أي غرض مُعلَن ودون مهمّة لتأديتها على حدّ علمي. تجاسرتُ على دخول المطبخ لأجلب كوبَي عصير رايبينا. وبدلًا من رؤية أمي منكبّة على كتبها والسُّدادتين في أذنيها، في غفلة عني، وجدتُها تحدّق من النافذة، وجهها مبلّل بالدموع. عندما رأتني ارتعدت قليلًا من الخوف، كما لو أنني شبح.

قالت كما لو أنها تخاطب نفسها: «إنهم هنا»، نظرتُ إلى حيث كانت تنظر ورأيت والدي يجتاز العقار وفي إثره شخصان أبيضا البشرة، فتى في حوالي العشرين من عمره وفتاة بدت في الخامسة عشرة أو السّادسة عشرة.

«مَن هنا؟»

«بعض الناس يرغب والدك منك أن تلتقيهم».

وأظن أن سبب العار الذي شعرت به هو فقدان السّيطرة: لم تستطع السّيطرة على هذه الحالة ولا أن تحميني منها، لمرة واحدة لم يكن الأمر يتعلق بها. بدلًا من ذلك أسرعت إلى غرفة الجلوس وطلبت من تريسي المغادرة، لكن تريسي تعمدت البطء في جمع أشياءها: أرادت أن تنظر إليهما عن كثب. كانا فُرجةً. مرئيًا عن قُرب بدا شعر الفتى

أشقر مزغبًا وله لحية، ارتدى ملابس قبيحة قذرة، عتيقة الطراز: بنطال جينز مرقّعًا وثُبّتت كثير من النياشين على حقيبة ظهره المهترئة المصنوعة من الخيش: كأنّه يعلن عن فقره دون خجل. كانت الفتاة غريبة أطوار بقدر مماثل لكن أكثر تأنقًا، «بياض الثلج» بحق كما في الحكاية الخيالية، وشعر أسود ذو قصة قصيرة مستوية عبر جبهتها ومرتفعة على نحو مائل عند أذنيها. ارتدت الأسود وانتعلت حذاءً أسود ضخمًا من ماركة د. مارتنز، وكانت قصيرة القامة رقيقة الملامح – فيما عدا صدر كبير شائن بدت تحاول حجبه بكل هذا السّواد. وقفنا تريسي وأنا نحملق بهما.

قال والدي لتريسي: «حان وقت الذّهاب إلى البيت».

وفيما شاهدتها تغادر أدركت أنها كانت حليفتي على الرغم من كل شيء، لأنني شعرت في تلك اللحظة بأني غير محميّة كليًّا من دونها. انحدر المراهقان الأبيضان في غرفة الجلوس الصّغيرة. طلب والدي إليهما الجلوس لكن فقط الفتاة فعلت. ذعرت لرؤية أمي ترتعش بقلق، تتعثر بكلماتها، وقد عرفت أنها في الأحوال العادية ليست شخصًا عصابيًّا تمامًا. لم يجلس الفتى، يُدعى جون، عندما حاولت أمي حثه على الجلوس، ولم ينظر إليها أو يجيبها، من ثم قال والدي شيئًا قاسيًا على نحو غير معتاد وشاهدنا جميعًا عندما خرج جون من الشّقة. هرعت إلى الشّرفة، ورأيته في الأسفل هناك على عشب الحديقة المشتركة دون أن يذهب إلى أيّ مكان – توجب عليه انتظار الفتاة – يدور في حلقة صغيرة، يطحن الجليد المتجمد تحت قدميه. بقيت الفتاة، تُدعى إيمّا. عندما عُدت إلى الدّاخل طلبت مني أمي الجلوس بالقرب منها.

قال والدي: «هذه أختكِ»، وذهب لتحضير كوب من الشّاي.

وقفت أمي قرب شجرة عيد الميلاد تتظاهر بالقيام بأمر مفيد

بالأضواء. التفتت الفتاة إلي وحدّقنا ببعضنا دون مواربة. لم نملك ملامح مشتركة على الإطلاق، بقدر ما أتيح لي أن أرى، كان الأمر برمته سخيفًا وتمكّنت من رؤية أن هذه الإيما فكرت بي كما فكرت بها بالضّبط. بمعزل عن الواقعة الجليّة بشكل هزلي كوني سوداء البشرة وهي بيضاء، أنا ضخمة وهي ضئيلة، أنا طويلة القامة بالنّسبة إلى عمري وهي قصيرة، كانت عيناي واسعتين وبنيتين وعيناها ضيقتين وخضراوين. لكن حينئذ شعرت في اللحظة نفسها أننا كلانا رأينا الشبه: الفم المتحدر والعينين الحزينتين. لا أتذكر أنني فكّرت بطريقة منطقية. لم أتساءل، على سبيل المثال، من تكون والدة إيما هذه، أو كيف ومتى من المحتمل أنّها تعرّفت إلى والدي. لم يكن عقلي ليبلغ هذا المبلغ. فقط فكرت: لقد صنع واحدة مثلي وواحدة مثلها. كيف يمكن لمخلوقين مختلفين إلى هذه الدرجة أن ينبثقا من المصدر نفسه؟ عاد والدي إلى الغرفة حاملًا صينية الشّاي.

قال وهو يناول إيمّا كوبًا: «حسنًا، هذا كله مفاجئ بعض الشّيء، أليس كذلك؟ لنا جميعًا. مضى وقت طويل منذ أن رأيت... لكنك ترين أن والدتك قررت فجأة... حسنًا، إنها امرأة الأهواء المباغتة، أليست كذلك؟» نظرت أختي بدهشة إلى والدي وهو تخلى فورًا عما كان يحاول قوله وتحدر إلى حديث تافه.

«الآن، قيل لي إن إيّما ترقص الباليه قليلًا. ذلك أمر تتشاركانه أنتما الاثنتان. في الرويال باليه لفترة من الوقت – منحة تعليمية شاملة – لكن اضطرّت لأن تتوقف».

الرّقص على المسرح، هل عنى ذلك؟ في مسرح كوفنت جاردن؟ كراقصة رئيسة؟ أو في «الجثة»، كما دعته تريسي؟ لكن لا – بدت «منحة تعليمية» مثل مسألة مدرسية. هل هناك إذن «مدرسة ملكية للباليه»؟

لكن إذا وجد مثل هذا المكان لماذا لم يرسلوني إليه؟ وإذا أرسلت هذه الإيمّا إلى هناك فمن الذي تكفل بالمصاريف؟ لماذا اضطرت للتوقف؟ لأن صدرها كبير للغاية؟ أو لأن رصاصة اخترقت فخذها مباشرة؟

كسرت أمي الصّمت قائلة: «ربما سوف ترقصان معًا ذات يوم!» وهذا نوع من تفاهة أمومية نادرًا ما عكفت عليها. رفعت إيمّا بصرها نحو أمي بتخوّف – كانت المرة الأولى التي تجرأت على النظر إليها مباشرة – وما رأته هناك بلغ من القوّة ما روّعها بشدّة: انفجرت بالبكاء. غادرت أمي الغرفة.

قال لي والدي: «اخرجي قليلًا، هيا، ارتدي معطفك».

انزلقت عن الأريكة، تلقفت معطفي الصّوفي عن المشجب وخرجت. نزلت إلى الممشى، أحاول إضافة القليل الذي عرفته عن ماضي والدي إلى هذا الواقع الجديد. كان من حي وايت تشابل، عائلة كبيرة من منطقة إيست إند، ليست بحجم عائلة والدتي، لكن ليست شديدة البعد عنها، ووالده مجرم بسيط بوجه من الوجوه، يتردّد على السّجن جيئة وذهابًا، وهذا كما شرحت لي والدتي ذات مرة هو السّبب الذي جعل والدي يبذل قصارى جهده في طفولتي: يطهو، ويصحبني إلى المدرسة وإلى حصّة الرّقص، ويحزم وجبات غدائي، وهلمّ جرا، كل النّشاطات الباعثة على الاستغراب إذا فعلها أيّ والد في ذلك الحين. كانت تعويضًا عن طفولته، جزاءً. عرفت أيضًا أنه هو نفسه كان «سيء الأخلاق» في وقت من الأوقات. مرة كنا نشاهد التّلفاز وعُرض شيء عن مرتكبي الجريمة المنظمة التوأمان كراي وقال والدي كيفما اتفق: «أوه، حسنًا، عرفهما الجميع، لا يمكنك إلا أن تعرفهما في ذلك الحين». كان أشقّاءه الكثر «سيئين»، كانت إيست إند عمومًا «سيئة أخلاقيًّا»، وهذا كله ساعد على تعزيز فكرتي عن أن زاوية لندن التي نقيم فيها هي قمّة

صغيرة معرّضة للهواء فوق مستنقع عام قد تُجرّ فيه إلى فقر حقيقي وجرائم من عدة اتجاهات. لكن لم يأتِ أحد يومًا على ذكر ابن أو ابنة.

هبطت الدرج نحو الحيز المشترك ووقفت أستند على عمود اسمنتي، أشاهد «أخي» يركل قطعًا صغيرة من المرج شبه المتجمد. بدا لي بشعره الطويل ولحيته وذلك الوجه الطويل مثل يسوع الذي عرفته فحسب من صليب على جدار في حصّة الرّقص مع الآنسة إيزابيل. بخلاف تجاوبي مع الفتاة – ببساطة أن نوعًا من الخداع كان قيد التنفيذ – بالنظر إلى الفتى وجدت أني لا أستطيع إنكار أحقيته الأساسية. كان صحيحًا أنه لابد أن يكون ابنًا لوالدي، كل من ينظر إليه سوف يرى معقولية الأمر. أبوّته لي لم تكن معقولة. استولى عليّ ببرود شيء موضوعي: أن الغريزة نفسها التي سمحت لي فصلَ صوتي عن حنجرتي كموضوع للبحث، للدراسة، جاءتني الآن، ونظرت إلى هذا الفتى وفكّرت: نعم، هو محق وأنا مخطئة، أليس هذا مثيرًا للاهتمام؟ أفترض أنه كان في وسعي أن أعتبر نفسي الطفل الحقيقي والفتى على أنه الطفل المزيّف، لكني لم أفعل ذلك.

استدار فوقع بصره علي. نمّ شيء ما في وجهه عن أنه كان يرثي لحالي، وكنت قد تقدّمت عندما بدأ بلطف شاق لُعبة الغميضة حول الأعمدة الإسمنتية. كلما برز رأسه الأشقر المزغب من خلف كتلة انتابني إحساس بأني خارج جسدي: ها هو ابن والدي، يبدو كما لو أنه ابن والدي، أليس هذا مثيرًا للاهتمام؟ ونحن نلعب سمعنا أصواتًا منبعثة من الأعلى. حاولت تجاهلها، لكن رفيقي الجديد في اللعب توقّف عن الركض ووقف تحت الشّرفة وأصغى. عند حد معيّن برق الغضب في عينيه وقال لي: «دعيني أخبرك شيئًا: هو لا يهتم لأمر أحد. هو ليس ما يبدو عليه. إنه أبله. بزواجه من تلك المجرفة اللعينة!»

ثم جاءت الفتاة تجري على الدّرج. لم يجرِ في إثرها أحد، سواء أبي أو أمي. وهي لا تزال تبكي أتت إلى الفتى وتعانقا واجتازا العشب هكذا إلى خارج العقار. كان الثلج ينهمر خفيفًا. شاهدتهما يذهبان. لم أرهما ثانية حتى وفاة أبي ولم يؤتَ على ذكرهما خلال طفولتي. اعتقدت لفترة طويلة أن الأمر برمته كان هلوسة أو ربما شيئًا حملته من فيلم رديء. عندما سألتني تريسي عنه أخبرتها بالحقيقة ولو أنني استرسلت قليلًا: ادّعيتُ أن المبنى الذي مررنا به يوميًا في شارع ويلزدن لين، المبنى ذا الظلة الزرقاء الرثّة، هو مدرسة الباليه الملكية وأن أختي بيضاء البشرة القاسية المتأنقة ارتادتها وكانت ناجحة للغاية لكنها رفضت حتى أن تلوّح لي من النافذة، هل يمكنك تصديق ذلك؟ وهي مصغية شهدتُ في وجهها كفاحًا عظيمًا لتصديق الأمر، بدا ذلك أكثر من خلال منخريها. من المرجح كثيرًا أن تريسي دخلت ذلك المبنى وعرفت جيدًا ماهيته الحقيقة: مكان ذو مظهر رث للمناسبات حيث أقيمت كثير من حفلات الزفاف المحليّة الرخيصة وأحيانًا لعبة البينجو. بعد بضعة أسابيع فيما كنت جالسة في مؤخرة سيارة والدتي السّخيفة – سيارة صغيرة بيضاء فرنسية من نوع سيتروين بحصانين متباهية، وملصق «حملة نزع السلاح النووي» موضوع قرب رخصة السّيارة – وقعت عيني على عروس خشنة الملامح يكاد يبتلعها قماش التّول وحلقات الشّعر، واقفة خارج المبنى الذي ادّعيتُ أنه مدرسة الباليه الملكية، تدخّن سيجارة، لكني لم أسمح لهذه الرؤية باختراق مخيلتي. حينئذٍ توصّلت إلى اقتسام ما تتميز به صديقتي في علاقتها بالواقع: إنها منيعة عنه. والآن – كما لو أننا كلانا نحاول ركوب «القبّان» في الوقت نفسه – لم تضغط أي منا بشدة كبيرة لمعرفة الحقيقة ما أتاح فرصةً لتوازن دقيق دائم بيننا. لعلّني لم أتخلّص أبدًا من عادة الإسهاب هذه. بعد عشرين عامًا أثناء تناول وجبة غداء

عسيرة، أعدت النظر مرة أخرى مع أمي في قصة شقيقَيّ الشبحيّين، فتنهدّت، أشعلت سيجارة وقالت: «أتكّل عليكِ في أمر إضافة الثّلج».

✣ عشرة ✣

حملَت أمّي عقلًا سياسيًّا قبل وقت طويل من اتخاذها السّياسة مهنة: جبلت على التفكير بالناس كمجاميع. لاحظت الأمر منذ طفولتي وغريزيًّا شعرت بوجود شيء فاتر وعديم الشّعور في قدرتها على تحليل الناس الذين عاشت بينهم بدقّة شديدة: أصدقاءها، مجتمعها، عائلتها. كنا جميعًا مرة واحدة وفي الوقت نفسه تجسُّدات حيّة تدرسها جميعًا في جامعة ميدلسكس للعلوم التطبيقية. لطالما عزلت نفسها. على سبيل المثال، هي لم تمتثل أبدًا لتقديس الحي «للحِدّة» – الشّغف بالبذل الرياضية اللماعة والمجوهرات الزائفة البراقة، لأيام بطولها يمضونها في صالون الحلاقة، ينتعل الأطفال أحذية رياضية بثمن خمسين جنيهًا، أرائك يسدّد ثمنها بالتقسيط على مدى عدة سنوات – على الرغم من أنها لم تندّد بها يومًا. أحبّت والدتي القول: «الناس ليسوا فقراء بسبب خياراتهم الرديئة، بل يصنعون خيارات رديئة لأنهم فقراء». لكن رغم أنها هادئة وانثروبولوجية حول هذه المسائل في مقالات الكلية التي تكتبها – أو أثناء إلقائها المحاضرات علينا أنا وأبي إلى طاولة العشاء – فإنني عرفت أنها كانت في حياتها الحقيقية مغتاظة في كثير من الأحيان. توقفَت عن اصطحابي من المدرسة – والدي فعل ذلك – لأن المشهد هناك استفزّها كثيرًا جدًا لا سيما كيف انهار الزمن كلّ أصيل لتصبح كل تلك الأمهات أولادًا من جديد، أولادًا جاؤوا ليصحبوا أولادهم، وكل هؤلاء الأولاد معًا

خرجوا من المدرسة بارتياح، أحرارًا أخيرًا للتحدّث بعضهن إلى بعض على طريقتهن الخاصّة، وليضحكن ويمزحن ويتناولن المثلجات من عربة المثلجات المنتظرة، وليثِرن ما يرونه قَذْرًا طبيعيًا من الصّخب. لم تعد أمي تتلاءم مع كل ذلك أبدًا، هي لا تزال مهتمة بالجماعة ثقافيًّا وسياسيًّا – لكنها لم تعد واحدة منها.

بين الحين والآخر، جراء خطأ في التوقيت عادة، حوصرت فيها، وجدت نفسها متورطة في حديث مع إحدى الأمهات، والدة تريسي غالبًا في شارع ويلزدن لين. في هذه المناسبات قد تتحول إلى قاسية القلب، تهتم اهتمامًا خاصًا بذِكر كل إنجاز أكاديمي جديد من إنجازاتي – وقد تخترع البعض – رغم أنها عرفت أن كل ما يمكن لوالدة تريسي تقديمه في المقابل هو مزيد من مديح الآنسة إيزابيل الذي اعتبرته أمي بضاعة تافهة تمامًا. فخرت أمي بالمحاولة بجد أكبر من والدة تريسي ومن جميع الأمهات، في إيصالي إلى مدرسة رسميّة شبه محترمة بدلًا من واحدة من المدارس الرهيبة حولنا. كانت تنافس على الاهتمام، ومع ذلك فإن مُنافِسَاتها مثل والدة تريسي لم يكُنّ مستعدّات عندما وُضعن بجانبها فكانت معركة غير متكافئة على نحو مهلك. تساءلت غالبًا: هل هناك نوع من تسوية؟ هل يجب أن يخسر الآخرون كي نكسب؟

ذات صباح في باكورة الربيع، صادفت أنا ووالدي تريسي تحت عمارتنا بجانب المرائِب. بدت مستثارة، ورغم أنها قالت إنها فقط تمرّ بعمارتنا في طريقها إلى عمارتها، فقد شعرت بيقين أنها تنتظرني. بدت باردة: تساءلت فيما إذا حضرتُ إلى المدرسة على الإطلاق. عرفت أنها تغيّبت بدون عذر أحيانًا، بإذن من والدتها، (صُدمت أمي عندما رأتهما ذات أصيل يوم مدرسي خارجتين من متجر وَت شي وُنتس، على الطريق العام تضحكان وتحملان عددًا من أكياس المشتريات). شاهدت والدي

يحيّي تريسي بحرارة. بخلاف والدتي لم يزعجه التواصل معها، فقد وجد انقطاعها المُخلص لرقصها حلوًا، ومُثيرًا للإعجاب كما أظن، وافق ذلك قيَمه العمليّة – ومن الواضح أن تريسي هامت بوالدي، أغرمت أيضًا قليلًا. كانت ممتنة بشكل مؤلم للغاية لأسلوبه في التحدث إليها كأب على الرغم من أنه انجرّ أحيانًا في هذا الاتجاه، غير مُدرك أنّها بعد استعارتها أبًا لبضع دقائق سوف تشعر بألم حتميّة إعادته.

سألها: «الامتحانات على الأبواب، أليست كذلك؟ وكيف تسير كل تلك الأمور؟»

دفعت تريسي أنفها في الهواء باعتزاز: «أنا أخوض الفئات السّت جميعها».

«بالتّأكيد أنت كذلك!».

«للرقص المعاصر، مع ذلك لن أقدّمه بنفسي، فلدي شريك. رقص الباليه هو الأقوى عندي، من ثم الرّقص النّقري، من ثم المعاصر، ثم الغناء والرّقص. أنوي الحصول على ثلاث ذهبيات على الأقل، لكن إذا كانتا ذهبيتين وأربع فضيات فسوف يسعدني ذلك أيضًا ».

«وهكذا ينبغي عليك أن تكوني».

وضعت يديها الصغيرتين على وركيها: «ستأتي لمشاهدتنا حينها أم ماذا؟»

«أوه، سأكون هناك! مزودًا بالأجراس! لأشجع فتاتَيّ».

أحبت تريسي أن تتفاخر أمام أبي، انبسطت في حضوره، توردت أحيانًا أيضًا واختفت الإجابات المختصرة المكونة من نعم ولا التي نحت لأن تجيب بها جميع الكبار بمن فيهم أمي، لتستبدل بهذه الثرثرة المتوالية، كما لو أنها اعتقدت أنها قد تجازف بخسران انتباه والدي بالجملة مع أي توقف في الجريان.

قالت كيفما اتفق، ملتفتة نحوي: «لدي بعض الأنباء، أمي نسّقت الأمر». والآن فهمت سبب مصادفتنا لها.

سألت: «نسقت ماذا؟»

قالت: «أنا راحلة عن مدرستي، سآتي إلى مدرستك».

لاحقًا أبلغت أمي بهذه الأنباء في البيت وهي أيضًا تفاجأت واشتبهتُ أنها ساخطة قليلًا، من هذا الدّليل على ما تبذله والدة تريسي من جهد لمصلحة ابنتها أكثر من أي شيء آخر. أصدرت بأسنانها صوتًا علامة على الاستخفاف وقالت: «ما ظننت أنها تنعم به حقًا».

✧ أحد عشر ✧

قبل انتقال تريسي إلى صفّي، لم أكن أفهم غرفة صفي في الحقيقة. كنت قد اعتقدت أنها غرفة مليئة بالأطفال. كانت في الحقيقة تجربة اجتماعية. تقاسمت ابنة العاملة في مقصف المدرسة منضدة ابن ناقد فني، وجلس ابن سجين حالي مع ابن شرطي. ابنة موظف البريد مع ابنة أحد راقصي مايكل جاكسن المساعدين. أول ما أقدمت عليه تريسي بعد أن أصبحت زميلتي الجديدة في المقعد كان الإفصاح عن هذه الفويرقات من خلال محاكاة بسيطة فاتنة: «أولاد قرمة الكرنب[8]» مقابل «أولاد سطل القمامة[9]». صنّفت كلّ طفل إلى إحدى الفئتين وأوضحت أن أيّ صداقة سبق أن كوّنتُها قبل وصولها باتت الآن – بقدر ما حاولت تجاوز هذا التقسيم – لاغية، ساقطة، تافهة، لأن الحقيقة هي أنها لم توجد حقًا أبدًا منذ البداية. لم يكن ممكنًا وجود صداقة حقيقة بين «قرمة الكرنب» و«سطل القمامة»، ليس الآن، ليس في إنكلترا. أفرغت منضدتنا من مجموعة بطاقات «أولاد قرمة الكرنب» العزيزة علي واستبدلتها ببطاقات «سطل القمامة» خاصتها التي أصبحت على الفور البدعة الجديدة، مثل كل ما فعلته تريسي في

8) Cabbage Patch Kids: مجموعة من الدمى الاسفنجيّة الهيئة، كان يبيعها اكزافييه روبرتس ومسجّلة في مكتب حقوق الطبع والنشر بالولايات المتحدة في عام 1978.

9) Garbage Pail Kids: سلسة من بطاقات التبادل أنتجتها شركة توبس عام 1985 لتشبه الدمى التي تحمل الاسم نفسه.

المدرسة تقريبًا. حتى الأطفال الذين انتموا في نظر تريسي إلى فئة «قرمة الكرنب»، راحوا هم أنفسهم بجمع «أولاد سطل القمامة»، حتى ليلي بينجهام وجميعنا تبارينا على امتلاك البطاقات الأكثر استهجانًا: ولد سطل القمامة يسيل مخاط على وجهه، أو الولد المصور على المرحاض. تقليعتها المدهشة الأخرى كانت رفضها الجلوس. راحت فقط تقف إلى طاولتها منحنية إلى الأمام كي تعمل. تصادم مدرسنا وهو رجل لطيف مفعم بالحيوية يدعى السّيد شيرمان معها مُدّة أسبوع، لكن إرادة تريسي كانت حديدية مثل إرادة أمي وفي الختام سمح لها بالوقوف ما طاب لها. لا أظن أن تريسي شغفت بالوقوف على وجه الخصوص بل كانت قاعدة عمل. يمكن للقاعدة أن تكون أي شيء حقًا لكن الفكرة كانت أنها ستكسبها. كان واضحًا أن السّيد شيرمان وقد خسر حجّته شعر أن عليه أن يكون قاسيًا في حيّز آخر، وذات صباح عندما كنا نتبادل جميعًا بانفعال «أولاد سطل القمامة» بدلًا من الإصغاء إلى أي شيء يقوله، فجأة فقد صوابه وراح يصرخ كالمجنون ماضيًا من نضد إلى آخر يختطف البطاقات، تارة من داخل النّضد وتارة أخرى من أيدينا، إلى أن تشكلت على مكتبه كومة ضخمة كوّن منها حينئذ برجًا مقلوبًا على جانبه ومرّره إلى درج أقفله بمفتاح صغير متفاخرًا. لم تنبس تريسي ببنت شَفَة لكن منخريها الواسعين استعرّا وفكّرت: أوه يا إلهي، ألا يدرك السّيد شيرمان أنها لن تغفر له أبدًا؟

في ذلك الأصيل ذاته بعد المدرسة سرنا إلى البيت معًا. لم تتحدث إليّ، كانت لا تزال حانقة، لكن عندما بدأت أنعطف نحو المبنى الذي أسكنه، تلقفت رسغي وتقدمتني عبر الطريق إلى بيتها. كنا طوال الطريق في المصعد صامتتين. بدا لي أن أمرًا جللًا على وشك الحدوث. شعرت بغضبها مثل هالة تحيط بها، تذبذبت تقريبًا. عندما وصلنا

إلى باب شقتها الرئيس رأيت المقرعة قد تخربت وكانت معلقة بمسمار واحد – أسد نحاسي من يهوذا فاغر الفم، ابتيعت من الطريق العام عن إحدى البسطات التي باعت تحفًا أفريقية – وتساءلت إذا ما حضر والدها ثانية. تبعت تريسي إلى غرفتها. بمجرد أن أغلق الباب التفتت نحوي غاضبة كما لو أني السّيد شيرمان تسألني بحدّة عما أريد فعله الآن وقد صرنا هنا؟ لم أمتلك فكرة: لم يسبق لي قط أن تحرّيت بحثًا عن أفكار، هي التي امتلكت جميع الأفكار، لم يكن هناك يومًا أي تخطيط مني قبل اليوم.

«حسنًا، ما القصد من القدوم إذا كنت لا تعرفين؟»

ارتمت على سريرها، وتناولت لعبة باك مان وبدأت تلعب. شعرت بوجهي يلتهب. اقترحت بتواضع أن نتمرن على خطواتنا الثلاثية الزمن، لكن هذا جعل تريسي تتأوه.

«لست بحاجة لذلك. أنا أؤدي حركة الأجنحة».

«لكني لا أستطيع تأدية حركة الأجنحة بعد!»

قالت دون أن ترفع عينيها عن شاشتها: «انظري، لا يمكنك الحصول على الميدالية الفضية دون أن تؤدي حركة الأجنحة، انسي أمر الذّهب. إذن من أجل ماذا سوف يأتي والدك ويشاهد؟ ما من فائدة؟ أليس كذلك؟»

تطلعت في قدمي الحمقاوين، اللتين لم تتمكنا من تأدية حركة الأجنحة. جلست وأخذت أبكي بهدوء. هذا لم يغير شيئًا. وبعد دقيقة وجدت نفسي جديرة بالشّفقة وتوقفت. قررت أن أشغل نفسي بترتيب خزانة ملابس دمية الباربي. حشرت جميع ملابسها في سيارة كين المكشوفة. خططت أن استخرجها، أسوّيها، وأعلّقها على علاقاتها الصغيرة وأعيدها إلى الخزانة، لعبة من النّوع الذي لم يسمح لي من قبل

أن ألعبها أبدًا في البيت جراء أصداءها من ظلم منزلي. في خضم هذه العملية المجهدة رقّ قلب تريسي على نحو غامض: انزلقت عن السّرير وانضمت لي مصالبة السّاقين على الأرض. معًا رتبنا حياة هذه المرأة الصغيرة.

✧ اثنا عشر ✧

كان لدينا شريط مصور أثير عنوانه «رسوم السّبت المتحركة وفيلم قبّعة رسمية» وانتقل أسبوعيًّا من شقتي إلى شقة تريسي وبالعكس، أُدير كثيرًا حتى تآكل الإطار من أعلى وأسفل. لهذا لم نستطع المجازفة بلفّ الشّريط قُدُمًا أثناء دورانه – جعل التتّبع أسوأ – لذا لففنا الشّريط «على نحو أعمى»، نخمّن المدة بتخمين عرض الشّريط الأسود عندما ينتقل من بكرة إلى أخرى. كانت تريسي خبيرة في تقديم الشّريط، بدت تعرف بالفطرة متى سوف نتجاوز الرسومات العارضة ومتى يجب أن تضغط زر التوقيف لتصل على سبيل المثال إلى أغنية «خدّ على خد»، يُلفت انتباهي الآن أنه إذا ما أردت مشاهدة هذا المقطع نفسه – كما فعلت منذ بضع دقائق، قبل كتابة هذا تمامًا – لا يتطلّب ذلك جهدًا على الإطلاق، يستغرق لحظة، أكتب طلبي في مربع البحث على الشّبكة فأجده في الحال. في ذلك الحين تطلّب الأمر براعة. كنا من الجيل الأول الذين حظينا، في بيوتنا، على وسائط تأخير الواقع وتقديمه: حتى الأطفال كان في وسعهم أن يضغطوا بأصابعهم على تلك الأزرار الخرقاء ليروا ما آل إليه الماضي أو ما سوف يكون. كان تركيز تريسي شديدًا وهي تُدير هذه العملية، لم تضغط زر التشغيل قبل أن تعثر على فرِد وجينجر تمامًا حيث أرادتهما، على الشّرفة، بين نبتة الجهنمية والأعمدة الدّورية. عند هذه النقطة بدأت بتفسير الرقصة،

ما لم أتمكن من فعله أبدًا، رأت كل شيء، ريش النعام الطائش يبلغ الأرضية، العضلات الضعيفة في ظهر جينجر، الكيفية التي من خلالها انتزعها فرِد نحو الأعلى من أيّ وضعية متمدّدة، مُفسدًا الانسياب، مُدمّرًا السّياق. لاحظَت أكثر الأمور أهمية على الإطلاق، الذي هو درس الرّقص ضمن الأداء. مع فرِد وجينجر يمكنك دومًا أن ترى درس الرّقص. نوعًا ما درس الرّقص هو الأداء. هو لا ينظر إليها بحبّ، ليس حتى بحب سينمائي زائف. هو ينظر إليها كما نظرت إلينا الآنسة إيزابيل: لا تنسوا «س»، من فضلكم ضعوا نصب أعينكم «ع»، الذراع عاليًا الآن، الساق نحو الأسفل، دوروا، انخفضوا، انحنوا.

قالت تريسي وهي تبتسم بغرابة وتضغط إصبعًا على وجه جينجر على الشاشة: «انظري اليها، تبدو خائفة للغاية».

أثناء إحدى تلك المشاهدات علمت أمرًا جديدًا وهامًّا عن لوي. في هذه المناسبة كانت الشّقة فارغة، ولمّا انزعجت والدة تريسي لمشاهدتنا المقطع نفسه مرّات عدّة، دلّلنا أنفسنا ذلك الأصيل. لحظة جاء فرِد ليستريح واتكأ على الدرابزين، خطت تريسي متثاقلة إلى الأمام على يديها ورجليها وضغطت الزر ثانية وعدنا إلى ما سبق. لابدّ أننا شاهدنا المقطع ذاته، مدّته خمس دقائق، عشرات المرات إلى أن اكتفينا فجأة: نهضت تريسي وطلبت مني أن أتبعها. كانت عتمة في الخارج. تساءلت متى ستعود والدتها إلى البيت. مررنا بالمطبخ نحو الحمّام. كان مشابهًا لحمامي بالضّبط. نفس الأرضية من الفلين، نفس طقم الحمّام بلون الأفوكادو. جثت على ركبتيها ودفعت اللوح الجانبي لحوض الاستحمام: تقوّض بسهولة. كان مسدس صغير موضوعًا في صندوق حذاء من ماركة كلاركس، تمامًا بجانب الأنابيب. تناولت تريسي الصّندوق وأرتني إياه. أخبرتني أنه يخص والدها الذي تركه هنا، وعند مجيء مايكل إلى

ملعب ويمبلي في عيد الميلاد سيكون حارسه الشخصيّ بالإضافة إلى كونه أحد راقصيه. انبغى أن يكون بتلك الطريقة ليربك الناس. كل شيء بالغ السّرية. قالت لي: «قولي لأي شخص وسوف تموتين». أعادت اللوح وذهبت إلى المطبخ لتبدأ بتحضير الشّاي لنفسها. توجهت إلى البيت. أتذكر الإحساس بحسد شديد لسحر حياة عائلة تريسي بالمقارنة مع حياة عائلتي، طبيعتها الكتومة والمتفجرة. ومشيت نحو شقتي أحاول أن أفكر بإلهام مكافئ قد أقدّمه لتريسي عندما أراها في المرة التالية، مرض مريع أو مولود جديد، لكن لم يكن هناك شيء، لا شيء، لا شيء!

ثلاثة عشر

وقفنا على الشّرفة. رفعت تريسي سيجارة مُختلسة من والدي ووقفتُ باستعداد كي أشعلها لها. بصقتها من فمها قبل أن أتمكن من فعل ذلك، ركلتها خلفها وأشارت نحو الأسفل، إلى أمي التي اتضح أنها واقفة تحتنا على أرض الحديقة المشتركة تبتسم نحو الأعلى. صباح يوم أحد دافئ ومشرق منتصف شهر أيّار. لوّحت أمي برفش كبير بشكل مثير، مثل مزارعة سوفيتية ترتدي زيًّا رهيبًا: سروال جينز أزرق، وكنزة رقيقة ذات لون بني فاتح تكشف عن البطن مناسبة للون بشرتها، وصندلًا من ماركة بيركينستوك، وتربط منديلًا مربعًا أصفر اللون مطويًّا على شكل مثلث حول رأسها، ورُبط عند نقرتها في عُقدة صغيرة أنيقة. شرحت قائلة إنها تتعهد بحفر الحديقة المشتركة وهي عبارة عن مستطيل بطول ثمانية أقدام وعرض ثلاثة أقدام تقريبًا، مع فكرة إنشاء بستان للخضار يمكن للجميع أن يتمتعوا به. راقبناها أنا وتريسي. حفرت إلى حين، متوقّفة بانتظام لتريح قدمها على حافّة الرفش وتهتف لنا عن الخس، والسّلالات المتنوعة، والوقت المناسب لزراعتها. لم تثر واحدة منها اهتمامنا على الإطلاق، على أن تلك الملابس زادت كل ما قالته جاذبية بطريقة ما. شاهدنا عندما خرج عدة أشخاص آخرين من شققهم ليعربوا عن قلق أو ليستفهموا عن حقها في فعل ما تفعله، لكنهم لم يكونوا أندادًا لها ولاحظنا وأعجبنا بطريقتها في إرسال الآباء

بعيدًا خلال دقائق – أساسيًا بالنظر إلى عيونهم – بينما لاقت مقاومة من الأمهات، نعم، مع الأمهات توجب عليها بذل جهد أكبر بقليل، مغرقة إياهن بالكلام حتى يفهمن إلى أي حدّ يحملن ثقافة ضحلة، وكان جدول اعتراضاتهن الواهي مضمّنًا كليًا في تيارات حديث أمي سريعة الجريان. بدا كل ما قالته شديد الإقناع، من المستحيل أن تخالفه. موجة تغمرك لا يمكن إيقافها. من لم يحب الورد؟ من كان ضيق التفكير للغاية لدرجة أنه قد يضنّ على طفل يقطن منطقة مزدحمة بالسّكان بفرصة زراعة بذرة؟ ألم نكن جميعًا أفارقة في الأصل؟ ألم نكن أبناء الأرض؟

راحت تمطر. عادت أمي التي لم تكن مستعدّة لهطول المطر إلى البيت. صباح اليوم التالي قبل المدرسة كنا مستثارين للّحاق بهذا المشهد: أمي، تبدو مثل الممثلة الأميركية بام جرير نفسها، تحفر فجوة كبيرة مخالفة للقانون دون رخصة من المجلس. لكن المجرفة وضعت بالضبط حيث تركتها والخندق مملوء بالماء. بدت الفجوة مثل قبر نصف منجز. أمطرت ثانية في اليوم التالي ولم يحفر المزيد. في اليوم الثالث بدأ يبرز طين رمادي وينسكب على العشب.

قال والدي وهو يدفع فيه إصبعًا: «طين، لديها مشكلة الآن».

لكنه كان مخطئًا: كانت مشكلته هو. أحدهم أخبر أمي أن الطّين هو أحد طبقات التّربة وحسب، ولو تحفرين عميقًا بما يكفي فإنه يمكنك تخطيها، ثم كل ما عليك فعله هو الذّهاب إلى مركز البستنة والحصول على كمية من السّماد العضوي وصبها في حفرتك الكبيرة المخالفة للقانون... حدّقنا في الحفرة التي كان والدي يحفرها الآن: تحت الطين يوجد مزيد من الطين. نزلت أمي وحدّقت فيها أيضًا وادّعت أنها «متحمسة للغاية» بشأن الطين. لم تأتِ على ذكر الخضار ثانية أبدًا، وإذا ما حاول أي شخص الإشارة إليها تبنّت بيسر السياسة

الجديدة، أن الحفرة لم تكن أبدًا بشأن الخس، الحفرة هي للبحث عن الطين الذي عُثر عليه الآن. في الواقع، امتلكت دولابين لصناعة الخزف، موضوعين في الطابق الأعلى! يا له من مورد رائع من أجل الأطفال!

كان الدولابان صغيرين وثقيلين للغاية، اشترتهما لأنها «أحبّت منظرهما»، ذات شباط شديد البرودة عندما تعطّلت أبواب المصعد: ثبّت والدي ركبتيه وربع ذراعيه وسحب الأشياء اللعينة عاليًا مسافة ثلاث مجموعات من الدرجات. كانا بدائيّين للغاية، قاسيين نوعًا ما، أداة ريفية ولم يسبق أن استُعملا في شقتنا أبدًا زيادة عن كونهما سندًا لباب غرفة الجلوس المفتوح. الآن قد نستعملهما، توجب علينا استعمالهما: لو لم نفعل لحفرت أمي حفرة كبيرة في الحديقة المشتركة بلا داع على الإطلاق. طُلب منا تريسي وأنا أن نجمع الأطفال. تمكنا من إقناع ثلاثة أولاد فقط من سكان المبنى: لنرفع العدد أضفنا ليلي بينجهام. غرفَ والدي الطين في أكياس المشتريات وصعد بها إلى الشّقة. وضعت أمي منضدة على حاملين على الشّرفة وألقت بكتلة كبيرة من الطّين أمام كل واحد منا. كانت عملية فوضوية، ربما من الأفضل لو قمنا بها في الحمام أو في المطبخ، لكن الشّرفة أجازت عنصر العرض: يمكن أن يرى الجميع من الأعلى مفهوم أمي الجديد فيما يخص رعاية الأطفال. كانت أساسيًا تطرح على المبنى برمته سؤالًا. ماذا لو لم نرمي أطفالنا أمام التّلفاز كل يوم ليشاهدوا الرسوم المتحركة والمسلسلات التلفزيونية الطويلة؟ ماذا لو منحناهم بدلًا من ذلك كتلة من الطين وسكبنا عليها الماء وعلمناهم كيف يدومونها إلى أن يتكون شكل بين يديهم؟ أي نوع من المجتمع قد يكون ذلك؟ شاهدنا الطين وهو يدوّم بين راحتيها. بدا مثل عضو الرجل، قضيب طويل بني اللون – رغم أنني لم أسمح لنفسي بالاعتراف بالفكرة التي كنت امتلكها سلفًا إلّا عندما همسَت تريسي بها

في أذني. ادّعت أمي قائلة: «إنها مزهرية»، من ثم أضافت موضحة: «لزهرة واحدة». كنت متأثرة. نظرت نحو الأطفال الآخرين من حولي. هل فكّرت أمهاتهم يومًا بصنع مزهرية من التّراب؟ أو زرعت زهرة وحيدة لتوضع فيها؟ لكن تريسي لم تحمل هذا كله محمل الجد، كانت لا تزال متشبثة بفكرتها عن قضيب من الطين، والآن أضحكتني وأمي تجهمت نحونا مركزة انتباهها على ليلي بينجهام وسألتها عمّا تحب أن تصنع، مزهرية أو كوبًا؟ اقترحت تريسي بصوت منخفض ثانية الخيار الثّالث البذيء. كانت تضحك على أمي – كان تحريرًا. لم أتخيّل أبدًا أنه أمكن لأمي أو أنه يتعيّن عليها أن تكون أضحوكة، ومع ذلك وجدت تريسي كل ما يحيط بها سخيفًا: كيف تحدّثت معنا باحترام كما لو أننا ناضجون، تُخَيّرنا في أمور شعرت تريسي أن لا شأن لنا بالاختيار بينها على الإطلاق، والرخصة التي أعطتها لنا عمومًا، متيحة لنا أن نُحدِث كل هذه الفوضى التي لا داعي لها على شرفتها – في حين عرف الجميع أن الأم الحقيقية تكره الفوضى – من ثم امتلاك الوقاحة لتسميتها «فنًّا»، الوقاحة لدعوتها «براعة». عندما حان دور تريسي وسألتها أمّي عمّا تود أن تصنع على الدّولاب، مزهريّة أو كوبًا، توقفت تريسي عن الضّحك وتجهّمت.

قالت أمي: «حسنٌ، ما الذي تودين صنعه؟» هزّت تريسي كتفيها. تابعت أمي: «لا ينبغي عليه أن يكون مُفيدًا، الفن يعني عدم الاضطرار لأن تكون مفيدًا! على سبيل المثال كان هناك في غرب أفريقيا قبل مئة عام نساء قرويات يصنعن تلك القدور غريبة الشّكل، قدورًا غير عمليّة ولم يتمكّن علماء الأنثروبولوجيا من فهم ماذا كن يفعلن، لكن ذلك كان لأن العلماء كانوا يتوقعون أنّ، بين قوسين «البدائيين» لا يصنعون إلا الأشياء المفيدة في حين في الواقع كن يصنعن القدور فقط لجمالها – لا يختلفون عن النحّات – ليس لجمع المياه ولا لاحتواء

الحبوب، فقط لجمالها ولقول: كنّا هنا، في هذه اللحظة من الزمن، وهذا ما صنعناه. حسنًا، يمكنك فعل الشيء نفسه، أليس كذلك؟ نعم، يمكنك صنع شيء تزييني. هذه حريتك! خذيها! من يعلم؟ ربما تكونين أوغستا سافاج القادمة!»

كنت معتادة على إلقاء أمي الخطب – نزعتُ إلى عدم الاكتراث كلّما فعلت – وكنت متآلفة أيضًا مع منحاها في رمي أي شيء صادف أنها تدرسه ذلك الأسبوع في محادثة عاديّة، لكني واثقة من أن تريسي لم تسمع قط أي شيء مثله من قبل في حياتها. لم تعرف ماذا يعني عالم الأنثروبولوجيا، أو ماذا يفعل النّحات، أو من هي أوغستا سافاج، أو حتى ماذا عنت كلمة «تزييني». اعتقدَت أن أمي تسخر منها. كيف أمكنها معرفة أن أمي وجدت التحدث مع الأطفال بطريقة طبيعية أمرًا مستحيلًا؟

✧ أربعة عشر ✧

كانت شقّة تريسي خالية على الدّوام تقريبًا عند وصولها إلى البيت بعد المدرسة يوميًا. من يعلم أين ذهبت أمها؟ قالت أمي: «على الطّريق العام»، – هذا عنى أنها «تشرب» – لكني مررت بمطعم السّر كولن كامبل يوميًّا ولم أرها هناك قط. في المرات التي لمحتها كانت أغلب الأحيان في الشّارع تتحدث مع أحدهم، تبكي غالبًا وتربّت على عينيها بمنديل، أو جالسة عند موقف الحافلة على الجهة الأخرى من جدار المبنى، تدخّن وتحدّق في الفراغ. أي شيء سوى الجلوس في تلك الشّقة الصغيرة – لم أنكر عليها ذلك. في المقابل أحبّت تريسي البقاء في البيت كثيرًا، لم ترغب في الذهاب إلى باحة اللعب أبدًا أو أن تخرج إلى الشّوارع. احتفظت بمفتاح في مقلمتها، دخلت، ذهبت مباشرة إلى الأريكة وبدأت بمشاهدة المسلسلات الأسترالية إلى أن تبدأ المسلسلات البريطانية، عملية بدأت عند السّاعة الرابعة عصرًا وانتهت عند بدء عرض أسماء المشاركين في مسلسل شارع كورونيشن. في مكان ما في المنتصف، إما حضّرت لنفسها الشّاي أو جاءت أمها تحمل وجبة جاهزة وانضمت إليها على الأريكة. حلمتُ بحريّة مثل حريتها. عندما أصل إلى البيت فإن أمي أو أبي يرغب بمعرفة «ما حدث في يومي المدرسي»، يُصرّان للغاية على هذا، ما كنت لأُترَك وشأني قبل أن أقول لهما شيئًا، وهكذا بدأت بطبيعة الحال أكذب عليهما. فكّرت بهما في هذه المرحلة

على أنهما طفلين أكثر منّي براءة وعلى عاتقي يقع أمر حمايتهما من الوقائع غير المريحة التي قد يطيل التفكير بها أحدهما (أمي) أو يتأثر بها (أبي). ذلك الصيف احتدت المشكلة لأن الجواب الصادق على «كيف كان يومك؟» كان: «هناك هوس في الباحة باغتصاب المهابل». ابتدع اللعبة ثلاثة أولاد يسكنون في مجمّع تريسي السّكني، لكن الآن الجميع يلعب، الأولاد الإيرلنديون واليونانيون وحتى بول بارون وهو ابن شرطي أنجلو ساكسوني. مثل لعبة المطاردة، لكن لم تكن فتاة أبدًا من يطارد، فقط الفتيان يطاردون، الفتيات ركضن وواصلن الجري إلى أن وجدنا أنفسنا محصورات في بقعة هادئة بعيدًا عن أنظار السيّدات العاملات في المقصف وعرفاء باحة اللعب، حيث سُحبت سراويلنا الدّاخلية جانبًا ويد صغيرة أقحمت في فرج كل منا، دُغدغنا بخشونة، باهتياج، من ثم ركض الفتيان مبتعدين والأمر برمته بدأ ثانية من أوله. في وسعك معرفة مدى شعبية فتاة بمعرفة من طُوردت لمدة أطول وبشدّة أكبر. كانت تريسي بقهقهتها الهستيرية وبجريها البطيء عمدًا كالمعتاد الرقم واحد. أنا، راغبة في أن أشتهر ركضت أحيانًا أيضًا ببطء والحقيقة المحرجة هي أني رغبت أن يُقبض علي، راق لي التيار الكهربائي الذي سرى من فرجي إلى أذني، حتى بمجرد ترقّب اليد الصّغيرة الدّافئة – لكنها أيضًا حقيقة أنه عندما ظهرت اليد بالفعل، منعكسةً فيّ، في مفهوم راسخ من الحفاظ على الذّات ورثته عن أمي، عصرتُ ساقيّ دومًا معًا، وحاولت مجابهة اليد، وهذا في النهاية كان أمرًا مستحيلًا دومًا. كل ما فعلته تجلى في أن أجعل من نفسي غير محبوبة أكثر بالكفاح من أجل تلك اللحظات الأولى.

فيما يخصّ مسألة الرّغبة في أن تكون مطاردًا، أن يطاردك فتى أو سواه، فلا، هذا لم يكن يعني أحدًا. لم يكن هناك تراتبية في

الرغبة، لأن الرغبة شكّلت عنصرًا ضعيفًا جدًا في اللعبة لا وجود له عمليًّا. الهام في الأمر كان أن يُنظر إليكِ على أنك من الفتيات الجديرات بالمطاردة. لم تكن لعبة جنسيّة لكن تتعلّق بالمكانة وبالنفوذ. لم نرغب أو نهاب الفتيان في ذاتهم، فقط رغبنا وخشينا أن نكون مرغوبات أو غير مرغوبات. كان الفتى المصاب بالأكزيما استثناء، نحن جميعًا خشيناه بإخلاص وصدق، تريسي مثلها مثل أي شخص قالت: لأنه يخلّف في سروالك التحتي شذرات صغيرة من الجلد الرمادي الميت. عندما تحولت لعبتنا من مزاح الباحة إلى خطر قاعة الصّف، تحوّل الفتى المصاب بالأكزيما إلى كابوسي اليومي. أصبحت اللعبة الآن على الشّكل التّالي: رمى فتى قلم رصاص على الأرض دومًا في اللحظة نفسها التي كان السّيد شيرمان يدير فيها ظهره لنا وينظر إلى السّبورة. زحف الفتى تحت الطاولة كي يسترد القلم وجاء إلى منفرج فتاة، أزاح لباسها الدّاخلي جانبًا وأقحم أصابعه مبقيًا إياهم هناك مدّة تطول بقدر ما اعتقد أنه يمكن أن يُفلت بفعلته. الآن العنصر العشوائي قد تلاشى: فقط الفتيان الثلاثة الأصليّون لعبوا، وهم فقط من زاروا تلك الفتيات اللواتي كن قريبات من مناضدهم ومَن تصوّروا أنهنّ لن يتذمرن. كانت تريسي إحدى تلك الفتيات، وأنا، وفتاة تقطن في الممر الذي أسكنه تُدعى ساشا ريتشاردز. الفتيات البيض – اللواتي كنّ عمومًا مدرجات في هوس الباحة – لم يعدن الآن كذلك لسبب مبهم: كما لو أنهن لم تكن يومًا متورطات منذ البداية. جلس الفتى المصاب بالأكزيما في مقعدٍ بعيد عني. كرهت تلك الأصابع المحرشفة، كنت مرعوبة ومشمئزة منها، ومع ذلك لم أتمكن إلا أن أستمتع بذلك التيار الكهربائي المبهج والمتعذّر ضبطه يسري من سروالي إلى أذني. بالتّأكيد، لم يكن شرح مثل هذه الأمور لوالدي ممكنًا. في الواقع هذه هي المرة الأولى التي شرحت فيها

الأمر بهذه الطريقة لأي شخص، حتى لنفسي.

غريب الآن أن تفكر أن عمرنا لم يتجاوز تسع سنوات في ذلك الحين. لكني لا أزال أنظر إلى تلك الفترة بقدرٍ من الامتنان بسبب ما توصلت إلى رؤيته على أنه حظي النسبي. كان موسم الجنس، نعم، لكنه كان أيضًا بكل السبل الحيوية دون الجنس ذاته – أوليس ذلك تعريفًا مُفيدًا لبنّوتةٍ سعيدة؟ لم أعرف أو أثمّن هذا الجانب من حظي حتى تجاوزت سنّ الرشد عندما بدأت أجد في حالات أكثر مما كنت لأخمّن أن من بين صديقاتي، بصرف النظر عن خلفيتهن، من استُغلت مواسم الجنس في طفولتهن ودُمّرَت بآثام أعمام وآباء، وأبناء عمومة، وأصدقاء، وغرباء. أفكّر بإيمي: تعرّضَت للتحرش في السّابعة واغتُصبت في السّابعة عشرة. وخلف الحظ الشّخصي هناك حظ جغرافي وتاريخي. ما حدث للفتيات في المستعمرات – أو في إصلاحيات الأحداث الفيكتورية؟ إن الموقف الوحيد الذي تعرضت إليه حدث في غرفة تخزين الوسائل الموسيقيّة، ولم أقترب أكثر على الإطلاق، ولدي حظّ تاريخي أثمّنه بالتّأكيد، لكن أيضًا تريسي، كما حدث، هي التي أتت لإنقاذي بطريقتها الخاصّة. في الساعات الأخيرة من نهار يوم جمعة، قُرب نهاية العام الدراسي، ذهبت إلى غرفة تخزين الوسائل الموسيقيّة في المدرسة لأستعير بعض الصفحات، كانت لأغنية «ضحكنا جميعًا» التي غناها آستر ببساطة شديدة وبطريقة ممتازة ونويت إعطاءها السيّد بوث صباح يوم السّبت ليساعدنا على غناءها كثنائي. جزء آخر من حظي أن السّيد شيرمان، مدرس صفّي، كان يدرّس الموسيقى في المدرسة أيضًا، وكان مثلي متحّمسًا للأغاني القديمة: لديه خزانة حافلة بالقطع الموسيقية لجورج غيرشوين وبورتر وهلمّ جرا، محفوظة هنا، وفي أيّام الجُمَع سمح لي باستعارة ما أشاء لأعيده يوم الإثنين. كان المكان نموذجيًا

في مثل هذه المدارس ذلك الحين: فوضويًا، صغيرًا جدًّا، دون نوافذ، وعدد كبير من ألواح السقف مفقودة. كانت حقيبتا آلتَي كمان وتشيلو قديمتان مكوّمتين فوق بعضهما إزاء جدار، وهناك أنابيب بلاستيكية من آلات النفخ الريكوردر مليئة بالبصاق، فم الآلات الموسيقية ممضوغ مثل ألعاب الكلاب. كان يوجد آلتي بيانو، واحدة مكسورة تعلوها طبقة من الغبار، والأخرى غير مدوزنة، وكثير من مجموعات الطبول الأفريقية لأنها رخيصة نسبيًا وأي شخص يمكنه القرع عليها. المصباح العلوي لم يعمل. انبغى عليك معرفة ما تريده والباب لا يزال مفتوحًا ومعيّنًا مكانه بدقة، من ثم إذا لم يكن الغرض في متناول الذراع، فدع الباب ينغلق وسِر في الظلمة. أخبرني السّيد شيرمان أنه ترك المجلد الذي كنت بحاجة إليه فوق خزانة الملفات الرمادية في الزاوية اليسرى القصيّة، ووجدت الخزانة، فتركت الباب ينغلق بيسر. كانت الظلمة مطبقة. المجلّد في يدي وظهري إلى الباب. عندما تسلل خيط واه من الضوء إلى الغرفة بضع لحظات واختفى. التفت – شعرت بيدين علي. زوجان من الأيدي تعرفت عليهما في الحال – يد الفتى المصاب بالأكزيما، الأخرى سرعان ما فهمت أنها يد صديق هذا الفتى المقرب، طفل طويل نحيل غير متناسق يدعى جوردان، كان غبيًا سهل الانقياد وأحيانًا مندفعًا على نحو خطر، مجموعة من الأعراض التي لم يكن لها في ذلك الحين تشخيص دقيق أو لا شيء أفصح عنه جوردان أو أمه أبدًا. كان جوردان في صفّي لكني لم أنادِه يومًا بهذا الاسم، بل دعوته «سباز[10]»، وكذلك فعل الجميع، لكن إذا كان المقصود منه إهانة ما فقد أبطلها منذ مدّة طويلة بالرد عليها بابتهاج كما لو أنه اسمه. كانت حالته خاصّة في صفّنا: على الرغم من وضعه، فقد كان طويل القامة ووسيمًا. في حين بدونا كالأطفال، هو بدا

10) Spaz: وتعني الشخص الفاقد للسيطرة العاطفية والجسدية.

مثل راشد، ذراعاه مفتولتا العضلات وشعره حاد حليق على الجانبين في صالون حلاقة حقيقي. لم يكن يجيد أداء الواجبات الصفيّة، ولم يكن لديه أصدقاء حقيقيين، لكنه كان مساعدًا مفيدًا ومستسلمًا للفتيان الذين يملكون خططًا شائنة وكان غالبًا موضع انتباه المدرسين، لأدنى مقاطعة منه أثر غير متكافئ وهذا كان مثيرًا لاهتمامنا نحن البقية.

أمكن لتريسي أن تقول لمدرّس «اغرب عني» وقد فعلت ذلك دون أن يرسلها حتى للوقوف في القاعة، لكن جوردان قضى معظم وقته في تلك القاعة جراء ارتكابه ما بدت لنا مخالفات صغيرة – المجادلة أو رفض خلع قبّعة البيسبول – وبعد حين بدأنا نفهم أن المدرّسات، لا سيما النّساء بيض البشرة، يخشينه. احترمنا ذلك: بدا مثل أمر خاص، إنجاز، أن تجعل النّساء الناضجات يخشينك ولو أن عمرك لم يتجاوز تسع سنوات ومتخلّفًا عقليًا. شخصيًا لم أكن على علاقة طيّبة معه: دسّ أصابعه في سروالي التحتي أحيانًا لكنني لم أقتنع أبدًا أنه عرف ما دعاه لفعل ذلك. وفي الطريق إلى البيت، إذا صادف أن تجانسنا في الخطو، غنيت له أحيانًا – اللحن الأساسي لبرنامج الرسوم المتحركة توب كات، كان مهووسًا به – وهذا هدّأه وأسعده. يسير ملتفتًا نحوي، يصدر صوت بقبقة خفيض مثل طفل هانئ. لم أفكر فيه على أنه مُعتدٍ ومع ذلك كان هنا في غرفة تخزين الوسائل الموسيقى، يمسني في كل مكان، يقهقه بجنون، يتبع ويقلد الضحكة المحسوبة أكثر على الفتى المصاب بالأكزيما وكان واضحًا أن هذه لم تكن لعبة الباحة أو قاعة الصّف، كان تصعيدًا جديدًا وربما خطرًا. كان الفتى ذو الأكزيما يضحك وكان يُفترض بي أن أضحك، كان يُفترض بالأمر برمته أن يكون مزحة، لكن كلّما حاولت الاحتفاظ بقطعة من ملابسي خلعاها عني، وكان يفترض بي أن أضحك على ذلك أيضًا. ثم توقف الضّحك وشيء

ملح حلّ محله، عملا في صمت، ولزمت الصّمت. في تلك اللحظة عاود خيط الضوء النحيل الظهور. وقفت تريسي عند الباب: رأيت صورتها الظليّة محاطة بالضوء. أغلقت الباب من خلفها. لم تنبس بكلمة. فقط وقفت معنا في الظلام صامتة لا تفعل شيئًا. أبطأت يدا الفتيين: كانت نسخة طفولية من حماقة جنسية - مألوفة بالنسبة للكبار - عندما أمرٌ بدا مُلحًّا للغاية ومستهلكًا قبل لحظة، فجأة يبدو (غالبًا في اقتران مع مصباح يضاء) صغيرًا وغير ضروري، بل مأسَويًّا.

نظرت إلى تريسي، لا تزال متّقدة في شبكيّة عيني بشكل بارز: رأيت رسمها، الأنف مرتفع الأرنبة، الغدائر المقسّمة بإتقان مع شرائط السّاتان. أخيرًا تراجعت خطوة، فتحت الباب على اتساعه وأبقته مفتوحًا. قالت: «بول بارون ينتظركِ عند البوابة». حدّقت إليها ورددّت العبارة ثانية، هذه المرة بانفعال كما لو أني أهدر وقتها. جذبت تنورتي نحو الأسفل وانطلقت مسرعة. كلانا عرف أنه ليس ممكنًا أن ينتظرني بول بارون عند البوابة، جاءت أمه يوميًّا لتصحبه في سيارة من نوع فولكسفاغن، كان والده شرطيًّا، شفته العلوية ترتجف على الدوام وعيناه واسعتان نديتان زرقاوان مثل جرو. لم أتحدث كلمتين مع بول بارون في حياتي بطولها. ادّعت تريسي أنه دسّ أصابعه في سروالها التحتي لكني رأيته يلعب تلك اللعبة ولاحظت أنه ركض حول الباحة على غير هُدىً باحثًا عن شجرة ليختفي وراءها، اشتبهت بقوة في أنه لم يرغب في أن يمسك بأحد، لكن اسمه كان مناسبًا في تلك اللحظة المناسبة، لم يكن مستبعدًا أني قد أتلاعب معه طالما اعتُبرت جزءً من ذلك المكوّن في المدرسة الذي لم تتوقع أو تستحق ما هو أفضل منه، لكن بول بارون كان جزءً من العالم الآخر، لم يكن ممكنًا العبث معه، وشكّل هذا الاتصال المتخيل معه حتى ولو للحظة حماية من نوع ما.

ركضت أهبط التلة نحو البوابة ووجدت والدي ينتظرني هناك. اشترينا المثلجات من العربة وسرنا إلى البيت سوية. عند إشارة المرور سمعت صخبًا كثيرًا ونظرت فشاهدت تريسي والفتى ذا الأكزيما والآخر المدعو سباز، يضحكون ويتقاتلون ويتلاعبون بعضهم مع بعض، يتشاتمون جهارًا ويظهر أنهم يستمتعون باستهجان واستنكار الناس الذين ظهروا الآن وغلفوهم مثل سحابة من الهوام من الطابور عند موقف الحافلة، من أصحاب المتاجر الواقفين في مداخلهم، والأمهات، والآباء. حدّق والدي حسير البصر، بالجانب الآخر من الطريق باتجاه الشّغب وقال:

«أليست تلك تريسي، أليست هي؟»

الفصل الثاني

سابقًا ولاحقًا

واحد

كنت لا أزال طفلة عندما تقاطعت دربي ودرب إيمي للمرة الأولى – لكن كيف لي أن أدعوه بالقدر؟ تقاطعت دروب الجميع مع دربها في اللحظة ذاتها، حال ظهورها كانت خارج المكان والزمان وليس دربًا واحدًا لتقطعها بل جميع الدّروب – كانت ملكًا لها، مثل الملكة في أليس في بلاد العجائب، كل الطرق ملك لها – ولا شك أن الملايين شعروا بما شعرت. كلما استمعوا إلى تسجيلاتها شعروا بأنهم يلتقون بها – ولا يزالون. ظهرت أغنيتها الأولى في أسبوع عيد ميلادي العاشر. كانت في الثانية والعشرين من عمرها في ذلك الحين. قالت لي مرة إنها مع نهاية تلك السّنة ذاتها لم يعد بوسعها السّير في الشّارع سواء في ملبورن، أو باريس، أو نيويورك، أو لندن، أو طوكيو. مرة عندما كنا نحلق فوق لندن معًا في الطريق إلى روما، نتحدث حديثًا عابرًا عن لندن المدينة بحسناتها وسيئاتها، اعترفت أنها لم تستقل يومًا قطار الأنفاق ولو مرة واحدة، ولم تتمكن من تخيل نفسها تجرب الأمر حقًا. أشرت إلى أن أنظمة قطارات الأنفاق في جوهرها متشابهة في جميع أنحاء العالم، لكنها قالت إن آخر مرة ركبت قطارًا من أي نوع كانت لدى مغادرتها أستراليا ذاهبة إلى نيويورك قبل عشرين عامًا. قد مضى ستة أشهر أخرى فقط على خروجها من مسقط رأسها الخاملة في تلك المرحلة، أصبحت نجمة مستقلّة في ملبورن بسرعة كبيرة جدًا واستغرق الأمر ستة أشهر أخرى فقط في نيويورك لتقضي

على المنافسة. نجمة محققة منذ ذلك الحين، حقيقة في نظرها خلَت من الحزن أو أي أثر للعصاب أو رثاء الذّات، وهذا واحد من الأمور اللافتة المتعلقة بإيمي: لم يكن لديها جانب مأسوي. تقبل كل ما حدث لها باعتباره قدرها، لم تكن متفاجئة لتكون من تكون كما أتخيل أن كليوباترا كانت لتكون متفاجئة لتكون من كانت.

اشتريت تلك الأغنية المُفْرَدة فور توفّرها في الأسواق هديّةً لليلي بينجهام، بمناسبة حفل عيد ميلادها العاشر الذي صادف حدوثه قبل بضعة أيام من عيد ميلادي. دُعينا تريسي وأنا إلى حفلتها، كنا قد تسلّمنا الدعوات الورقية الصّغيرة منزلية الصّنع - صنعتها ليلي نفسها - صباح يوم سبت في حصّة الرّقص. كنت سعيدة للغاية، لكن تريسي ربما شكًّا منها بأنها دُعيت من باب اللباقة، أخذت الدعوة ونظرةٌ حانقة تعلو وجهها، ثم مرّرتها مباشرة إلى أمها التي وصل بها القلق بهذا الشّأن إلى حد أن تستوقف أمي في الشّارع بعد بضعة أيام وتكيل لها الأسئلة. هل هو مكان يسعك إرسال ولدك إليه؟ أو هل توقعت هي من حيث كونها الأم دخول المنزل؟ قالت الدعوة إنها رحلة إلى السّينما - لكن من سوف يدفع ثمن التّذكرة؟ الضّيف أم المضيف؟ هل عليك حمل هدية؟ أي نوع من الهدايا سوف نجلب؟ هل تسدي أمي لها معروفًا بأن تصحبنا نحن الاثنتين؟ كان كما لو أن الحفلة تقام في أرض غريبة محيّرة، وليس على مسافة ثلاث دقائق سيرًا على الأقدام، في منزل على الجانب الآخر من المتنزه.

قالت أمي بأقصى حدٍّ من التكبر إنها سوف تصحبنا وتبقى إذا تطلب الأمر البقاء. بالنسبة للهدية اقترحَت تسجيلًا، أغنية مفردة شعبية، قد نقدمها نحن الاثنتان، رخيصة لكن بالتّأكيد تلقى الاستحسان: سوف تأخذنا عبر الطريق العام إلى متجر وولورثس لنعثر على شيء مناسب. لكن كنا مستعدتين. عرفنا بالضّبط أي تسجيل

أردنا شراءه، اسم الأغنية والمغنية وعرفنا أن أمي – التي لم تقرأ يومًا صحيفة شعبية مصوّرة واستمعت فقط إلى محطات الريفي – سوف تكون جاهلة بشُهرة إيمي. كان الغلاف مصدر قلقنا الوحيد: لم نكن قد رأيناه، لم نعرف ما الذي ينتظرنا. بالنظر إلى الكلمات – والأداء الذي كنا قد شاهدناه، فاغرتي الفم ضمن برنامج توب أوف ذا بوبس – شعرنا أن كل شيء وارد تقريبًا. قد تكون عارية تمامًا على غلاف أغنيتها المفردة، أو معتلية رجلًا – أو امرأة – يمارسان الجنس، ربما ترفع إصبعها الوسطى كما فعلت لحظة في عرض تلفزيوني للأطفال في بثٍّ حي فقط قبل أسبوع. قد يكون صورة فوتوغرافية لإيمي وهي تؤدي إحدى حركاتها الراقصة المثيرة والمدهشة، بسببها هجرنا مؤقتًا فرد آستر لأننا رغبنا فقط أن نرقص مثل إيمي ونقلدها كلما سنحت لنا الفرصة والخصوصية، نتمرن على انثناء خصرها المائع – مثل موجة من الرغبة تعبُر جسدًا – وعلى طريقتها في هز وركيها الضيقين الصبيانيّين ورفع نهديها الصّغيرين من قفصها الصّدري، تلاعب بارع بالعضلات لم نمتلكه بعد ونهدا كل واحدة منا لم ينضجا بعد.

عندما وصلنا إلى وولورثس، أسرعنا نتقدم أمي وذهبنا مباشرة إلى رفوف التّسجيلات. أين كانت؟ بحثنا عن قَصّة الشّعر الأشقر – الأبيض لجنيّة، العينين المجفلتين، زرقاء شاحبة إلى درجة أنها بدت رمادية، وذلك الوجه الفاتن، خنثويّ بذقنه المدببة الصّغيرة، نصف بيتر بان[11] ونصف أليس. لكننا لم نجد صورة لإيمي لا عارية ولا سوى ذلك: فقط اسمها وعنوان الأغنية جنبًا إلى جانب كُمٍّ أيسر، بينما

11) Peter Pan: هو شخصية خيالية من تأليف الروائي والكاتب المسرحي الأسكتلندي جيمس ماثيو باري (J. M. Barrie). بيتر بان هو ولد شقيّ يمكنه الطيران ولا يكبُر، يقضي طفولته التي لا تنتهي في مغامرات على أرض جزيرة نيفرلاند (Neverland) زعيما لعصابة الأطفال الضالّين (Lost Boys) ويتعامل مع حوريات البحر والأمريكيين الأصليين والجن والقراصنة، وأحيانا مع الأطفال العاديين من خارج جزيرة نيفرلاند.

احتلّ بقية الفراغ صورة محيرة بالنسبة لنا لهَرَم وعين تحوم فوقه، أيْ عين مُحتواة في رأس مثلّث. كان لون الكُمّ أخضر متسخًا وبعض كلمات مكتوبة فوق الهرم وتحته بلغة لم نستطع قراءتها. مشوشتين ومرتاحتين، جلبناه لأمي التي قربته من وجهها – كانت أيضًا حسيرة البصر قليلًا، ولو أنها متكبرة على ارتداء النظارة – تجهمت وسألت إذا كانت «أغنية عن المال». كنت حريصة للغاية في الإجابة. عرفت أن أمي مفرطة في الاحتشام حول النقود أكثر بكثير من الجنس.

«إنها ليست حول أي شيء. إنها مجرد أغنية».

«تظنين أن صديقتك سوف تحبها؟»

قالت تريسي: «سوف تحبها. الجميع يحبها. هل يمكننا الحصول على نسخة أيضًا؟»

تنهّدت أمي وهي لا تزال عابسة، ذهبت للحصول على نسخة ثانية عن الرّف، مشت نحو النّضد ودفعت ثمن النسختين.

كانت حفلة من النّوع الذي يغادر فيه الأهل، وذلك أحبط أمي، هي التي لا ينضب فضولها حول بيوت الطبقة المتوسطة من الدّاخل، لكن لم تبدُ أنها منظمة مثل الحفلات التي عرفناها، لم يكن هناك رقص أو ألعاب، لم تكن والدة ليلي متأنقة على الإطلاق، بدت تقريبًا مثل المشردين، شعرها بالكاد مسرح. تركنا أمي عند الباب بعد مبادلة سمجة – صرخت والدة ليلي عندما رأتنا: «ألا تبدوان ساحرتين أيتها الفتاتان!» – بعدها أضفنا إلى كومة من الأطفال في غرفة الجلوس، جميعنا فتيات، ما من واحدة منهن في المزيج الزهري والماسي المكشكش الذي ارتدته تريسي، لكن لم تكن واحدة ترتدي فستانًا مخمليًا أسود ذا ياقة بيضاء فكتوريّة مثل الفستان الذي اعتقدت أمي أنه سوف يكون مثاليًا وقد «اكتشفته» من أجلي في المتجر المحلي الخيري. ارتدت

الفتيات الأخريات بنطال جينز وسترًا قصيرة بهيجة المنظر، أو مراويل قطنية بسيطة بألوان أساسية، وعندما دخلنا الغرفة توقفن جميعًا عما كن يفعلنه والتفتن ليحدقن. قالت والدة ليلي ثانية: «ألا تبدوان جميلتين؟» وخرجت تاركة إيّانا معهن. كنا الفتاتين السوداوين الوحيدتين، وسوى ليلي لم نعرف أحدًا هناك. في الحال أصبحت تريسي عدائية. في الطريق إلى هناك تجادلنا حول من سيقدّم هديتنا المشتركة إلى ليلي – بطبيعة الحال كسبت تريسي – لكن الآن رمت الهدية المغلّفة على الأريكة دون أن تأتي على ذكرها، وعندما سمعت اسم الفيلم الذي كنا ذاهبين لمشاهدته – كتاب الأدغال – استنكرته معتبرة إياه «طفوليًّا» و«مجرّد رسوم متحركة» وفيلمًا مليئًا بالحيوانات الصّغيرة الحمقاء، قالت ذلك بصوت بدا لي فجأة مرتفعًا للغاية، متميزًا للغاية، أُسقط منه عدد كبير من حروف التاء.

عاودت والدة ليلي الظهور. احتشدنا في سيارة زرقاء طويلة فيها عدة صفوف من المقاعد مثل حافلة صغيرة. وعندما امتلأت هذه المقاعد، طُلب من تريسي وأنا وفتاتين أخريين الجلوس في الفراغ في المؤخرة، في الصّندوق الذي كان مبطنًا ببساط قذر من التارتان مكسوًّا بوبر كلب. كانت أمي قد أعطتني ورقة من فئة خمسة جنيهات في حال كان منتظرًا من أي منا دفع ثمن أي شيء وخشيتُ عليها من الضياع: ما فتئت أخرجها من جيب معطفي، أسويها على ركبتي من ثم أطويها إلى أرباع ثانية. كانت تريسي في هذه الأثناء تسلي الفتاتين الأخريين بأن تعرض عليهما ما فعلناه عادة كلما جلسنا في مؤخرة الحافلة المدرسية التي أقلتنا مرة في الأسبوع إلى متنزه بادينجتون ريك من أجل حصة التربية الرياضية: نهضت على ركبتيها بقدر ما سمح المكان، وضعت إصبعين على شكل إشارة النصر في جانبي فمها وأقحمت لسانها دخولًا

وخروجًا نحو السّائق المهان في السّيارة في الخلف. عندما توقفنا بعد خمس دقائق عند ويلزدن لين، كنت شاكرة لانتهاء الرحلة لكن مثبطة بالوجهة. خيل إليّ أننا متوجهون إلى إحدى صالات السينما الكبيرة في مركز البلدة، لكننا ركنّا أمام صالة أوديون المحلية الصغيرة تمامًا عند شارع كيلبورن العام. كانت تريسي مستمتعة: هذه منطقة مألوفة لها. بينما كانت والدة ليلي لاهية عند نافذة بيع التذاكر عرضَت تريسي على الجميع كيف تسرق الحلوى دون دفع ثمنها، من ثم ما إن دخلنا الصالة المظلمة، أرتهم كيف تجلس متّزنة على المقعد القلّاب فلا يستطيع أحد خلفك رؤية الشاشة، وكيف تركل المقعد أمامها حتى يستدير الشّخص.

ظلت والدة ليلي تتمتم: « يكفي الآن»، لكنها لم تتمكن من فرض أي سلطة، بدا شعورها بالإحراج يمنعها. لم ترغب منا أن نصدر ضجة لكن في الوقت نفسه لم تتمكن من تحمل إصدار الضجّة اللازمة التي يمكن أن توقفنا عن فعل ذلك، وحالما فهمت تريسي هذا – وفهمت أيضًا أن والدة ليلي لا تنوي لطمها أو شتمها أو جرّها من أذنها خارج السّينما، كما كانت ستفعل والدة كلّ منّا – حسنًا، حينها شعرت بأنها حرّة تمامًا. لم تكُف عن إلقاء التعليقات طوال الوقت ساخرة من الحبكة والأغاني، تصف الطرق العديدة التي سوف يحيد بها السّرد بعنف عن وجهة نظر كل من ديزني وكيبلينج لو كانت هي نفسها في مكان أي واحدة من الشّخصيات جميعها. «لو أنني تلك الأفعى كنت لأفتح فكي وألتهم ذلك الأحمق في لقمة واحدة!» أو «لو أنني ذلك القرد كنت لأقتل ذلك الفتى حال ظهوره في مكاني!» كان ضيوف الحفلة الآخرين متحمسين بتلك التدخلات وضحكوا بأعلى صوت.

فيما بعد في السيارة حاولت والدة ليلي أن تبدأ حديثًا مهذّبًا حول مزايا الفيلم. قالت بضع فتيات أشياء لطيفة، من ثم رفعت

تريسي صوتها جالسة ثانية في أقصى المؤخرة – كنت بخيانة مني قد انتقلت إلى الصفّ الثاني: «ما اسمه – ماوكلي؟ يبدو مثل خورشيد في صفنا. أليس كذلك؟»

أجبتها: «نعم إنه كذلك. يبدو تمامًا مثل الفتى خورشيد زميلنا في الصف».

اهتمّت والدة ليلي اهتمامًا مبالغًا به، أدارت رأسها عندما توقفنا عند إشارة المرور.

«ربما والداه من الهند».

قالت تريسي كيفما اتفق وهي تشيح ببصرها من النافذة: «لا، خورشيد باكي[12]».

عدنا إلى المنزل بصمت.

كان هناك قالب حلوى منزلي الصّنع زُيّن برداءة. غنّينا «عيد ميلاد سعيد»، لكن حينها كان لا يزال لدينا نصف ساعة قبل موعد مجيء أهلنا لاصطحابنا، وبدت والدة ليلي قلقة فلم تكن قد خطّطت لهذا، وسألتنا عمّا نودّ فعله. استطعت أن أرى من خلال أبواب المطبخ مكانًا طويلًا أخضر تنمو فيه الأجمات والعرائش بإفراط، وتشوّقت للخروج إلى هناك لكن كان هذا مستبعدًا: برد قارس.

«لماذا لا تصعدن جميعكن إلى الأعلى وتستكشفن – تحظين بمغامرة؟» استطعت رؤية إلى أيّ حدّ كانت تريسي مغرمة بهذا. قال لنا الكبار أن «نبتعد عن المشاكل» وأن «نذهب ونعثر على شيء نفعله» أو «اذهبوا وافعلوا شيئًا مُفيدًا» لكننا لم نعتد على أن يقال لنا – بصيغة الأمر! – أن نحظى بمغامرة. كانت عبارة من عالم آخر. رافقت ليلي اللطيفة دومًا، الودودة دومًا، الكريمة دومًا – جميع ضيوفها إلى غرفتها

12) Paki: وهو نعت يقصد به الشخص الذي ولد في باكستان أو من أصول باكستانية ويعيش في بريطانيا.

وأرتنا ألعابها القديمة والجديدة، أي شيء تخيلناه دون أي إشارة على خُلُقٍ سيئ أو تملّكيّة.

حتى أنا التي سبق لي زيارة منزلها مرة واحدة فقط، شعرت بأنّي تملكيّة تجاه أشياء ليلي أكثر من ليلي نفسها. رحت أري تريسي المباهج العديدة لغرفة ليلي كما لو أنها أشيائي، أنظّم كم من الوقت يمكنها أن تحمل هذا الغرض أو ذاك، أشرح لها مصدر الأشياء على الجدران. أريتها ساعة السواتش الضّخمة –وأخبرتها أن ليس عليها أن تمسّها– وأشرت إلى ملصق دعائيّ لمصارعة ثيران اشترته عائلة بينجهام عندما كانوا في عطلة في إسبانيا، تحت صورة المصارع بدلًا من اسم المصارع طُبع بأحرف ضخمة ملتوية: ليلي بينجهام. أردتُ أن تندهش تريسي بهذا كما دُهشت عندما رأيتها أوّل مرة، لكن بدلًا من ذلك تململت، التفتت عني وقالت لليلي: «هل لديك مسجلة؟ سوف نصنع استعراضًا». كانت تريسي أفضل مني في الألعاب التخيليّة وكانت لعبتها المفضلة «بوتينغ أون شو، إقامة استعراض». لعبناها غالبًا، دومًا نحن الاثنتان فقط، لكن الآن بدأت تُدرج تلك الفتيات السّت في «لعبتنا»: أرسلت واحدة إلى الطابق الأرضي لتجلب الهدية الملفوفة التي سوف تكون موسيقانا، وكلّفت أخريات بصنع التذاكر من أجل العرض القادم، من ثم إعداد ملصق للدعاية له، وأخريات جمعن الوسائد والمخدات من غرف مختلفة لاستعمالها كمقاعد، وتريسي أرشدتهن أين يُفرغن مكانًا ليكون «المسرح». كان مزمعًا إقامة العرض في غرفة شقيق ليلي المراهق حيث يحتفظ بالمسجلة. لم يكن في البيت وتصرّفنا في غرفته كما لو أن لنا فيها حقًا طبيعيًا. لكن عندما أصبح كل شيء منظّمًا تقريبًا أعلمت تريسي فجأة عمالها أننا أنا وهي سوف نظهر في العرض في النهاية – الباقيات جميعًا سوف يشكّلن الجمهور. عندما تجرّأت بعض الفتيات على التشكيك في هذه السياسة

سألتهن تريسي بدورها بعدائية: هل يذهبن إلى درس الرّقص؟ هل حصلن على أيّ ميدالية ذهبية؟ هل حصلت أي واحدة منهن على قدر مساو لما حصلت عليه؟ بدأت بعض الفتيات بالبكاء. غيرت تريسي نبرتها قليلًا: فلانة وفلانة يمكن أن يعتنين «بالإضاءة»، فلانة وفلانة يمكن أن يكُنّ «مساعدات الإخراج » و«مصمّمات الملابس» أو يقدّمن العرض، وليلي بينجهام يمكن أن تصوّره بواسطة كاميرا والدها الرقميّة. تحدثت تريسي معهن كما لو أنهن حديثات ولادة، وتفاجأت كم سريعًا طيّب خاطرهن. قبلن أعمالهن السخيفة المصطنعة وبَدَون سعيدات. ثم أبعد الجميع إلى غرفة ليلي أثناء «تمريننا». في هذه اللحظة عرضت عليّ «الملابس»: قميصين تحتيّين مخرّمين من دُرج السّيدة بينجهام الخاص بالملابس الدّاخلية. قبل أن أتمكّن من الكلام كانت تريسي تخلع فستاني من رأسي.

قالت: «أنت ترتدين الأحمر».

شغلنا التّسجيل وتمرّنا. عرفت بوجود أمر خاطئ، أنها لا تشبه أي رقصة نفّذناها من قبل، لكني شعرت أن الأمر خارج عن إرادتي. صمّمَت تريسي الرّقصات دومًا: كان عملي الوحيد أن أرقص بشكل جيّد قدر استطاعتي. عندما ارتأت أننا مستعدات دعت جمهورنا للعودة إلى غرفة شقيق ليلي ليجلس على الأرض. وقفت ليلي في المؤخّرة، المسجلة الثّقيلة على كتفها الضيق الزهري، عيناها الزرقاوان الشّاحبتان مفعمتان بالتّشويش – حتى قبل أن نبدأ الرّقص – لمرأى فتاتين ترتديان هذه الأشياء المثيرة التي تخصّ والدتها وبالتّأكيد لم يسبق أن رأتها في حياتها. ضغطت الزر الذي كتب عليه «تسجيل» وبذلك حركت سلسلة من الأسباب والمؤثرات التي بدت بعد أكثر من ربع قرن مثل مصير، يكاد يكون مستحيلًا ألا تعتبره مصيرًا، لكن مهما

كنت تظن بالمصير – يمكن القول عنه بالتّأكيد وبعقلانية أن له نتيجة عمليّة واحدة: ليس بي حاجة الآن لوصف الرّقصة نفسها. لكن كان هناك أمورًا لم تلتقطها الكاميرا. عندما وصلنا إلى لازمة الأغنية الأخيرة – اللحظة التي امتطيت فيها تريسي على ذلك الكرسي – هذه كانت أيضًا لحظة صعود والدة ليلي بينجهام إلى الأعلى لتخبرنا أن أم فلانة وفلانة وصلتا، فتحت باب غرفة نوم ابنها ورأتنا. لهذا السّبب يتوقّف المشهد فجأة كما هو الحال. تجمّدت عند العتبة متحجرة مثل زوجة لوط. ثم انفجرت. تبعدنا عن بعضنا، خلعت عنا ملابسنا وطلبت من مشاهداتنا العودة إلى غرفة ليلي ووقفت عندنا بصمت ونحن نرتدي ثيابنا الحمقاء. واصلتُ الاعتذار. تريسي التي لم تملك بطبيعة الحال شيئًا سوى ردود وقحة على الكبار الغاضبين لم تقل شيئًا على الإطلاق، لكنها ملأت كل إيماءة بالاحتقار، حتى تمكنت من ارتداء ثوبها الضّيق بشكل تهكمي. رنّ جرس الباب ثانية. نزلت والدة ليلي بينجهام إلى الأسفل. لم نعرف فيما إذا كان علينا أن نتبعها. لأن في الخمس عشرة دقيقة التالية عندما واصل جرس الباب الرنين بقينا حيث كنا. لم آت بنأمة، فقط وقفت هناك، لكن تريسي مع روح المبادرة النموذجي أقدمت على فعل ثلاثة أمور. أخرجت شريط الفيديو من المسجلة ووضعت الأغنية في حافظتها ووضعت الاثنين في الكيس الحريري الزهري الذي اعتبرته والدتها مناسبًا لتحمله على كتفها.

أمي المتأخرة دومًا على كل شيء كانت آخر الواصلات، كانت مصحوبة إلى الأعلى لتجدنا، مثل محام قادم ليتحدث مع زبائنه عبر قضبان زنزانة، بينما قدمت والدة ليلي رواية تعبت في صياغتها عن نشاطاتنا، تضمنت السّؤال البلاغي: «ألا تتساءلين من أين جاء أطفال في هذا العمر بتلك الأفكار؟» أصبحت أمي دفاعية: شتمت وتشاجرت

المرأتان باقتضاب. لقد صُدمت. لم تبد مختلفة في تلك اللحظة عن جميع الأمهات الأخريات اللاتي وُوجهن بسوء سلوك طفل لهن في المدرسة – حتى أن بعضًا من لهجتها العامية قد عاد – ولم أعتد على رؤيتها تفقد السّيطرة. تلقّفتنا من قفا فستانينا وجميعنا نحن الثلاثة نزلنا إلى الطابق الأرضي، لكن والدة ليلي تبعتنا وفي الرواق رددت ما قالته تريسي حول خورشيد. كانت ورقتها الرابحة. بقيّة ما قالته أمكن لأمي أن تتناساه على أنها «أخلاقيات بورجوازية نموذجية»، لكنها لم تتمكن من تجاهل «باكي». في ذلك الحين كنا «سودًا وآسيويين»، وسمنا الصندوق الأسود والآسيوي على الاستمارات الطبية، انضممنا إلى مجموعات دعم العائلات من السّود والآسيويين ولزمنا قسم السود والآسيويين في المكتبة: كانت تعتبر مسألة تكافل.

ومع ذلك دافعت أمي عن تريسي وقالت: «إنها طفلة، إنها فقط تردّد ما سمعته».

وعليه ردت والدة ليلي بهدوء: «لا شك».

فتحت أمي الباب الرئيس وأخرجتنا وصفقت الباب بصوت مرتفع للغاية. مع ذلك لحظة تواجدنا في الخارج انصبّ جام غضبها علينا، فقط علينا، جرّتنا مثل كيسي قمامة على الطريق صارخة: « تظنان أنكما مثلهن؟ هل هذا ما تظنانه؟» أتذكر بالضبط الإحساس بكوني مجرورة تتبع أصابع قدمي الرصيف، وكم كنت حائرة كليًّا وأنا أرى الدموع في عيني والدتي، يُفسد التشويه حُسن وجهها. أتذكر كل ما يتعلق بعيد ميلاد ليلي بينجهام العاشر ولا أتذكر شيئا بتاتًا عن عيد ميلادي. عندما بلغنا الطريق الواصل بين المبنى الذي نسكنه ومبنى تريسي أفلتت والدتي يد تريسي وألقت محاضرة مختصرة لكن مدمّرة عن تاريخ النعوت العنصرية. حنيت رأسي وبكيت في الشّارع. كانت تريسي ثابتة.

رفعت ذقنها وأنفها الصّغير بمنخريه الواسعين، انتظرت حتى انتهائها ثم نظرت إلى أمي مباشرة في عينيها وقالت: «إنها مجرد كلمة».

✧ اثنان ✧

يوم علمنا بمجيء إيمي قريبًا إلى مكاتبنا في بلدة كامدن، شارع هاولي لين، تأثّر الجميع بالنبأ. سرى هتاف صغير في أرجاء غرفة المؤتمر، وحتى أكثر صحفيي الدّرجة الثانية جمودًا في قناة واي تي في رفعوا قهوتهم إلى شفاههم، نظروا نحو القناة المائية نتنة الرائحة وابتسموا لذكرى نسخة سابقة من أنفسهم، يرقصون على موسيقى ديسكو مركز المدينة القذر الخاصّة بإيمي سابقًا – أولادًا في غرف جلوس منازلهم – أو ينهون علاقة غرامية مع زميلة في الدراسة مستمعين إلى إحدى أغنياتها الشّعبية المسرفة في عاطفيتها في التسعينات. كان يوجد احترام في ذلك المكان لنجم حقيقي من نجوم البوب، بغض النظر عن تفضيلاتنا الموسيقية الشّخصية. وبالنسبة لإيمي كان هناك اعتبار خاص: ارتبط مصيرها بمصير القناة التلفزيونية تلك منذ البداية. كانت فنانة بصريّة حتى النخاع. قد تسمع أغاني مايكل جاكسن دون أن تتذكر الصّور التي رافقتها (التي هي ربما فقط لتقول إن موسيقاه امتلكت حياة حقيقية) لكن موسيقى إيمي كانت توجد فقط ضمن عالم الصّورة، وكلما سمعت تلك الأغاني – سواء في متجر، أو في سيارة أجرة، حتى لو كانت مجرد ضربات تتردد عبر سماعتي رأس أحد الأولاد العابرين – أعادتك في المقام الأول إلى ذاكرة بصرية، إلى حركة يدها أو ساقيها أو قفصها الصّدري أو حقوِها، لون شعرها ذلك الحين، ملابسها، تلك العينين الباردتين.

لهذا السّبب كانت إيمي وجميع مقلديها، مهما كانت الظروف، الأساس لنموذج عملنا. عرفنا أن قناة واي تي في الأميركية قد تأسست من ناحية حول أسطورتها، مثل مزار لإله جنّي، كما اعتُبِرَ أنها تقدّم تنازلًا الآن بدخولها قناتنا البريطانية، مكانًا أكثر تواضعًا للتعبّد، ضربة موفقة، وضعت الجميع على نسختنا من حالة التأهب القصوى.

عقدت «زوي» رئيسة قسمي اجتماعًا منفصلًا فقط لفريقنا، لأن إيمي كانت قادمة إلينا نوعًا ما في برنامج «علاقات المواهب والفنانين»، لتسجّل خطاب قبول جائزة سوف لن تتمكن من تسلّمها شخصيًّا في زيورخ الشّهر القادم. ولسوف يكون هناك بالتّأكيد كثير من طلبات التّصوير لأسواق ناشئة متنوعة (أنا إيمي، وأنت تشاهد واي تي في اليابان!») وربما إذا أمكن إقناعها، مقابلة لقناة واي تي في الإخبارية، ربما حتى عرضًا حيًّا مسجّلًا في القبو لبرنامج دانس تايم شارتس. تجلّت مهمّتي في جمع جميع هذه الطلبات عند وصولها – من مكاتبنا الأوروبية في إسبانيا وفرنسا وألمانيا وفي البلدان الشّمالية، من أستراليا، من أي مكان آخر – لأقدمها في وثيقة واحدة لترسل بالفاكس إلى مكتب إيمي في نيويورك، قبل وصولها بأربعة أسابيع. من ثم في الفترة الأخيرة من الاجتماع حدث شيء رائع: انزلقت زوي عن المكتب الذي جلست عليه بينطالها الجلديّ وكنزة قصيرة بلا أكمام – يمكن أن تلمح من تحتها معدة سمراء قاسية كالصّخر وثقبًا في السّرة يشبه الحجر الكريم – تنفض لبدة الأسد خاصتها المؤلفة من خصل مجعّدة نصف كاريبيّة، التفتت نحوي بطريقة عفوية كما لو أنه لم يكن شيئًا على الإطلاق وقالت: «سوف يتوجّب عليك ملاقاتها في الطابق الأرضي يوم وصولها لتصحبها إلى الاستديو ب 12، وتلبثين معها وتجلبين لها كل ما تحتاجه».

خرجت من غرفة الاجتماع تلك كما تسرع الممثلة أودري

هيبورن إلى الطابق الأعلى في فيلم سيدتي الجميلة، على سحابة من موسيقى طنّانة، مستعدّة للرّقص على امتداد مكتبنا الفسيح، أدوّم وأدوّم خروجًا من الباب وطوال الطريق إلى البيت. كنت في الثّانية والعشرين من عمري. ولست متفاجئة بعد على وجه الخصوص: بدا كما لو أن كل شيء قد رأيته وخبرته خلال السّنة المنصرمة كان يسير في هذا الاتجاه. كان هناك مرح مجنون في قناة واي تي في خلال تلك الأيام الأخيرة من التّسعينيات، جوٌّ من نجاح جامح مبنيّ على أسس غير ثابتة بطريقة ما رُمز إليه بالبناء الذي شغلناه: ثلاثة طوابق وقبو استديوهات التلفزيون القديمة «استيقظي بريطانيا» في كامدن (كان لا يزال هناك على واجهتنا شمس مشرقة ضخمة بلون صفار البيض والآن ليست ذات صلة إطلاقًا). كانت شبكة «في اتش 1» التلفزيونية مقحمة فوقنا. بدا نظام التّدفئة الأنبوبيّ الخارجي خاصّتنا المطليّ بألوان أساسيّة مبهرجة مثل «بومبيدو[13]» رجل مسكين. كان الدّاخل صقيلًا وعصريًّا، مضاءً على نحو خافت ومؤثّثًا بألوان داكنة، عرينًا لانتقام جيمس بوند. كان المكان سابقًا صالة عرض للسيارات المستعملة – قبل أن يكون قناة تلفزيونية موسيقية أو مقرًّا لبثّ برنامج صباحي على حد سواء – والظّلمة الدّاخلية بدت متعمّدة لإخفاء طبيعة البناء الرخيصة. فتحات التهوية منجزة على نحو رديء والجرذان زحفت نحو الأعلى من قناة ريجينت المائية، وأقامت هناك مخلّفة برازها. في الصّيف – والتهوية مشغلة – أصيبت طوابق كاملة من الناس بإنفلونزا الصّيف.

---

13) إشارة إلى مركز جورج بومبيدو الثقافي في باريس. ويعتبر «تثويرًا» لمفهوم المعمارية المدنية التقليدي، فهو يضع ما يوجد عادة (في الداخل) خارج هيكلية المبنى ذاته. أي أن أنابيب التهوية، والكهرباء والمصاعد الكهربائية والسلالم الآلية ظاهرة، وتأخذ مكانها بوضوح على واجهات التركيبة الهيكلية المعدنية للمبنى. وتتميز كل واحدة منها بلون معين (بحيث يزيد التواجد الخارجي لتلك الملحقات من حجم مساحة الحيّز الدّاخلي ويسهّل عمليات تقسيم قاعاته حسب احتياجات المعارض التي تقام فيه). وتتمايز أنابيب الملحقات البادية على الواجهة، فاللون الأزرق لأنابيب التهوية، والأصفر للكهرباء والأخضر للمياه.

كلما أضأت مخفّتتات الضّوء الفاخرة فإنه غالبًا ما ستنخلع قبضة مفتاح الضوء في يدك.

كانت شركة تؤمن بالمظاهر إلى حدٍّ بعيد. تحوّل أكثر من عشرين موظف استقبال إلى منتجين مساعدين فقط لأنهم بدوا «مضحكين» و«أهلًا لتولّي المنصب». تنقلت رئيستي البالغة من العمر واحدًا وثلاثين عامًا من متدرّبة في قسم الإنتاج إلى رئيسة إدارة المواهب العامة خلال أربع سنوات ونصف فقط. خلال عملي الممتد على مدى ثمانية أشهر رُقّيت مرّتين. أحيانًا أتساءل ماذا كان سيحدث لو بقيت – لو أن الديجيتال لم يقتل نجوم الفيديو. في ذلك الوقت شعرت بأني محظوظة: لم يكن لدي خُطط مهنيّة دقيقة، ومع ذلك مهنتي ارتقت بأية حال. لعب الشّرب دورًا. في هاولي لين كان الشّرب إلزاميًّا: الخروج للشرب، الإمساك بكأس شراب أحدهم، شرب تحت الطاولة، لا ترفض عرضًا لشراب أبدًا حتى إذا كنت تتناول المضادات الحيوية، حتى لو كنت مريضًا.

متحمّسة في تلك المرحلة من حياتي لتفادي قضاء الأمسيات وحيدة مع والدي، ارتدُت جميع حفلات المكتب ودعوات الشّراب واستطعت الإمساك بكأس الكحول خاصتي، كنت أجيد تلك المهارة البريطانية بالذات مُذ كنت في الثالثة عشرة من عمري. كان الفرق الكبير في «واي تي في» أننا شربنا مجانًا. سكرت النقود في أرجاء الشّركة. «هدية ترويجيّة» و«بار مفتوح»: اثنان من أكثر الأسماء تكرارًا في المكتب. بالمقارنة مع الأعمال التي عملتها قبل ذلك – حتى بالمقارنة مع الكلية – بدا كما لو أنني في فترة ممدّدة من وقت اللعب، كنا نتوقع فيها وصول الكبار إلى الأبد، الذين لم يظهروا أبدًا.

كانت واحدة من أولى مهامي ترتيب قوائم ضيوف حفلاتنا

الإدارية التي أقيمت مرّة شهريًا. نحت أن تقام في أماكن باهظة في مركز البلدة وكان هناك دومًا كميّات كبيرة من الهدايا الترويجية: كنزات، أحذية رياضية، مشغّلات موسيقى مصغرة، أكوام من الأقراص المدمجة. مدعومة رسميًّا من إحدى شركات شراب الفودكا أو سواها وبصفة غير رسمية من كارتلات المخدرات الكولومبيّة. احتشدنا دخولًا وخروجًا من حجيرات دورات المياه. مسيرات العار صباح اليوم التالي، رعاف أنفي، وأنت تحملين حذاءك ذا الكعب العالي بيديك. حفظت أيضًا فواتير سيارات الشركة العمومية. حجز الناس سيارات أجرة صغيرة عائدين من لقاءات جنسية عابرة أو إلى المطارات للذهاب في عطلة. حجزوها في السّاعات المبكرة جدًا في عطل نهاية الأسبوع من وإلى المتاجر المرخص لها بيع الكحول التي تفتح طوال الليل، أو من حفلات منزلية. مرّة حجزت سيّارة أجرة إلى بيت خالي لامبرت. مديرة تنفيذية تشتهر على مستوى المكتب بحجز سيارة أجرة إلى مانشستر وقد استيقظت متأخرة وفاتني القطار. بعد مغادرتي سمعت أنه كان هناك حظر تجول، لكن تلك السّنة كانت الفاتورة السنوية للنقل تتجاوز مئة ألف جنيه. طلبت مرة من «زوي» أن تشرح المنطق خلف كل شيء وأخبرتني أن شريط الفيديو الذي كان يحمله الموظفون غالبًا معهم – يمكن أن «يتلف» إذا حُمل على متن قطار الأنفاق. لكن مُعظم أفراد جماعتنا لم يعرفوا حتى أن هذه كانت ذريعة غيابهم الرسمية، كان السّفر المجاني شيئًا اعتبروه مضمونًا، حقًّا ترافَق مع كونك تعمل في «وسائل الإعلام» وشعروا أنّه أقل ما يستحقونه. بالتّأكيد عند المقارنة مع ما كان يجده أصدقاء قدامى من الكلية – الذين اختاروا بدلًا من ذلك العمل في المصارف أو المحاماة – كل عيد ميلاد في مغلفات مكافآتهم الموسمية.

على الأقل عمِل الصيارفة والمحامون كل السّاعات. لم نمتلك

شيئًا سوى الوقت. كانت اتصالاتي منجزة ومنتهية عادة عند السّاعة الحادية عشرة والنّصف تمامًا – ضع نُصب عينيك أنني وصلت إلى مكتبي حوالي السّاعة العاشرة. أوه، بدا الوقت مختلفًا حينها! عندما أخذت السّاعة والنّصف من أجل الغداء كان هذا كل ما فعلته أثناءها: الغداء. ما من بريد إلكتروني في مكاتبنا، ليس بعد تمامًا، ولم يكن لدي هاتف جوال. خرجت من مخرج منطقة تحميل العربات مباشرة إلى القناة المائية وسرت على طول حافتها، في يدي شطيرة بريطانية ملفوفة بالنايلون، أرى صفقات المخدرات تجري في الهواء الطلق فيما البطّ البرّي السمين يقوقئ من أجل فتات الخبز من السّياح، المراكب السّكنية المزينة، الشبان الحزانى الهمجيون[14] يدلون أقدامهم عن الجسر، هاربين من المدرسة، ظلالًا من نفسي منذ عقد مضى. كثيرًا ما وصلت حتى حديقة الحيوان. صرت أجلس هناك على المقعد المعشوشب وأتطلع نحو مطْيَر سنودون، حلّق فيه سرب من الطيور الأفريقية، بيضاء عظميّة اللون ومناقيرها حمراء قانية. لم أعرف أبدًا أسماءها حتى رأيتها في قارتها حيث كان لها أسماء مختلفة بأيّ حال. تمشيت عائدة بعد الغداء، أحيانًا في يدي كتاب، لست على عجلة من أمري وما يدهشني الآن هو أنني لم أجد أيًا من هذا استثنائيًا أو حظًا خاصًا بي. اعتبرت وقت الفراغ أيضًا حقّي الممنوح لي من الله. نعم، بالمقارنة مع تجاوزات زملائي، اعتبرت نفسي مجتهدة في العمل، جدية، مع إحساس بالانسجام افتقَر إليه الآخرون، بسبب خلفيّتي. فتيّة للغاية للذهاب في أي واحدة من «رحلات الشّركة» المتعددة، كنت مَن حجز لهم رحلاتهم

---

14) Goth: إحدى الثقافات الفرعية التي انتشرت في القرن العشرين، والثقافة الفرعية في معظمها عبارة عن تجمعات غير رسمية لأفراد يحملون تفكيرًا متشابهًا ووجهات نظر ونمط حياة متشابه. الهمجيون يمثلون ثقافة فرعية لذوي الملابس السّوداء وأصحاب الرومانسية القاتمة. وفي المملكة المتحدة، وصل الهمجيون إلى ذروة شعبيتهم في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين.

الجوية – إلى فيينا، وبودابست، ونيويورك – وسرًّا امتلأتُ بالدهشة من أجر المقعد في درجة رجال الأعمال، من وجود درجة رجال الأعمال ذاتها، لم أكن قادرة على التقرير أبدًا عندما حفظت هذه «النفقات» إذا كان هذا النّوع من الأمور يجري دومًا من حولي خلال طفولتي (لكن بشكل غير مرئي لي، عند مستوى أعلى من وعيي) أو إذا كنت قد بلغت سنّ الرشد عند لحظة ناشطة على وجه الخصوص في تاريخ إنكلترا، حقبة امتلك فيها المال معنى جديدًا واستعمالات أخرى وأصبحت «الهدايا الترويجية» شكلًا من مبدأ اجتماعي، لم يُسمع بها في حيّي ومع ذلك عاديّة في مكان آخر. «الترّويج»: العرف الذي ينطوي على منح أشياء مجانية لأناس ليسوا بحاجة إليها. فكرت في جميع أولاد المدرسة الذين أمكنهم تنفيذ عملي الحالي بسهولة – من عرفوا أكثر مني بكثير عن الموسيقى، وكانوا ظرفاء بصدق، «شوارعيين» بصدق، كما كان يُنظر إليّ في كل مكان على نحو خاطئ – لكن مَن كان احتمال ظهورهم في هذه المكاتب كالذّهاب إلى القمر. تساءلت: لماذا أنا؟

في الأكوام العظيمة من المجلات الصّقيلة، هدايا ترويجية أيضًا، متروكة في أرجاء المكتب، قرأنا في ذاك الوقت أن بريطانيا عصريّة – أو نسخة منها لفتتني أنا أيضًا على أنها عتيقة الطراز للغاية – وبعد حين بدأت أفهم أنها لابدّ أن تكون على هذه الموجة التفاؤلية بالضبط التي ركبتها الشّركة. تفاؤل منقوع بالحنين إلى الماضي: بدا الفتيان في مكتبنا مثل مجموعات المراهقين الذين انتموا إلى ثقافة الموضة الفرعية[15] مُعادًا إحياؤهم – بقصّات شعر تشبه قصّة شعر فريق الروك كينكس

15) Mod: الثقافة الفرعية الخاصّة بالموضة والحداثة التي بدأت بمجموعات قليلة من المراهقين في لندن، في أواخر خمسينيات القرن العشرين، لكنها كانت في أوج شعبيتها خلال أوائل ستينيات القرن ذاته. وكان شباب الموضة مهووسين بموضة الأزياء الجديدة مثل البذلات المشوقة؛ وأنماط الموسيقى مثل موسيقى الجاز الحديثة والبلوز والسّول. وكان كثير منهم يركبون الدراجات البخارية.

قبل ثلاثين عامًا – وصبغت الفتيات شعرهن باللون الأشقر مثل الممثلة جولي كرستي، في تنانير قصيرة وعيون سوداء دخانيّة. استقلّ الجميع درّاجة «فيسبا» إلى العمل، بدا أن الجميع يضعون في مقصوراتهم صورة الممثل «مايكل كين» في فيلم «ألفي» أو «العمل الإيطالي». كان حنينًا إلى عصر وثقافة لم تكن تعني لي شيئًا في المقام الأوّل وربما لهذا السّبب كنت عصريّة في نظر زملائي، بموجب أنني لم أكن مثلهم. حمل مدراء تنفيذيون في خريف العمر موسيقى الهيب هوب الأميركية الجديدة بمهابة إلى مكتبي مفترضين أنني لابدّ لدي آراء مطّلعة للغاية عنه، لكن في الحقيقة بدا القليل الذي عرفته كثيرًا في هذا السّياق.

حتى مهمّة مرافقة إيمي ذلك اليوم، أنا على يقين أنني كُلّفت بها لأنني اعتُبرت عصريّة للغاية حدّ أنني لا أهتم. كان استنكاري لمعظم الأمور مفترضًا دومًا: «أوه، لا، لا تكلّف نفسك عناء سؤالها، لن يعجبها». قيل ذلك على نحو تهكمي – حال كل شيء حينها – لكن مع أثر بارد لتفاخر دفاعيّ. كان الأمر الثمين غير المنتظر هو رئيستي زوي. أيضًا بدأت كمتدربة لكن من دون صندوق ائتماني أو والدين ثريين كالبقية، ولم تملك حتى ما امتلكته أنا نفسي، مكانُ أبوَيّ مجاني للنوم. سكنَت في مكان قذر في حي شالك فارم، ظلت غير مأجورة لما يزيد عن السّنة ومع ذلك وصلت كل صباح عند السّاعة التاسعة – اعتُبرت دقّة المواعيد في واي تي في فضيلة مستحيلة تقريبًا – حيث عمدَت إلى «أن تعمل بجد». في الأصل وُلدت في رعاية أسريّة بديلة مؤقتة، تنتقل بين البيوت الجماعية في ويستمينستر، لم أستغرب ذلك فقد عرفت أولادًا مرّوا عبر ذلك النظام. امتلكَت ذلك العطش الجامح نفسه لأي شيء كان على سبيل التّقدمة، وما يُنبي عن شخصية هوسيّة بإفراط ومعزولة – تجدها أحيانًا بين صفوف المراسلين الحربيين أو الجنود أنفسهم. بحق

لم يكن عليها أن تخشى الحياة. وبدلًا من ذلك كانت جريئة على نحو طائش. كانت نقيضًا لي. ومع ذلك، في بيئة المكتب، اعتُبرنا زوي وأنا متشابهتين. شابهت آراؤها السياسية آرائي، دومًا مُتَصوَّرة سلفًا، لكن في حالتها تناوَلَها المكتب على نحو خاطئ تمامًا: كانت متحمسة لتاتشر، من النّوع الذي يبدو أن الجميع فضّل الاقتداء بها وفعل المثل بما أنها دعمت نفسها بجهودها الذاتية. لسبب ما هي «رأت نفسها فيّ». أعجبت بمثابرتها لكني لم أرَ نفسي فيها.

في النهاية كنت خريجة جامعية، وهي لم تكن كذلك، كانت مدمنة على الكوكايين، في حين لم أكن، ارتدَت مثل إحدى فتيات فريق «سبايس جيرلز» التي تشبهها، بدلًا من المديرة التنفيذية التي كانت بالفعل، أطلقت نكاتًا جنسية غير مضحكة، ضاجعت المتدربين الأصغر سنًا، الأكثر تأنقًا، ذوي الشّعر الأكثر نعومة، الأكثر بياضًا، المستقلين، استهجنتُ ذلك بتحفظ. أعجبت بي بأيّ حال. كلما كانت ثملة أو منتشية راق لها أن تذكّرني بأننا أختين، فتاتين سمراوين لدينا واجب تجاه بعضنا. أرسلتني تمامًا قبل عيد الميلاد إلى «جوائز الموسيقى الأوروبية» في سالزبورغ، حيث كانت إحدى مهامي مرافقة المغنية ويتني هيوستن إلى اختبار للصوت. لا أتذكر الأغنية التي غنتها – لم أحب أغانيها يومًا – لكن واقفة في قاعة الحفلات الموسيقية الخالية تلك أصغي إليها تغني دون موسيقى مساعدة، دون دعم من أي نوع، وجدتُ أن الجمال الصّرف للصوت، جرعته المؤثرة من الروح، الألم الكامن فيه، فاق جميع آرائي الواعية، ذكائي النقدي أو إحساسي بالعاطفة، أو أيًا كان ما يشير إليه الناس عندما يتحدثون عن «ذوقهم السّليم»، ذاهبًا بدلًا من ذلك مباشرة عبر عمودي الفقري، حيث شقّ طريقه عنوة وفضّني.

في طريق العودة عند اللافتة المكتوب عليها «مخرج» انفطرت

بكاءً. عند وصولي إلى هاولي لين كانت هذه القصة قد انتشرت من شخص إلى آخر، على الرغم من أنها لم تتسبب لي بأذى، بل على العكس تمامًا – فُهمت على أنني مؤمنة حقيقية.

ثلاثة

يبدو مضحكًا الآن، بل يكاد يكون مثيرًا للشّفقة - وربما التكنولوجيا وحدها بوسعها تحقيق هذا الانتقام الهزلي من ذكرياتنا - لكن عندما ننتظر قدوم فنان وتوجب علينا تحضير ملف عنه لنعطيه للصحفيين والمعلنين وهلم جرا، صرنا ننزل إلى مكتبة صغيرة في القبو ونسحب موسوعة مؤلفة من أربعة مجلدات تدعى «فهرس الروك». عرفت سلفًا كل ما ورد في مدخل إيمي سواءً الرئيس أم الثانويّ: مولودة في مدينة بينديجو، لديها حساسية من الجوز، باستثناء تفصيل واحد: كانت تفضّل اللون الأخضر. دوّنت ملاحظاتي يدويًا، قارنت جميع الطلبات ذات الصّلة، وقفت في غرفة النّسخ إلى جانب جهاز فاكس صاخب وغذّيته بالوثائق ببطء وأنا أفكر بشخص في نيويورك - وهي مدينة حلمتُ بها - انتظرَ إلى جانب بدعة مشابهة عندما وصلَت وثائقي إليه في نفس وقت إرسالها ما بدا عصريًا للغاية، انتصارًا على المسافة والزمن. من ثم بالتأكيد، للقائها، فإنّ عليّ شراء ملابس جديدة، ربما تسريحة شعر جديدة، أسلوبًا جديدًا في التّحدث والمشي، موقفًا جديدًا كليًّا من الحياة.

ماذا أرتدي؟ اعتدت التبضع من سوق كامدن في ذلك الحين، ومن داخل المنطقة المكتظة حيث متجر أحذية «د. مارتنز» ومتجر «هيبي شاولز» وكنت مسرورة للغاية باختيار سروال فضفاض ذي لون

أخضر فاتح من قماش المظلات الحريرية، قميص قصير أخضر ضيق – يحمل غلافَ ألبوم فنّي «لو إند تيوري» ببصيص أسود وأخضر وأحمر – وحذاء رياضيًّا من عصر الفضاء يحمل ماركة اير جوردانز التجارية، أخضر اللون أيضًا. أكملته بحلقة أنف زائفة. فتاة مثيرة للذكرى ومستقبليّة، هيب هوب وإندي، امرأة تنتمي إلى حركة «ريوت» النسوية السّرية وعنيفة في آن. تؤمن النّساء غالبًا أن الملابس سوف تحلّ مشكلة بطريقة أو بأخرى، لكن مع حلول يوم الثلاثاء قبل موعد وصولها فهمت أن لا شيء ارتديته سوف يساعدني، شعرت بتوتر شديد، لم أتمكّن من العمل أو التركيز على أي شيء.

جلست أمام شاشتي الرمادية الضّخمة الخاصّة بالمراقبة، أصغي إلى طنين المودم، أتطلع إلى يوم الخميس وأكتب ذاهلة اسم تريسي الكامل في الصّندوق الصّغير الأبيض مرارًا وتكرارًا. هذا ما فعلته في العمل كلما شعرت بالضّجر أو القلق ولو أنه لم يخفّف قط أيًا منهما. كنت قد دوّنته مرّات كثيرة حينها، مؤجّجة متصفح نيتسكيب، أنتظر اتصالنا الهاتفي البطيء بالإنترنت دون طائل ودومًا أجد جزر المعلومات الثلاث الصغيرة نفسها: قائمة أعمال تريسي، وصفحتها الشّخصية على شبكة الإنترنت، وغرفة محادثة تردّدت عليها بالاسم المستعار «تروث تيلر_ لوجون». كانت قائمة أعمالها ثابتة لا تتغير. ذكرت مشاركتها السّنة المنصرمة في جوقة عرض «جايز ودولز»، لكن لم تضف عروضًا أخرى أبدًا، لم تُظهر أخبارًا حديثة. تغيرت صفحتها طوال الوقت. أحيانًا رحت أتحقق منها مرتين في اليوم لأجد الأغنية مختلفة أو رسم الألعاب النارية الزهرية المتفجرة قد استُبدل بقلوب قوس قزح براقة. على هذه الصّفحة منذ شهر مضى أشارت إلى غرفة المحادثة مع ملاحظة متصلة «من الصّعب سماع الحقيقة أحيانًا!!!»

وكان هذا المرجع الوحيد لكل ما احتجت إليه: كان الباب مفتوحًا وبدأت أدخله بضع مرات أسبوعيًا.

لا أظن أن شخصًا آخر تتبع هذا الرابط – لا أحد سواي – أمكنه أن يعرف أن «تروث تيلر، راوية الحقيقة» في تلك المحادثة الغريبة كانت تريسي نفسها. لكن أيضًا، على حدّ علمي، لم يكن أحد يقرأ صفحتها بأي حال. كان هناك نقاوة صارمة حزينة في هذا: الأغاني التي اختارتها لم يسمع بها أحد، الكلمات التي كتبتها – حِكَم عادية، مثلًا: «قوس الكون الأخلاقي طويل لكنه يميل نحو العدالة» – لم يقرأها أحد سواي أبدًا. فقط في غرفة المحادثة تلك بدت أنها في العالم، ولو أنه كان عالمًا غريبًا، لا يعج إلا بصدى أصوات أناس سبق أن توافق بعضهم مع بعض كما يبدو.

على حدّ علمي أنفقت قدرًا مخيفًا من الوقت هناك، لا سيما في وقت متأخر من الليل، والآن بعد أن قرأت كل مدوناتها الحالية والمؤرشفة تمكنت من تتبع منطقها كله – من الأفضل القول إني لم أعد مصدومة بها – وأمكنني تتبع وتقدير مجرى النقاش. أصبحت أقل نزوعًا لأروي لزملائي قصصًا عن صديقتي السّابقة المجنونة تريسي، مغامرات غرفة المحادثة السّريالية، هواجسها الأبوكالبتية. لم أكن قد غفرت لها – أو نسيت – لكن باستخدامها بهذه الطريقة أصبحَت بوجه ما مقيتة في نظري.

كان واحدًا من أغرب الأمور هي حقيقة أن الرجل الذي بدت أنها تحت تأثيره، المعلم الروحي نفسه، عمل فيما سبق مقدمًا لبرنامج صباحي تلفزيوني في المبنى نفسه الذي أجلس فيه الآن، وعندما كنا أولادًا يمكنني تذكر الجلوس غالبًا مع تريسي نشاهده فيما طبقان من الحبوب في حجر كل واحدة منا، ننتظر انتهاء برنامجه المملّ للكبار

ليبدأ برنامج الرسوم المتحركة الصباحي ليوم السبت. مرة أثناء عطلتي الشّتوية الأولى من الجامعة ذهبت لشراء بعض المقررات من متجر للكتب في شارع الفينشلي رود، وبينما كنت أتجول في أرجاء قسم الأفلام رأيته شخصيًا يقدّم أحد كتبه في زاوية ذلك المتجر الضخم القصية.

جلس إلى مكتب أبيض بسيط، مكسوّ كليًّا بالأبيض، ورأسه الشّائب قبل الأوان يواجه جمهورًا ضخمًا. وقفت فتاتان تعملان هناك بالقرب مني ونظرتا خلسة من خلف الرفوف إلى الجمع المميز. كانتا تضحكان عليه. لكني لم أكن مصدومة كثيرًا بما كان يقوله، بقدر ما صدمتني التركيبة الغريبة لجمهوره. كان هناك بضع نساء بيض البشرة متوسطات العمر يرتدين سترًا مريحة عليها نقوش عيد الميلاد لا يبدون مختلفات عن ربات البيوت اللاتي أعجبن به منذ عشر سنوات، لكن كان السواد الأعظم من جمهوره يتكوّن من شبّان سود البشرة في مثل سنّي تقريبًا يضعون نسخًا مهترئة من كتبه على ركبهم ويصغون بتركيز تام وتصميم إلى نظرية مؤامرة متقنة عن أن العالم تُديره قوارض من فئة السّحالي في هيئة بشر: كان آل روكفيلر سحالي، وآل كينيدي وتقريبًا كان الجميع في جولدمان ساكس، ووليام هيرست سحالي، ورونالد ريغان ونابليون – كانت مؤامرة سحالٍ عالمية.

أخيرًا تعبت فتاتا المتجر من الضّحك وابتعدتا. بقيت حتى النهاية مشوشة للغاية بما كنت أراه غير عارفة ماذا أفعل. فقط لاحقًا عندما بدأت أقرأ كتابات تريسي – التي كانت، إذا كنت تستطيع أن تغض النظر عن مقدمتها المجنونة الأولى، لافتة في تفصيلها وسعة اطلاعها الجانحة، واصلة الكثير من الفترات التاريخية المتنوعة والأفكار السياسية والوقائع، تدمجها جميعًا في نوع من نظرية كل شيء، التي حتى في خطئها الهزلي تطلّبت قدرًا من العمق في الدراسة والانتباه المتواصل –

نعم، فقط حينها شعرت أني فهمت بشكل أفضل سبب تجمع كل هؤلاء الشبان بمظهرهم الوقور في متجر بيع الكتب ذلك اليوم.

أصبح ممكنًا قراءة ما بين السّطور. ألم يكن كلّه طريقة لشرح القوّة في النهاية؟ القوة التي توجد بالتّأكيد في العالم؟ التي يمسك بها القلّة والغالبية لم يقتربوا منها قيد أنملة؟ قوة لا بد أن صديقتي القديمة شعرت في تلك المرحلة من حياتها أنها تفتقر إليها تمامًا؟

«ماذا يكون ذلك؟»

التفتّ في كرسيي الدّوار ووجدت زوي عند كتفي تتفحص تصويرًا وامضًا لسحليّة تضع على رأسها جواهر التاج. صغرت الصّفحة.

«ألبوم رسوميات. سيئ».

«اسمعي، صباح يوم الخميس لديك عمل، لقد أكدوا ذلك. هل أنت مستعدة؟ حصلت على كل ما تحتاجينه؟»

«لا تقلقي. سوف يجري كل شيء على ما يرام».

قالت زوي وهي تربّت على أنفها: «أوه، أعرف أنه سوف يكون كذلك. لكن إذا شعرت بحاجة للشجاعة المستمدّة من شرب الخمر، فأعلميني».

لم يصل الأمر إلى ذلك. من الصعب أن تعيد جمع ما وصل إليه بالضبط. ذاكرتي عنه وذاكرة إيمي لم تتداخلا كثيرًا. سمعتها تقول إنها وظّفتني لأنها شعرت «أننا تواصلنا على الفور» ذلك اليوم أو أحيانًا لأنها وجدتني قديرة للغاية. أظن أنه لأني كنت فظّة عن غير قصد معها، إذ لم يكن سوى قلة من الناس كذلك في ذلك الحين في حياتها، وفي فظاظتي لابد أني أسكنت نفسي في دماغها.

بعد أسبوعين، عندما وجدت نفسها في حاجة مباغتة إلى مساعدة شابة جديدة، كنت هناك، ساكنة هناك. خرجت كيفما

اتفق من سيارة ذات نوافذ مغمّاة في غمرة جدال مع مساعدتها في ذلك الحين، ميلاني. مديرتها، جودي رايان، مشت خطوتين خلفهما تصرخ في الهاتف.

أول ما سمعت إيمي تقوله على الإطلاق كانت ملاحظة ناقدة: «كل ما تتفوهين به الآن عديم القيمة تمامًا في نظري». لاحظت أنها لا تتحدث بلكنة أسترالية أبدًا، لكن لم تكن أميركية أو بريطانية تمامًا، بل عالمية: كانت نيويورك وباريس وموسكو ولوس أنجلس ولندن معًا. بالتّأكيد الآن يتحدث كثير من الناس بهذه الطريقة، لكن نسخة إيمي كنت أسمعها للمرة الأولى. قالت الآن: «أنتِ النقيض لمساعدة»، وعلى ذلك أجابت ميلاني: «يمكنني تمامًا أن أرى ذلك». بعد لحظة وجدت هذه الفتاة المسكينة نفسها أمامي، نظرت إلى صدري باحثة عن بطاقة تعريف، وعندما رفعت بصرها ثانية استطعت رؤية أنها كسيرة، تكافح كي لا تبكي. قالت بحزم بقدر ما استطاعت: «إذن نحن لدينا جدول عمل، وسوف يكون عظيمًا إذا استطعنا الالتزام بالجدول؟» وقفنا نحن الأربعة في المصعد صامتات. كنت مصممة أن أتحدث لكن قبل أن أتمكن من ذلك، التفتت إيمي نحوي وبوّزت شفتيها نحو قميصي مثل مراهق وسيم عابس.

قالت لجودي: «خيار مثير للاهتمام، ترتدي قميص فنان آخر عندما تلتقي بفنان؟ احترافيّ».

نظرت إلى نفسي وتورّدت خجلًا.

«أوه! لا! يا آنسة – أقصد، يا سيدة – آنسة إيمي. لم أكن أحاول أن أخلق أيّ...» أطلقت جودي ضحكة مفردة عالية كنباح فقمة. حاولت قول أمر آخر، لكن أبواب المصعد انفتحت وإيمي خرجت. للوصول إلى مواعيدنا المتعددة كان علينا اجتياز القاعات، وكان الناس

يصطفون فيها كما في المول أثناء جنازة ديانا. لم يبد أحد أنه يعمل. كلما توقفنا في استديو فقد الناس أعصابهم في الحال تقريبًا، مهما كان منصبهم في الشّركة. شاهدت مديرًا يخبر إيمي أن أغنية شعبية لها كانت الرّقصة الأولى في حفل زواجه.

أصغيت معذبة عندما انطلقت زوي في رواية استطراديه عمّا قدمه لها برنامج «تحركي معي» من التجاوب الشّخصي، كيف ساعدها في أن تصبح امرأة وتفهم قوة النساء وألّا تخشى من أن تكون امرأة، وهلم جرا. أخيرًا مع قاعة أخرى وفي مصعد آخر لنشق طريقنا نحو القبو – حيث وافقت إيمي، ما أثار بهجة زوي، أن تسجّل لقاء موجزًا – واستجمعت شجاعتي كي أشير، بالطريقة الضجرة من الحياة لفتاة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، كم تخيلت أنه لابد أن يكون بليدًا بالنسبة لها سماع الناس يقولون مثل هذه الأمور لها ليل نهار، نهارًا وليلًا.

«في حقيقة الأمر، ربّة صغيرة خضراء، أحببتها».

«أوه، حسنًا، حسبي أنني فكرت».

«فقط فكرت بأني ازدريت قومي».

«لا! أنا فقط – أنا».

«تعلمين، فقط لأنك لست واحدة من قومي لا يعني أنهم ليسوا جيدين. لكل واحد قبيلته. من أي قبيلة أنت بأيّ حال؟» استغرقت ثانية بطيئة تنظر إليّ صعودًا ونزولًا. «أوه، صحيح. هذا نعرفه سلفًا».

سألت: « تعنين – موسيقيًا؟» وارتكبت خطأ النظر نحو ميلاني وو، في وجهها فهمت أنه كان لابدّ من إنهاء المحادثة قبل دقائق كثيرة سابقة، ما كان يجب أن تبدأ أبدًا.

تنهّدت إيمي قائلة: «من غير ريب».

«حسنًا... الكثير من الأمور... أظن أنني أحب الكثير من

الأغاني القديمة، مثل بيلي هوليداي؟ أو سارة فوجان. بيسي سميث. نينا. مغنيات حقيقيات. أعني، ليس أن – أعني، أشعر كما...»

قالت جودي بلهجتها الأسترالية الخشنة التي لم تغيرها عقود من التدخّل: «صحّحي لي إذا كنت مخطئة، المقابلة لا تحدث فعليًّا في هذا المصعد؟ شكرًا لك».

خرجنا عند القبو. كنت مُهَانة وحاولت أن أتقدمهم جميعًا، لكن إيمي تخطت جودي وقرنت ذراعها بذراعي. شعرت أن قلبي يرتفع حتى حنجرتي كما يحدث في الأغاني القديمة. أغضيت – طولها فقط 5.2 قدمًا وللمرة الأولى واجهت ذلك الوجه عن كثب، ذكوري وأنثوي في آن بطريقة ما، العينان الرماديتان الجليديتان بجمالهما السنّوري، تركتا بقية العالم ليتلون. أكثر الوجوه الأسترالية شحوبًا بين التي رأيتها في حياتي. أحيانًا من دون زينتها لم تبد أنها من كوكب دافئ على الإطلاق، واتخذت خطوات لتحافظ عليه بذلك الشّكل، تحمي نفسها من الشَمس في جميع الأوقات. كان يشيع من حولها شيء غريب، شخص ينتمي إلى قبيلة مكونة من شخص واحد. ابتسمت تقريبًا دون أن أعرف. وهي ابتسمت بدورها.

قالت: «كنت تقولين؟»

«أوه! أنا... أخمن أنني أشعر كما لو أن الأصوات – إنها نوع من...» تنهّدَت ثانية مقلدة نظرة نحو ساعة غير موجودة. قلت بحزم: «أظن أن الأصوات مثل الملابس» كما لو أنها كانت فكرة تراودني لسنوات بدلًا من شيء استمددته في تلك اللحظة من الهواء. «لذا إذا كنت ترين صورة من عام 1968 فإنك تعرفين أنها 68 ما يرتديه الناس، وإذا كنت تسمعين غناء جانيس، فإنك تعرفين أنه عام 68. صوتها هو إشارة على الأزمنة. إنه مثل التاريخ أو... شيء ما».

رفعت إيمي حاجبًا فتّاكًا وقالت بقناعة مكافئة: «أرى». تركت ذراعي. «لكن صوتي، صوتي هو هذا الوقت. إذا يبدو لك مثل كمبيوتر، حسنًا، أنا آسفة، لكن ذلك فقط لأنه في وقته المناسب. قد لا تحبينه، ربما تعيشين في الماضي، لكني أغني هذا الوقت، الآن تمامًا».

«لكني أحبه!»

بوّزت شفتيها بتلك الحركة الصبيانية المضحكة ثانية.

«لكن ليس بقدر ما تحبين فرقة ترايب، أو ليدي دي اللعينة[16]»

هرولت جودي نحونا: «المعذرة، هل تعرفين إلى أي استديو نحن ذاهبون، أو هل عليّ أن...»

«هيه، جودي! أنا أتحدث مع الشّابة هنا!»

وصلنا إلى الاستديو. فتحت الباب لهم.

«انظري، هل يمكنني فقط أن أقول إنني أفكّر بأنني بدأت حقًّا بداية خاطئة، يا آنسة – أعني، إيمي – كنت في العاشرة عندما أصدرتِ اوّل أغنية لك – اشتريت الأغنية. إنه جنون بالنسبة إليّ أنني التقيتك. أنا واحدة من قومك!»

ابتسمت لي ثانية: كان هناك نوع من المغازلة يشوب الطريقة التي تحدّثَت بها إلي، كما كان يوجد في أسلوبها في التحدث إلى الجميع. أمسكت برفق ذقني في يدها.

قالت: «لا أصدقك» وأخذت حلقة أنفي الزائفة بحركة سريعة واحدة وناولتها لي.

16) لقب للمغنية بيلي هوليداي.

⊰ أربعة ⊱

الآن، على حائط تريسي يوجد صورة لإيمي واضحة وضوح الشّمس. تقاسمت المكان مع مايكل وجانيت جاكسن، وبرنس، ومادونا، وجيمس براون. على مدار فصل الصّيف حوّلت غرفتها إلى ما يشبه المقام لهؤلاء الناس، راقصيها المفضلين، مزدانة بالكثير من الملصقات الدعائية الصّقيلة الضّخمة لهم، جميعها صور ملتقطة أثناء الحركة حدّ أن جدرانها تُقرأ مثل الكتابة الهيروغليفية، متعذّر عليّ فك رموزها غير أنها لا تزال بوضوح شكلًا من رسالة مكوّنة من الحركات: المرافق محنية والسيقان، أصابع مبسوطة، طعنات حوضية. ولأنها تعاف اللقطات الدعائية، اختارت لقطات من حفلات موسيقية تعذّر علينا دفع ثمن تذكرة حضورها، من النّوع الذي يمكنك فيه رؤية العرق على وجه الراقص. كانت حجتها أن هذه «حقيقية». كانت غرفتي بطريقة مماثلة مقامًا للرقص لكني كنت عالقة في الوهم، ذهبت إلى المكتبة وأخرجت سير حياة قديمة من السبعينيات لمعبودي شركتي «MGM» و «RKO» العظماء، اقتطعت صورهم الشّخصية البالية وألصقتها على جدراني بلاصق بلو تاك. هكذا اكتشفت «الأخوين نيكولاس»، فايارد وهارولد: وسمَت مدخل غرفتي صورة لهما في الهواء، يؤديان حركة فتح الحوض، كانا يقفزان فوق المدخل. علمت أنهما علّما نفسيهما بنفسيهما، ومع أنهما رقصا مثل إلهين فلم يحصلا على تدريب

رسمي على الإطلاق. فخرت بهما فخرًا تملّكيًّا كما لو أنهما أخوَيّ، كما لو أننا عائلة.

سعيت جاهدة لإثارة اهتمام تريسي - أي واحد من أخوَيّ ستتزوج؟ أيّ منهما ستقبّل - لكنها لم تتمكن من مشاهدة حتى أقصر مقطع من فيلم بالأبيض والأسود حتى النهاية بعد، كل ما أحاط به أثار فيها الملل. لم يكن «حقيقيًا» - كان قد حذف الكثير، الكثير مشكّل على نحو صناعي. أرادت أن ترى راقصًا يتعرق على الخشبة، حقيقيًّا، ليس مجهّزًا بقُبّعة وسُترة ذات حواشٍ. لكن الأناقة جذبتني. أحببت طريقتها في إخفاء الألم.

حلمت ذات ليلة بنادي القطن: كان هناك المغني كاب كالواي وهارولد وفايارد، ووقفت على منصة وليلي خلف أذني. في حلمي كنا جميعًا متأنقين وما من واحد منا عرف الألم، لم نشرّف يومًا بوجودنا صفحات كتب التاريخ الحزينة التي اشترتها لي أمي، لم تُدعَ واحدة منا يومًا بالقبيحة أو الحمقاء، لم ندخل أبدًا المسارح من الباب الخلفي، شربنا من مناهل ماء منفصلة، أو جلسنا في مؤخرة أيّ حافلة. لم يتأرجح أحد من بني قومنا معلّقًا من عنقه إلى شجرة أبدًا، أو وجدوا أنفسهم فجأة مرميّين عن ظهر مركب، مكبلين في الماء الآسن - لا، في حلمي كان لوننا ذهبيًّا! لم يفُقنا أحد جمالًا أو أناقة، كنا مباركين، أينما وجدتنا، سواء في نيروبي، أو باريس، أو برلين، أو لندن، أو الليلة في هارلم. لكن عندما بدأت الفرقة الموسيقية، وعندما جلس جمهوري إلى طاولاتهم الصّغيرة والمشاريب في أيديهم، سعداء ينتظرونني، أنا أختهم، أن أغني، فتحت فمي ولم يند عني أي صوت.

استيقظت لأجد أني بللت السّرير. كنت في الحادية عشرة من عمري. حاولت أمي المساعدة على طريقتها. قالت: «انظري عن كثب إلى

نادي القطن ذاك، هناك نهضة هارلم. انظري: هنا لانغستُن هيوز وبول روبنسن. انظري عن كثب إلى ذهب مع الريح، هنا: الجمعيّة القوميّة لتقدّم الملوّنين». لكن في ذلك الوقت لم تثر أفكار أمي السّياسية والأدبية اهتمامي، بقدر ما أثارتني الأذرع والسيقان، الإيقاع والأغنية، الحرير الأحمر لتنورة مامي التحتية أو طبقة صوت بريسي[17] المشوش.

المعلومات التي كنت أبحث عنها، وشعرت أني بحاجة إليها كي أدعم نفسي، فتشت عنها بدلًا من ذلك في كتاب قديم مسروق من المكتبة - تاريخ الرّقص. قرأت عن خطوات تناقلتها الأجيال عبر قرون. تاريخ من نوع مختلف عن تاريخ أمّي، تاريخ بالكاد دُوّن - من النّوع المحسوس. وبدا مُهمًّا للغاية في ذلك الحين، أن على تريسي أن تشعر أيضًا بكل ما كنت أشعر به في اللحظة نفسها، حتى لو لم يعد يثير اهتمامها. ركضت طوال الطريق إلى منزلها، اندفعت نحو غرفتها وقلت: «أنت تعلمين عندما تقفزين نحو الأسفل في حركة فتح الحوض (كانت الفتاة الوحيدة في صفّ الرّقص عند الآنسة إيزابيل التي استطاعت أن تفعل هذه)، تعرفين كيف تقفزين قفزة فتح الحوض وقلت إن والدك يمكنه أن يفعلها أيضًا، وقد تعلمتها عن والدك، وهو تعلّمها من مايكل جاكسن، وجاكسن تعلمها من برنس وربما جيمس براون، حسنًا، جميعهم حصلوا عليها من الأخوين نيكولاس، الأخوان نيكولاس هما الأصليان، هما الأولان، وهكذا حتى إذا كنت لا تعرفين، أو لنقل لا تهتمين، أنت ترقصين مثلهما، أنت تحصلين عليها منهما».

كانت تدخن إحدى سجائر أمها من خلال نافذة غرفة نومها. بدت تكبرني بكثير إذ بدت أشبه بامرأة في الخامسة والأربعين وليست في الحادية عشرة، أمكنها حتى أن تنفث الدّخان من ذينك

---

17 بريسي ومامي شخصيتان في رواية ذهب مع الريح.

المنخرين المستعرّين، وعندما قلت بصوت مرتفع هذا الأمر الخطير كما يفترض، الذي أتيت لقوله لها، شعرت بأن الكلمات تتحول في فمي إلى رماد. لم أعرف حتى ما كنت أقول أو ماذا قصدت منه حقًّا. ظلت تدير ظهرها لي لتمنع الرماد من التساقط في الغرفة، لكن عندما انتهيت من توضيح وجهة نظري، إذا كان هذا ما كنت أفعله حقًّا، التفتت نحوي وقالت ببرود شديد كما لو أننا كنا غريبتين تمامًا: «لا تتحدثي عن والدي ثانية أبدًا».

✧ خمسة ✧

«هذا لا يتكلّل بالنّجاح».

كانت بعد حوالي شهر واحد فقط من شروعي بالعمل لديها، لدى إيمي – وحالما قيلت جهارًا رأيت أنها محقّة، لم ينجح، واللوم يقع عليّ. كنت شابة وعديمة الخبرة ولم أبدُ مؤهلة للعثور على طريق عودتي إلى ذلك الانطباع الذي امتلكته يوم لقاءنا الأول، عن أنها قد تكون امرأة بشرية مثلها مثل أي واحدة أخرى. بدلًا من ذلك كان إحساسي الغريزي مصفّحًا بردود أفعال الآخرين – زملاء سابقين، أصدقاء قدامى من المدرسة، والديّ – وكل واحد كان له أثره، كل لهاث أو ضحكة مرتابة، لذا الآن كل صباح عند وصولي إلى منزل إيمي في حي نايتسبريدج أو إلى مكاتبها في تشيلسي توجب عليّ أن أقاتل إحساسًا بالسريالية قويًّا للغاية. ما الذي أفعله هنا؟ تلعثمت غالبًا وأنا أتكلم، أو نسيت وقائع أساسية سبق أن أخبرتني عنها. رحت أفقد خيط المحادثات أثناء الاتصالات الجماعية، ذاهلة للغاية بصوت آخر في داخلي لم يكف أبدًا عن القول: إنها ليست حقيقية، أيّ من هذا ليس حقيقيًا، حسبه خيالك الطفولي. كانت مفاجأة في نهاية أحد الأيام أن أغلق الباب الأسود الثقيل لمنزلها الجورجي وأجد أنني في النهاية لست في مدينة حلم، بل في لندن وفقط على بعد بضع خطوات من شارع البيكاديلي لاين. جلست قرب جميع الركاب الآخرين وهم يقرأون صحيفة مدينتهم، غالبًا ألتقط واحدة

بنفسي، لكن مع إحساس بأني سافرت أبعد: ليس فقط من المركز عائدة إلى الضّواحي، لكن من عالم آخر إلى عوالمهم، العالم الذي بدا لي وأنا في الثانية والعشرين، أنه يوجد عند مركز المركز – الذين كانوا جميعًا منشغلين بالقراءة عنه.

أعلمتني إيمي وهي جالسة على أريكة كبيرة رمادية وضعت أمام الأريكة المشابهة التي جلست عليها: «إنه لا ينجح لأنك لست مرتاحة، يجب أن تكوني مرتاحة داخليًا لتعملي معي، أنت لستِ كذلك».

أغلقت المحمول في حجري، أخفضت رأسي وشعرت ببعض الانشراح: إذن يمكن أن أعود إلى عملي الحقيقي والواقع – إذا كانوا لا يزالون راغبين بي. لكن بدلًا من أن تطردني، رمت إيمي بوسادة على رأسي على نحو لعوب: «حسنًا، ماذا يمكننا أن نفعل بهذا الشّأن؟»

حاولت أن أضحك واعترفت بجهلي. أمالت رأسها نحو النافذة. رأيت على وجهها نظرة الاستياء الدائم أو نفاد الصّبر تلك التي بدأت لاحقًا الاعتياد عليها، شكّلَ مدّ ملالها وجزره يومَ عملي. لكن في تلك الأيام الأولى كان كله لا يزال جديدًا علي وفسرته فقط على أنه ملل، تحديدًا ملل وخيبة مني، وغير عارفة ما الذي أفعل بشأنه، أجلت النظر من آنية إلى أخرى حول تلك الغرفة الفسيحة – لقد ملأت كل فراغ بالزهور – ونحو الجمال الأبعد في الخارج، نحو الشمس تنعكس عن سطوح الاردواز الرمادية لنايتسبريدج، وحاولت أن أفكر بشيء مثير للاهتمام كي أقوله.

لكني لم أفهم أن الجمال جزء من الملل. كانت الجدران مكسوّة بكثير من اللوحات الزيتية الفيكتورية القاتمة، لوحات للطبقة الأرستقراطية أمام منازلهم الفاخرة، لكن لم يكن هناك شيء من بلدها، ولا شيء يمكن تمييزه على أنه أسترالي، لا شيء شخصي. كان

يفترض بهذا أنه بيت إيمي اللندني ومع ذلك لم يملك شيئًا يتعلق بها. أشاع الأثاث المخملي ذوقًا سليمًا مثل أي فندق أوروبي راق. كان الدليل الوحيد الحقيقي على أن إيمي عاشت هنا على الإطلاق هو برونز قرب عتبة النافذة، بحجم طبق تقريبًا وله الشّكل نفسه، في الوسط الذي يمكنك منه رؤية البتلات والأوراق لما بدا في البداية أنها زهرة سوسن على ساقها، لكن كان بالفعل الصبّة الكاملة لمهبل: الفرج، شفر الفرج، البظر – الأعمال الفنية. لم أتجرأ على السؤال لمن.

سألت وهي تلتفت نحوي: «لكن أين تشعرين براحة أكبر؟» رأيت فكرة جديدة مرسومة على وجهها مثل أحمر شفاه نضر.

«تعنين مكانًا؟»

«في هذه المدينة. مكان».

«لم أفكر بهذا أبدًا».

وقفت: «حسنًا، فكّري ودعينا نذهب إليه».

كان الهيث أول مكان تبادر إلى ذهني. لكن لندن إيمي، مثل تلك الخرائط الصّغيرة التي تلتقطها في المطار، مدينة تتمركز حول سانت جيمس، يحدها من الشّمال «متنزه ريجينت»، تمتد حتى كينسينجتون غربًا – مع غزوات بين الحين والآخر في فيافي «ليدبروك جروف» – وشرقًا فقط حتى «الباربيكان». لم تعرف عمّا يمكن وجوده عند الجهة الجنوبية من جسر هانجرفورد أبعد من نهاية قوس قزح.

شرحت: «إنه متنزه من نوع كبير، قريب من المكان الذي ترعرعت فيه».

«حسنًا! لنذهب إلى هناك».

ركبنا الدّراجات عبر المدينة، نلتف من حول الحافلات ونسابق السّعاة العَرَضيين، ثلاثتنا في طابور: المُوكل بحراستها أولًا – ويُدعى

جرانجر – ثم إيمي، ثم أنا. فكرة أن إيمي تقود دراجة عبر لندن أغضبت جودي لكن إيمي أحبّت أن تفعلها، دعت ذلك حريّتها في المدينة، وربما عند واحدة من إشارات المرور في الشّارع العشرين صار السّائق المحاذي ينحني قدمًا على المقود، وينزل نافذته وقد لاحظ شيئًا مألوفًا في العينين الرماديتين الزرقاوين، السّنوريتين، وذلك الذقن المثلثي الشّكل المدقّق... لكن عند تلك اللحظة تتغير إشارة المرور ونمضي.

عندما قادت الدراجة ارتدت ثيابًا مدنية للتمويه بأيّ حال – صدارة سوداء رياضية، سترة سوداء، وسروالًا متّسخًا قصيرًا أسود خاصًّا بركوب الدّراجات رثًّا عند المنفرج، وفقط حارسها جرانجر الذي بدا أنّه قد يلفت انتباه أي شخص: بطول 6.4 قدمًا، ووزن يبلغ المائتين والخمسين باوندًا، رجل أسود يتمايل على درّاجة ذي هيكل من التيتانيوم يتوقف بين الحين والآخر ليخرج من جيبه خريطة ويتفحصها باهتياج. كان من هارلم في الأصل – «حيث لدينا شبكة على الخريطة» – ولم يستطع مغفرة عجز اللندنيين عن ترقيم شوارعهم بطريقة مماثلة، راح يقلّل من قيمة المدينة كلها بسبب ذلك. بالنسبة له مثّلت لندن امتدادًا من طعام وطقس سيئين أصبحت مهمته الوحيدة فيه – الحفاظ على سلامة إيمي – أكثر صعوبة مما يجب أن تكون. عند حي سويس كوتاج لوّح لنا عند جزيرة مرورية وخلع سترته القصيرة ليكشف عن عضلتي ذراع ضخمتين.

قال وهو يلطم مقود الدراجة بخريطته: «أنا أقول لك الآن أنني لم أستطع أن أعرف أبدًا أين يقع هذا المكان، تصلين حتى منتصف شارع صغير جدًا – «كريستشيرش كلوز»، «هينجلبيري كورنر» – من ثم هذا الشيء يقول لي: اقلب على الصفحة 53. أيها اللعين أنا أركب دراجة».

قالت إيمي بلكنة بريطانية رهيبة: «تشجع جرانجر» وجذبت رأسه الكبير نحو كتفها لحظة، تعصره بولع. حرّر جرانجر نفسه وحملق في الشّمس: «منذ متى والطقس حار؟»

«حسنًا، إنه الصيف. قد تصبح إنكلترا أحيانًا حارة في الصّيف. كان عليك ارتداء سروال قصير».

«لا أرتدي السّراويل القصيرة».

«لا أظن أن هذه محادثة مثمرة للغاية. نحن على جزيرة مرورية».

قال جرانجر: «انتهيت. سوف نعود»، بدا حازمًا للغاية بهذا الشّأن، وتفاجأت لسماع أي شخص يتحدث إلى إيمي بهذه الطريقة.

«نحن لسنا بعائدين».

قال جرانجر وهو يرمي الخريطة في السّلة في مقدمة دراجة إيمي: «إذن من الأفضل أن تأخذي هذه، لأنني لا أستطيع استخدامها».

قلت وأنا أشعر بالإهانة لأنني السبب في المشكلة: «أعرف أن الطريق من هنا، إنه حقًا ليس ببعيد».

أصرّ جرانجر دون أن ينظر إليّ: «نحتاج إلى سيارة».

نحن تقريبًا لم ننظر إلى بعضنا قط. أحيانًا فكرت بنا على أننا جاسوسين، كُلّفا خطأ بمهمّة في نفس المكان ويحرصان على عدم التواصل بصريًا، كي لا يفتضح الواحد أمر الثاني.

قالت إيمي بصوت منغّم كان يفترض به أن يكون تقليدًا لجرانجر: «أسمع أن هناك فتيانًا ظرفاء في الأعلى هناك، إنهم يختبئون في الأشجار». وضعت قدمها على الدوّاسة، ودفعت، منحرفة نحو حركة المرور.

قال جرانجر بتشامخ وهو يعود لامتطاء دراجته الأنيقة بمهابة: «أنا لا أخلط اللعب بالعمل، أنا شخص مهني».

انطلقنا صاعدين التلّة الشّاهقة على نحو مخيف، نلهث وننفخ ونتبع ضحك إيمي.

يمكنني دومًا العثور على الهيث – طوال حياتي اتخذت دروبًا أعادتني إلى الهيث، سواء رغبت بذلك أم لم أرغب، لكني لم أبتغ على نحو واع يومًا كينوود ووجدته. فقط عثرت عليه. كانت في هذه المرة نفسها: كنت أقود جرانجر وإيمي عبر الممرات الضّيقة مرورًا بالبحيرات، فوق تلة، أحاول أن أفكر أين يكون المكان الأجمل والأهدأ ومع ذلك الأكثر إثارة للاهتمام لنتوقف مع نجمة نجوم تسأم بيسر شديد، عندما رأيت البوابة الصّغيرة الحديدية وخلف الأشجار المداخن البيضاء.

قالت إيمي وهي تقرأ اللافتة: «ما من دراجات»، وبدأ جرانجر بالاحتجاج ثانية وهو يرى ما كان قادمًا، لكنه أفحم.

قالت وهي تترجل عن دراجتها وتمررها إليه: «سوف نكون هنا بعد حوالي ساعة. ربما ساعتين. سأتصل بك. هل جلبت ذلك الشيء؟»

طوى جرانجر ذراعيه عبر صدره الضخم: «نعم، لكن لن أعطيك إياه. ليس وأنا غائب. مستحيل. انسي الأمر».

عندما ترجلت عن دراجتي مع ذلك رأيت إيمي تضع يدها الصّغيرة القاسية لتتلقى شيئًا صغيرًا ملفوفًا بغشاء بلاستيكي شفّاف وتغلق راحتها من حوله، شيء اتضح أنها سيجارة ماريوانا لي. طويلة وأميركية التصميم، خالية من التبغ على الإطلاق. استقرينا تحت الماغنوليا، تمامًا أمام كينوود هاوس، واتكأت إلى الجذع ودخنت بينما استلقت إيمي على العشب وقبعة بيسبول سوداء منخفضة على عينيها، وجهها مرفوع نحوي.

«هل تشعرين بتحسن؟»

«لكن... ألن تشاركيني؟»

«أنا لا أدخن. بصراحة».

كانت تتعرق كما فعلت على المسرح، والآن أمسكت بسترتها، ترفعها أعلى وأسفل لتخلق نفقًا من الهواء، وهكذا لمحت ذلك الشّريط الشاحب من الحجاب الحاجز الذي فتن العالم فيما مضى.

«أحمل كوكا باردة في حقيبتي؟»

«لا أشرب تلك القذارة وليس عليك ذلك».

نهضت على مرفقيها لتراني بشكل أفضل.

«لا تبدين لي مرتاحة جدًّا».

تنهدّت وانقلبت على معدتها لتواجه الحشود الصّيفية المتجمهرة النازلة إلى الاسطبلات القديمة طلبًا للكعك المدوّر والشّاي، أو عبر أبواب المنزل الكبير من أجل الفن والتاريخ.

قلت وأنا أعرف أني تحت تأثير الحشيش وأنها ليست كذلك، لكني وجدت من الصّعب أن أبقي في ذهني النّصف الثّاني من ذلك العرض: «لدي سؤال. تفعلين هذا مع جميع مساعديك؟»

تأمّلت: «لا، ليس هذا بالضّبط. الناس مختلفون. أنا دومًا أفعل شيئًا. لا أحتمل أن يكون في وجهي أربعًا وعشرين ساعة لسبعة أيام في الأسبوع من سوف يتصرف بخجل معي. ليس لدي وقت. ولا أملك ترف أن أعرفك بطريقة بطيئة دقيقة أو أن أكون انكليزية بلطف في هذا الشّأن قائلة من فضلك وشكرًا لك كلما أريدك أن تفعلي شيئًا - إذا كنت تعملين عندي، فقط عليك أن تنطلقي نحوه. لقد كنت أفعل هذا فترة من الزّمن واكتشفت أن بضع ساعات مكثّفة في البداية توفر الكثير من الوقت وسوء التفاهم والهراء لاحقًا. أنت تفلتين من العقاب، صدقيني. لقد استحممْتُ مثلًا مع ميلاني».

شرعت بإلقاء نكتة مطوّلة بلهاء على أمل أن أسمع ضحكتها

ثانية لكن عوضًا عن ذلك نظرت إليّ شزرًا.

«أمر آخر عليك فهمه هو ليس أني لا أفهم سخريتك البريطانية، أنا فقط لا أحبها. أجدها صبيانية. 99% من الوقت عندما ألتقي ببريطانيين يكون شعوري: انضجوا!»

عاد عقلها إلى ميلاني في ذلك الحمام: «أردت أن أعرف إذا كانت حلمتاها طويلتين جدًا. مهووسة».

«هل كانتا؟»

«من هما؟»

«حلماتها. طويلتين».

«إنهما كالأصابع».

بصقتُ بعض الكوك على العشب.

«أنت مضحكة».

«أنا أتحدر من طابور طويل من الناس المضحكين. الله يعلم لماذا يظن البريطانيون أنهم وحدهم يسمح لهم أن يكونوا مضحكين في هذا العالم».

«أنا لست بريطانية إلى درجة كبيرة».

«أوه، حبيبتي، أنت بريطانية تمامًا».

مدت يدها إلى جيبها لتخرج هاتفها وبدأت تتصفح رسائلها النصية. عاشت إيمي في هاتفها قبل وقت طويل من أن يصبح حالة عامة. كانت رائدة في هذا مثلما كانت في أشياء كثيرة.

«جرانجر، جرانجر، جرانجر، جرانجر. لا يعرف ماذا يفعل بنفسه عندما لا يكون لديه ما يفعله مع نفسه. إنه مثلي. لدينا الهوس نفسه. هو يذكرني بكم يمكن أن أكون متعِبة للآخرين».

تردد إبهامها فوق جهازها الجديد البلاك بيري.

«معك أنا أتطلع إلى: ظريفة، هادئة، رابطة الجأش. هل يمكنك أن تفعلي بعض ذلك معي. يا يسوع المسيح، أرسل لي خمس عشرة رسالة تقريبًا الآن. كل ما يتوجب عليه هو أن يمسك الدراجات. يقول إنه قرب الما هو بحق الجحيم، بركة الرّجال؟»

قلت لها بالتّفصيل. ارتسمت على وجهها ملامح تنم عن التشكك.

«إذا كنت أعرف جرانجر جيدًا فيستحيل عليه أن يسبح في مياه عذبة، هو لن يسبح حتى في ميامي. مؤمن كبير بمادة الكلور. لا، يمكنه فقط أن يمسك الدراجات». لكزت بطني بإصبعها. «هل انتهينا هنا؟ خذي واحدة أخرى من تلك إذا كنت بحاجة إليها. هذه صفقة لمرة واحدة – استغلي الفرصة. مرة واحدة لكل مساعد. بقية الوقت تعملين عندما أعمل. وهذا ما أفعله دومًا».

«أنا مسترخية جدًا الآن».

«جيد! لكن هل هناك أي شيء آخر لفعله هنا فضلًا عن هذا؟»

وهكذا رحنا نتجول في أرجاء «كينوود هاوس»، تبعتنا بعد حين فتاة تبلغ ستة أعوام حادّة البصر رفضت أمها الذاهلة أن تصغي إلى شعورها الدّاخلي الرائع. تبعتُ محمرة العينين ربة عملي الجديدة، ألاحظ للمرة الأولى طريقتها الخاصّة جدًا في النّظر إلى اللوحات، كيف تجاهلت على سبيل المثال جميع الرّجال، ليس كرسامين، بل كمواضيع، تمر عبر لوحة رامبرانت التي رسم فيها نفسه دون أن تتوقف، تتجاهل جميع النّبلاء الإنكليز والدّوَق، وتصرف النّظر بعبارة واحدة عن ملاح تاجر له عينا والدي الضّاحكتين: «قصّ شعرك!». مناظر طبيعية أيضًا لم تعنِ لها شيئًا. أحبّت الكلاب، الحيوانات، الفاكهة، الأقمشة، والزّهور على وجه الخصوص. على مرّ السّنين علمت أن أتوقّع أن باقة شقائق النّعمان التي كنّا قد رأيناها للتو في متحف «الباردو» أو نبات

«عـود الصّليـب» في متحـف «المعـرض الـوطني» سـتعاود الظهـور بعـد حوالي أسبوع تقريبًا في مزهريات في كلّ مكان في أي منزل أو فندق صدف أن كنا فيه في ذلك الحين. كلاب صغيرة جدًا مرسومة أيضًا، قفزت من قماش اللوحات إلى حياتها. كان كينوود مصدر الكوليت، كلبًا من نوع السّبانيل شبقًا يشبه لوحة للرسام جوشوا رينولدز ابتيع في باريس بعد عدة أشهر، حينها كان عليّ أن أصحبه في نزهة مرتين يوميًا لمدة سنة. لكن أكثر من ذلك كلّه أحببت صور النّساء: وجوههن، حليهنّ الرّخيصة، تسريحات شعرهن، مشداتهن، أحذيتهن الصّغيرة مستدقّة الرأس.

«أوه يا إلهي، إنها جودي!»

كانت إيمي عبر غرفة الدّمقس الحمراء، تضحك أمام لوحة تمثّل صورة شخصيّة بالحجم الطّبيعي. جئت من الخلف وحدّقت في الفنان «فان ديك» الذي نحن بصدده. لا يحيط بها أي شك: كانت هناك جودي رايان بكل جلالها الرّهيب، لكن قبل أربعمئة عام ترتدي عباءة سوداء وبيضاء غير مغرية من الدّانتيل والسّاتان، ويدها اليمنى، نصف أمومية ونصف متوعّدة، ترتكز على كتف خادم شاب مجهول. عيناها مثل عيون الكلاب البوليسية، الحاشية الرهيبة، الوجه الطويل عديم الذّقن – كان كله هناك. تضاحكنا كثيرًا، بدا لي أن شيئًا تغيّر بيننا، تبدّدت بعض الرسمية أو الخوف، لذا حينئذ، بعد بضع دقائق ادّعت إيمي أنها مسحورة بعمل فني يُدعى «أكاديمية الصّغار»، شعرت بحرية كافية على الأقل لمخالفتها الرأي: «إنها عاطفية قليلًا أليست كذلك؟ وغريبة...»

«أحبها! أحب الغرابة. أطفال عراة يلونون صورًا عارية لبعضهم. لا أستطيع مقاومة الأطفال الآن». نظرت بحزن إلى طفل على وجهه الملائكي ابتسامة حيية. «هو يذكرني بطفلي. ألا تحبينه حقًا؟»

لم أعرف في ذلك الحين أن إيمي كانت حبلى بكارا، طفلتها الثّانية. ربما هي نفسها لم تعرف. بالنسبة لي كان واضحًا أن الصّورة برمتها سخيفة والأطفال متوردي الوجنات منفّرون على نحو الخصوص، لكن عندما نظرت إلى وجهها رأيت أنها جادّة. يمكنني أن أتذكّر التفكير: وما هم الأطفال، إذا كان بوسعهم أن يفعلوا هذا للنساء؟ هل لديهم القدرة على إعادة برمجة أمهاتهم؟ أن يحوّلوا أمهاتهم إلى أنواع من النّساء لن تتعرف إليها ذواتهم صغيرة السّن؟ روّعتني الفكرة. كرّست نفسي لمديح جمال ابنها جاي، بالمقارنة مع هؤلاء الملائكة، ليس على نحو مقنع أو متماسك كثيرًا، يعود الفضل إلى الحشيش، وإيمي التفتت نحوي مقطّبة.

«أنت لا تريدين أطفالًا، هل هذا هو الأمر؟ أو أنك تظنين أنك لا تريدينهم».

«أوه، أعرف أنني لا أريدهم».

ربّتت على قمّة رأسي، كما لو أنه لم يكن هناك اثنتي عشرة عامًا بيننا، بل أربعين.

«كم عمرك؟ ثلاثة وعشرون؟ الأشياء تتغير. أنا كنت مثلك بالضبط».

«لا، لقد عرفت دومًا. منذ صغري. أنا لست من النّمط الأمومي. لم أرغب بهم يومًا، ولن أرغب أبدًا. رأيت ما فعله هذا بأمي».

«ما الذي فعله بها؟»

أن أُسأل بطريقة مباشرة للغاية أجبرني على التفكير فعليًّا بالجواب.

«كانت أمًّا شابة، ثم عزباء. هناك أمور أرادت أن تكونها لكنها لم تتمكن من تحقيقها، ليس في ذلك الحين، كانت واقعة في شرك، انبغى عليها المكافحة للحصول على أي وقت يخصها».

وضعت إيمي يدها على وركيها وزيّفت نظرة مدقّقة.

«حسنًا، أنا أم عزباء. ويمكنني أن أؤكد لك أن طفلي لا يمنعني من القيام بأموري. إنه مثل الهامي الآن لو تريدين حقًّا أن تعلمي. إنه توازن بالتّأكيد لكن عليك فقط أن تتوصلي إلى أن ترغبي به بما فيه الكفاية».

فكرت بالمربية الجامايكية إستيل التي أدخلتني منزل إيمي كل صباح من ثم اختفت في حجرة الأطفال. في أنه قد يكون هناك أي تفاوت عملي بين حالة أمي وحالتها، لم تبد أنها تخطر لإيمي، وهذا كان واحدًا من دروسي الأولى عن طريقتها في رؤية الفوارق بين الناس، التي لم تكن يومًا بنيوية أو اقتصادية لكن دومًا فروقات في الشّخصية على نحو أساسي. نظرت إلى اللون في خديها وحيث كانت يدَيّ – أمامي مثل سياسي يوّضح وجهة نظره – وأدركت أن نقاشنا قد أصبح حاميًا بسرعة وغرابة، دون أن ترغب واحدة منا أن يكون كذلك، كما لو أن كلمة «طفل» بذاتها كانت نوعًا من محفز. أسبلت يدي وابتسمت.

«الأمر فقط لا يناسبني».

توجهنا عائدتين عبر الأروقة، نبحث عن المخرج، نجانس في الخطو دليلًا سياحيًا، كان يروي حكاية عرفتها منذ الطّفولة، عن فتاة سمراء – ابنة عبد كاريبي وسيدها البريطاني – جُلبت إلى إنكلترا ونشأت في هذا المنزل الكبير الأبيض مع أقارب أثرياء، صادف أن واحدًا منهم رئيس قضاة. حكاية من حكايات أمي الأثيرة. إلا أن أمي لم تروها كما فعل الدليل السّياحي، هي لم تؤمن أن رحمة العم الأكبر على ابنة أخيه السّمراء كان لها القوّة لإنهاء العبوديّة في إنكلترا. التقطت واحدًا من الكراريس المكدسة على طاولة جانبية وقرأت أن والد الفتاة ووالدتها «قد التقيا في الكاريبي»، كما لو أنهما يتجولان على منتجع شاطئي في موعد حفل

الكوكتيل. مستمتعة، التفتت لأريه لإيمي لكنها كانت في الغرفة المجاورة، تصغي بانتباه إلى الدّليل، تحوم عند حواف المجموعة السّياحية كما لو أنها واحدة منهم. كانت دومًا متأثرة بقصص أثبتت «قوّة الحب» – وما المشكلة بالنسبة لي إذا كانت كذلك؟ لكني لم أتمكّن من منع نفسي، بدأت بتوجيه أمي، أعلق على نحو ساخر على التّعليق، إلى أن انزعج الدّليل ووجه مجموعته نحو الخارج. عندما توجّهنا نحن أيضًا نحو المخرَج تولّيت أمر جولة إيمي، أقودها عبر نفق منخفض من اللبلاب في تعريشة واصفةً الزّنج كما لو أن تلك السفينة الكبيرة كانت تعوم هناك تمامًا في البحيرة أمامنا مباشرة. كانت صورة استحضارها هيّنًا فقد عرفتها بحميمية، كانت قد أبحرت مرات كثيرة عبر كوابيس طفولتي.

في طريقها إلى جامايكا، لكن بعيدة عن المسار جراء خطأ في الملاحة، منخفضة في المياه العذبة، زاخرة بعبيد عطاش (قالت إيمي وهي تقطف زهرة ورد بري من شجيرة: «أوه؟») وقادها رجل يخشى أن العبيد سوف لن يصمدوا بقيّة الرحلة – لكن غير راغب بخسارة ماليّة في رحلته الأولى، جمع مئة وثلاثة وثلاثين رجلًا وامرأة وطفلًا ورماهم عن ظهر المركب مكبّلين بعضهم إلى بعض: شحنة فاسدة يمكن لاحقًا استرداد تأمينها. أخبرت إيمي، كما أخبرتني أمي: أشرف العم الأكبر المشهور برحمته على تلك الحالة أيضًا وأصدر حكمًا ضدّ القبطان، لكن فقط على مبدأ أن القبطان ارتكب خطأ. هو وليس المؤمن عليهم يجب أن يتحمل الخسارة. كانت تلك الأجساد المُساطة لا تزال حمولة، يمكنك طرح حمولة زائدة من المركب لتحمي بقية حمولتك. حسبك أنك لن تنال تعويضًا عنها. أومأت إيمي ودسّت الزهرة التي قطفتها بين أذنها اليسرى وقبعة البيسبول وركعت فجأة لتربت على المجموعة العابرة من الكلاب الصغيرة التي كانت تجر خلفها متجوّلًا وحيدًا.

سمعتها تقول لكلب من نوع داتشوند: «كلّ ما لا يقتلك يقويك»، من ثم استقامت وواجهتني ثانية: «لو لم يمت أبي شابًا؟ ما كان من سبيل لأكون هنا. إنه الألم. اليهود، المثليين، النساء، السّود، الأيرلنديين الملاعين. تلك هي قوتنا السّرية». فكرت في أمي التي لم تملك صبرًا على القراءات العاطفية للتاريخ – وانكمشت خوفًا. تركنا الكلاب وتابعنا السّير. كانت السّماء صافية، امتلأ متنزه الهيث بالأزهار والنباتات المورقة، كانت البرك أحواضًا ذهبية من الضّوء، لكني لم أتمكن من تخليص نفسي من هذا الشّعور بعدم الارتياح والاختلال، وعندما حاولت تتبع مصدره وجدت نفسي أعود أمام ذلك الخادم غير المسمّى في الرواق، حلقة صغيرة ذهبية في أذنه، رفع بصره بتوسل نحو شبيهة جودي عندما ضحكنا عليها. هي لم تنظر إليه، لم تتمكن أبدًا، كانت مرسومة بطريقة تجعل ذلك مستحيلًا. لكن ألم أتجنب أيضًا نظرته كما تجنبت نظرة جرانجر وهو تفادى نظرتي؟ تمكنت من رؤية هذا المور[18] الصّغير الآن بوضوح تام. كان كما لو أنه واقف على الدرب أمامي.

أصرّت إيمي على اختتام ذلك الأصيل المميّز بالسّباحة في بركة السّيدات. انتظر جرانجر مرة أخرى عند البوابات، ثلاث درّاجات عند قدميه، يقلب بغضب صفحات كتاب الجيب ميكيافيلي الصادر عن دار بنغوين. حامت سحابة خفيفة من غبار الطلع تمامًا فوق المياه، بدا أنها عالقة في الهواء الكثيف الوسنان، رغم أن الماء بارد. نزلتُ بتذلّل في سروالي التحتي وكنزتي أسير ببطء على السّلم بينما امرأتان انكليزيتان تبتسمان بابتهاج ترتديان ثوبي سباحة متينين من ماركة سبيدوس وقبعتي سباحة بارزتين، مقدمتان تشجيعًا غير مطلوب لجميع من

18) المور، والجمع: الموريون. مصطلح ذو استخدام شعبي يُطلق على جميع سكان شمال أفريقيا، أي المنطقة المغاربية.

كانوا على وشك الانضمام إليهما. («حقًا لطيف ما إن تنزلي». «فقط واصلي ركل ساقيك إلى أن تشعري بهما». «إذا سبحت وولف هنا، فيمكنك أنت!») انزلقت النّساء على يميني ويساري، عمرهن يساوي ضعف عمري ثلاث مرات تمامًا عن السطح في الماء، لكني لم أتمكّن من التقدّم مسافة أكثر عمقًا من خصري وفي محاولة لكسب الوقت التفت وتظاهرت بدلًا من ذلك بأني أبدي إعجابي بالمشهد: سيدات شائبات تتحركن في دائرة فخمة عبر الطحلب البطي ذي الرائحة الكريهة. رفرف يعسوب جميل مكسوّ بلون إيمي المفضل الأخضر بالقرب. راقبته يحط على السّطح، تمامًا قرب يدي، وأغلق جناحيه المتقزحين. أين كانت إيمي؟ حظيت بلحظة من جنون الارتياب الصّاعق المحرف بالحشيش: هل دخلت قبلي بينما كنت قلقة بشأن سروالي التحتي؟ هل غرقت؟ غدًا هل سأجد نفسي في استجواب، أشرح للعالم لماذا سمحت لأسترالية محبوبة عالميًا مؤمَّن عليها بشدة أن تسبح غير مصحوبة في بركة شديدة البرودة في شمال لندن؟ ثقبت المشهد المتحضر جنية نائحة: التفت إلى الوراء ورأيت إيمي عارية تجري من غرفة تبديل الملابس نحوي، تهيئ نفسها لغطسة من فوق رأسي وفوق السّلم ذراعاها للخارج، ظهرها مقوس على نحو مثالي، كما لو أن راقصًا أساسيًا غير مرئي رفعها من تحت قبل أن تضرب المياه نظيفة وحقيقية.

⟡ ستة ⟡

لم أعرف أن والد تريسي كان سجينًا. أمي هي التي أخبرتني بذلك بعد بضعة أشهر من الحادثة: «أرى أنه سُجن مجدّدًا». لم يكن عليها قول المزيد أو أن تطلب مني أن أمضي وقتًا أقل مع تريسي، كان ذلك يحدث طبيعيًّا بأيّ حال. هناك فتور: واحد من تلك الأشياء التي يمكن لها أن تحدث بين الفتيات. للوهلة الأولى كنت ذاهلة، ظنًّا منّي أنه دائم، لكن في الواقع كان مجرّد انقطاع مؤقت، من كثير من الانقطاعات التي كنّا سنمرّ بها، تستمر لعدة أشهر، أطول أحيانًا، لكن تنتهي دومًا، ليس مصادفة مع خروج والدها مجددًا أو عودته من جامايكا، حيث توجّب عليه الهرب غالبًا، عندما ازدادت حدّة الأمور في الحي. كان كما لو أن تريسي دخلت في شكل بديل كلما كان سجينًا أو مسافرًا، موقفة نفسها مثل شريط فيديو.

على الرغم من أننا لم نعد نتقاسم مقعد الدراسة (فُصلنا عن بعضنا بعد حفلة ليلي، ذهبت أمي إلى المدرسة وطلبت ذلك) رأيتها بوضوح كل يوم وعندما كان هناك «مشكلة في البيت» أحسست بها في الحال، كشفت عن نفسها في كلّ ما فعلته أو ما أحجمت عن فعله. جعلت حياة مدرّسنا شاقّة قدر الإمكان، ليس بسلوك سيء صريح مثل بقيتنا، ليس بالشّتم أو الشّجار، لكن بانسحاب تام لحضورها. كان جسدها هناك ولا شيء آخر. ما كانت تجيب عن الأسئلة أو تطرحها، لم تقحم

نفسها في أي نشاط أو تدوّن أي شيء، أو حتى تفتح دفتر التّمارين، وأنا في مثل هذه الأوقات فهمت أن الزمن توقّف بالنسبة لتريسي. إذا شرع السّيد شيرمان بالصراخ جلست هامدة إلى مكتبها، عيناها شاخصتان نحو نقطة فوق رأسه، أنفها مرفوع نحو الأعلى، ولم يكن لأي شيء قد يقوله من أثر، سواء كان تهديدًا أو مهما رفع صوته. وتنبأت بأنها لم تنس يومًا بطاقات «سطل القمامة» تلك. وإرسالها إلى مكتب المديرة لم يكن يخيفها: وقفت في المعطف الذي لم تخلعه قط وخرجت من الغرفة كما لو أنه لن يحدث فرقًا أنّى ذهبت أو أيّ مما يمكن أن يحدث لها.

عندما كانت في هذه الحالة العقلية انتهزت الفرصة لأفعل تلك الأمور التي شعرت عندما كنت مع تريسي بأني ممنوعة من القيام بها. على سبيل المثال، أمضيت مزيدًا من الوقت مع ليلي بينجهام مستمتعة بما تملكه من حسّ الدعابة ودماثتها: كانت لا تزال تلعب بالدمى، لا تعرف شيئًا عن الجنس، أحبت الرسم وصنع أشياء من الورق المقوّى والغراء. بمعنى آخر كانت لا تزال طفلة، كما تمنيت أحيانًا لو استطعت أن أكون. لم يمت أحد في ألعابها أو كان خائفًا أو انتقمَ أو خشيَ من إماطة اللثام عنه كمحتال، ولم يكن هناك إطلاقًا لا أسود ولا أبيض، لأنه كما شرحت لي بمهابة ذات يوم ونحن نلعب، هي نفسها كانت «مصابة بعمى الألوان» ولم ترَ سوى ما في القلب. كان عندها مسرح صغير من الورق المقوّى للباليه الروسي، مشترى من كوفنت جاردن ما يضمن أصالته وبالتالي تحريكًا انسيابيًّا للأمير الكرتوني حول الخشبة، جاعلة إياه يلتقي أميرة كرتونية ويحبّها، بينما شغلت نسخة قديمة يملكها والدها من بحيرة البجع في الخلفية. أحبّت الباليه، ولو أنها كانت راقصة ضعيفة، متقوسة السّاقين كثيرًا، فليس لديها أي آمال حقيقية، وعرفت كل الكلمات الفرنسية عن كل شيء، وقصص الحياة

المأسَويّة لدياجيليف وبافلوفا. لم يثر الرّقص النّقري اهتمامها. عندما أريتها نسختي المهترئة من فيلم طقس عاصف، استجابت بطريقة لم أترقبها، كانت مهانة بها – بل مجروحة. لماذا الجميع من السّود؟ قالت: «لم يكن لطيفًا أن يكون هناك فقط أناس سود في فيلم، لم يكن عادلًا. ربما في أميركا يمكنك فعل ذلك، لكن ليس هنا في انكلترا، حيث الجميع متساوون بأيّ حال ولم يكن هناك حاجة «للتحدث عنه كثيرًا». وقالت: «ما كنا سنحب قول أحدهم لنا إن السود فقط يمكن أن يأتوا إلى صف رقص إيزابيل، ذلك لن يكون لطيفًا لنا أو عادلًا، أليس كذلك؟ قد نحزن بسببه. أو أن فقط السّود يمكن أن يأتوا إلى مدرستنا. ما كان سيعجبنا ذلك، صحيح؟» لم أقل شيئًا. أعدت «طقس عاصف» إلى حقيبة ظهري وذهبت إلى البيت، وأنا أمشي تحت مغيب شمس ويلزدن بألوان بتروليّة وغيوم سريعة التحول فكّرت مرارًا وتكرارًا بهذه المحاضرة الطريفة في عقلي، أتساءل ما الذي قد تكون عنته بكلمة «نحن»؟

سبعة

عندما كانت الأمور جليدية بين تريسي وبيني وجدت أيام السّبت قاسية واعتمدت على السّيد بوث بالحديث والنّصح. حملت له معلومات جديدة – حصلت عليها من المكتبة – وأضاف إلى ما أعرفه منها أو شرح أمورًا لم أفهمها. على سبيل المثال، لم يعرف السّيد بوث أن فرِد آستر لم يكن اسمه الحقيقي، بل فريدريك أوسترلِتز، لكنه فهم ما تعنيه كلمة أوسترليتز، شرح أنه اسم لابدّ أنّه لم يأتِ من أميركا بل من أوروبا، ربما ألمانيّ أو نمساويّ وقد يكون يهوديًّا. بالنسبة لي كان آستر أميركا – لو كان على العلم ما كنت سأتفاجأ – لكن الآن علمت أنه أمضى كثيرًا من الوقت في لندن، في الواقع، وأن صيته قد ذاع هنا، يرقص مع أخته، ولو ولدت قبل ستّين عامًا لكان في وسعي الذّهاب إلى «مسرح شافتسبري» ورؤيته بنفسي.

قال السّيد بوث: «وعلاوة على ذلك، كانت أخته راقصة أفضل منه بكثير، قال الجميع ذلك، كانت النّجمة وكان الخاسر، لا يمكنه الغناء، لا يمكنه التمثيل، آخذ في الصّلع، يمكنه الرّقص، قليلًا، ها ها ها، حسنًا لقد أراهم، ألم يفعل؟» مُنصتة إلى السّيد بوث، تساءلت إذا كان ممكنًا لي أيضًا، أن أصبح شخصًا أفصح عن نفسه لاحقًا في الحياة، بعد وقت طويل، وبالتالي ذات يوم – بعد فترة زمنية طويلة من الآن – قد تكون تريسي جالسة في الصّف الأمامي لمسرح شافتسبري، تشاهدني

أرقص، انعكست وضعيّاتنا كلية، تفوّقي اعترف به العالم أخيرًا. قال السّيد بوث وهو يأخذ كتاب المكتبة من يدي ويقرأ منه: «وفي سنوات لاحقة، في سنوات لاحقة كان روتينه اليومي قد تغيّر قليلًا عن الحياة التي لطالما عاشها. استيقظ عند السّاعة الخامسة صباحًا. وأفطر على بيضة مسلوقة واحدة حافظت على وزنه ثابتًا عند مئة وأربعة وثلاثين باوندًا. مدمن على المسلسلات التلفزيونية مثل «الضّوء المرشد» و«عندما يدور العالم». اعتاد أن يتصل بمدبرة منزله إذا لم يتمكن من مشاهدة المسلسل، ليعرف ما الذي حدث». أغلق السّيد بوث الكتاب، ابتسم وقال: «يا له من شخص غريب الأطوار!»

عندما اشتكيت للسيد بوث واحدًا من عيوب آستر – عن أنه لم يتمكّن في رأيي من الغناء – فوجئت بقوة مخالفته لي في الرأي، نتفق عادة حول كل شيء ولطالما كنا نتضاحك، غير أنه الآن عزف نغمات مقطوعة «All of me» على البيانو بصوت خفيض وقال: «لكن الغناء لا يدور فقط حول مسألة أن ترفعي عقيرتك بالغناء، هل هو كذلك؟ إنه ليس فقط من يمتلك النغمة الأعلى أو الأكثر تذبذبًا، لا، إنه يتمحور حول طريقة التعبير وكونك رقيقة وأن تغني الأغنية بإحساسها الصائب، بروحها، وبالتالي عندما يصدح رجل بالغناء يحدث في داخلك أمر حقيقي، وألا ترغبين بأن تشعري بشيء حقيقي، بدلًا من مجرد أن تضرب فتحتي أذنيك المسكينتين بعنف؟»

توقّف عن الكلام وعزف المقطوعة بالكامل، ورافقته في الغناء، أحاول عمدًا إيصال كل مقطع على نفس المنوال الذي يتبعه آستر في فيلم «جوارب حريرية» – أختصر بعض الأسطر، وبعض أسطر أخرى ألفظها على نحو تحدثي إلى حدٍّ ما – على الرغم من أن الأمر لم يبدُ طبيعيًا في نظري. فكرنا معًا، أنا والسّيد بوث، ما قد يكون أن تحب

الشّرق، الغرب، الشّمال والجنوب، لشخص ما، أن تحرز سيطرة تامة عليهم حتى لو أحبوا بالمقابل نسبة ضئيلة منّا فقط. أديت عادة وأنا أضع يدي على البيانو، ووجهي متجه نحو الخارج لأن هذا ما فعلته الفتيات في الأفلام، وبتلك الطريقة تمكنت من مراقبة السّاعة فوق باب الكنيسة لأعرف متى اصطف آخر الأطفال، وبناء عليه متى حان وقت التوقف، لكن في هذه المناسبة كنت راغبة بمحاولة الغناء في تناغم مع ذلك اللحن الرقيق، أن أطابق طريقة السّيد بوث في عزفه، لا أكتفي فقط «بأن أصدح بها»، بل أن أخلق شعورًا حقيقيًا – ما جعلني غريزيًا ألتفت نحو الدّاخل، وأنا في منتصف المقطع، وعندما فعلت رأيت أن السيد بوث يبكي برفق شديد، لكنه يبكي بالتأكيد.

توقّفت عن الغناء. قال: «وهو يحاول أن يجعلها ترقص، فرِد يريد «سود» أن ترقص، لكنها لن تفعل، هل ستفعل؟ تستطيعين القول إنها مثقفة من روسيا، وهي لا تريد أن ترقص، وهي تقول له: «المزعج في الرّقص هو أنك تمضي، تمضي، تمضي، لكنك لا تصل إلى أي مكان!» ويقول فرِد: «هذا غني عن القول!» جميل. جميل! الآن انظري، عزيزتي، حان وقت الحصة. من الأفضل أن تنتعلي حذاءك».

عندما ربطنا شرائطنا وتأهبنا لنعود إلى الصّف، قالت تريسي لأمها وكنت على مرمى السّمع: «أترين؟ تحب جميع الأغاني القديمة الغريبة». امتزج صوتها بنبرة اتهامية. عرفت أن تريسي أحبت موسيقى البوب، لكني لم أظن أن الألحان كانت جميلة، والآن حاولت أن أقول ذلك. تململت تريسي وقاطعتني. كان لتململها نفوذ علي. أمكنها أن تنهي أي موضوع. التفتت نحو أمها وقالت: «تحب التافهين المسنين، أيضًا». صدمني رد فعل أمها: تطلعت وتكلّفت الابتسام.

في تلك اللحظة كان والدي في الخارج، في باحة الكنيسة، في

بقعته المعتادة تحت شجرة الكرز، استطعت رؤيته وكيس التبغ في يد وورقة السّيجارة في الأخرى، لم يعد يكلّف نفسه عناء إخفاء هذه الأمور عني الآن. لكن لم يكن يوجد عالم استطعت فيه أن أطلق تعليقًا فظًا لطفل آخر وأجعل أبي أو أمي يتكلفان الابتسام، أو يقفان في صفي بأيّ حال. لقد صدمني اتفاق تريسي وأمها، واعتقدت أن هناك أمرًا غير طبيعيّ حول هذا وذاك بدتا تعرفانه، لأنهما في سياقات محددة أخفتاه. شعرت بيقين من أن والدي لو كان حاضرًا ما كانت والدة تريسي لتجرؤ على الابتسام.

قالت مشيرة إلي: «يفضل أن تُعرضي عن الرّجال المسنين الغرباء».

لكن عندما اعترضت قائلة إن السّيد بوث ليس غريبًا علينا، وأنه عازف البيانو المسن العزيز وأننا أحبيناه، بدت والدة تريسي سئمة وأنا أتحدث، صالبت ذراعيها على صدرها الضخم ونظرت قدمًا.

شرحت تريسي: «تظن أمي أنه متحرش».

خرجت من ذلك الدّرس أمسك بيد والدي لكني لم أخبره بما جرى. لم أفكر في طلب مساعدة والديّ في أيّ مسألة، ليس بعد الآن، فكرت فقط في حمايتهما وحسب، ذهبت إلى مكان آخر للتوجيه. كانت الكتب قد بدأت تدخل حياتي. ليست كتبًا جيدة، ليس بعد، غير أن تلك السّير الذاتية القديمة عن عالم المشاهير التي أقرأها في غياب نصوص مقدسة، كما لو أنها نصوص مقدسة، متخذة شكلًا من العزاء منها، ولو أنها كانت عملًا تجاريًا نفّذ للحصول على ربح سريع، بالكاد أعاد كُتّابها النظر فيها، لكنها بالنسبة لي هامة. طويت بعض الصّفحات وأعدت قراءة سطور مرارًا، كما تقرأ سيدة فكتورية سفر مزاميرها. ادّعى آستر أنه كان يفكر كلما شاهد نفسه على الشاشة: هو لا يفعل

ذلك على نحو صحيح – ذلك كان أمرًا شديد الأهمية. ولاحظت ضمير الغائب ذاك. هذا ما فهمته منه: أنّ آستر في الفيلم لم يكن مرتبطًا بآستر الشخص نفسه. وأخذت هذا بحساسية، أو بالأحرى، ردّد صدى شعور امتلكته سلفًا، على الأخص أنه كان مهمًّا أن يعامل المرء نفسه كغريب، ليبقى منفصلًا وغير متحيّز إلى حالته الخاصّة. اعتقدت أنه وجب عليك أن تفكر بتلك الطريقة لتنجز أي شيء في هذا العالم. نعم، اعتقدت أنّه سلوك أنيق جدًا. وصرت راسخة أيضًا عند نظرية «كاثرين هيبورن» الشّهيرة «فرد وجينجر»: هو يقدم لها حصّة تعليمية، فتعطيه جنسًا. هل كانت هذه قاعدة عامة؟ هل تنطوي جميع الصّداقات والعلاقات على هذا التبادل الكتوم والغامض للمؤهلات، هذا التبادل للقوة؟ هل يمتد إلى شعوب وأمم أم أنه أمر يحدث فقط بين الأفراد؟ ما الذي يعطيه أبي لأمي، والعكس بالعكس؟ ما الذي منحناه لبعضنا البعض السّيد بوث وأنا، ما الذي أعطيته لتريسي، وما الذي أعطتنيه تريسي؟

الفصل الثالث

وقفة

✧ واحد ✧

شرحت لي إيمي: «الحكومات عديمة جدوى ولا يمكن الاتّكال عليها، وللمنظمات غير الحكومية أجنداتها، وتهتمّ الكنائس بالأرواح أكثر مما تهتم بالأجساد». واصلت وهي تعدّل درجة ميلان آلة جريها إلى أن بدوت أنا التي مشيت على آلة مجاورة، أراقبها وهي تصعد مسرعة حافّة جبل كليمنجارو: «وهكذا لو رغبنا برؤية تغيير حقيقي في هذا العالم، حسنًا، حينئذ علينا أن نكون نحن أنفسنا من يصنع ذلك، نعم، علينا أن نكون التغيير الذي نرغب في رؤيته».

عنت «بنحن» أشباهها من النّاس، من يملكون موارد مالية وعلاقات عالميّة، من صادف أنهم يحبون الحرية والمساواة، ويريدون العدالة، ويشعرون بواجب فعل شيء جيد بثروتهم الجيدة. كانت فئة أخلاقية لكنها اقتصادية أيضًا. وإذا تتبعت منطق هذه الفئة حتى نهاية الحزام الدوّار، بعد بضعة أميال تتوصل إلى فكرة جديدة عن أن الثروة والأخلاق هما مبدئيًا الأمر نفسه، لأنه كلما امتلك المرء مزيدًا من المال، كلما امتلك المزيد من الأخلاق الكريمة – أو إمكانية لأن يكون ذا خلق كريم.

مسحت عرقي بسترتي ورمقت الشّاشتين أمامنا: سبعة أميال لإيمي، ميل واحد ونصف لي. على الأقل انتهت، نزلت كل منا عن آلتها، ناولتها منشفة، سرنا معًا نحو غرفة التحرير. رغبت بمراجعة تصوير

سابق لمقطع ترويجي كنا نعمل عليه من أجل متبرعين مرتقبين، لم أمتلك بعد موسيقاه أو صوته. وقفنا خلف المخرج والمحرر ونظرنا عندما ظهرت نسخة من إيمي، نسخة صامتة، تشقّ تربة أرض مشروع المدرسة، تحمل في يدها رفشًا كبيرًا وتضع حجر الأساس بمساعدة مسنٍّ قروي. شاهدناها ترقص مع ابنتها البكر كارا البالغة من العمر ست سنوات ومجموعة من التلميذات الجميلات في زيهن الأخضر والرمادي، على موسيقى لم نتمكّن من سماعها، تثير كل خبطة من قدمها سحبًا هائلة من الغبار الأحمر. تذكرت رؤية كل هذه الأمور تحدث قبل أشهر في الواقع، في لحظة حدوثها بالذات وفكرت كم بدت مختلفة الآن، في هذا التنسيق، عندما حرك المحرر أشياء بالسهولة التي أتاحتها برمجياته مزاوجًا بين إيمي في أميركا مع إيمي في أوروبا وإيمي في أفريقيا، واضعًا أحداثًا مألوفة في نظام جديد.

أعلنت قانعة بعد خمس عشرة دقيقة: «وهكذا تنجز الأمور»، تنهض، تعبث بشعر المخرج الشّاب وتتوجه إلى الحمامات. بقيت وساعدت في إنهاء التّحرير. كانت آلة تصوير بتقنية التصوير المتقطّع وضعت في موقع البناء، في شهر شباط المنصرم، وهكذا تمكنّا الآن من مشاهدة المدرسة بكاملها تنهض خلال بضع دقائق، عندما أُجراء كالنمل يتحركون بسرعة كبيرة فلا يمكن تمييز بعضهم عن بعض، احتشدوا فوقها، تظاهرة سريالية لما كان ممكنًا عندما قرّر أناس أثرياء صالحون إنجاز الأمور، أناس قادرون على بناء مدرسة للفتيات في قرية ريفية غرب أفريقيا خلال أشهر، ببساطة لأن ذلك ما قرروا القيام به.

لقد سرّ أمي أن تدعو أسلوب إيمي في عمل الأشياء «بالسّاذج». لكن إيمي اعتقدت أنها جرّبت سلفًا طريق أمي، السّبيل السياسي. ساندت مرشحي الرئاسة في الثّمانينات والتّسعينات، تقيم

مآدب العشاء، تدير حملة للتبرعات، تخاطب الجماهير من منابر الملاعب الرياضية.

بحلول وقت مجيئي للعمل معها كانت قد انتهت من كل ذلك، تمامًا عندما انتهى الجيل، جيلي الذي شجعته سابقًا على ممارسة حقه في الاقتراع. الآن كانت منوطة «بإحداث تغيير على الأرض»، أرادت فقط أن «تعمل مع الجماعات على مستوى المجتمع»، وأنا احترمت التزامها بصدق وفقط بين الحين والآخر – عندما قدم بعض من رفاقها الأثرياء من أصحاب النوايا الحسنة إلى منزل هودسُن فالي لتناول الغداء أو للسباحة ولمناقشة هذه المجازفة أو تلك – صار من الصّعوبة بمكان تفادي رؤية الأمور التي رأتها أمي. في تلك الأوقات شعرت حقًّا بأن أمي عند كتفي، ضمير مستتر أو تعليق ساخر، تصب السّم في أذني من على بعد آلاف الأميال، عندما حاولت الإصغاء إلى هؤلاء الأثرياء المتنوعين الأخيار – مشهورين بالعزف على الجيتار أو الغناء أو تصميم الأزياء أو يتظاهرون بأنهم أشخاص آخرون – يثرثرون وهم يحتسون الخمور عن خططهم للقضاء على الملاريا في السّنغال أو جلب آبار نظيفة إلى السودان وهلم جرا. لكني عرفت أن إيمي نفسها لم تمتلك اهتمامًا مجرّدًا بالسّلطة. كانت مدفوعة بشيء آخر: نفاد الصّبر. بالنسبة لإيمي كان الفقر واحدًا من أخطاء العالم القذرة، واحدًا من بين أخطاء كثيرة قد يكون من السّهل تصحيحها لو ركّز الناس فقط على المشاكل كما تركز هي على كل شيء. كرهت الاجتماعات والمحادثات المطوّلة، ولم تحب النظر إلى مسألة من عدة أوجه. لم يشعرها شيء بالملل أكثر «من ناحية هذا» و «من ناحية ثانية ذاك». بدلًا من ذلك وضعت إيمانها في قوّة قراراتها، وتلك اتّخذتها «بقلبها». كانت هذه القرارات مفاجئة غالبًا ولم تتغير أو تُلغى ما إن تتخذها، لأنها آمنت بجودة توقيتها،

بالتوقيت نفسه، باعتباره قوّة غامضة، شكلًا من أشكال القدر، يعمل على مستوى عالميّ وكونيّ بقدر ما هو شخصي. في الواقع، كانت هذه المستويات الثلاثة في عقل إيمي متصلة.

كان توقيت القدر الجيد، كما رأته، أنه أحرق المراكز الرئيسة البريطانية لقناة «واي تي في»، في العشرين من شهر حزيران عام 1998، بعد ستة أيام من زيارتها لنا، عندما انحرفت شبكة الأسلاك بطريقة ما في منتصف الليل لتضرم نارًا تخترق المكان، مدمرة أميالًا من أشرطة الفيديو التي كانت حتى ذلك الحين محفوظة من الأثر المفسد لمترو أنفاق لندن. قد قيل لنا إن المكاتب لن تكون قابلة للسكن ثانية قبل مرور تسعة أشهر. في هذه الأثناء كان الجميع قد انتقلوا إلى مبنى مكتبي قبيح رتيب عند محطة كينغس كروس. طالت رحلتي اليومية إلى العمل عشرين دقيقة، افتقدتُ القناة المائية، والسّوق، وطيور سنودون. لكني أمضيت ستّة أيام فقط في مبنى «كينغس كروس». كل شيء انتهى بالنسبة لي لحظة جلبت زوي رسالة فاكس إلى مكتبي، موجهة لي وعليها رقم هاتف، عليّ الاتصال به دون شرح. أتى من الطرف الثاني صوت مديرة إيمي، جودي رايان.

قالت لي إن إيمي نفسها طلبت أن تأتي الفتاة السّمراء ذات اللباس الأخضر إلى مكاتبها في تشيلسي وأن تُجرى مقابلة معها من أجل وظيفة محتملة. شعرت بالدهشة. ذرعت المكان خارج ذلك المبنى مدة نصف ساعة قبل دخوله، أرتجف طوال الطريق للأعلى في المصعد وعبر القاعة، لكن عندما دخلت تلك الغرفة رأيت أن القرار اتّخذ سلفًا، هناك على وجهها تمامًا. لم يكن من قلق بالنسبة لإيمي وما من شك: من وجهة نظرها لم يكن شيء من هذا اتفاقًا أو حظًّا أو حتى صدفة سعيدة. كان «قدرًا». كانت «النّار العظيمة» – وهو الاسم الذي أطلقه

الموظفون عليه – فقط جزء من جهد واع، نيابة عن الكون لجمعنا معًا، إيمي وأنا، كونٌ أبي في اللحظة نفسها التدخل في مسائل كثيرة أخرى.

⟡ اثنان ⟡

كان موقف إيمي من الزمن مستغربًا لكن مقاربتها نقيّة للغاية وقد توصلت إلى الإعجاب بها. هي لم تكن مثل بقية أفراد قبيلتها. لم تحتج إلى جراحين، لم تحيَ في الماضي، تلفق التواريخ أو تستعمل أيًّا من أشكال التسلية العادية أو التشويه. بالنسبة لها كان مسألة إرادة حقًا. خلال عشر سنوات رأيت كم يمكن أن تكون تلك الإرادة هائلة وما أمكنها أن تُنجز. وكل ما بذلته فيها من عمل، جميع تمرينات الرياضة البدنية، العمى المتعمّد، البراءة المهذّبة، لحظات الإلهام الروحية التي كانت قادرة بطريقة ما على اختبارها تلقائيًا، الطرق الكثيرة نفسها التي دخلت بها وخرجت من علاقة حب، مثل مراهقة – كل هذا انتهى ليبدو لي بفعالية شكلًا من أشكال الطاقة في ذاته، قوة قادرة على خلق توسّع في الزمن كما لو أنها حقًا كانت تتحرك بسرعة الضّوء مبتعدة عنا نحن البقية – متروكين على الأرض ونهرم بسرعة أكبر منها – بينما أطلّت علينا من علٍ وتساءلت عن السبب.

كان الأثر مدهشًا للغاية عندما زارها أحد أنسبائها من مدينة بنديجو، أو عندما كانت مع جودي التي عرفتها منذ مرحلة الدّراسة الثّانوية. ما فعل هؤلاء الكهول بعائلاتهم المختلطة وتجاعيد وخيبات وزيجات صعبة وأمراض جسديّة – ما علاقة أي شيء من هذا بإيمي؟ كيف أمكن أن يكون أي واحد من هؤلاء الناس قد ترعرع معها، أو أنها

نامت فيما مضى مع الفتيان أنفسهم أو كانت قادرة على الجري بنفس الطريقة والسّرعة على نفس الشّارع في السّنة نفسها؟ لم يكن فقط أن إيمي بدت في ريعان الشّباب – رغم من أنها كذلك بالطبع – بل أنّ شبابًا لا يصدّق نبض فيها. لقد تحدّر مباشرة نحو العظام، مؤثرًا على طريقتها في الجلوس، الحركة، التّفكير، التّحدث، كل شيء. كان البعض ساخرين ولاذعين بهذا الشّأن، مثل ماركو الطّاهي الإيطالي سيء الخُلق، ادّعوا أن النقود وحدها فعلت وأنه كله أثر جانبي للمال والبطالة، لا يوجد أي عمل فعلي أبدًا. لكن في أسفارنا مع إيمي التقينا بعدد وفير من الأشخاص الذين يملكون المال الكثير ولم يفعلوا شيئًا، أقل بكثير مما فعلت إيمي – التي عملت بجد على طريقتها – وبدا معظمهم مسنًّا، مثل متوشالح[19]. وهكذا كان منطقيًا أن تتصور أن عشاقها الشّبان هم الذين جعلوا إيمي تحافظ على شبابها، وهذا ما فعله الكثيرون، تلك كانت في النهاية بشكل أساسي حجتها لسنوات، وقلّة الأطفال.

لكن هذه النّظرية لم تتمكّن من الصّمود سنة ألغت كُلًّا من الجولتين الأوروبية والجنوب أمريكية، وولادة ابنها جاي، وبعد سنتين الطفلة كارا والتسيير السّريع لأب كهل وصديق، والحصول والتسيير اللاحق والأسرع أيضًا على أبٍ ثانٍ وزوج، الذي كان حقيقيًا بما فيه الكفاية، ليس أكثر بكثير من فتى. اعتقد الناس أن هذه التجربة الكبيرة التي استمرت بضع سنوات، لا ريب سوف تترك بصمتها؟ لكن بينما خرج بقية أعضاء الفريق من تلك الزوبعة منهكين، معصورين تمامًا، مستعدين للاستلقاء طوال عقد من الزمن، أثبتت إيمي أنها لم تتأثر إلى حد كبير، كانت على حالها دومًا، مفعمة بقدر مخيف من الطاقة.

---

19) ابن أخنوخ، مات في سنة الطوفان العظيم عن عمر يناهز 969 سنة، وعُمره أطول عُمر ذُكِر في العهد القديم «التوراة».

بعد أن أنجبت كارا عادت مباشرة إلى الاستديو، إلى النّادي الرياضي، إلى الجولة. وظّفت عددًا أكبر من مربيات الأطفال، ظهر مدرسون خصوصيون وخرجت من ذلك كله بعد بضعة أشهر، تبدو مثل ناضجة تبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا. كانت تقريبًا في الثّانية والأربعين. كنت أشارف على بلوغ عامي الثلاثين، وتلك واحدة من تلك الوقائع المتعلقة بي التي قررت إيمي أن تحفظها على نحو وسواسي ولمدة أسبوعين سلفًا ظلت تصر أننا سوف نقيم «ليلة سيدات»، فقط نحن الاثنتان، نغلق الهواتف، تركيز تام، كامل الذهن، كحوليات، لم أتوقع أيًّا منها أو طلبته، لكنها ما كانت لتترك الأمر، ثم جاء بالتّأكيد اليوم ولم تشر على الإطلاق إلى عيد ميلادي، بدلًا من ذلك قابلنا رجال الصّحافة النرويجيين طوال اليوم، بعدها تناولت الطعام مع طفليها، بينما جلست في غرفتي وحيدة وحاولت أن أقرأ.

كانت لا تزال في استديو الرّقص عند العاشرة عندما قاطعتها جودي مقحمة رأسها من الباب، بقصة شعرها الريشية الثّابتة، فُضلة من شبابها في بينديجو، لتخبرني دون أن ترفع بصرها عن هاتفها أن عليّ تذكير إيمي أننا سوف نسافر إلى برلين صباح اليوم التالي. هذا حدث في نيويورك. كان استديو رقص إيمي كبيرًا بحجم قاعة للرقص، صندوقًا مزوّد بالمرايا ذا درابزين من خشب الجوز امتد حول المكان. كان قد اقتلع من قبو منزلها في البلدة. عندما دخلت كانت جالسة في وضعية فتح الحوض أفقيًا، ساكنة تمامًا، كما لو أنها ميتة، رأسها ملقى للأمام تغطي وجهها حافة طويلة – حمراء في ذلك الحين – فيما الموسيقى تدور. انتظرت لأرى إذا كانت ستلتفت إلي. بدلًا من ذلك وثبت وبدأت تركض بوتيرة واحدة، طوال الوقت تواجه صورتها المنعكسة في المرايا. كان قد مر بعض الوقت منذ رأيتها ترقص. نادرًا ما جلستُ بين الجماهير

لمشاهدة العروض: بدا ذلك الجانب من حياتها نائيًا جدًا، الأداء المتكلف لشخص تعرفت عليه على نحو ممتاز على مستوى أعمق ودقيق. شخص قررت مواعيد الإجهاض من أجله، استأجرت أناسًا لتنزيه كلبه، طلبت الزهور له، كتبت بطاقات عيد الأم، وضعت الكريمات، أعطيت الحقن، عصرت البثور، مسحت كل دمعة تسقط بين الحين والآخر، وهلم جرا.

معظم الأيام ما كنت أعرف أني أعمل عند مؤدية. جرى عملي مع إيمي ومن أجلها أثناء ركوب السيارات غالبًا، أو على الأرائك، في الطائرات والمكاتب، عبر أنواع عديدة من الشّاشات ومن خلال آلاف الرسائل الإلكترونية. لكن هنا كانت ترقص. على أغنية لم أتعرّف عليها – لم أعد أذهب إلى الاستديو إلا لمامًا – لكن الخطوات نفسها كانت مألوفة لم تتغير كثيرًا عبر السّنوات. تكون الجزء الأعظم من وتيرتها دومًا في الأصل من مشية صارمة: خطوة واسعة قوية تسم حدود أي فضاء يحتويها، مثل قطة كبيرة تتجول بانتظام حول قفصها. ما فاجئني الآن كان قوّة إيروتيكية لم تخفّف.

عادة عندما نطري على راقصة نقول: إنها تجعل الأمر يبدو سهلًا. هذه ليست الحال مع إيمي. شعرت وأنا أراقبها أن جزءًا من سرها هو الطريقة التي تستطيع من خلالها استدعاء الفرح من جهد، لأنه ما من حركة من حركاتها تدفقت على نحو فطري أو طبيعي من الحركة اللاحقة، كانت كل «خطوة» مرئية بوضوح، مصمّمة، ومع ذلك عندما تعرقت عند تنفيذها العمل المجهد نفسه بدا إيروتيكيًا، كما لو أنك تشهد امرأة تعبر خط نهاية الماراثون أو تستمني لتصل إلى ذروتها. الكشف المنتشي نفسه عن إرادة امرأة. صرخت في المرآة: «دعيني أنتهِ!».

سرتُ نحو الزاوية القصيّة، زلقت الجدار الزجاجي نحو

الأسفل، جلست على الأرض وفتحت كتابي مجددًا. كنت قد قررت تأسيس قاعدة جديدة لنفسي: أقرأ مدة نصف ساعة في المساء، لا يهم ماذا. لم يكن الكتاب الذي اخترته طويلًا، لكني لم أكن قد تقدمت فيه كثيرًا. كانت القراءة بشكل أساسي مستحيلة أثناء عملي مع إيمي، ينظر إليها من بقية الفريق على أنها غير عملية وأظن خؤونة بشكل ما. حتى لو كنا نطير في رحلة طويلة – حتى لو كنّا عائدين إلى أستراليا – كان الناس إما يجيبون على الرسائل الإلكترونية المتعلقة بإيمي أو يتصفحون كومة من المجلات التي يمكن أن تكون دومًا مموهة باعتبارها عملًا، لأن إيمي كانت تظهر إما في المجلة التي في يدك، أو ستظهر قريبًا جدًا.

إيمي نفسها قرأت الكتب، كتبًا محترمة نصحت بها أحيانًا، غالبًا عن هراء الاعتماد على النفس أو نظام غذائي وضعتها جودي أو جرانجر أمام ناظريها، لكن كانت قراءة إيمي أمرًا منفصلًا، هي إيمي في النهاية ويمكن أن تفعل ما تريد. استوحت أفكارًا من الكتب التي أعطيتها لها أحيانًا – حقبة زمنية أو شخصية أو فكرة سياسية – كانت تصبح حينها في شكل سوقي أو سطحي، في فيديو أو أغنية أو سواهما. لكن هذا لم يغير رأي جودي في القراءة عمومًا، كانت في نظرها عيبًا لأنها تستغرق وقتًا ثمينًا قد نمضيه بخلاف ذلك في العمل لمصلحة إيمي.

مع ذلك كان من الضرورة أحيانًا قراءة كتاب، حتى بالنسبة لجودي – لأنه على وشك أن يصبح فيلمًا مكتوبًا خصّيصًا لإيمي، أو ضروريًا لمشروع ما – وفي هذه الحالات استغلت رحلاتنا الجوية الطويلة لقراءة الثلث من أي شيء، قدماها مرفوعتان وتعتلي وجهها نظرة تقزز. هي لم تقرأ يومًا أكثر من ثلث – «لقد حصلتُ على الفكرة الرئيسة» – وعند انتهائها سوف تطلق واحدًا من أحكام محدودة: «رشيق» أو «كان جيّدًا» أو «هام» أو «كان ممتازًا أو «مثير للجدل» – إما أن يكون جيدًا أو

سيئًا، لن تعرف أبدًا أو «أدبيًّا» وكانت تلفظ ذلك بتنهيدة وقلبة عين. إذا حاولت الجدال لصالح أي قضية سوف تتململ جودي وتقول: «ما الذي أعرفه؟ أنا مجرد فتاة صغيرة من رعاع بنديجو»، وهذا قتل أي مشروع إذا قيل على مسمع إيمي. لم تستهن إيمي يومًا بأهمية المركز الحيوي.

ولو أنها تركت بنديجو خلفها - لم يعد أهلها كما لو أنهم شعبها بعد الآن، غنّت دومًا بلكنة أميركية زائفة وغالبًا تحدثت عن طفولتها كشكل من أشكال الموت الحي - هي ما زالت تعتبر مسقط رأسها رمزًا فعّالًا، تقريبًا مثل كبش يقود القطيع. كانت نظريتها أن نجمًا سيطر على نيويورك ولوس أنجلس، يمكنه أن يسيطر على باريس ولندن وطوكيو - لكن فقط نجم النجوم يسيطر على كليفلاند وحيدر أباد وبنديجو. نجم النجوم يأخذ الجميع حيثما كان.

«ماذا تقرئين؟»

رفعت الكتاب. سحبت ساقيها معًا - من حيث كانتا قد حطتا، في وضعية فرد الحوض - وقطبت ناظرة إلى الغلاف.

«لم أسمع به قط».

«ملهى، ألا تعرفينه؟».

« كتاب الفيلم؟»

«الكتاب الذي جاء قبل الفيلم. اعتقدت أنه قد يكون مفيدًا طالما أننا ذاهبتان إلى برلين. جودي أرسلتني إلى هنا لأستحث الهمم».

رسمت إيمي على وجهها تعبيرًا مشوهًا وهي تنظر إلى المرآة.

«يمكن لجودي أن تقبّل مؤخرتي الوضيعة. كنت أمر بوقت عصيب معها مؤخرًا. أظن أنها ربما تمر بمرحلة الأياس؟»

«أظن ربما أنك مجرد مزعجة».

«هاها».

تمددت ورفعت ساقها اليمنى عاليًا أمامها تنتظر. تقدمت وركعت أمامها، أحني ركبتها على صدرها. كانت بنيتي أثقل من بنيتها بكثير - أعرض، أطول قامة، أكثر جسامة - فكلما مطّطْتها بهذا الشكل شعرت أن عليّ توخّي الحذر وأنها هشّة ويمكن أن أكسرها ولو أنها امتلكت عضلات لم أستطع تخيل امتلاكها وكنت قد رأيتها ترفع راقصين ذكورًا شبّانًا حتى رأسها تقريبًا.

تمتمت: « كان النرويجيون بلداء، أليس كذلك؟»

ثم خطرت لها فكرة، كما لو أن ما من واحدة من محادثاتنا خلال الأسابيع الثلاثة الماضية حدثت على الإطلاق: «لم لا نخرج؟ الآن. جودي لن تعرف. سوف نخرج من الطريق الخلفي. نحتسي بضعة كؤوس من الشّراب؟ أنا في مزاج جيد. لسنا بحاجة إلى مبرر».

ابتسمت لها. فكرت فيما لا بد أن يكون عليه العيش في هذا العالم من وقائع متبدلة تتحرك أو تختفي، بحسب مزاجك.

«شيء ما مضحك؟»

«لا. لنذهب».

استحمّت وارتدت ثيابها المدنية: بنطال جينز أسود اللون وسترة سوداء وقبّعة بيسبول سوداء مشدودة نحو الأسفل جعلت أذنيها تبرزان من خلال شعرها ومنحتها مظهرًا أخرق على غير انتظار. لا يصدقني الناس عندما أقول إنها أحبت الخروج للرقص، صحيح أننا لم نفعل غالبًا، ليس في السّنوات الأخيرة، لكنه حدث ولم يثر يومًا كثيرًا من الجلبة، ربما لأننا ذهبنا متأخرين وإلى أماكن المثليّين، وعندما تعرّف إليها الفتيان كانوا عادة سعداء وطربين ومفعمين بنوع من الانشراح رحراح: أرادوا أن يكونوا حُماة لها. كانت لهم قبل أن تكون لأي شخص آخر منذ سنوات وكان الاعتناء بها الآن طريقة لقول إنها

لا تزال حقًا تنتمي إليهم. لم يطلب أحد توقيعها أو أوقفها لالتقاط الصّور، لم يتصل أحد بالصّحافة - رقصنا فقط. تجلت مهمتي الوحيدة في إظهار عدم قدرتي على مجاراتها ولم يكن هناك حاجة لتزييف هذا، أنا حقًا لم أتمكن من فعل ذلك. عندما آلمتني بطتا ساقي وكنت مبللة بالعرق كما لو أني أقف تحت خرطوم مياه، كانت إيمي لا تزال ترقص وتوجب عليّ أن أجلس وأنتظرها. كنت أفعل ذلك في المنطقة المسوّرة عندما شعرت بضربة عظيمة على كتفي وشيء ما رطب على عنقي. رفعت بصري. وقفت إيمي فوقي تكشر وتخفض بصرها، يتقطر العرق من وجهها على وجهي.

«انهض أيها الجندي. نحن راحلون».

كانت السّاعة الواحدة صباحًا. ليس وقتًا متأخرًا جدًا، لكني أردت الذّهاب إلى البيت. بدلًا من ذلك وفيما نحن نقترب من البار المدعو «القرية»، أخفضت الحاجز وطلبت من إيرول تجاوز المكان للتوجه نحو التقاطع بين كل من الشارع السّابع وجروف، وعندما حاول إيرول الاحتجاج مدت إيمي له لسانها ورفعت الحاجز. توقفنا عند بار بيانو صغير قذر المظهر. أمكنني سلفًا سماع رجل مرتفع الصوت يغني بنبرة برودواي مزعجة مقطعًا من فيلم كوروس لاين الموسيقي. أنزل إيرول النافذة وحملق بالباب المفتوح. هو لم يرغب أن يدعها تذهب. نظر إليّ متوسلًا، بتكافل، مثل شخصين في المركب نفسه - في نظر جودي سوف نتحمل كلانا المسؤولية صباح الغد - لكن لم يكن هناك شيء يمكنني فعله مع إيمي عندما تصمّم على فعل شيء. فتحت الباب وسحبتني من السّيارة. كنا كلانا ثملتين: إيمي مثارة بإفراط، نشطة على نحو خطير، أنا منهكة وثملة. جلسنا في الزاوية المعتمة - كان المكان برمته زوايا معتمة - مع كأسي فودكا مارتيني جلبهما نادل مجايل لإيمي

مدهوشًا للغاية في أن يقوم على خدمتها، لم يكن واضحًا كيف سيتمكن من اجتياز مسألة وضع المشاريب أمامنا قبل أن ينهار.

أخذتُ الكأسين من يديه المرتعشتين واحتملت سماع إيمي تروي لي تاريخ ستونوول[20]، دون توقف، ستونوول هذا وستونوول ذاك، كما لو أنني لم أذهب إلى نيويورك أبدًا ولم أعرف شيئًا عنها. إلى البيانو، غنى جمْعٌ من نساء بيضاوات في حفلة وداع العزوبية مقطعًا من فيلم الأسد الملك، كانت أصواتهن رهيبة وحادة، ورحن ينسين الكلمات باستمرار. عرفت أنه كان صبيانيًّا لكني شعرت بغضب شديد بشأن عيد ميلادي، كان غضبي الأمر الوحيد الذي يبقيني صاحية، كنت أغذّيه بتلك الطريقة المبررة التي تستطيع أن تفعلها إن لم تلمّح جهارًا إلى الخطأ الذي ترتكبه أبدًا. تجرّعت كأس المارتيني وأصغيت دون تعليق عندما انتقلت إيمي من الستونوول إلى أيامها الأولى حيث كانت ترقص على نحو متقطع في حي ألفابيت سيتي، أواخر السّبعينات، عندما كان جميع أصدقائها «هؤلاء الفتيان السود المجانين، الشّواذ، كبرى المغنيات، كلهم موتى الآن»، قصص سمعتها مرات كثيرة حدّ أنني أكاد أستطيع تردادها بنفسي، وكنت مستميتة للعثور على أي طريقة لإيقافها عن الكلام عندما أعلنت أنها «ذاهبة إلى دورة المياه» بلكنة لم تستعملها إلا وهي ثملة للغاية. عرفت أن خبرتها بالمراحيض العامة محدودة لكن قبل أن أتمكن من النهوض كانت تتقدمني بعشرين ياردة. عندما حاولت أن أمرّ عبر العازبات الثّملات رفع عازف البيانو بصره نحوي راجيًا وأمسك برسغي: «هيه، يا أخت. هل تغنين؟» في اللحظة نفسها قفزت إيمي على درجات القبو وتوارت عن الأنظار.

---

20) المقصود بها أعمال الشغب التي اندلعت في نيويورك في السابع والعشرين من شهر حزيران عام 1969 خلال مداهمة لنُزُل ستونوول في مانهاتن، وهو حانة شعبية مشهورة للمثليّين.

أومأ إلى صفحة الموسيقى خاصته ومرر يدًا ضجرة على صلعته بربريقها الأبنوسي: «ماذا عن هذه هنا؟ لم يعد في وسعي الإصغاء إلى تينك الفتيات بعد الآن. هل تعرفينها؟ من فيلم جيبسي؟»

كانت أصابعه الرّشيقة عند لوحة المفاتيح ورحت أغني الفواصل الموسيقية الافتتاحية، المقدمة الشّهيرة التي فيها يبقى الموتى فقط في البيت بينما الناس مثل «ماما»، أوه، إنهم مختلفون، سوف لن يجلسون فقط ويقبلون بالأمر، يتمتعون بالأحلام والشّجاعة، سوف لن يبقون ويتعفنون، هم جميعهم دومًا يقاتلون للنهوض – والخروج!

أرحت يدًا على البيانو والتفتّ نحوه، أغمضت عيني، ويمكنني تذكر التفكير بأني بدأت بصوت خفيض، على الأقل، ذلك ما نويت فعله عمدًا – أن أبدأ بصوت منخفض وأحافظ عل انخفاضه – مغنية تحت مستوى النغمات فلا أكون ملحوظة، أو غير ملحوظة كثيرًا بسبب الخجل القديم. لكن أيضًا مراعاة لإيمي التي لم تكن مغنية طبيعية حتى لو كانت هذه حقيقة لا يصح ذكرها فيما بيننا. لم تكن في الواقع مغنية طبيعية أكثر من العازبات الجالسات أمامي يمصون الكوكتيل الكحولي على مقاعد البار العالية. لكني كنت طبيعية، ألم أكن؟ بالتّأكيد، رغم كل شيء؟ والآن وجدت أني لم أستطع إبقاء صوتي منخفضًا، ظلت عيناي مغمضتين لكن صوتي ارتفع وظل يرتفع، رفعته أعلى وأعلى، لم أشعر بأني أسيطر عليه، بالضّبط، كان شيئًا أفرجت عنه والآن ارتفع وابتعد وهرب من متناولي. كانت يداي في الهواء، أدوس الأرض بكعبي. شعرت أني استحوذت على اهتمام جميع الحاضرين. حتى أنه كان لدي رؤية عاطفية لنفسي كواحدة في طابور طويل من الإخوة والأخوات الشّجعان، صنّاع الموسيقى، المغنين، الموسيقيين، الراقصين، ألم أمتلك أيضًا الموهبة التي نسبت غالبًا إلى شعبي؟ تمكّنتُ من تحويل الزمن إلى

جُمَل موسيقية، إلى ضربات ونغمات، أبطئها وأسرعها، متحكمة بزمن حياتي، أخيرًا في النهاية، هنا على منصة، إن لم يكن في مكان آخر.

فكرت في نينا سيمون وهي تفصل كل نغمة عن التالية بوحشية شديدة، بدّقة بالغة، كما علمها باخ بطلها أن تفعل، وفكرت بالاسم الذي منَحته لها - «موسيقى كلاسيكية سوداء» - كرهَت كلمة جاز، معتبرة أنها كلمة أطلقها البيض على السّود، رفضتها كليًا - وفكّرتُ في صوتها، كيف تمكنت من مط النغمة حتى نقطة أبعد من النقطة المستساغة وأرغمت جمهورها على الاعتراف بها، بتوقيتها، برؤيتها للأغنية، كيف كانت عديمة الرحمة تمامًا مع جمهورها وقاسية جدًا في نيل حريتها! لكن لانخراطي الشديد في هذه الأفكار حول نينا لم أرَ النهاية قادمة، ظننت أن أمامي مقطعًا آخر، واصلت الغناء بعد النّغمة الختامية عندما حانت، وواصلت قُدُمًا قبل أن أدرك، أوه، نعم، نعم، توقّفي الآن، لقد انتهت.

إذا كان هناك تصفيق صاخب فما عدت قادرة على سماعه، بدا أنه توقف. شعرت فقط بعازف البيانو يربت مرتين سريعتين على ظهري الذي كان دبقًا وباردًا من العرق الجاف من النادي السّابق. فتحت عيني. نعم، كان الهياج في البار قد انتهى أو ربما لم يحدث أبدًا، بدا كل شيء كما كان في السّابق، كان عازف البيانو يتحدث الآن مع المغنية التالية، العازبات يشربن بهناء ويتحدثن كما لو أنّ شيئًا لم يحدث على الإطلاق. كانت السّاعة الثّانية والنّصف صباحًا. لم تكن إيمي على مقعدها. لم تكن في البار. تعثرت في أرجاء ذلك المكان المزدحم والضّيق مرتين، فتحت بقدمي باب كل حجيرة من الحجيرات في المراحيض الرهيبة، هاتفي على أذني، يرنّ ويرن وتنفتح الآلة المجيبة. كافحت عائدة إلى الشّارع عبر البار وصعدت الدرج. كانت تصدُر عنّي ضجة عواء من شدة الذّعر. كانت

تمطر وشعري الذي كان سبطًا مجففًا بدأ الآن يعود مجعّدًا بسرعة رهيبة، كل قطرة مطر تصيبني نخست تجعيدة ووصلت إليها وبدت مثل ملمس صوف الشّاة، تنبثق منها الرطوبة، سميكة ونابضة بالحياة.

انطلق بوق سيارة. رفعت بصري ورأيت إيرول وقد ركن حيث تركناه. أنزلت النافذة الخلفية وإيمي خرجت منها، تصفيق بطيء.

«أوه، برافو».

أسرعت إليها معتذرة. فتحت الباب: «اركبي فقط».

جلست قربها فيما لا أزال أعتذر. انزاحت لتتحدث مع إيرول.

«قُدْ حتى وسط المدينة وعُد».

خلع إيرول نظارته وقرص جسر أنفه.

قلت: «إنها تقارب الثالثة»، لكن الحاجز ارتفع ومضينا. مسافة عشر مربعات سكنية تقريبًا دون أن تنبس إيمي ببنت شفة على الإطلاق، ولا أنا فعلت. عندما اجتزنا حي يونيون سكوير التفتت نحوي قائلة: «هل أنت سعيدة؟»

«ماذا؟»

«أجيبي على السّؤال».

«لا أفهم لماذا يطرح عليّ السّؤال».

لعقت إبهامها ومسحت مسكارا لم أدرك أنها كانت تسيل على وجهي.

«نحن معًا منذ متى؟ خمس سنوات؟»

«حوالي سبع».

شرحت ببطء كما لو أنها تتحدث إلى أبله: «حسنًا، إذن يجب أن تعرفي الآن أنني لا أريد أن يشعر الناس الذين يعملون معي بالتعاسة بسبب ذلك. أنا لا أفهم الغرض من ذلك».

«لكني لست تعيسة!»

«إذن ماذا أنت؟»

«سعيدة!»

خلعت القبعة عن رأسها وجذبتها على رأسي.

قالت متراجعة: «في هذه الحياة لا بد أن تعرفي ماذا تريدين. عليك تصوّره، ثم عليك أن تدمريه تمامًا. لكن قد تحدثنا عن هذا مرارًا، مرارًا». أومأت وابتسمت وكنت ثملة جدًا فلم أتمكن من فعل المزيد. كان وجهي محشورًا بين الجوز والنافذة ومن هنا كان لدي رؤية نضرة للمدينة من الأعلى إلى الأسفل. رأيت حديقة حجرة فوق السّطح قبل أن أرى الناس القلة الشاردين لا يزالون خارجًا في هذه الساعة، يتناثرون على الأرصفة الموحلة وظللت أجد في هذا المنظور تراصفات غريبة شديدة الارتياب.

سيدة صينية مُسنّة، جامعة علب الصّفيح، تعتمر قبعة عتيقة الطراز مخروطية الشّكل، تسحب حمولتها – مئات، ربما آلاف من العلب مجموعة معًا في صفيحة من البلاستيك ضخمة – تحت نوافذ مبنى عرفت أن بليونيرًا صينيًا يعيش فيه وهو صديق لإيمي كانت قد ناقشت معه مرة افتتاح سلسلة فنادق.

كانت إيمي تقول: «وفي هذه المدينة يجب حقًا أن تعرفي ماذا تريدين، لكني لا أظن أنك تعلمين بعد. حسنًا، إذن أنت ذكية، لقد عرفنا ذلك. تظنين أن ما أقوله لا ينطبق عليك، لكنه ينطبق. الدماغ متصل بالقلب والعين – كل شيء متخيل، كله. ارغبي به، ره، خذيه. ما من أعذار. أنا لا أعتذر أبدًا عما أريده! لكني أراك – وأرى أنك تمضين حياتك في الاعتذار! إنه كما لو أنك مصابة بمتلازمة ذنب النجاة أو شيء ما! لكن نحن لم نعد في بنديجو بعد الآن! لقد غادرت بينديجو –

صحيح؟ مثل ما غادر جيمس بالدوين هارلم. مثلما غادر بوب ديلان... أينما كان ما يرغب به انتمى إلى مكان تواجده. أحيانًا عليك أن تخرجي – من بنديجو! الشكر للمسيح أننا نحن الاثنتان خرجنا. منذ وقت طويل. بنديجو خلفنا. هل فهمت ما أقوله، صحيح؟»

أومأت مرات كثيرة ولو أني لم أملك فكرة عما كانت تقول حقًا، بغض النظر عن الإحساس القوي الذي امتلكته عادة مع إيمي من أنها وجدت قصتها ملائمة عالميًا، وأبدًا أكثر مما عندما تكون ثملة، عن أننا في هذه اللحظات نحن جميعًا تحدرنا من بنديجو، ونحن جميعًا لدينا آباء ماتوا عندما كنا صغارًا، وجميعنا تصورنا ثروتنا الكبيرة وجذبناها نحونا. أصبح الفاصل بين إيمي وأي شخص آخر غامضًا، من الصعب تمييزه بالضبط.

شعرت بالغثيان. دليت رأسي مثل كلب في ليل نيويورك. سمعتها تقول بعد قليل عندما دخلنا ساحة التايمز نقود تحت الموديل الصّومالية بطول ثمانين قدمًا برجلين أفريقيتين ترقصان فرحًا على جانب بناء ترتدي الخاكي من ماركة «جاب» العادي تمامًا: «انظري، أنت لن تعملي هنا إلى الأبد. ذلك واضح تمامًا. لذا يصبح السّؤال: ما الذي سوف تفعلينه بعد هذا؟ ما الذي سوف تفعلينه بحياتك؟»

عرفت أن الجواب الصّحيح على هذا يفترض أن يكون: «أن أدير عملي الخاص» سواءً هذا أو ذاك أو شيئًا إبداعيًا دون شكل محدّد مثل «أن أؤلف كتابًا» أو «أفتح معتزل يوغا»، لأن إيمي اعتقدت أنه رغبة في فعل هذه الأنواع من الأمور على المرء فقط أن يدخل، لنقل، مكتب ناشر ويعلن عن نيته. هذه كانت تجربتها. ما الذي يمكن أن تعرفه عن موجات الزمن التي تأتي ببساطة إلى المرء، واحدة بعد الأخرى؟ ما الذي يمكن أن تعرفه عن الحياة باعتبارها مرحليّة، دومًا جزئيّة؟ ثبّتّ عيني

على الموديل الصومالية الراقصة.

«أنا بخير وسعيدة!»

قالت وهي تربت على رأسها: «حسنًا، أظن أنك تمعنين في التفكير أكثر مما ينبغي. ربما يجب أن تمارسي الجنس أكثر.. كما تعلمين، لم تبدي يومًا أنك تفعلين. أعني: هل هو خطئي؟ لقد تدبرت لك الأمر، ألم أفعل؟ طوال الوقت. لم تخبريني يومًا كيف تجري الأمور».

غمر الضّوء السّيارة. منبعثًا من إعلان رقمي هائل لشيء ما لكنه بدا داخل السّيارة رقيقًا وطبيعيًا، مثل انبلاج الفجر. فركت إيمي عينيها.

قالت: «حسنًا، لدي مشاريع من أجلك إذا كنت ترغبين بمشاريع. نعرف جميعًا أنك أهل لأكثر مما تقومين به. في الوقت نفسه، لو ترغبين بترك العمل الآن قد يكون وقتًا مناسبًا لذلك. أنا جادة في هذا المشروع الأفريقي – لا، لا تحملقي بي، يجب علينا الاعتناء بالتفاصيل بالتّأكيد أعرف ذلك، أنا لست حمقاء، لكنه سوف يحدث. كانت جودي تتحدث مع أمك. أعرف أنك لا تريدين سماع ذلك أيضًا لكنها فعلت وأمك ليست هراء كما يبدو عليك أنك تظنين بها. جودي تشعر أن النطاق... حسنًا، أنا مثقلة الآن ولا يمكنني أن أتذكر أين هو الآن، بلد صغير.. في الغرب؟ لكنها تظن أنه قد يكون اتجاهًا مثيرًا للاهتمام حقًا من أجلنا للمضي فيه، إن فيه إمكانيات. تقول جودي. ويبدو أن والدتك العضو الشريف تعرف الكثير عنه. تقول جودي. الفكرة هي أنني سوف أحتاج كل مساعدة والناس الذين يريدون أن يكونوا هنا» قالت مشيرة إلى قلبها.» ليس الناس الذين لا يزالون يتساءلون عن سبب وجودهم هنا».

قلت وأنا أنظر إلى البقعة: «أريد أن أكون هناك» ولو أنه تحت

تأثير الفودكا تضاعف حجم نهديها الصغيرين ثم تصالبا ثم خرجا.

سأل إيرول راجيًا عبر مكبر الصّوت: «ألتفت الآن؟»

تنهدت إيمي: «التفت الآن. حسنًا» وقالت عائدة إليّ: « كنت تتصرفين بسخف لشهور، منذ لندن. إنه كمٌّ كبير من الطاقة السّيئة. إنه نوع من الطاقة السيئة التي يجب تبريرها حقًا وإلا سوف تظل تطوف في الحلقة مؤثّرة على الجميع».

صنعت سلسلة من الإيماءات بيديها ما أوحى إلى قانون فيزيائي مجهول سابقًا.

«شيء ما يحدث في لندن؟»

ثلاثة

مع إنهائي الرد عليها كنّا قد عدنا أدراجنا ووصلنا إلى حي يونيون سكوير، حيث رفعت بصري ورأيت الرقم على ذلك اللوح الضّخم المتكتك يسرع قدمًا، ينفث الدّخان من فجوة حمراء في مركزه تذكّر ببؤرة جحيم دانتي. لقد أسبغ عليّ شعورًا لاهثًا. حدثت أمور كثيرة في تلك الأشهر في لندن حبست أنفاسي: لقد تركت شقتي أخيرًا لقلّة الاستعمال ووقفت إلى حملات انتخابية مزدحمة أنتظر طوال الليل كي أشاهد رجلًا يضع ربطة عنق زرقاء يتسنّم المنبر ويعترف لأمي في فستانها الأحمر بالنصر. قد رأيت منشورًا دعائيًا لليلة لموسيقى الهيب هوب من التسعينيات مثيرة للذكرى في مقهى الجاز وساورتني رغبة ملحّة بالذّهاب، لكني لم أستطع التفكير بصديق واحد قد أصحبه، ببساطة سافرت كثيرًا على مدار السّنوات القليلة السّابقة، لم أكن في أي من الأماكن المألوفة، لم أتابع بريدي الإلكتروني الشّخصي، من ناحية لقلة الوقت، ومن ناحية أخرى لأن إيمي استنكرت «اختلاطنا بالآخرين» عبر الإنترنت، خوفًا من الثرثرة والتسريبات.

كنت قد تركت صداقاتي تخبو تدريجيًا دون أن ألاحظ ذلك حقًا. لذا ذهبت وحدي، ثملت وانتهى بي الأمر نائمة مع أحد الحراس، أميركي ضخم من فيلادلفيا ادّعى أنه احترف سابقًا لعب كرة السلة. كان مثل معظم الناس في هذا النّوع من العمل، مثل جرانجر، وظّف

لطول قامته ولونه، لأن التهديد اعتبر ضمنيًّا في تركيبتهم. بعد دقيقتين من تدخين سيجارة معه كشف عن روح لطيفة على علاقة طيبة مع الكون لا تتلاءم مع دوره. كان في حوزتي كيس كوكايين صغير، أعطاه لي طاهي إيمي وعندما حان موعد استراحة الحارس ذهبنا إلى دورات المياه وتعاطينا الكثير منه إلى جانب رف براق خلف المراحيض بدا مصممًا خصيصًا لهذا الغرض. أخبرني عن كرهه لعمله، العدائية، وتهيّب من وضع يديه على أي شخص. غادرنا معًا بعد نوبته، نقهقه في سيارة أجرة وهو يدلك قدمي. عندما عدنا إلى شقتي التي كان كل شيء فيها موضّبًا في صناديق، جاهزًا لمخزن إيمي الضّخم في ملبورن، تعلق بالقضيب الحلقي الذي وضعته فوق باب غرفة نومي ولم أستعمله أبدًا، حاول رفع نفسه فنزع القضيب عن الجدار وقطعة من الجص أيضًا.

مع ذلك في السّرير، بالكاد تمكنت من الشّعور به في جوفي – لعله انكمش بسبب الكوكايين. لم يبدُ أنه منتبه. غطّ في النّوم فوقي بابتهاج مثل دبٍّ كبير، ثم ببهجة مكافئة، حوالي السّاعة الخامسة صباحًا تمنى لي الخير وخرج. استيقظت في الصّباح على رعاف أنفي وإحساس شديد الوضوح بأن شبابي قد انتهى، أو على الأقل هذه النّسخة منه. بعد ستة أسابيع، ذات صباح يوم أحد، عندما أرسلت لي كل من جودي وإيمي رسائل نصيّة بشكل محموم حول الأرشفة في ميلانو لجانب من خزانة ملابس إيمي الخاصّة بالمنصّة، من السّنوات ما بين عامي 92 و98، جلست دون علم أي منهما، في عيادة العناية العاجلة في «المشفى الملكي المجاني»، أنتظر نتائج اختبار كل من «الأمراض المنقولة جنسيًا» والإيدز، أصغي إلى عدة أشخاص تبين أنهم أقل حظًا مني وقد أخذوا إلى غرف جانبية وبكوا.

لكني لم أتحدّث مع إيمي عن أي من هذا، عوضًا عن ذلك كنت

أتحدث عن تريسي. تريسي من بين الناس جميعًا. تاريخنا الكامل، ينزلق ترتيب الحوادث مدوّخًا جيئة وذهابًا في زمن وفودكا، كل استياء واضح، متع إما تضاءلت أو دمرت، وكلّما طال حديثي كلما رأيت بشكل أوضح وفهمت – كما لو أن الحقيقة شيء غارق يرتفع عبر نبع من الفودكا الملاقاتي – أن أمرًا واحدًا فقط حدث في لندن: رأيت تريسي. بعد سنوات عدّة من عدم رؤية تريسي. لم يكن لشيء سوى ذلك من أهمية. كما لو أن شيئًا لم يحدث على الإطلاق في الفترة الفاصلة بين آخر مرة رأيتها فيها وهذه المرة.

قالت إيمي وكانت ثملة جدًا لتخفي نفاد صبرها من مونولوج شخص آخر: «انتظري، انتظري، هذه أقدم صديقاتك، صحيح؟ نعم، أعرف هذا، هل التقيتها؟»

«أبدًا».

«وهي راقصة؟»

«نعم».

«من أفضل الناس! أجسادهم تخبرهم ماذا يفعلون!»

كنت جالسة على حافّة مقعدي، لكن الآن انكمشت وألقيت رأسي على مسنده البارد في الزاوية من زجاج مسوّد، خشب الجوز وجلد.

أعلنت إيمي بطريقة قد تستنتج منها العبارة المبتدعة معها: «حسنًا، لا يمكنك صنع أصدقاء قدامى. ماذا سأفعل دون عزيزتي جودي؟ منذ كنا في الخامسة عشرة! لقد ضاجعت المتأنق الذي أخذته إلى مدرسة الرّقص! لكنها تواجهني بحقيقتي، نعم تفعل. لا يفعل ذلك أحد سواها...».

اعتدت على أسلوب إيمي في تحويل جميع قصصي إلى قصص عنها، أذعنتُ عادة للأمر ببساطة، لكن الشّراب منحني الجرأة لأصدّق

في تلك اللحظة أن حياة كلٍّ منا كانت في الواقع متساوية في الأهمية، جديرة بالمناقشة والوقت بالتّساوي.

شرحت ببطء: «بعد أن تناولت ذلك الغداء مع أمي، ليلة خرجت مع ذلك الفتى دانيل؟ في لندن؟ الموعد الكارثي».

قطّبت إيمي: «دانيل كرامر؟ لقد رتبت لك الموعد معه. الفتى المصرفي؟ انظري، أنت لم تخبريني بشيء عن ذلك!»

«حسنًا، كانت كارثة – ذهبنا لنشاهد عرضًا. وكانت تشارك في ذلك العرض اللعين».

«تحدثتِ معها».

«لا! لم أتحدث معها منذ ثماني سنوات. أخبرتك بذلك للتو. هل تصغين إلي؟»

وضعت إيمي إصبعين على صدغيها وتمتمت قائلة: «تسلسل الأحداث مربك، بالإضافة إلى أن رأسي يؤلمني. انظري... يا إلهي، لا أعرف... ربما عليك الاتصال بها! يبدو كما لو أنك راغبة بذلك. اتصلي بها الآن – سوف أتحدث إليها».

«لا!»

اختطفت هاتفي من يدي ضاحكة، تتصفح أسماء جهات الاتصال لدي، وعندما حاولت تناوله أمسكته خارج نافذتها.

«أعطني إياه!»

«أوه، هيا – سوف تفرح به».

تمكنت من التسلق فوقها، اختطفت الهاتف وضغطته بين فخذي.

«أنت لا تفهمين. لقد فعلت أمرًا فظيعًا لي. كنّا في الثّانية والعشرين من عمرنا. أمرًا فظيعًا».

رفعت إيمي أحد حاجبيها الهندسيّ الشّكل ببراعة ورفعت

الحاجز الذي أنزله إيرول للتو– راغبًا أن يعرف إلى أي مدخل للمنزل كنا نتوجه إليه، الأمامي أو الخلفي.

«حسنًا، الآن أنا مهتمة بصدق...»

انعطفنا نحو واشنطن سكوير بارك. انتصبت المنازل المتجاورة حول السّاحة حمراء ونبيلة، واجهاتها مضاءة بدفء لكن كان كل شيء في داخل المتنزه مظلمًا ومشبعًا بالماء، مقفرًا، باستثناء نصف دزينة من الرّجال السّود المشردين في الزاوية اليمنى القصيّة، جالسين على طاولات الشّطرنج، أجسادهم ملفوفة بأكياس القمامة مع فجوات للأذرع والسّيقان. وضعت وجهي على النّافذة، أغمضت عيني، شعرت بقطرات المطر ورويت القصّة كما تذكرتها، الخيال والحقيقة، في اندفاعة مؤلمة ووعرة، كما لو أنني أجري على زجاج مكسور، لكني فتحت عيني على صوت إيمي تضحك ثانية.

«إنه ليس أمرًا لعينًا، بل مضحكًا!»

«انتظري، هل أنت جادّة الآن؟»

حاولت جذب شفتها العلوية نحو فمها وتعضّ عليها.

سألت: «هل تظنين إنه ممكن، أنك ربما تصنعين من الحبّة قبّة؟»

«ماذا؟»

«صدقًا والدك هو الشّخص الوحيد الذي أشعر بالأسف عليه في ذلك السّيناريو، إذا كان صحيحًا. رجل مسكين! وحيد للغاية، يحاول أن يحظى بوقت طيب...»

«توقّفي!»

«إنه ليس كما لو أنه جيفري دامر[21]».

«هذا ليس عاديًا! هذا ليس أمرًا عاديًا لتقدمي على فعله!»

(21 Jeffrey Dahmer (1960-1994) قاتل متسلسل أميركي.

«عادي؟ ألا تفهمين أن كلّ رجل في هذا العالم في متناوله حاسوب، بمن فيهم الرئيس، هو في هذه اللحظة تمامًا إما ينظر إلى الأعضاء التناسلية الأنثوية أو توقّف للتو عن النظر إليها.»

«ليس سيّان!».

«إنه الأمر ذاته بالضّبط. غير أن والدك لم يكن يملك حاسوبًا. تظنين لو جورج دبليو بوش يتصفح موقع «فرج مراهقة آسيوية» – ثم ماذا؟ هل غدا قاتلًا متسلسلًا لعينًا؟»

«حسنًا...»

«وجهة نظر جيدة – مثال سيء».

ضحكت في خفوت رغمًا عني.

«أنا آسفة. ربما أنا أتحامق. لا أفهم. لم أنتِ غاضبة بالضّبط؟ لأنها أخبرتك؟ قلت للتو إنك اعتقدت أنه هراء!»

كان مروعًا بعد سنوات كثيرة من منطقي المعوّج أن أسمع المشكلة وقد سوّيت إلى خط إيمي المستقيم الأثير. كدّرني الوضوح.

«لطالما كانت تكذب. امتلكت هذه الفكرة عن أن أبي مثالي وأرادت تدميرها، أرادت أن تجعلني أكره أبي كما كرهت والدها. حقًّا لم أتمكّن يومًا من النّظر في عينيه بعد ذلك. وكان الأمر هكذا حتى وفاته».

تنهدت إيمي. «ذلك أكثر الأمور حماقة التي سمعتها يومًا. ذهبت وجعلت نفسك حزينة من غير داع على الإطلاق».

مدّت يدها لتمس كتفي، لكني أدرت ظهري لها ومسحت دمعة شاردة من عيني.

«حمقاء للغاية».

«لا. نحن جميعنا لدينا حماقاتنا. عليك الاتصال بصديقتك، مع ذلك».

صنعت وسادة صغيرة من سترتها وأسندت رأسها على نافذتها، وعند عبورنا الجادة السّادسة كانت نائمة. كانت ملكة الإغفاءات القوية، توجب عليها أن تكون كذلك لتحيا الحياة التي عاشتها.

← أربعة ←

في وقت مبكّر من تلك السّنة في لندن، قبل عدّة أيام من الانتخابات المحليّة – تناولت طعام الغداء مع أمّي. كان نهارًا رطبًا مكفهرًّا، اجتاز النّاس الجسر بكآبة، ينهمر عليهم المطر الخفيف وحتى أعظم المباني الأثريّة، حتى مبنى البرلمان، بدت لي متجهمة وحزينة ومخيّبة. كلّ شيء جعلني أتمنى لو أننا الآن في نيويورك. أردت كلّ ذلك العلو والزجاج الساطع بالشّمس، ثم بعد نيويورك، ميامي، من ثم خمس محطات في أميركا الجنوبية وأخيرًا الجولة الأوروبية، عشرون مدينة، تختتم مجددًا في لندن. سوف تنقضي سنة كاملة بهذه الطريقة. أحببته بتلك الطريقة. كان لدى أناس آخرين فصول لاجتيازها، اضّطروا لجرّ أنفسهم سنة تلو أخرى. في عالم إيمي لم نحيَ هكذا. لم نستطع وإن رغبنا بذلك: لم نطل البقاء في مكان واحد قط بما يكفي.

إن لم يعجبنا الشّتاء حلّقنا نحو الصّيف. عندما سئمنا من المدن ذهبنا إلى الشّاطئ – والعكس. أنا أغالي قليلًا، ليس بالكثير. انقضت أواخر عشرينياتي في حالة عجيبة من الخلود، وأظن الآن أنه لم يسع الجميع التلاؤم مع حياة مثل تلك التي لابد أنني كنت مبرمجة بطريقة ما من أجلها. لاحقًا تساءلت فيما إذا كان اختيارنا أصلًا لهذا السّبب، بالضّبط لأننا نحونا أن نكون أناسًا بعدد قليل من الصّلات الخارجية، دون شركاء أو أطفال، مع الحد الأدنى من العلاقات العائليّة.

أبقتنا طريقة عيشنا بالتّأكيد بتلك الطّريقة. من بين مساعدات إيمي الأربع، واحدة منا فقط أنجبت طفلًا وفقط حينها في منتصف أربعينياتها، بعد وقت طويل من توقّفها عن العمل. كي تصعد على متن طائرة ليرجيت تلك انبغى عليك أن تكون في حلٍّ من الرباط. خلافًا لذلك ما كان له أن يتكلّل بالنجاح. امتلكت قيدًا واحدًا فقط عندئذ – أمي – وكانت في أوجها مثل إيمي، مع أن أمي بخلاف إيمي، كانت حاجتها لي ضئيلة للغاية. كانت تحلق عاليًا بنفسها، قبل بضعة أيام من أن تصبح عضوًا في البرلمان عن منطقة برنت ويست، وعندما انعطفت نحو اليسار، متوجهة نحو مطعم الأوكسو تاور، مخلفة البرلمان خلفي، شعرت كالعادة بضآلتي جوارها، وزن ما كانت قد أنجزته، رعونة مهنتي بالمقارنة، على الرغم من كلّ شيء حاولت توجيهي نحوه. بدا لي أكثر قدرة على التأثير من أي وقت مضى. تمسكت بإحكام بالحاجز، طوال الطّريق، إلى أن عبرت.

كانت الرطوبة عالية فتعذر الجلوس في الخارج على رصيف المقهى. استكشفت المطعم عدة دقائق، لكن حينذاك لمحت أمي في الخارج أخيرًا، تستظل بظلّة من الرذاذ، ومع ميريام، ولو أنه لم يؤت على ذكر ميريام في اتصالنا الهاتفي. لم أكره ميريام. ما كنت أكنّ لها أي عاطفة في الحقيقة، كان من الصّعب أن تكنّ لها أيّ مشاعر: كانت قصيرة جدًا وهادئة ورصينة. كلّ ملامحها البليدة متجمعة وسط وجهها الصّغير، وشعرها الطبيعي كان ملفوفًا في ضفائر صغيرة نسبيًّا ومتماثلة، تشيب بأناقة عند جذورها. كانت تضع نظّارة صغيرة مدوّرة ذهبيّة الإطار لم تخلعها أبدًا وجعلت عينيها تبدوان أصغر مما كانتا عليه. انتعلت جزمة بنيّة اللون رصينة وسروالًا أسود سادة مهما كانت المناسبة. إطار صورة بشرية، غرضها الوحيد أن تضحك أمي.

كل ما قالته أمي عن ميريام في أي وقت: «ميريام تجعلني سعيدة للغاية». لم تتكلم ميريام عن نفسها قط – هي فقط تحدّثت عن أمي. كان عليّ أن أبحث عنها من خلال محرّك البحث غوغل لأكتشف أنها أفرو-كوبية، من لويشام، وأنها عملت سابقًا في المساعدات الدوليّة، لكن الآن تدرس في جامعة كوين ماري – في منصب مساعد متواضع للغاية – وتؤلف كتابًا «عن الشّتات» لمدة أطول من المدة التي عرفتها فيها، التي امتدّت حوالي أربع سنوات. قدّمت إلى ناخِبي أمّي بأدنى حدّ من الجلبة في حدث في مدرسة محلية، صوّرت، ودسّت إلى جانب أمي، زُغبة هيّابة تقف إلى جانب لبوتها، وحصل الصّحفي من صحيفة ويلزدن آند برنت تيمز على العبارة نفسها بالضّبط التي قلتها سابقًا: «ميريام تجعلني سعيدة للغاية». لم يبدُ أحد مهتمًا بصفة خاصّة، ليس حتى الرّجال المسنين الجامايكيين والإنجيليين الأفارقة. أحسست أن ناخبيها لم يفكّروا بأمي وميريام كحبيبتين، كانتا ببساطة تينك السّيدتين اللطيفتين من ويلزدن اللتان أنقذتا صالة السّينما القديمة وقاتلتا لتوسيع مركز التّسلية وأسستا «شهر التّاريخ الأسود» على مدار المكتبات المحليّة. في إدارة الحملة الانتخابية ألّفتا ثنائيًا فعالًا: إذا ما وجدت أمي متغطرسة، أمكنك أن تنشرح في سلبية ميريام المتواضعة، في حين تذوّق النّاس الذين سئموا من ميريام طعم الإثارة التي أحدثتها أمي أينما حلّت. بالنظر إلى ميريام الآن، تومئ سريعًا أثناء حديث أمي، عرفت أني أيضًا سعيدة بميريام: كانت مصدًّا مفيدًا.

تقدّمت ووضعت يدي على كتف أمي. لم ترفع بصرها أو تتوقّف عن الكلام، لكنها صادقت على لمستي ورفعت يدها ووضعتها فوق يدي، متقبلة القبلة التي طبعتها على خدّها. سحبت كرسيًّا وجلست.

«كيف حالك أمي؟»

«متوترة!»

أكدّت ميريام: «أمك متوترة للغاية»، وبدأت تجدول الأسباب الكثيرة لتوتر أمي بهدوء: المغلّفات التي توجب ملأها والمناشير التي يجب إرسالها قرب آخر استفتاء، التكتيكات المخادعة للمعارضة، والكيد المفترض للمرأة السّوداء الوحيدة الأخرى في البرلمان، عضوة برلمان ثابتة لمدة عشرين عامًا اعتبرتها أمي دون سبب معقول منافستها اللدود. أومأت حيث يجب أن أفعل، ونظرت عبر قائمة الطعام ونجحت في طلب بعض النبيذ من نادل عابر، كل ذلك دون أن أقطع مجرى حديث ميريام، أرقامها ونسبها المئوية، الارتجاعات الحذرة للأمور «الرائعة» المتعددة التي قالتها أمي لفلان وعلان في هذه اللحظة الحيوية أو تلك، وكيف استجاب فلان وعلان على نحو بائس على أي شيء رائع كانت أمي قد قالته.

قلت بنغمة أدركتُ متأخرة جدًا أنها تقف بشكل أخرق فيما بين السّؤال والتقرير: «لكنك سوف تكسبين».

بدت أمي صارمة، بسطت منديلها ووضعته على حجرها مثل ملكة سئلت بوقاحة إذا كان شعبها لا يزال يحبها. قالت «إذا كان هناك من عدالة».

وصل طعامنا، كانت أمي قد طلبت من أجلي. بدأت ميريام تدّخر طعامها – ذكّرتني بحيوان صغير من الثدييات يتوقّع أن يسبَت قريبًا – لكن أمي تركت سكينها وشوكتها في مكانيهما وبدلًا من ذلك مدّت يدها إلى الكرسي الفارغ بجانبها لتجلب نسخة من صحيفة إيفنينج ستاندر، مفتوحة سلفًا على صورة كبيرة لإيمي على المسرح، متجانبة مع صورة احترافية لأطفال أفارقة معوزين، من أين بالضّبط لم أتمكن أن أعرف. لم أكن قد رأيت الصورة وكانت بعيدة جدًا عني لأتمكن من

قراءة النص لكني خمّنت المصدر: بيان صحفي حديث يعلن عن تعهّد إيمي «بتخفيض الفقر العالمي». نقرت أمي بإصبع على بطن إيمي.

«هل هي جادة بهذا الشّأن؟»

تأملت في السّؤال: «هي متحمسة جدًا له».

قطّبت أمي والتقطت السّكين والشّوكة.

«تخفيض الفقر. حسنًا، ممتاز، لكن ما الخطة تحديدًا؟»

«هي ليست سياسية، أمي. ليس لديها خطط. لديها مؤسسة».

«حسنًا، ما الذي تريد فعله؟»

سكبت بعض النبيذ لأمي وجعلتها تتوقف لحظة لتقرع كأسها معي.

«أظنّها ترغب ببناء مدرسة. مدرسة للفتيات».

قالت أمي ردًا على جوابي: «لأنه في حال كانت جادّة، يتعين عليك أن تنصحيها بالتّحدث معنا، لتكون في شراكة مع الحكومة بطريقة أو بأخرى... من الواضح أنها تملك الوسائل المالية والاهتمام العام – هذا كله جيّد – لكن دون فهم للآليات، فلن يعدو الأمر كونه مجرّد نوايا سليمة لا تفضي إلى مكان. عليها أن تلتقي بالسّلطات المعنيّة». ابتسمت لسماع أمي تشير إلى نفسها الآن على أنها «حكومة». الأمر التالي الذي قلته أغضبها كثيرًا، التفتت وقدمت جوابها لميريام بدلًا من ذلك: «أوه، من فضلك – أتمنى لو أنك لن تتصرفي كما لو أني أطلب إسداء معروف عظيم. أنا لست مهتمة على الإطلاق بلقاء تلك المرأة، على الإطلاق. لم أرغب يومًا. كنت أقدم بعض النّصح. اعتقدت أنه قد يكون مرحّبًا به».

«وهو مرحّبٌ به، أمي، شكرًا لك. أنا فقط...»

«أعني، حقًا، قد تظنين أن تلك المرأة قد ترغب بالتّحدث معنا! منحناها جواز سفر بريطاني، في النهاية. حسنًا، لا يهم. إنه فقط بدا،

من هذه» – رفعت الورقة ثانية – «أن لديها مقاصد جادة، لكن ربما هذا ليس صحيحًا، ربما هي فقط تريد أن توقع نفسها في الحرج، ما كنت لأعرف. امرأة بيضاء البشرة تنقذ أفريقيا. هل تلك هي الفكرة؟ فكرة قديمة جدًا. حسنًا، إنه عالمك، ليس عالمي، حمدًا لله. لكن عليها حقًا التحدث مع ميريام على الأقل، الحقيقة أن لدى ميريام الكثير من العلاقات المفيدة، علاقات ريفية، علاقات تربوية – هي متواضعة جدًا لتخبرك. كانت في منظمة أوكسفام طوال عقد، بحق الله. الفقر ليس مجرد عنوان في جريدة، يا حبيبتي، إنه واقع مُعاش، على الأرض – والتعليم في صلبه».

«أعرف ما هو الفقر يا أمي».

ابتسمت أمي بحزن وتناولت لقمة من الطّعام.

«لا، عزيزتي، لا تعرفين».

أزّ هاتفي ثانية وكنت أحاول بكل ما توفر بي من إرادة ألا أنظر إليه، كان قد أزّ عشرات المرات منذ أن جلست – والآن أخرجته وحاولت التنقل سريعًا عبر الأعمال المتراكمة، آكل وهاتفي في يد. فتحت ميريام مسألة إداريّة بليدة مع أمي، وهذا ما تفعله غالبًا عندما تجد نفسها عالقة في واحد من جدالاتنا، لكن في وسط تناوله بدت أمي سَئِمة بوضوح.

«أنت مدمنة على ذلك الهاتف. هل تعرفين ذلك؟»

لم أتوقف عن الكتابة لكن جعلت وجهي هادئًا قدر المستطاع.

«إنه عمل أمي. هكذا يعمل النّاس الآن».

«تعنين: كالعبيد؟»

مزّقت قطعة من الخبز نصفين وقدّمت القسم الأصغر لميريام، شيء رأيتها تفعله من قبل، كانت نسختها من الحمية الغذائية.

«لا، ليس كالعبيد. أمي، أنا أعيش حياة جميلة!»

فكّرت في هذا بفم ملآن. هزّت رأسها.

«لا، هذا ليس صحيحًا – أنت لا تملكين حياة. هي تملك حياة. هي لديها رجالها وأطفالها ومهنتها – هي تملك الحياة. نقرأ عنها في الصّحف. أنت تخدمين حياتها. هي شيء ضخم لعين، يمتصّ شبابك، آخذًا كلّ...»

لأوقفها عن الكلام دفعت كرسيي إلى الخلف وذهبت إلى دورة المياه، أتريّث عند المرايا مدّة أطول مما يستدعي الأمر، مرسلة المزيد من الرسائل الإلكترونية، لكن عندما عدت، استمرت المحادثة غير منقطعة، كما لو أن وقتًا لم يمر على الإطلاق. كانت أمي لا تزال تتذمر لكن لميريام: «...طوال وقتك. هي تحرف كل شيء. هي السّبب الذي لن يكون لي أي أحفاد».

«أمي، حالتي التناسلية حقًا لا علاقة لها أبدًا...»

«أنت قريبة جدًا، لا يمكنك أن تري ذلك. جعلتك مرتابة من الجميع».

أنكرتُ ذلك، لكن السّهم أصاب الهدف. ألم أكن متشككة – دومًا حذرة؟ مبرمجة لأي إشارة لما دعوناهم إيمي وأنا، فيما بيننا، «زبائن»؟ زبون: شخص حكمنا أنه يستغلّني على أمل التقرّب منها. أحيانًا، في السّنوات الأولى إذا ما قيّض لعلاقة أن تستمر بضعة أشهر – على الرغم من كل عقبات الوقت والجغرافيا – صرت أبني القليل من الثّقة والشّجاعة وأقدم الشّخص كائنًا من كان لإيمي وهذه كانت عادةً فكرة سيئة. لحظة ذهابنا إلى دورة المياه أو إلى الخارج لتدخين سيجارة، صرت أطرح على إيمي السّؤال: زبون؟ والجواب كان يأتي: «أوه، عزيزتي، أنا آسفة، قطْعًا زبون».

«انظري إلى الطّريقة التي تعاملين بها أصدقاءك القدامى. تريسي مثلًا. أنتما الاثنتان كنتما أختين عمليًّا، نشأتما معًا – الآن لا تتحدثين إليها حتى!»

«أمي، أنت لطالما كرهت تريسي».

«ليست تلك هي الفكرة. النّاس يأتون من مكان ما، لديهم جذور – أنت سمحتِ لهذه المرأة بأن تجتث جذورك من الأرض. لا تعيشين في أي مكان، لا تملكين شيئًا، أنت باستمرار على متن طائرة. كم طويلًا يمكنك أن تعيشي بتلك الطّريقة؟ لا أظن أنها ترغب حتى في أن تكوني سعيدة. لأنك حينها قد تتركينها. ثم ما الذي قد يحلّ بها؟»

ضحكت لكن الصّوت الذي أصدرته كان قبيحًا حتى من وجهة نظري.

«سوف تكون بخير! إنها إيمي! حسبي أني المساعدة رقم واحد، كما تعلمين – هناك ثلاث أخريات!»

«أرى. لذا يمكنها أن تحظى بأي قدر من النّاس في حياتها لكن أنت لا يمكنك أن تحظي إلا بها».

«لا، أنت لا تفهمين». رفعت بصري عن هاتفي. «أنا حاليًا خارجة مع شخص الليلة؟ إيمي تدبرت لي الأمر معه، هكذا».

قالت ميريام: «حسنًا، هذا لطيف». كان أمرها المفضّل في الحياة أن ترى نزاعًا يسوّى، أي نزاع، وهكذا كانت أمي مصدرًا عظيمًا لها: حيثما صنعت نزاعًا توجّب على ميريام تسويته.

انتعشت أمي: «من يكون؟»

«لن تعرفيه. إنه من نيويورك».

«ألا يمكنني أن أعرف اسمه؟ هل هو سرٌّ من أسرار الدولة؟»

«دانيل كرامر. يدعى دانيل كرامر».

قالت أمي مبتسمة بغموض لميريام. عبرت بينهما نظرة مغيظة تنمّ عن التواطؤ: «آه. فتى يهودي لطيف آخر».

عندما جاء النّادل ليرفع أطباقنا ظهرت الشّمس في السّماء الرمادية المائلة إلى الزرقة. عبرت أقواس قزح من خلال كؤوس النبيذ نحو الأواني الفضيّة النديّة، عبر مساند الكراسي البلاستيكية الشفافة البرسبكس، منتشرة من محبس ميريام إلى منديل المائدة الموضوع بيننا نحن الثّلاث. رفضتُ تناول الحلوى قائلة إن عليّ المغادرة، لكن عندما تحركت لآخذ ممطري عن ظهر الكرسي أومأت أمي إلى ميريام وميريام مررت لي مجلّدًا يبدو رسميًا، مطوّقًا، يحتوي فصولًا وصورًا فوتوغرافية، قوائم من جهات الاتصال، مقترحات معمارية، تاريخًا موجزًا عن التعليم في المنطقة، وتحليلًا «لأثر الإعلام» المحتمل، خططًا لشراكات مع الحكومة، وهلم جرا: «دراسة جدوى». زحفت الشّمس عبر الرمادي، صفا ضباب ذهني، رأيت أن الغداء برمّته كان لهذا الغرض حقًّا وكنت فقط قناة عبرها يفترض بالمعلومات أن تمرّر إلى إيمي.

كانت أمي زبونًا أيضًا! شكرتها على المجلّد وجلست أتطلع إلى غلافه المغلق في حِجري.

سألت ميريام وهي تطرف بقلق خلف نظارتها: «وكيف تشعرين فيما يخص والدك؟ الذّكرى السّنوية يوم الثلاثاء، أليست كذلك؟»

كان مستغربًا للغاية طرح سؤال شخصي أثناء غداء مع أمي – حتى لو تذكرت تاريخًا مهمًّا بالنسبة لي – ففي البداية لم أكن واثقة من أنّه موجّه إلي. بدت أمي فزعة أيضًا. كان مؤلمًا لنا أن نذكّر بأن آخر مرة التقينا فيها كانت في الحقيقة في الجنازة قبل سنة كاملة.

أصيلٌ مُستغرَب: لاقى النّعش اللهب، جلست قرب طفلَي والدي – هما الآن في عقدهما الثالث والرابع – واختبرت مرّة أخرى ما

فعلاه عندما التقيتهما أوّل مرّة: بكت الابنة، وجلس الابن في كرسيه يطوي ذراعيه عبر صدره، مشكّكًا في الموت ذاته. وأنا التي لم أستطع البكاء وجدت مرة ثانية أنهما طفلان لأبي أكثر إقناعًا مما كنت أنا في أي وقت. ومع ذلك لم نرغب في عائلتنا يومًا الاعتراف بهذا، دومًا ركلنا بعيدًا ما اعتبرنا أنه فضول الغرباء التافه والشّهواني – «لكن ألن تنمو مشوّشة؟» و«كيف ستختار بين ثقافتيكما؟» – حدّ أني شعرت أحيانًا بأن الغرض من طفولتي برمته كان لأظهر للأقل تنوّرًا أنني لست مشوشة ولا أعاني مشكلة في الاختيار. ردّ أمي المتغطرس: «الحياة مشوّشة!». لكن أليس هناك أيضًا توقّع عميق للتماثُل بين أب وطفله؟ أظن أنني كنت غريبة عن أمي وأبي، طفلة مستبدلة لا تنتمي لأيّ منهما، ورغم أن ذلك هو حقيقة جميع الأطفال في النهاية – نحن لسنا والدينا وهما ليسا نحن – فقد راح طفلا والدي يتوصّلان إلى هذه المعرفة ببطء محقّق على مرّ السنين، ربما كانا يعرفانها تمامًا في هذه اللحظة بالذّات عندما التهم اللهب خشبَ الصّنوبر، في حين وُلدت وأنا أعرف تلك الحقيقة، لقد عرفت دومًا أنها حقيقة مدموغة على وجهي كله.

لكن هذا كله كان فاجعتي الشّخصية: فيما بعد، عند مكتب الاستقبال، أدركت أن شيئًا أكبر من خسارتي كان يجري طوال الوقت، نعم، أينما مشيت في تلك المحرقة سمعته، أزيزًا مطوّقًا، إيمي، إيمي، إيمي، أعلى من اسم أبي وأكثر تردّدًا، عندما حاول النّاس معرفة إذا كانت موجودة حقًا بين الحاضرين، من ثم لاحقًا – عندما قرروا أنها لابدّ جاءت وغادرت – أمكنك سماعه ثانية، في صدى محزن، إيمي، إيمي، إيمي... سمعت أيضًا أختي تسأل أخي إذا كان قد رآها. كانت هناك طوال الوقت، تختبئ وهي على مرأى من الجميع. امرأة قصيرة على نحو مفاجئ، حكيمة، دون زينة، بالغة الشّحوب لتكون تقريبًا نصف

شفافة، في بدلة متزمتة من التويد وعروق زرقاء تصعد ساقيها، بشعرها الطبيعي البني السّبط.

قلت مشيرة بغموض عبر النهر، نحو شمال لندن: «أظن أنني سوف أضع زهورًا. شكرًا على السّؤال».

قالت أمي وهي تنضم من جديد لمجرى الحوار عند محطة سابقة: «يوم واحد إجازة من العمل! يوم جنازته. يوم واحد!»

«أمي، لم أطلب سوى يومًا واحدًا».

رسمت أمي على وجهها صورة مَن جُرح في أمومته.

«لطالما كنت قريبة جدًا من والدك. أعلم أنّي شجعتك دومًا. حقًا لا أعرف ما الذي حدث».

للحظة أردت إخبارها. بدلًا من ذلك شاهدت زورق مُتعة يمخض عباب نهر تيمز. جلس عدد من النّاس متناثرين بين صفوف المقاعد الفارغة ينظرون نحو الماء الكامد. عدت إلى بريدي الإلكتروني.

سمعت أمي تقول: «هؤلاء الفتيان المساكين» وعندما رفعت رأسي عن الهاتف وجدتها تومئ نحو جسر هانجرفورد عندما مر الزورق من تحته. في الحال عامت في عقلي الصّورة نفسها التي عرفت أنها كانت في عقلها: رجلان شابان مرميّان من على السّياج نحو الماء. الذي عاش والذي مات. ارتعشت، جذبت سترتي بشدّة أكبر على صدري.

أضافت أمي وهي تضع رابع قطعة سكر في كوب كابتشينو رغوي: «وكان هناك فتاة أيضًا. لا أظن أنها قد بلغت السّادسة عشرة من عمرها حتى. جميعهم أطفال عمليًا. يا لها من مأساة. لا بد أنهم لا يزالون في السّجن».

«بالتأكيد لا يزالون في السّجن – لقد قتلوا رجلًا». سحبت قطعة خبز من آنية صينية رقيقة وكسرتها إلى أرباع. «هو أيضًا لا يزال

ميتًا. أيضًا مأساة».

انتبرت أمي: «أنا أفهم ذلك. كنت في شرفة الجمهور تقريبًا كل يوم من أجل تلك القضية، لو تذكرين».

تذكرت. لم أطل البقاء خارج الشّقة واعتادت أمي الاتّصال بي كلّ مساء عند عودتها إلى البيت من المحكمة العليا لتروي لي القصص – ولو أني لم أطلب سماعها – كل واحدة مع حزنها الغرائبي، لكن كلها متشابهة بطريقة ما: أطفال هجرتهم أمّهاتهم أو آباؤهم أو كلاهما، وربّاهم أجدادهم، أو لم يُعتنى بهم على الإطلاق، طفولات بكاملها أُمضيَت بالعناية بأقارب مرضى، في مجمعات سكنية منهارة تشبه السّجن، على امتداد منطقة جنوب النهر مراهقين طُردوا من مدارسهم، أو بيوتهم، أو كلاهما، تعاطي مخدرات، انتهاك جنسي، على السّرقة، ينامون على أراضٍ خشونة – ألف طريقة وطريقة يمكن للحياة أن تغرق من خلالها في البؤس قبل أن تبدأ. أتذكر واحدًا منهم قد هجر الدراسة، وآخرَ كان لديه ابنة تبلغ من العمر خمس سنوات قتلت في حادث سيارة في اليوم السّابق. كانوا جميعهم الآن مجرمين ثانويين. وكانت أمي مفتونة بهم، امتلكت فكرة غامضة لتكتب شيئًا عن القضية، لما كان في تلك المرحلة شهادة الدكتوراه خاصتها، لكنها لم تنلها.

سألت وهي تضع يدًا فوق يدي: «هل أزعجتك؟ فتيان بريئان يعبران جسرًا لعينًا!»

وأنا أتحدّث قرعت قبضتي على الطاولة دون قصد – عادة قديمة من عادات أمي. نظرت نحوي بقلق وسوّت المملحة المنقلبة.

«لكن عزيزتي، من يجادل في ذلك؟»

«لا يمكن أن نكون جميعًا أبرياء». رأيت بطرف عيني نادلًا، خرج للتو ليتحقق من الفاتورة، ينسحب ببراعة. «شخص ما يجب أن

يكون مذنبًا!»

تمتمت ميريام وهي تطوي منديلًا بضجر بيديها: «أوافق. لا أظن أن أيّ أحد يخالف هذا، أليس كذلك؟»

قالت أمي بهدوء لكن بحزم: «لم يمتلكوا فرصة».

وفقط لاحقًا وأنا أسير عائدة عبر الجسر، عندما انتهى مزاجي السيّئ، أدركتُ أن العبارة التي قالتها أمّي تحمل معنيين.

الفصل الرابع

العبور الأوسط

⟡ واحد ⟡

كان الكانكورانج أعظم راقص رأيته على الإطلاق. لكن في تلك اللحظة لم أعرف من أو ماذا كان: هيئة برتقالية اللون تتأرجح بعنف، له طول قامة رجل لكن دون وجهه، مكسوّ بكثير من أوراق النباتات المتداخلة المخشخشة. مثل شجرة في حريق خريف نيويورك تجتثّ نفسها والآن ترقص في الشّارع. اقتفت أثره عُصبة كبيرة من الفتيان في الغبار الأحمر وزمرة من النّساء، في أيديهن سعف النخيل – افترضت أنهن أمهاتهم. غنت النّساء وتقدّمن بتثاقل، يضربنَ الهواء بالسّعف، يسرن ويرقصن في الوقت نفسه. كنت محشورة في سيّارة أجرة، مرسيدس صفراء رثّة يحيط وسطها خط أخضر. كان لامين يجلس إلى جواري في المقعد الخلفي، قرب جدّ أحدهم، امرأة ترضع طفلًا يزعق، فتاتين مراهقتين في لباسهما الرسمي، وأحد مدرسي القرآن من المدرسة. كان مشهدًا مشوشًا تصدى له لامين بهدوء، واعيًا أبدًا إلى وضعه كمدرس تحت التمرين، يداه مطويتان في حجره مثل كاهن، يبدو كما دومًا – بأنفه الطويل المفلطح ومنخريه العريضين وعينيه الحزينتين المصفرتين قليلًا – مثل قطّة كبيرة هاجعة. صدحت من مسجّلة السيّارة موسيقى الريغي من جزيرة أمي وارتفع صوتها إلى مستوى مجنون. لكن أيًا يكن هذا الشّيء الذي يتقدّم نحونا راقصًا على إيقاعات الريغي فإنه لم يقترب أبدًا. ضربات سريعة جدًا، شديدة التعقيد، حتى أنه يتوجب

عليك التفكير بشأنها – أو تراها منطوقة عبر جسد راقص – لتفهم ما تسمعه. وإلا قد تظنها خطأ نغمة قرار جهيرة هادرة. قد تظن أنها قصف الرعد في الأعلى.

من يقرع الطبل؟ تطلعت من نافذتي ولمحت ثلاثة رجال يقبضون على آلاتهم بين ركبهم، يسيرون مثل سرطانات، وعندما عبروا أمام سيّارتنا توقّفت حفلة الرّقص برمتها في زخمها المتقدّم وتجذّرت في وسط الطّريق مجبرة إيانا على التّوقف. لقد أحدثت تغيّرًا في نقاط التفتيش، الجنود بوجوههم الطفوليّة المتجهّمة، بنادقهم محمولة بغير إحكام عند الورك. كنا نلزم الصّمت كلما توقفنا عند الجنود وغالبًا هذا ما حدث مرات كثيرة في اليوم الواحد. لكن الآن انفجرت السيّارة بالحديث والصّفير والضّحك، ومدت التلميذات أيديهن من النافذة وخلعن المقبض المكسور حتى انفتح باب المسافر وخرج الجميع ما عدا المرأة المرضعة.

«ما هذا؟ ما الذي يجري؟»

كنت أسأل لامين، يفترض به أن يكون دليلي، لكنه بدا بالكاد يتذكّر وجودي وأقل بكثير إنه يفترض أننا متّجهين نحو العبّارة لنعبر النّهر، فالمدينة، فالمطار لنرحب بإيمي. لا شيء من ذلك كان يهم الآن. هناك اللحظة الراهنة والرّقص فقط. وتبيّن أن لامين راقص. لقد لمحته فيه ذلك اليوم، حتى قبل أن تلتقيه إيمي، قبل وقت طويل من أن ترى الرّاقص فيه. رأيته في كل دورة ورك، كل إيماءة من رأسه. لكني لم أتمكن من رؤية الشّبح البرتقالي بعد الآن، كانت تفصل بيني وبينه جمهرة كبيرة وتمكنت فقط من سماعه: سماع قدميه تخبطان على الأرض، والصليل الفج للمعدن على المعدن، وصراخ ثاقب أخرَوِيّ أجابت عليه النّساء بأغنية بينما هنّ يرقصن أيضًا. كنت أرقص قسرًا

بنفسي، مضغوطة قرب كثير من الأجساد المتحركة. واصلت طرح أسئلتي – «ما هذا؟ ما الذي يجري؟» – لكن اللغة الإنكليزية، «اللغة الرسميّة»، ذلك المعطف الرسميّ الثقيل الذي ارتداه النّاس في حضوري فقط وبملل واضح وصعوبة، رُميَت على الأرض، كان الجميع يرقصون عليها، وفكرت، ليس للمرة الأولى في ذلك الأسبوع الأول، بالتنظيم الذي سوف يتوجب على إيمي أن تصنعه عندما تتوصل أخيرًا، كما فعلت للتو، لاكتشاف الفجوة بين «دراسة الجدوى» والحياة عندما تظهر أمامك على الطّريق والعبّارة، في القرية والمدينة، بين النّاس وفي نصف دزينة من اللغات، في الطعام والوجوه والبحر والقمر والنجوم.

تسلّق النّاس السّيارة ليشاهدوا بصورة أفضل. بحثت عن لامين ووجدته يتسلّق أيضًا غطاء محرّك السّيارة الأمامي. تشتت الحشد – ضاحكين، صارخين، راكضين – وفكرت للوهلة الأولى لا بد أن مفرقعة ناريّة انفجرت. فرّت مجموعة من النسوة جهة اليسار، والآن رأيت السّبب: أمسك الكانكورانج بمنجلين، كل واحد بطول ذراع. صرخ لامين وهو يمد لي يده نحو الأسفل: «تعالي!» وسحبت نفسي نحوه أتمسك بقميصه الأبيض وهو يرقص فيما أحاول الحفاظ على توازني. نظرت أسفل نحو السّعار. فكرت: ها هو الفرح الذي كنت أبحث عنه طوال حياتي.

فوقي مباشرة من الخلف جلست امرأة مسنّة على سطح سيارتنا بشكل لائق تأكل الفستق من كيس، تبدو مثل سيدة جامايكية في ساحة اللورد للكريكيت، تتابع مباراة كركيت نهارية. وقع بصرها علي ولوّحت: «صباح الخير، كيف صباحك؟» نفس التحية المهذبة التلقائية التي تبعتني في أرجاء القرية – مهما ارتديت، لا يهم برفقة من كنت – والتي فهمتها الآن على أنها إشارة إلى اغترابي الذي

كان بيّنًا للجميع أينما كان. ابتسمَت برقّة نحو المنجلين أثناء دورانهما، نحو الفتيان الذين ظلوا يتحدون بعضهم بعضًا للاقتراب من الشّجرة الراقصة ويطابقون حركاتها المسعورة – بينما يتجنبون سكاكينها الدائرة – يشبهون في أجسادهم الضيقة الخطو التشنجي والتمعجات والجثوم والركلات العالية والنشوة العامة الإيقاعية التي شعّت من الجسم نحو كل نقطة في الأفق، عبر النسوة ولامين وعبري، عبر كل من استطعت رؤيته عندما اهتزت تحتنا السّيارة وتدحرجت. أشارت إلى الكانكورانج شارحة: «إنه راقص».

راقص يأتي من أجل الفتيان. يصطحبهم إلى الأجمة حيث يُختنون، يلقّنون ثقافتهم، تُتلى عليهم القواعد والحدود، التقاليد المقدّسة للعالم الذي سوف يعيشون فيه، أسماء النباتات للمساعدة في شفاء هذا المرض أو ذاك وكيفية استخدامها. يسدّ مسدّ عتبة بين الشّباب والنضج، يصد أرواح الشّر وهو الضّامن لنظام وعدالة واستمرارية بين وخلال شعبه. إنه مرشد يقود الشّباب لاجتياز مرحلة «العبور الأوسط[22]» الصّعبة من الطفولة إلى المراهقة وهو أيضًا ببساطة شاب مجهول يختاره الشيوخ بسرية بالغة، مغطى بأوراق شجرة الفارا وملوّنًا بأصبغة نباتية.

لكني عرفت كل هذا من خلال هاتفي، بعد عودتي إلى نيويورك. حاولت بالفعل سؤال مرشدي عنه في حينه، ماذا يعني، إلى أي درجة انسجم مع التقاليد الإسلامية المحلية أو حاد عنها، لكنه لم يستطع سماعي لارتفاع صوت الموسيقى. أو أنه لم يرغب بذلك. حاولت ثانية بعد وقت قصير، بعد أن انتقل الكانكورانج إلى مكان آخر، وعدنا جميعًا

22) العبور أو الممر الأوسط هو تعبير يتعلّق بتجارة الرقيق حيث كان يطلق على الطريق الذي تقطعه السفن المحملة بالعبيد الأفارقة في رحلتها نحو المستعمرات الأميركية والأوروبية في الكاريبي وأميركا الجنوبية.

لننحشر في السّيارة، جنبًا إلى جنب تمدّد اثنان من الفتية الراقصين على أحضاننا دبقين بعرق ما بذلاه من جهد. لكن عرفت أن أسئلتي أزعجت الجميع وحينئذ كانت الغبطة قد انتهت. عادت رسميّةُ لامين المقبضة التي أضفاها على جميع تعاملاته معي. قال: «تقليد من تقاليد شعب المندينكا» وحينئذ عاد إلى السّائق وبقية المسافرين ليضحك ويجادل ويناقش أمورًا لم أتمكن من تخمينها بلغة لم أعرفها. واصلنا المسير. تساءلت حول الفتيات. من يأتي ليصحب الفتيات؟ إن لم يكن الكانكورانج، من؟ أمهاتهن؟ جداتهن؟ صديق؟

اثنان

عندما حان دور تريسي لم يكن هناك أحد ليرشدها لعبور العتبة، لينصحها أو حتى يقول لها أن هذه التي تعبرها هي عتبة. لكن جسدها كان ينمو بسرعة أكبر من جسد أي شخص آخر لذا انبغى عليها أن ترتجل وتتدبر أمرها بنفسها. كان أول ما تبادر إلى ذهنها أن تبالغ في ارتداء الملابس. كانت أمها الملامة في ذلك – هو ذنب الأمهات عادة – لكني واثقة من أن أمها لم ترَ أو تعرف إلا جزءًا يسيرًا من هذا. تكون غارقة في النّوم لدى مغادرة تريسي إلى المدرسة ولم تكن في البيت حين عودتها. كانت قد عثرت أخيرًا على عمل، أظن أنها كانت تنظف مبنى مكتبيًّا في مكان ما، لكن أمي والأمهات الأخريات استهجنّ وظيفتها بقدر ما استهجنّ بطالتها. كانت في السّابق «أثرًا سيّئًا»، الآن «لم تكن متواجدة في البيت أبدًا». سيّان حضورها من عدمه، والطّريقة التي بدأن فيها التحدث عن تريسي أخذت بُعدًا مأسَويًّا، أوَليس الأبطال المأسَويّين هم وحدهم من لا يمتلكون خيارات أمامهم، أو سُبلًا بديلة، فقط مصائر محتومة؟ وفقًا لأمي، في غضون بضع سنوات ستكون تريسي حُبلى، وهكذا سوف تترك الدراسة، وسوف تكمل «دورة الفقر» نفسها، منتهية في السّجن على الأرجح. لم يكن السجن غريبًا على العائلة. بالتأكيد لم يكن السّجن غريبًا على عائلتي أيضًا، لكن بوجه ما كنت مرتبطة بنجم مختلف: ما كنت لأكون وأفعل أيًّا من هذه الأمور.

أقلقني يقين أمي حول هذا كله. إذا كانت محقّة فهذا يعني أن سلطانها على حيوات أناس آخرين امتدّ أبعد من أي شيء كنت قد تخيلته حتى الآن. ومع ذلك إذا أمكن لأي شخص أن يتحدّى القدر – ممثّلًا في صورة أمي – فبالتأكيد أمكن لتريسي تدبّر أمر القدر.

لكن البشائر كانت سيئة. الآن عندما بات يُطلب من تريسي خلع معطفها في الصّف لم تعد ترفض، بدلًا من ذلك تؤدي الفعل بتمتع رهيب، تفكّ السّحاب ببطء، بطريقة قدّمَت نهديها من خلالها لنا نحن البقيّة بأكبر وقع ممكن، بالكاد يحتويهما قميص غير مناسب، تُفاخر بوفرتها في حين نحن البقية لم نمتلك سوى حلمات وعظام في ذلك الوقت. «عرَفَ» الجميع أن «لمس ثديي تريسي» يكلّف 50 جنيهًا. لم يكن لدي فكرة فيما إذا كانت هذه حقيقة أم لا، لكن جميع الفتيات تضامنّ في اجتنابها، سودًا، وبيضًا، وسُمرًا.

كُنّا فتيات لطيفات. لم نسمح للناس أن يمسّوا حلماتنا المعدومة، لم نعُد إلى الأشياء المجنونة التي كنّاها في الصّف الثّالث. الآن امتلكنا «أصحابًا»، اختارتهم من أجلنا فتيات أخريات، من خلال مكاتيب مُرّرت من مكتب إلى آخر، أو عبر اتّصالات هاتفية طويلة متعرّجة («هل ترغبين بمعرفة من يعشقك» و«هل أخبر الجميع بأنه يعشقك؟»)، وحال تعيين هؤلاء الأصحاب رسميًّا نقف برصانة معهم في الباحة في شمس شتائيّة واهية، يدًا بيد – عمومًا أطول قامة منهم بقيمة رأس – إلى أن حانت اللحظة المحقّقة لننفصل (توقيت هذا أيضًا قرّره أصدقاؤنا) وحينها تبدأ ثانية دورة المكاتيب والاتصالات.

لم يكن ممكنًا المشاركة في هذه العملية دون الانتماء إلى عُصبة من إناث مُريدات، ولم يكن قد بقي لتريسي صديقات سواي وفقط عندما اختارت أن تكون وَدودة. أخذت تُنفق أوقات الفرص

في قفص الفتيان لكرة القدم، تشتمهن أحيانًا، تلتقط الكرة وتوقف اللعب أيضًا، لكن عمومًا تتصرف على أنها شريكتهن، تشاركهن الضّحك كلّما أغاظونا، لم ترتبط يومًا بأي فتى بصورة خاصّة ومع ذلك في خيال المدرسة، تعاملت بحرية أكبر من الجميع. إذا ما رأتني من خلال القضبان ألعب مع ليلي أو ألعب لعبة نط الحبل مع الفتيات الأخريات من سود وسمراوات، صارت تبتكر عرضًا من الالتفات والتحدث مع حلقتها الذكوريّة، تتهامس معهم، تضحك كما لو أن لها أيضًا رأيًا فيما إذا ارتدينا حمّالات صدر أم لم نفعل، أو أن دورتنا الشّهرية قد بدأت. مرة عندما كنت أمر بقفص كرة القدم بطريقة غاية في الوقار، يدًا بيد مع «صاحبي» الجديد – بول بارون، ابن الشّرطي – توقّفت عمّا كانت تفعله، وأمسكت بقضبان القفص وابتسمت لي. ليس ابتسامة لطيفة بل ساخرة للغاية كما لو لتقول: «أوه، هل تلك هي من تتظاهرين بأنك تكونينها الآن؟»

ثلاثة

بعد أن تخلّصنا من الكانكورانج وعبرنا جميع نقاط التفتيش المتخلّلة، وبعد أن نجحت سيارة الأجرة خاصّتنا في اجتياز شوارع بلدة السّوق المزدحمة المخدّدة بالحفر ووصلت إلى ميناء العبارات، حينئذ كان الأوان قد فات، تأخّرنا، هرعنا على المعبر لكن وجدنا أنفسنا معزولين مع مئة شخص آخر على الأقل، نشاهد المقدّمة الصّدئة الضّخمة للسفينة تمخر عباب المياه. يشق النهر هذا الإصبع من البرّ نصفين على امتداده وكان المطار على الجانب الآخر. رفعت بصري نحو حمولة العبّارة المشوّشة بطوابقها الثلاثة: أمهات وأطفالهن، وتلاميذ، ومزارعين وعمال، وحيوانات، وسيارات، وشاحنات، وأكياس حبوب، وسقط متاع السّياح، وبراميل نفط، وحقائب، وأثاث. لوّح الأطفال لنا. لم يبدُ أحد واثقًا فيما إذا كانت هذه هي العبّارة الأخيرة اليوم. انتظرنا. انقضى الوقت، تورّدت السّماء. فكّرتُ بإيمي، في المطار، مضّطرة للتحدث مع وزير التّربية – وفكّرتُ بجودي الغاضبة، متحدّبة على هاتفها، تتصل بي مرارًا وتكرارًا ولا تفلح في الحصول على ردّ – لكن لم تبعث هذه الأفكار أثرها المرتقب. شعرت باطمئنان تام وأنا أنتظر، مستكينة، جنبًا إلى جنب هؤلاء النّاس الذين بدوا بطريقة مماثلة لا يفشون عن أي تململ، أو على الأقل لم يعبّروا عن التململ بأي شكل أمكنني تمييزه. لم يكن لدي شبكة اتصال، لم يكن في يدي حيلة. كنت بعيدة المنال تمامًا للمرة

الأولى خلال سنوات. منحني إحساسًا مباغتًا بالسّكون – لكنه ليس بغيضًا – بكوني خارج الزمن: ذكّرني بطريقة ما بالطّفولة. انتظرت، مستندة إلى غطاء مقدّمة سيّارة الأجرة. جلس آخرون على أمتعتهم، أو صعدوا على أغطية براميل النّفط. استقرّ مسنٌّ على نصف هيكل سرير ضخم. اعتلت فتاتان صغيرتان قفص دجاج. دَوريًّا، سارت شاحنات ببطء على طول المعبر، ليدخل دخان الديزل الأسود في حناجرنا، تُزمّر لتنبّه أيًّا من قد يكون جالسًا أو نائمًا في طريقها، لكنها لمّا لم تجد مكانًا للذهاب ولا شيء لفعله سرعان ما انضمّت إلينا في هذا الانتظار الذي بدا أن ليس له بداية أو نهاية: كنا دومًا نتطلع عبر المياه بحثًا عن العبّارة ودومًا هذا سيكون حالنا. عند الغروب استسلم سائقنا. أدار سيارته عائدًا ببطء عبر الحشد وابتعد.

لتجاوز امرأة صمّمت على بيعي ساعة انتقلت أيضًا نحو حافة المياه وجلست. لكن لامين كان مهتمًّا بي، لطالما كان مهتمًّا بي، شخص مثلي يجب أن يكون في غرفة الانتظار التي كلّف دخولها اثنتين من الأوراق المالية المجعّدة المهترئة التي كوّرتها في جيبي، ولذلك السّبب بطبيعة الحال لم يرغب بالذهاب معي، لكنه مع ذلك أصرّ أن عليّ الذّهاب إلى هناك، نعم كانت غرفة الانتظار بالتأكيد المكان لأمثالي.

«لكن لماذا لا يمكننا الانتظار حيث نحن؟»

ابتسم لي ابتسامته الكظيمة، النّوع الوحيد الذي يعرفه.

«بالنّسبة لي لا بأس... لكن من أجلك؟»

كانت درجة الحرارة بلغت الأربعين في الخارج ولا تزال: وفكرة وجودي في غرفة كانت مثيرة للغثيان. بدلًا من ذلك جعلته يجلس معي، أقدامنا متدلية فوق المياه، نركل كعوبنا على أكداس المحار الميّت الملصقة بالإسمنت إلى دعامات الرصيف البحري. جميع الشّبان الآخرين في

القرية امتلكوا موسيقى راقصة على هواتفهم، ليستمعوا إليها في أوقات مثل هذه بالضّبط، لكن لامين، الشاب الجاد، فضّل سماع إذاعة خدمة العالم، وهكذا أخذ كل واحد منا سمّاعة واستمعنا إلى قصّة عن كُلفة التعليم الجامعي في غانا. تحتنا عند الشاطئ حمل فتيان عراة الجذوع بأكتاف عريضة يخوضون بعزم معقود المناطق الضّحلة المتلاطمة الأمواج إلى مراكب مطليّة بألوان زاهية تبدو محفوفة بالمخاطر.

أشرت إلى امرأة بدينة للغاية بطفل مربوط إلى ظهرها، سحق فخذاها رأسه المتعرق.

«لماذا لا يمكننا فعل ذلك؟ سوف نعبر في عشرين دقيقة!»

همس لامين: «بالنسبة لي لا بأس» – كان كما لو أن كل محادثة كانت بوجه ما مخزية بالنسبة له ويجب ألا تكون مسموعة – «ليس من أجلك. يجب أن تذهبي إلى غرفة الانتظار. سوف يكون وقتًا طويلًا».

شاهدت فتى الشّاطئ يتشبّع بالماء الآن حتى فخذيه، يُخفض مسافرته على مقعدها. بدا ألمه وهو يبدّل هذه الحمولة أقلّ ممّا بدا على وجه لامين إذا تحدث إلي.

عندما راحَت السّماء تُظلم دخل لامين الحشد ليطرح أسئلة وقد تحوّل إلى لامين آخر كليًّا، ليس الهامس المختصر الذي كانه معي، لكن ما لابد أنه لامين الحقيقي، جاد ومحترم مع الجميع، مضحك ومهذار، يبدو أنه يعرف الجميع، أينما ذهب رحّب به شُبّان جميلون بعاطفة حميمة وأخويّة. سمّاهم «أترابه» وهذا قد يعني إما أنه نشأ في القرية معهم أو أنهم كانوا في الصّف نفسه في المدرسة أو في دُفعته في كليّة المدرّسين. كان بلدًا صغيرًا: الأتراب في كل مكان. الفتاة التي باعتنا الكاجو في السّوق كانت من أترابه، أيضًا حارس في المطار. تبيّن أحيانًا أن أحد الأتراب من صغار رجال الشّرطة أو أغرار الجيش الذين أوقفونا في

نقاط التفتيش، وذلك بدا دومًا مثل حظ، تبدد التوتر، رفعوا أيديهم عن أسلحتهم، انحنوا من خلال نافذة المسافر وبسعادة انغمسوا في الحنين. الأتراب أعطوك سعرًا أفضل، أصدروا تذاكر بسرعة أكبر، ولوّحوا لك وأنت تمر. والآن كان هناك واحدة أخرى، فتاة ناهدة في مكتب العبّارة ترتدي توليفة مذهلة من أشياء كنت قد رأيتها على فتيات محليات كثيرات وتطلعت أن أظهر لإيمي المعرفة المتفوقة لمسافر وصل قبل أسبوع كامل. جلد مشدود، خصر واطئ، جينز مرصّع، أقل ما يمكن من السترة – تكشف عن الحواف الفاقعة اللون لحمالة صدر مخرّمة – وحجاب أحمر قرمزي، ملفوف بتواضع حول الوجه وموثّق بدبوس زهري لامع. راقبت لامين وهذه الفتاة يتحدثان لوقت طويل بإحدى اللغات المحلية المتعددة التي تحدث لامين بها وحاولت تخيل كيف أمكن للإجابات البسيطة التي كنا ننشدها للأسئلة «هل هناك عبارة أخرى؟ متى ستأتي؟» أن تنقلب إلى نقاش معقّد عندما بدا كلا منهما أن لديه ما يقوله. عبر الخليج سمعت صوت زمور ورأيت شكلًا ظليًا ضخمًا يتقدم نحونا في المياه. ركضت نحو لامين وأمسكت بمرفقه.

«هل تلك هي؟ لامين، هل تلك هي؟»

توقفت الفتاة عن دردشتها والتفتت لتنظر إلي. عرفَت أنني لست من أترابه. تفحصت الملابس الرتيبة النفعيّة التي اشتريتها خصّيصًا لارتدائها في بلادها: بنطالًا زيتيًا فضفاضًا، وقميصًا طويل الأكمام من قماش اللينين المجعّد، وحذاء رياضيًا من ماركة كونفرس قديمًا لصديق سابق رثّ، ووشاحًا أسود شعرت بالسّخف وبالخجل لارتدائه، وهكذا انزلق عن رأسي والآن صار حول عنقي.

قالت بشفقة معلنة: «تلك سفينة شحن. لقد فوّتما العبّارة الأخيرة».

دفعنا ما اعتبره لامين مبلغًا باهظًا من أجل رحلتنا في القارب، على الرغم من مفاوضات عنيفة، ولحظة أنزلني فتاي الضخم على مقعدي ظهر عشرة رجال فجأة وانضموا إلينا، جالسين على كل قطعة ممكنة من هيكل القارب ومحوّلين إيانا من مركب أجرة خاص إلى مركب عمومي. لكن على الجانب الآخر من المياه عاودت الشبكة الظهور وعلمنا أن إيمي قررت البقاء في أحد فنادق الشّاطئ والتوجه إلى القرية غدًا. ابتهج الفتى الضّخم: دفعنا له ثانية وهكذا قدمنا دعمًا ماليًّا لرحلة أخرى من أجل بعض الأولاد المحليين، نبحر عائدين من الطّريق الذي جئنا منه.

ما إن أصبحنا على الضّفة، توجّهنا أخيرًا إلى القرية في حافلة صغيرة رثّة. فكرة استخدام قاربَين وسيارتَي أجرة في يوم واحد أوجعت لامين، حتى لو دفعت أنا أجرة الركوب الثّانية، حتى لو أن السّعر المعروض – ما جعله يجفل – سوف لن يشتري لي زجاجة ماء في برودواي. جلس على سطح العربة مع فتى آخر لم يتمكن من أن ينحشر في الدّاخل، وعندما تحدث رفاقي المسافرون وناموا وصلوا وأكلوا وأطعموا الرضع وصرخوا على السّائق لينزلهم عند ما بدا لي أنها مفارق طرق مهجورة تمامًا تمكّنتُ من سماع لامين يضرب إيقاعًا على السّطح فوق رأسي ولساعتين كانت اللغة الوحيدة التي فهمتها. وصلنا القرية بعد العاشرة.

كنت أقيم مع عائلة محليّة ولم أكن خارج باحة دارهم في تلك السّاعة، أو أدركت أن الظلمة التامة التي أحاطت بنا، التي مشى لامين عبرها بثقة تامة الآن، كما لو أنها منارة بضوء غامر. عدوت خلفه عبر الدروب الكثيرة الضّيقة الرملية التي تعج بالقمامة التي لم أتمكن من رؤيتها، مرورًا بصفائح الحديد المموج التي ميزت كل مسكن مؤلف من

طابق واحد مبني من الطّوب الخفيف عن الآخر، إلى أن وصلنا مسكن الكالو[23]، ليس أكبر أو أكثر ارتفاعًا من البقية، لكن أمامه أرض قاحلة كبيرة مكشوفة فيها على الأقل مئة طفل في زي مدرستهم الخاص الموحّد – المدرسة التي كنّا هنا أساسًا لاستبدالها – اجتمعوا تحت ظلّة شجرة مانجو واحدة.

انتظروا ست ساعات ليؤدوا رقصتهم لامرأة تُدعى إيمي: الآن توجّب على لامين شرح سبب عدم وصول هذه السّيدة اليوم. لكن عندما أنهى لامين التحدث ظهر الزعيم راغبًا بأن يُعاد الشرح له مجددًا. انتظرت عندما ناقش الرجلان المسألة، تتحرك أيديهما بطريقة حيوية، بينما ازداد سأم الأطفال وهياجهم حتى أن النّساء المستلقيات جانب الطبول التي لن يقرعن عليها الآن، طلبن من الأطفال أخيرًا الوقوف في مجموعات صغيرة وأرسلنهم إلى بيوتهم. رفعت هاتفي. انعكس وهجه الاصطناعي على الكالو.

اعتقدت أنه ليس الزعيم الأفريقي العظيم الذي وضعته إيمي في ذهنها. وجدته ضئيلًا شاحب اللون مغضّنًا وبلا أسنان، يرتدي قميص فريق مانشستر يونايتد رثًا وبنطال بذلة رياضية وخفين منزليين بلاستيكيين من ماركة نايكي مربوطين معًا بشريط لاصق. وكم سوف يكون الكالو متفاجئًا بدوره لسماع أي شخصية قد أصبح بالنسبة لنا جميعًا في نيويورك! لقد بدأ مع بريد إلكتروني من ميريام – عنوانه: بروتوكول. الأجمل في نظر ميريام هو ما يجب أن يقدمه أي زائر للقرية إلى الكالو الخاصّ بالقريّة عند وصوله، دليلًا على الاحترام. أطلقت جودي ضحكتها النابحة وهي تتصفحه ودست هاتفها في وجهي: «هل هذه مزحة؟»

23) Alkalo: وهو الاسم الذي يطلق على زعيم القرية التقليدي في غامبيا.

قرأت القائمة:

نظارة قراءة

مسكن باراسيتامول

أسبيرين

بطاريات

غسول للجسم

معجون أسنان

كريم مطهر

«لا أظن ذلك... ميريام لا تطلق النّكات».

ابتسمت جودي بتحبّب إلى شاشتها: «حسنًا، أظن أن باستطاعتنا أن نوفّق في ذلك».

أمور كثيرة لم تسحر جودي، لكن تلك القائمة سحرتها. لقد سحرت إيمي أكثر ولبضعة أسابيع فيما بعد، كلما زارنا شخص من ذوي النوايا الحسنة في منزل هودسن فالي أو في واشنطن سكوير، أخذت إيمي تردد هذه القائمة بوقار زائف من ثم تسأل جميع الحاضرين إذا يمكنهم أن يتخيلوا، والجميع سيعترفون أنهم بالكاد يتخيلون، وبدت متأثرة للغاية ومنشرحة إزاء هذا الإخفاق في التخيّل، لقد اتّخذ دليلًا على الطهارة، سواء في الكالو وفي أنفسهم.

علّق شاب من وادي السيليكون في واحدة من هذه الليالي على الأمر، كان يميل على مائدة الطعام التي تتوسطها شمعة زينة، وبدا وجهه مضاء من أسفل ببصيرته: «لكنه صعب للغاية أن تترجم ذلك، أعني، بين واقع والآخر. مثل العبور من خلال المصفوفة». أومأ جميع الجالسين إلى الطاولة ووافقوا ولاحقًا لمحت إيمي تضيف بسلاسة سطر هذه الحفلة – العشاء إلى تلاواتها لقائمة الكالو الشّهيرة الآن، كما لو أنها قائمتها.

همست إلى لامين: «ماذا يقول؟». كنت متعبة من الانتظار. أخفضت هاتفي.

وضع لامين يدًا بلطف على كتف الزعيم، لكن الرجل العجوز واصل توجيه كلامه اللانهائي المهتاج إلى الظلام.

همس لامين: «يقول الكالو إن الأشياء صعبة جدًا هنا».

صباح اليوم التالي ذهبت مع لامين إلى المدرسة وشحنت هاتفي في مكتب المدير عبر القابس الوحيد في القرية الذي يعمل على مولد شمسي دفعت ثمنه جمعية خيرية إيطالية قبل سنوات. حوالي منتصف النهار عاودت الشّبكة الظهور على نحو غامض. قرأت الرسائل الخمسين وقررت أن لدي يومين آخرين وحيدة هنا قبل أن يتوجب عليّ العودة إلى العبّارة لملاقاة إيمي: كانت «تستريح» في فندق في المدينة. أولًا كنت متحمسة لهذه الوحدة غير المنتظرة وفاجأت نفسي بكل أنواع الخطط. أخبرت لامين عن رغبتي بالذهاب إلى المسكن الشّهير للعبد الثّائر على مسافة ساعتين وأنني أود أن أرى أخيرًا بأم عيني الشّاطئ الذي غادرت منه السّفن بحمولتها البشرية المتوجهة إلى جزيرة أمي ثم نحو الجزر الأميركية والبريطانية حاملة السكّر والقطن قبل أن تعود ثانية، المثلث الذي نجم عنه وجودي – من بين عواقب لا تُعد. مع ذلك قبل أسبوعين أمام أمي وميريام كنت قد دعوت كل هذا بازدراء: «سياحة الشّتات».

قلت للامين إنني سوف أركب حافلة صغيرة بمفردي إلى حصون العبد القديم التي كان فيها أسلافي سابقًا. ابتسم لامين وبدا أنه يوافق، لكن عمليًا تواجد بين كل هذه الخطط وبيني. بيني وبين كل محاولة للتفاعل، شخصية أو اقتصادية، بيني وبين القرية الغامضة، بيني وبين الكبار وبيني وبين الأطفال، مستقبِلًا أيّ أسئلة أو طلبات بابتسامته

القلقة وشرحه المفضل همسًا: «الأمور صعبة هنا».

لم يسمح لي بالذهاب نحو الأجمة وألتقط الكاجو، أساعد في طهي أي وجبات، أو أغسل ملابسي. خطر لي أنه اعتبرني مثل طفلة، شخصًا يجب أن يعامَل برقّة ويقدَّم للواقع تدريجيًا. ثم أدركت أن جميع من في القرية فكّر بي بنفس الطّريقة. حين جثمت جدّات لتناول الطعام من القدر المشترك مستريحات على أوراكهن القويّة يجمعن الأرز ولقيمات السّمك أو الباذنجان بأصابعهن، جلب لي كرسيًّا بلاستيكيًّا وسكّينًا وشوكة لأنه تصوّر على نحو صحيح أنني قد أكون واهنة للغاية لأتخذ تلك الوضعية. عندما سكبت ليتر ماء كامل في المرحاض الأرضي لأطرد الصّرصار الذي كدرني، لم تجعلني واحدة من الشابات اللاتي عشت معهن أعرف بالضبط كم مشت بعيدًا ذلك اليوم لتجلب ذلك الليتر. عندما تسلّلت بنفسي إلى السّوق لأشتري دثارًا أحمر وقرمزيًّا لأمي، ابتسم لامين ابتسامته القلقة لكنه وفّر عليّ معرفة أيّ نسبة من مرتّبه السّنوي كمدرّس كنت قد أنفقت على قطعة واحدة من الملابس.

نحو نهاية ذلك الأسبوع الأوّل اكتشفت أن التحضيرات لعشائي تبدأ بعد لحظات من تقديم الفطور لي. لكن عندما حاولت الاقتراب من زاوية الباحة حيث ربضت جميع تلك النّساء والفتيات في الغبار للسّلخ والتقطيع والسّحق والتمليح، سخرن مني وأرسلنني إلى راحتي لأجلس على كرسي بلاستيكي في غرفتي المظلمة وأقرأ الصّحف الأميركية التي جلبتها معي – باتت مغضّنة وغير مقبولة بشكل هزلي – لذا لم أكتشف أبدًا كيف بالضّبط حضّروا دون فُرن ولا كهرباء البطاطا المشوية التي لم أرغب بها أو القدور العظيمة من الأرز الشّهي الذي طهونه لأنفسهن. لم يكن تحضير الطعام من أجلي ولا الغسيل، أو جلب الماء أو اقتلاع البصل أو حتى إطعام الماعز والدّجاج. لم أكن مفيدة لأي شيء بالمعنى

الدقيق للكلمة. حتى الرضّع كانوا يُناوَلون لي على نحو ساخر، وضحكَ النّاس عندما رأوني أحمل واحدًا. نعم، كانت عناية عظيمة مَرْعِيّة في كل الأوقات لحمايتي من الواقع. التقوا بأناس مثلي من قبل. عرفوا الكمّ القليل من الواقع الذي يمكننا احتماله.

الليلة السّابقة لذهابنا لاستقبال إيمي أيقظني في وقت مبكّر جدًّا صوت الأذان والدّيوك الهستيرية، ولمّا وجدت أن الطقس ليس حارًّا بجنون بعد، ارتديت ملابسي في الظلمة وغادرت مسكني وحيدة، دون أيٍّ من الجيش الصّغير من النسوة والأطفال الذين عشت معهم – كما أصرّ لامين أنه لا يتوجب عليّ أن أفعل أبدًا – وذهبت أبحث عنه. أردت أن أخبره إنني ذاهبة إلى حصن العبد القديم اليوم سواء أعجبه ذلك أم لم يعجبه، كنت ذاهبة. مع انبلاج الفجر وجدت نفسي متبوعة بالكثير من الأطفال الحفاة الفضوليين كأنّهم ظِلال كثيفة – «صباح الخير، كيف صباحك؟»، عندما توقفت هنا وهناك لأقول اسم لامين إلى عشرات النّساء اللاتي مررت بهن الآن يتوجهن إلى العمل في المزرعة التعاونية، أومأن وأشرن لي، عبر الأشجار المنخفضة، عبر هذا الدرب وذاك، حول المسجد الأخضر الفاتح اللون المبني من الإسمنت، النصف متآكل على كل جانب، بعد تِلالٍ على ارتفاع اثنتي عشرة قدمًا من النّمل البرتقالي، مرورًا بكل تلك الباحات الأمامية المتربة التي كنستها في هذه السّاعة فتيات مراهقات نصف كاسيات عَبوسات، اللاتي ارتحن على مكانسهن ليشاهدن مروري. أنّى نظرت رأيت النّساء يعملن: يقمن بواجبات الأم، يحفرن، يعتنين، يرضعن، ينظفن، يجررن، يكشطن، يبنين، يصلحن. لم أرَ رجلًا إلى أن وجدت مسكن لامين أخيرًا عند مشارف القرية قبل الأرض الزراعية. كانت ظُلمة شديدة ورطوبة حتى بالمعايير المحليّة: ما من باب أمامي، فقط ملاءة سرير، ما من أريكة ضخمة

خشبية، فقط كرسي مفرد بلاستيكي، ما من كسوة للأرضية فقط تراب وجردل مياه صغير من الصّفيح الذي لا بد أنه اغتسل به للتو، لأنه كان راكعًا على ركبتيه بجانبه، يقطر ماء في سروال قصير خاص بلعب كرة القدم. على الجدار المشيّد من الطوب الاسمنتي خلفه تمكنت من رؤية الشّعار المرسوم بشكل غير دقيق لمانشستر يونايتد مطليًّا بالأحمر. دون قميص، نحيل مكوّن فقط من العضلات، جلد يبرق بشبابه لا عيب فيه. كم بدوت شاحبة بجانبه، دون ألوان عمليًّا! لقد جعلني أفكر بتريسي، بالمرات الكثيرة في طفولتنا عندما وضعت ذراعها قرب ذراعي، للتأكد مرة ثانية من أنها لا تزال أكثر شحوبًا مني بقليل – عندما أكدت بفخر أنها كذلك – فقط في حال غيّر فصل صيف أو شتاء هذه الحالة من الوضع الراهن منذ آخر مرة تفحصت فيها. لم أجرؤ على إخبارها أنني أستلقي على شرفتنا في أي يوم حار، أبتغي بالضّبط الصفة التي بدت أنها تخشاها: المزيد من اللون، الدكنة، كي ينضمّ كل النّمش ويندمج ويمنحني لون بشرة أمي البني الدّاكن العميق نفسه. لكن لامين، مثل معظم النّاس في القرية، كان ذا بشرة داكنة بدرجات مضاعفة من لون بشرة أمي بالنسبة لي، وبالنظر إليه الآن وجدت التباين بين جماله وهذه المحيطات سرياليًّا، من بين أشياء أخرى كثيرة. التفتّ ورآني واقفة عنده. وجهه معجون بالألم – لقد أخللت بعقد غير منطوق.

استأذن. وقف على الجانب الآخر من السّتارة الخرقة التي فصلت نظريًّا جزءًا من المكان الكئيب عن الآخر. لكني تمكنت من رؤيته، يرتدي قميصه الأبيض النظيف وعليه الأحرف الأولى من ماركة كالفين كلاين وبنطاله الأبيض والصّندل الأبيض، كلها مَصان بياضها بوسائل لم أستطع تخيّلها، أنا المكسوّة بالغبار الأحمر، حالي كل يوم. ارتدى آباءه وأعمامه غالبًا الجلابيب، ركض أبناء عمومته الكثر وأشقاؤه في

قمصان رياضية رثّة شائعة وجينز بال، حفاة، لكن لامين ارتدى ثيابه البيضاء الغربيّة تقريبًا كل مرّة رأيته فيها مع ساعة فضية كبيرة مرصّعة بالزيركون، عقاربها عالقة دومًا عند السّاعة العاشرة وأربع دقائق.

يوم الأحد، عندما اجتمع جميع أهل القرية بأسرهم، ارتدى بدلة ذات لون أمغر، لها ياقة أسقف، وجلس بالقرب مني يهمس في أذني مثل مبعوث للأمم المتحدة يترجم فقط ما اختار ترجمته مما يناقش. جميع المدرسين الشّبان في القرية ارتدوا بتلك الطّريقة، ياقة الأسقف التقليدية أو بناطيل وقمصانًا، مع ساعات كبيرة وحقائب خفيفة سوداء، هواتفهم التي تفتح بطريق النقر وذات الشاشات الضخمة التي تعمل بنظام التشغيل أندرويد في اليد دومًا حتى لو لم يعملوا. كان سلوكًا تذكّرته من الحي القديم، طريقة في التمثيل عنَت في القرية التأنّق من أجل جزء معين: أنا واحد من الشّبان المعاصرين الجادين. أنا مستقبل بلدي. شعرت بالسّخف بالقرب منهم دومًا. بالمقارنة مع فهمهم للمصير الشّخصي، بدوت كما لو أنني في العالم بمحض الصّدفة، لم أمنح أي قدر من التفكير على الإطلاق لما مثّلته، اكتسيت بينطالي الزيتي المجعّد الفضفاض وحذائي القذر، أجرّ حقيبة ظهر رثة في كل مكان. عاد لامين للركوع على ركبتيه وبدأ صلاتَه الأولى في اليوم من جديد، كنت قد قاطعت ذلك أيضًا. مُصغية إلى عربيّته المهموسة تساءلت بالضبط أيّ شكل اتخذته صلاته. انتظرت. نظرت من حولي نحو الفقر الذي أمِلَت إيمي «تخفيضه».

هذا كل ما استطعت رؤيته، وكانت الأسئلة التي يطرحها الأطفال النّوع الوحيد الذي خطر لي. ما هذا؟ ما الذي يحدث؟ قادتني طريقة التفكير نفسها في اليوم الأول لوصولي إلى مكتب المدير حيث جلست أتعرق تحت سطح الصفيح المتوهج، مسعورة أحاول الاتصال

بالإنترنت، على الرغم من أني تمكنت بالتأكيد من البحث عما أردت معرفته في نيويورك بسرعة أكبر بكثير وبطريقة أسهل بما لا يقاس، في أي وقت في الأشهر السّتة السّابقة. هنا كانت العملية مُجهدة. تُحَمّل الصّفحة حتى منتصفها، ثم تنهار، ارتفعت الطاقة الشّمسية وانخفضت وانقطعت تمامًا أحيانًا. استغرق الأمر أكثر من ساعة. وعندما ظهر كلّ من الرقمين اللذين كنت أبحث عنهما أخيرًا في نافذتيهما المتلاصقتين، اكتفيت بالجلوس والتحديق فيهما لوقت طويل. بالمقارنة، كما تبين، جاءت إيمي متقدمة بعض الشّيء. وتمامًا بذلك الشكل إجمالي الناتج المحلّي لبلد برمّته أمكن أن يُحتوى في شخص واحد، مثلما تُحتوى دمية روسية في أخرى.

✧ أربعة ✧

أطلق سراح والد تريسي في شهر حزيران الأخير ذاك من المدرسة الابتدائية، والتقينا للمرة الأولى. وقف على أرض الحديقة المشتركة يرفع بصره نحونا مبتسمًا. لبق، عصري، مفعم بنوع من فرح حركي، لكن أيضًا كلاسيكي بطريقة ما، أنيق، بوجانجلز بذاته. وقف في الوضعية الخامسة، مباعدًا ما بين ساقيه، يرتدي سترة الطيار الحربي قصيرة زرقاء برّاقة اللون، وتنّينًا صينيًّا على الظهر وبنطال جينز ضيق أبيض اللون. شارب كثٌّ أنيق وتسريحة شعر أفريقي على الطّراز العتيق لا يتخلّلها بَهات (حيث يخفف الشّعر بشكل تدريجي) أو خطوط ولا قمّة عالية. شعرت تريسي بسعادة غامرة، مطّت نفسها من فوق الشّرفة، كما لو لتسحب والدها عاليًا إليها، تصرخ إليه أن يأتي: «اصعد إلى هنا، أبي، تعال»، لكنه غمزنا وقال: «لدي فكرة أفضل، لنذهب على الطريق السّريع». نزلنا سريعًا وكل واحدة أمسكت يدًا له.

أول ما انتبهت إليه كان امتلاكه لجسد راقص وتحرّكه مثل راقص، على نحو متناغم، بقوّة لكن بخفّة أيضًا، لذا نحن الثلاثة لم نسر وحسب معًا على طول الطّريق العام بل تنزّهنا. تطلّع الجميع فينا، تبخترنا في ضوء الشّمس وتوقّف عدة أشخاص عن فعل ما يفعلونه وجاؤوا لتحيتنا – لتحية لوي – من الجهة الأخرى من الشّارع، من نافذة رثّة فوق صالون الحلاقة، من عتبات الحانات. عندما اقتربنا من متجر

المراهنات، تقدّم أمامنا سيّد كاريبيّ مُسنّ يرتدي قبّعة مسطّحة وسترة صوفية سميكة – رغم الحرّ – سادًّا طريقنا وسأل: «هاتان ابنتاك؟»

رفع لوي يدينا كما لو أننا ملاكمتين وقال وهو يفلت يدي: «لا، فقط هذه».

أشرقت تريسي بكل ما حملته من اعتزاز.

قال الرجل المسن مقهقهًا: «لقد سمعتهم يقولون إنه حكم عليك بالسجن مدة ثلاثة عشر شهرًا. محظوظ، محظوظ لوي». وبمرفقه وكز لوي في خصره المهندم، كان موثّقًا بإحكام بحزام ذهبي رفيع مثل بطل أسطوري. لكن لوي شعر بالإهانة، تراجع عن الرجل المسن – بحركة «بلييه plié» انزلاقية حاذقة – وأصدر بأسنانه صوتًا مرتفعًا مبديًا امتعاضه. صحّح الرقم: «لم أبقَ حتى سبعة!».

سحب الرجل المسنّ صحيفة كان يطويها تحت إبطه، بسطها وأرى لوي صفحة بعينها، تفحّصها قبل أن ينحني ليريها لنا. طلب منا أن نغمض أعيننا ونقحم أصابعنا حيثما قادنا المزاج، وعندما فتحنا أعيننا حصلت كل واحدة منا على حصان تحت إصبعها، أستطيع تذكر اسم حصاني: «ثيوري تيست»، لأن لوي خرج مسرعًا بعد خمس دقائق من أبواب وكيل المراهنات، أخذني بيده عن الأرض وقذفني في الهواء. كسب رهان الجنيهات الخمسة مئة وخمسين جنيه.

أرسلنا إلى متجر وولورثس وطلب من كلّ منا اختيار ما تشاء. تركت تريسي عند الفيديوهات المعدّة لأولاد مثلنا – كوميديات الضّواحي، أفلام الحركة، ملاحم الفضاء – أتقدم وأنحني على السلة السّلكية الكبيرة «سلة البضائع المخفّضة»، الموضوعة جانبًا من أجل هؤلاء الذين لا يملكون إلا القليل من المال أو الخيارات. كان يوجد فيها دائمًا كثير من الأفلام الموسيقية، عافها الجميع، حتى السّيدات

العجائز، وكنت أنبش فيها بسعادة كافية، عندما سمعت تريسي التي لم تكن قد تحركت من القسم الحديث تسأل لوي: «إذن كم يمكننا أن نأخذ؟» كان الجواب أربعة ولو أنه كان علينا أن نسرع لأنه كان جائعًا. نتَرْتُ أربعة أفلام موسيقية في ذُعر هائئ:

علي بابا يصل إلى البلدة

لحن برودواي عام 1936

سوينغ تايم

إنه دومًا طقس جميل.

أتذكر أن الفيلم الوحيد الذي اشترته تريسي هو فيلم العودة إلى المستقبل، يفوق ثمنه ثمن جميع الأفلام التي اشتريتها مجتمعة. ضغطته إلى صدرها، متخلية عنه فقط لحظة كي يمَرّر إلى أمين الصّندوق، مختطفة إياه ثانية فيما بعد مثل حيوان ينهش طعامه. عندما وصلنا إلى المطعم جلسنا إلى أفضل طاولة، بمحاذاة النافذة تمامًا. أرانا لوي طريقة مضحكة لتناول الشطيرة الكبيرة بيج ماك، مفكّكًا طبقاتها وواضعًا البطاطا المقلية فوق وتحت كل شريحة لحم ليجمعها معًا ثانية.

سألَت تريسي: «أنتَ آتٍ لتقيم معنا، إذن؟»

«لا أعرف عن ذلك؟ ماذا تقول؟»

أقحمت تريسي أنفها النهم في الهواء: «لا تهتم لما تقوله».

كانت كلتا يديها الصّغيرتين موثقتين في قبضتين محكمتين.

«لا تقلّلي احترام والدتك. لدى أمك مشاكلها».

عاد إلى النّضد ليجلب مخفوق الحليب. عندما عاد بدا مُرهقًا، ودون تقديم الموضوع بأي طريقة رسمية، بدأ يحدثنا عن الدّاخل، عن كيف تجد عندما تكون في الدّاخل أنه لم يكن مثل الحي، لا، على

الإطلاق، كان يختلف اختلافًا شديدًا لأنك عندما تكون في الدّاخل فَهِمَ الجميع أن من الأفضل أن يلزم النّاس نوعهم، وهذا ما حدث، «المثيل لزم المثيل» لم يكن هناك من اختلاط إلا بالكاد، ليس كما هو الحال في الشّقق، ولم يكن الحرّاس أو أي شخص من يطلب إليك أن تفعل هذا، هكذا كان الحال، القبائل تمكث معًا، وأيضًا ينطلي الأمر على درجة لون البشرة، شرح رافعًا كمّه دالًا على ذراعه: «لذا جميعنا من امتلكنا بشرة داكنة مثلي، حسنًا، نحن هنا ملتصقين بعضنا ببعض دومًا» ورسم خطًّا على سطح الطاولة الفورميكا «وبُنّيّ مثلكما أنتما الاثنتان هو في مكان ما هنا، وباكي في مكان آخر، وهندي في مكان آخر. البيض منقسمون أيضًا: أيرلنديين، أسكتلنديين، انكليز. ومن الانكليز من هم ينتمون إلى الحزب القومي البريطاني والبعض على ما يرام. الفكرة أن كل شخص يبقى مع جماعته، وهذا طبيعي. يثير التفكير».

جلسنا نشرب مخفوق الحليب بصوت مسموع، نفكر.

واصل: «وأنت تطّلع على شتى أنواع الأمور، تتعلم من هو إله الرجل الأسود الحقيقي! ليس يسوع هذا أزرق العينين ذا الشّعر الطويل – لا! ودعوني أسألكما: كيف يمكن أني لم أسمع عنه أبدًا أو باسمه قبل أن أدخل هناك؟ ابحثا عنه. تتعلّم الكثير ممّا لا تستطيع تعلمه في المدرسة، لأن هؤلاء النّاس سوف لن يقولوا لكم شيئًا، لا شيء عن ملوك أفريقيا، لا شيء عن ملكات مصر، لا شيء عن محمّد، إنهم يُخفون كل هذا، يُخفون تاريخنا كلّه كي نشعر كما لو أننا لا شيء، نشعر كما لو أننا في أسفل الهرم، تلك هي الخطّة برمتها، لكن الحقيقة هي أننا بنينا الأهرامات اللعينة! أوه، إن فيهم قوة شيطانية، لكن ذات يوم، ذات يوم، بمشيئة الله، هذا اليوم الأبيض سوف ينتهي». ثم رفع لوي تريسي على حجره وهزهزها كما لو أنها طفلة أصغر سنًا بكثير،

ثم رفع ذراعيها من الأسفل، مثل دمية متحركة، فبدت أنها ترقص على الموسيقى التي كانت تصدح من السّماعات بين كاميرات المراقبة.

«أما زلت ترقصين؟» كان سؤالًا طارئًا، عرفت بأنه لم يكن مهتمًّا عمليًّا بالجواب، لكن تريسي دومًا تنتهز فرصها مهما كانت ضئيلة، والآن أخبرت والدها في دفعة سعيدة عظيمة كثيرًا من التفاصيل، عن كل الميداليات التي حصلت عليها في الرّقص تلك السّنة والسّنة المنصرمة وعما قالته الآنسة ايزابيل عن التّوزان على الأصابع وعن كل ما قاله شتى أنواع النّاس عن موهبتها وعن تجربتها القادمة على مسرح المدرسة، عن هذا الموضوع سمعت سلفًا بقدر ما استطعت أن أحتمل. أمي لم تسمح بمسرح المدرسة، ليس حتى لو فزت بمنحة دراسية كاملة من النّوع الذي كانت تريسي تراهن عليه. كنا نتشاجر عليها أمّي وأنا، منذ أن سمعت أنه سوف يسمح لتريسي بالتقدم إلى امتحان التمثيل. فكرة الاضطرار لارتياد مدرسة عاديّة بينما تريسي أمضت أيامها في الرّقص!

قال لوي مُرهقًا فجأة من حديث ابنته: «الآن انظرا، بالنسبة لي، بالنسبة لي لم أحتج إلى مدرسة الرّقص، اعتدت أن أحتل ساحة الرّقص كتحصيل حاصل! هذه الفتاة أخذت كل شيء من والدها. صدقوني: يمكنني أن أؤدي كل الحركات! اسألي والدتك! اعتدت كسب بعض النقود من هذا العمل، في سالف الأيام. لكنك تبدين مرتابة!»

ليثبت قوله، ليخفف من شكوكنا، انزلق عن مقعده وركل ساقه عاليًا، هزهز رأسه، بدّل مستوى كتفيه، دَوّم، توقف سريعًا وانتهى على أطراف أصابع قدميه.

صفّرت مجموعة من الفتيات اللاتي جلسن مقابلنا في كشك وهتفن، وبمشاهدته شعرت أني فهمت الآن ما عنت تريسي بوضع والدها ومايكل جاكسن في واقع واحد، ولم أجد أنها كاذبة، بالضّبط، أو على

الأقل شعرت أن ضمن الكذبة يوجد حقيقة أكثر عمقًا. كانا متأثرين بنفس الإرث. وإذا صادف أن رقْصَ لوي ليس شهيرًا مثل رقص مايكل، حسنًا، كان هذا عند تريسي فقط شيئًا تقنيًا – حادثة زمان ومكان – والآن بالتفكير برقصه وأنا أكتب كل ذلك أظنّ أنّها محقّة تمامًا.

فيما بعد قرّرنا أن نعود أدراجنا سيرًا على الأقدام نحمل أكواب مخفوق الحليب الضّخمة على الطّريق العام، متوقفين ثانية للتحدّث مع بعض أصدقاء لوي – أو ربما كانوا ببساطة أناسًا عرفوا ما يكفي عنه ليخيفوه – من ضمنهم بَنّاء شاب إيرلندي كان يتعلّق بالسّقالة بيد واحدة خارج مسرح ترايسيكل، ووجهه أحمر مسفوع من طول العمل تحت الشّمس. مدّ يده إلى الأسفل ليصافح لوي: «الآن، إن لم تكن بلاي بوي جزر الهند الغربية[24]!» كان يعيد بناء سطح مسرح الترايسيكل، وتأثر لوي بهذا تأثّرًا كبيرًا، كانت المرة الأولى التي يسمع فيها عن الحريق المريع الذي اندلع قبل عدة أشهر. سأل الفتى عن كُلفة إعادة البناء وكم كان هو وبقية الرجال الإيرلنديين يتقاضون بالسّاعة، أي نوع من الإسمنت يستعملون، ومن هم تجّار الجملة، وتطلّعت نحو تريسي عندما امتلأت فخرًا من هذه اللمحة إلى لويٍ ممكنٍ آخر: مقاول شاب محترم، سريع في الحساب، يجيد التعامل مع كادر عمله، يصحب ابنته في جولة إلى مكان عمله ممسكًا يدها بإحكام شديد. تمنيت أن تكون جميع أيامها مثل ذلك اليوم.

لم يخطر في بالي أن أيّ عواقب سوف تنجم عن نزهتنا الصّغيرة، لكن حتى قبل عودتي إلى ويلزدن لين شخصٌ ما أخبر أمي عن مكاني وبرفقة من كنت. أمسكت بي عندما دخلت من الباب ولطمت

---

24) Playboy of the West Indies: عنوان لمسرحية من تأليف الكاتب المسرحي الترينيدادي مصطفى ماتورا.

مخفوق الحليب من يدي فارتطم بالجدار المقابل، زهري للغاية وثخين – دراماتيكي من حيث لا ندري – وطوال المدة التي عشناها في ذلك المكان تعايشنا مع بقعة فريز شاحبة. بدأت بالصّراخ. ماذا ظننت أني أفعل؟ وبصحبة من كنت أظن نفسي؟ تجاهلت كل أسئلتها البلاغية وسألتها ثانية لماذا لم أستطع التقدم لتجربة الأداء مثل تريسي. قالت أمي: «فقط الأحمق يترك التعليم» وقلت: «حسنًا، إذن ربما أنا حمقاء». حاولت أن أمرّ بها وأدخل إلى غرفتي، غنيمتي من أفلام الفيديو خلف ظهري، لكنها سدت طريقي ولذا قلت لها صراحة إني لست ملكًا لها ولم أرغب يومًا بأن أكون وأني لا أهتم بكتبها أو ملابسها أو أفكارها أو أي من ذلك، أردت أن أرقص وأعيش حياتي. ظهر والدي من أي مكان كان يختبئ فيه.

مومئة نحوه، حاولت توضيح وجهة النظر التي تقول بأن الأمر إذا كانًا متوقفًا على والدي لكان سمح لي بالتقدم لامتحان التمثيل لأن والدي آمن بي، كما آمن والد تريسي بها. تنهدت أمي وقالت: «بالتأكيد كان سيدعك تفعلين، هو ليس قلقًا – هو يعرف بأنك لن تنجحي أبدًا».

تمتم والدي: «بحق الله»، لكنه لم يتمكن من النظر نحوي وفهمت بوخزة ألم أن ما تقوله أمي لابد أن يكون الحقيقة.

شرحت: «كل ما يهم في هذا العالم هو المدون. لكن ما يحصل مع هذا» – أومأت إلى جسدي – «سوف لن يهمّ أبدًا، ليس في هذه الحضارة، ليس من أجل هؤلاء النّاس، لذا كل ما تفعلينه هو أنك تلعبين لعبتهم بقواعدهم، وإذا تلعبين تلك اللعبة، أعدك، سوف تصبحين ظلًا لنفسك. تحملين الكثير من الأطفال، ولا تغادرين أبدًا هذه الشّوارع وتكونين واحدة من أولئك الأخوات اللواتي قد لا يكنّ موجودات أيضًا».

قلت: «أنت غير موجودة».

تمسّكت بهذا السّطر كما يتمسّك الطفل بأول شيء يتناوله.

تجاوز أثره على أمي كلّ ما رجوته. ارتخى فمها وشفّت منها كل رباطة جأشها وجمالها. بدأت تبكي. وقفنا عند مدخل غرفتي، أمي محنية الرأس. كان والدي قد انسحب، كنا فقط نحن الاثنتان. استغرق الأمر دقيقة حتى تعثر على صوتها ثانية. قالت لي – بهمس شرس – ألّا أخطو خطوة أخرى. لكن حالما قالت ذلك رأت خطأها: كان اعترافًا، هذا كان بالضبط الوقت المناسب في حياتي الذي قد أخطو فيه أخيرًا خطوة بعيدًا عنها، العديد من الخطوات، كنت تقريبًا في الثانية عشرة من عمري، كنت أساويها في طول القامة – أمكنني الرّقص مباشرة خارج حياتها، وهكذا كان تحوّلًا محتومًا في سُلطتها، يحدث بالضبط أثناء وقوفنا هناك. لم أقل شيئًا، درجت من حولها، ذهبت إلى غرفتي وصفقت الباب.

خمسة

علي بابا يصل إلى البلدة فيلم غريب. إنه تنويع على فيلم «يانكي من كونيتيكت في بلاط الملك آرثر» يؤدي فيه ايدي كانتور دور «آل بابسون»، شخص أحمق عادي يجد نفسه يعمل في دور ثانوي في فيلم من نمط ألف ليلة وليلة، في هوليوود. في أحد المشاهد يغط في النّوم ويحلم بأنه في الجزيرة العربية في القرن التّاسع. كان لهذا المشهد بالغ الأثر عليّ، أردت أن أريه لتريسي، لكن قد أصبح من الصّعب العثور عليها، لم تتصل وعندما حاولت الاتّصال بها كان هناك دومًا وقفة على الخط قبل أن تخبرني أمها بأنها في الخارج. عرفت أن لديها أسبابها المشروعة، كانت منشغلة بالتّحضير لتجربتها على مسرح المدرسة – التي تكرّمَ السّيد بوث بالموافقة على مساعدتها – تدرّبت معظم أيام الأسبوع في الأصيل في قاعة الكنيسة. غير أني لم أكن مستعدة لإطلاقها نحو حياتها الجديدة. قمت بكثير من المحاولات لترصّدها: أبواب الكنيسة ستكون مفتوحة، الشّمس تتدفق عبر الزّجاج الملطّخ، يرافقها السّيد بوث على البيانو، وإذا لمحتني أتلصّص عليها، كانت تلوّح – تحيّة امرأة كبيرة، ذاهلة منشغلة – لكن لم تُقدِم يومًا على الخروج للتحدث معي. بمنطق مبهم لفتاة لم تبلغ سنّ المراهقة بعد، رأيت أن جسدي هو الملام. كنت لا أزال طفلة نحيلة بصدر مسطح، أتربّص عند العتبة، بينما ترقص تريسي في النّور، كانت في ذلك الحين امرأة صغيرة. كيف

يمكن أن تبدي اهتمامًا بالأمور التي لا تزال تثير اهتمامي؟

«لا، لا أعرفه. ماذا يُدعى ثانية؟»

«لقد أخبرتك للتو. علي بابا يصل إلى البلدة».

تجرّأتُ ودخلت إلى الكنيسة في نهاية إحدى تدريباتها. كانت جالسة في كرسي بلاستيكي تخلع حذاء الرّقص النّقري، بينما كان السّيد بوث لا يزال في ركنه، يتلاعب بالقطعة الموسيقية «لا أستطيع إلا أن أحبّ رجُلي ذاك» يسرعها ويبطئها، يعزفها تارة على طريقة الجاز، وتارة على أسلوب راغتايم.

«أنا مشغولة».

«يمكنك أن تأتي الآن».

«أنا مشغولة الآن».

دس السّيد بوث موسيقاه في حقيبته وتجول. اندفع أنف تريسي في الهواء، يستنشق رائحة الثناء.

قال: «حسنًا، كان ذلك باهرًا».

«هل كان جيدًا، حقًا؟»

«باهر. أنت ترقصين كالحلم».

ابتسم وربت على كتفها، وعبّر فيض من السّعادة وجهها. حصلت على هذا النوع من الثناء من والدي يوميًا مهما فعلت، لكن بالنسبة لتريسي لابدّ أنه من النّدرة حتى بدا يغيّر كل شيء بسماعها له، بما فيه شعورها تجاهي في تلك اللحظة. عندما شقّ السّيد بوث طريقه ببطء خارج الكنيسة ابتسمت، قذفت حقيبة الرّقص على كتفها وقالت: «لنذهب».

المشهد يأتي في وقت مبكر من بداية الفيلم. يجلس جمْع من الرّجال على الأرض الرملية، يبدو أنهم لا يُبالون، مكتئبون. يخبر

السّلطان «آل» أن هؤلاء هم الموسيقيون الأفارقة الذين لا يمكن لأحد أن يفهمهم لأنهم يتحدّثون لغة مجهولة. لكن آل يريد التحدث إليهم ويجرب كل شيء: الإنكليزية، الفرنسية، الإسبانية، الإيطالية، وحتى اليديشية. لا شيء ينجح. ثم فكرة رائعة. هي دي هي دي هي دي هي! نداء المغني كاب كالواي، وحالما يميزه الأفارقة، يثبون على أقدامهم ويصرخون بالرد: هو دي هو دي هو دي هو! مستثارًا يبدأ كانتور بالتسويد هنا وهناك، يطلي وجهه بقطعة فلين محروقة تاركًا فقط تلك العينين المدورتين، الفم الطيّع.

«ما هذا؟ لا أريد مشاهدة هذا!»

«ليس هذا المقطع. فقط انتظري، تريسي، من فضلك، انتظري».

أخذت جهاز التحكم وطلبت منها الجلوس على الأريكة. الآن آل غنى للأفارقة مقطعًا شعريًا بدا أنه يؤرجح الزمن نفسه، مضيئًا قدمًا إلى لحظة عندما سوف لن يعود هؤلاء الأفارقة كما كانوا توًا، زمن ألف سنة في المستقبل عندما سوف يضعون سرعة الإيقاع التي يرغب العالم بالرقص عليها في مكان يدعى هارلم. بسماع هذه الأخبار، وقف الموسيقيون المبتهجون وشرعوا يرقصون ويغنون على منصة مرفوعة في ساحة البلدة. أطلت السلطانة ومرشدوها من شرفة، رفع العرب أبصارهم من الشّارع. العرب هم عرب هوليوود، بيض في زي علاء الدين. الأفارقة أميركيون سود متأنقون – مئازر وريش، بأغطية غريبة للرأس ويعزفون على آلات موسيقية بدائية، في محاكاة ساخرة لتجسيدات «نادي القطن» المستقبلية خاصتهم: آلات ترومبون مصنوعة من عظام حقيقية، كلارينيت مشكلة من عصي مثقبة، ذلك النّوع من الأمور. وكانتور، مخلص لأصول اسمه (ويعني قائد جوقة الترتيل)، هو قائد الفرقة، وصفارة حول عنقه، يصفر بها لينهي عزفًا منفردًا أو يرافق

ممثلًا على المنصة. وصلت الأغنية إلى لازمتها، أخبرهم أن السوينغتايم أتى إلى هنا ليبقى، وأنه لا مفر منه، وهكذا يجب أن يختاروا شريكهم – ويرقصون. ثم يصفر كانتور بصفارته وحدث أمر رائع.

كانت فتاة – وصلت فتاة. جعلت تريسي تجلس قريبًا من الشّاشة قدر مستطاعها، لم أرغب أن يكون هناك أي شك في الأمر. نظرت جانبيًا: رأيت شفتيها تنفرجان في مفاجأة، كما انفرجت شفتاي عندما شاهدت الفيلم للمرة الأولى، من ثم عرفت أنها تمكنت من رؤية ما رأيت. أوه، الأنف كان مختلفًا – كان أنف هذه الفتاة طبيعيًا ومسطحًا – ولم يكن في عينيها من تلميح لما في عيني تريسي من الفظاظة. لكن الوجه المشكل على شكل قلب، الخدين الرائعين المنتفخين، الجسد المتراص ومع ذلك الأطراف الطويلة، تلك كانت كلها تريسي. كان التشابه الجسديّ قويًا جدًا ومع ذلك لم ترقص مثل تريسي. ذراعاها ممدودتان أمامها كما لو أنها تجرّ عربة يد عندما تحركت، تحلّق ساقاها جيئة وذهابًا، كانت راقصة محترفة وليست مهووسة بالتقنية. وكانت مضحكة: تسير على أصابع قدميها أو تتجمد لحظة في وضع جسماني هزلي سخيف، على ساق واحدة، ذراعاها في الهواء، مثل الغطاء المزيّن لسيارة فارهة. مرتدية مثل البقية – تنورة من العشب، الريش – لكن لا شيء يمكن أن يحطّ من قيمتها.

للنهاية الكبيرة عادت الفتاة على المنصة وانضمت إلى كل هؤلاء الأميركيين المكتسين مثل الأفارقة، وكانتور نفسه وجميعهم وقفوا ساكنين في رتل وانحنوا إلى الأمام بزاوية خمس وأربعين درجة نحو الأرض. كانت حركة عائدة من المستقبل: بعد سنة كنّا جميعًا نجرّبها في الباحة وقد رأينا للتو مايكل جاكسن في فيديو موسيقي يقوم بالأمر نفسه تمامًا. ولأسابيع بعد عرض ذلك الفيديو للمرة الأولى، تريسي وأنا

وكثير من الأولاد في الباحة بذلنا قصارى جهدنا لتقليد الحركة، لكن كان مستحيلًا، لم يتمكن أحد من فعلها، جميعنا تساقطنا على وجوهنا. وقتئذ لم أعرف كيف نُفّذَت. الآن أعرف. في الفيديو، استعمل مايكل أسلاكًا، وبعد بضع سنوات – عندما أراد إنجاز الأثر على الخشبة مباشرة – انتعل حذاءً «ضدّ الجاذبية»، كان في كعبه شقٌّ صغير ارتبط مع إسفين في الخشبة، وكان مشاركًا في الاختراع. براءة الاختراع باسمه. ثبّت الأفارقة في فيلم علي بابا أحذيتهم بالأرضية.

⟡ ستة ⟡

عند باب فندق إيمي ركبنا سلسلة من السّيارات الرياضية متعددة الأغراض. كان السّيرك كاملًا في تلك الرحلة الأولى: طفلاها معنا ومربيتهما إستيل وجودي بالطبع، بالإضافة إلى المساعدات الثلاث الأخريات، وفتاة العلاقات العامة جرانجر، ومهندس معماري فرنسي لم يسبق أن رأيته في حياتي، وامرأة شهيرة من إدارة التّنمية الدّولية، وصحفي ومصوّر ضوئي من صحيفة رولينج ستون، ورجل يُدعى فرناندو كارابيتشانو هو مدير المشروع. شاهدت خدم الفندق المتعرقين في زيهم الرسمي الأبيض الكتاني يرفعون حقائب في صناديق السّيارات، يساعدون الجميع في الجلوس في مقاعدهم وتساءلت من أيّ قرية أتوا. توقّعت أن أصحب إيمي في سيارتها، كي أستنطقها عن أسبوعي الاستكشافي – مهما كانت قيمته، لكن عندما رأت إيمي لامين اتسعت عيناها وأول ما تفوهت به بعد «مرحبًا» كان «عليك أن تركب بصحبتي». وُجّهتُ إلى السّيارة الثانية، مع كارابيتشانو. أنا وهو كنا سنمضي الوقت معًا، هذا ما قيل لنا: «تذليل الصّعوبات».

كان طريق العودة إلى القرية عجيبًا. جميع الصّعوبات التي توصلت إلى توقعها من تلك الرحلة كانت الآن غائبة، كما يكون الحالم في حلم صافيًا وقادرًا على معالجة كل شيء ببراعة من حوله. ما من نقاط تفتيش، ليس بعد الآن وما من طرقات تخدّدها الحفر ترغمنا

على التوقف التام، وبدلًا من الحرارة الخانقة المنهكة، مُحاطة بهواء مكيّف تمامًا عند درجة 21 مع قارورة ماء مثلج في يدي. تحركت قافلتنا التي تكوّنت من زوجين من سيارات الجيب مترعتين بمسؤولي الحكومة وموكب سيارات الشّرطة، على جناح السّرعة على امتداد الشّوارع التي بدت أحيانًا أنها أفرغت بشكل غير طبيعي، وفي أحيان أخرى مسكونة على نحو غير طبيعي - اصطف فيها أطفال يلوحون بالعلم، مثل منصة - وسلكنا دربًا غريبًا مطوّلًا، يتلوّى عبر الشّريط السّياحي المُنار بالكهرباء، ثم عبر سلسلة من مقاطعات الضّواحي لم أكن قد أدركت وجودها، حيث منازل ضخمة غير منجزة، ينخرها الحديد المسلّح، كافحت لتنهض من خلف جدرانها العالية. بتأثير من حالة الزيف هذه، رأيت باستمرار نسخًا من وجه أمي في كل مكان، في فتيات صغيرات يعدُون في الشّارع، في عجائز يبعن السّمك في الأسواق، ومرة في شاب يتدلّى من جانب حافلة صغيرة. عندما وصلنا إلى العبّارة كانت فارغة من أجلنا ومن أجل سياراتنا فقط. تساءلت ما الذي فعله لامين من أجل هذا كله.

لم أعرف كارابيتشانو جيدًا والمرة الوحيدة التي تحدثنا فيها سابقًا جعلتُ من نفسي أضحوكة. كانت على متن الطائرة المتجهة إلى توجو قبل ستة أشهر، عندما كانت توجو لا تزال على القائمة القصيرة قبل أن تُهين إيمي تلك الأمة الصّغيرة عندما ألمحت في مقابلة أن حكومتها لم تفعل «شيئًا من أجل شعبها». كنت قد سألت: «كيف تكون؟» وأنا أميل عليه أنظر من كوّة النافذة، ويجب أن أعترف أني عنيت «أفريقيا».

قال ببرود دون أن يلتفت: «لم أذهب إلى هناك».

«لكنك عمليًا تعيش هنا، لقد قرأت سيرتك».

«لا السّنغال، ليبيريا، ساحل العاج، السّودان، إثيوبيا نعم،

توجو أبدًا».

«أوه، حسنًا، تعلم ما أعنيه».

التفت إليّ متورد الوجه وسأل: «إذا كنا نسافر جوًّا إلى أوروبا وأردت أن تعرفي عن فرنسا هل سيكون عونًا لو وصفت ألمانيا؟»

حاولت أن أجري الآن حديثًا قصيرًا تدارُكيًّا، لكنه كان منشغلًا بحزمة ضخمة من الصّحف، رأيت عليها رسومًا بيانية لم أتمكّن من تتبّعها، مجموعة إحصائيات من صندوق النقد الدولي. شعرت ببعض الأسف عليه عالقًا معنا ومع جهلنا، كان خارج بيئته الطبيعية. عرفت أنه في السّادسة والأربعين من عمره ويحمل شهادة دكتوراه، كان اقتصاديًّا بالتدريب، مع خلفيّة في التنمية الدولية وأنه مثل ميريام قد عمل في منظمة أوكسفام لسنوات عديدة: هي من اقترحه لنا في المقام الأول. أنفق معظم سنوات التسعينيات يدير مشاريع المساعدات في شرق وغرب أفريقيا، في قرى نائية دون تلفاز، ونتيجة مثيرة للاهتمام لهذا - بالنسبة لي، بأيّ حال - أنّه حقًّا لم يكن من تكون إيمي بوضوح، ما عدا أنها سجّلت اسمها على نحو مبهم على أنه ظاهرة من أيام شبابه. الآن توجب عليه أن ينفق كل وقته معها وعلاوة على ذلك مع أناس مثل ماري بيث، مساعدة إيمي الثانية الغافلة التي تكوّن عملها كليًّا من إرسال الرسائل الإلكترونية التي تُمليها إيمي إلى أناس آخرين، من ثمّ تقرأ الردود. أو المساعدة رقم ثلاثة، لاورا المتجهمة التي تولت آلام عضلات إيمي، ومستلزمات التّجميل والتّغذية، وكانت تؤمن أن الهبوط على سطح القمر كان عرْضًا. كان عليه الاستماع إلى جودي تقرأ كل صباح علامات النجوم وتخطّط ليومها حسبها. في خضم جنون عالم إيمي، لابدّ أنني كنت أقرب ما يمكن إلى حليف، لكن كلّ محادثة حاولنا إجراءها انحرفت بوجه ما، كانت طريقة كارابيتشانو في فهم العالم

غريبة بشكل أصيل للغاية بالنسبة لي، حتى أنها بدت كما لو أنه شغّل واقعًا موازيًا لم أشك أنه الواقع الحقيقي، لكن لم أتمكن من «النطق بلسانه»، أن أستعمل واحدة من عباراته الأثيرة. إيمي على نحو مساو ضعيفة إزاء الرسوم البيانيّة، أحبته لأنه برازيلي ووسيم مع شعر أسود مجعّد وكثيف ونظارة ذهبية جميلة جعلته يبدو مثل ممثل يؤدي دور اقتصاديّ في فيلم. لكن كان واضحًا منذ البداية أن مشكلة سوف تكون بانتظارهم. اعتمَدت طريقة إيمي في إبلاغ أفكارها على تفاهم مشترك – لإيمي نفسها، «لأسطورتها» وفِرن كما دعته، لم يتحدث في سياق كلامه عن أي من ذلك. كان ممتازًا في تذليل الصّعوبات: خطط معماريّة، مفاوضات حكومية، عقود شراء أراضٍ – كل التّداولات العمليّة المتعددة. لكن عندما يصل الأمر للتحدث مباشرة مع إيمي عن المشروع نفسه – الذي كان بالنسبة لها في المقام الأول مشروعًا شخصيًا وعاطفيًا – نقصته الخبرة.

«لكن ماذا يعني عندما تقول لي: لنجعله من قبيل روح الشّعب المضاءة؟»

دفع نظارته على أنفه الوسيم وتفحّص مدوّناته الكثيرة، افترضت أنها نتيجة الاضطرار إلى تدوين كل جزء صغير من الهراء الذي تساقط من فم إيمي بإخلاص أثناء رحلتهما الجوية التي امتدت ثماني ساعات معًا. رفع الورقة عاليًا كما لو أنها ستفسر نفسها لتصبح ذات معنى لو اكتفى بالتحديق بها لمدة طويلة كافية.

«ربما أنا أسيء الفهم؟ بأي طريقة يمكن لمدرسة أن تكون مضاءة؟»

«لا، لا، إنها إشارة إلى أحد ألبوماتها: مضاء. من عام 97؟ تعتبره أكثر ألبوماتها إيجابية، كذلك كلمات الأغاني، حسنًا، إنها من

قبيل: هيّا يا فتيات، اذهبن وحققن أحلامكن، بلا بلا، أنتن قويات، بلا بلا، لا تستسلمن أبدًا. هذا النّوع من الأمور؟ لذا هي تقول عمليًا: أريد أن تكون مدرسة ممكنة للفتيات».

بدا مذهولًا.

«لكن لماذا لا تقول هذا وحسب؟»

ربتّ على كتفه بلطف: «فرناندو، لا تقلق – سوف يكون كل شيء على خير ما يرام».

«هل ينبغي عليّ الاستماع إلى هذا الألبوم؟»

«صدقًا، لا أظن أن ذلك سيكون عونًا».

لاحقًا، في السّيارة القادمة، تمكنت من رؤية إيمي تنحني من مقعد المسافر وذراعها فوق الباب، بهناء منشغلة بكل تلويحة أو صفير أو صراخ من الابتهاج في الشّارع. كنت واثقة للغاية من أن استجابات إيمي لهذا الموكب اللامع من السيّارات الرياضيّة يتتابع عبر المناطق الريفية التي لم يمتلك فيها واحد من كلّ مئتي شخص سيّارة. في القرية، بباعث من الفضول، غالبًا استوليت على هواتف المدرّسين الشبّان، وضعت سمّاعتي وأصغيت إلى الأغاني الثلاثين التي نحوا إلى تشغيلها دوريًّا، بعضها كان مجانيًا مع دقائقهم، وأخرى – لا سيّما المحبوبة – أنفقوا مبلغًا كبيرًا لتحميلها. هيب هوب، آر آند بي، سوكا، ريغي، جريم، دوب ستيب، هاي لايف، مقطوعات صغيرة من نغمات الجوال من عموم الشّتات الموسيقي البهيّ الذي أمكن سماعه، لكن لا شيء من أي فنّان أبيض أو إيمي نفسها. الآن شاهدت ابتسامتها وغمزتها إلى الكثير من الجنود الذين تخفّفوا من نشاطهم المعتاد ووقفوا عشوائيًّا على جانبي الطّريق، البنادق إلى جانبهم يشاهدون عبورنا. وأينما كان هناك موسيقى، أينما كان الأطفال يرقصون، تصفّق إيمي لتثير انتباههم وتقلّد

حركاتهم بأفضل ما استطاعت وهي لا تزال جالسة. عنصر الفوضى المتدحرجة جانب الطّريق، هذا الذي استحوذ عليّ كثيرًا وكدّرني، مثل منظار محيائي «زويتروب» منشور ومملوء بكل شكل من أشكال الدراما البشرية – نساء يرضعن أطفالًا، يحملنهم، يتحدثنّ إليهم، يقبلنهم، يضربنهم، ورجال يتحدثون، يتقاتلون، يأكلون، يعملون، يصلّون، وحيوانات تحيا وتموت، تتجوّل في الشّارع نازفة من أعناقها، وأولاد يركضون، يمشون، يرقصون، يتبولون، يتبرزون، وفتيات يتهامسن، يضحكن، يتجهّمن، يجلسن، ينمن – كل هذا أبهج إيمي، انحنت كثيرًا من تلك النافذة حتى أني اعتقدت أنها ستسقط لا شك.

لكن من ناحية ثانية كانت دومًا أكثر سعادة في الحشود الجامحة. قبل أن تمنعها شركة التأمين على حياتها من فعل ذلك، كانت غالبًا تتجوّل بين الحشود ولم يفزعها يومًا كما أفزعني أن تكون فجأة محاطة بجمع غفير من النّاس في مطار أو بهو فندق. في هذه الأثناء، الأمر الوحيد الذي تمكنت من رؤيته من خلال نافذتي المخضّبة لم يبد أنه يفاجئها أو يثير فيها الذعر. وعندما أشرت إليه في الدقائق القليلة التي كنا فيها معًا واقفتين على الممر نشاهد سياراتنا تتوالى على العبّارة الفارغة بشكل مخيف، وركض طفلاها بابتهاج على الدّرج الحديدي نحو السّطح العلويّ، التفتت إلي وقالت دون سابق إنذار: «يا يسوع المسيح، إذًا سوف تُصدمين مع كل إشارة إلى الفقر ترينها هنا! هذه ستكون رحلة طويلة جدًا، أنت في أفريقيا!»

تمامًا كما لو أنني سألت عن سبب وجود الضوء في الخارج فقيل لي: إنه النهار!

⟡ سبعة ⟡

لم نعرف سوى اسمها، عثرنا عليه في مقدمة الفيلم. جيني لو جون[25]. لم نمتلك أدنى فكرة عن أصلها، إذا كانت حيّة أو ميتة، إذا ما شاركت في أي أفلام أخرى، امتلكنا فقط هذه الدّقائق الأربع من فيلم علي بابا – حسنٌ، أنا امتلكتها. إذا أرادت تريسي مشاهدتها فقد كان عليها أن تزورني، وهذا ما بدأت تفعله، بين حين وآخر، كما ينحني نرسيس على بركة مياه. فهمت أنها لن تستغرق وقتًا طويلًا لتتعلم الوتيرة كلها – فيما عدا الانحناءة المستحيلة – لكني ما كنت أعطيها شريط الفيديو لتأخذه إلى البيت، عرفت ما هو خير من ذلك، عرفت أني امتلكت ضمانة. وكنت قد بدأت ألمح لو كان جون هنا أو هناك، في أدوار بسيطة في أفلام شاهدتها مرات كثيرة. هناك كانت خادمة للراقصة والممثلة آن ميلر، تتصارع مع كلب صغير أفطس الأنف، وعندما يحتضر خلاسيّ في ذراعَي كاب كالاواي، ومرة أخرى خادمة تساعد الممثلة بيتي هوتون على ارتداء ملابسها. هذه الاكتشافات المتباعدة كثيرًا، تفصل كثيرًا من الشهور فيما بينها أحيانًا، أصبحت ذريعة للاتصال بتريسي. وحتى إذا أجابت أمها سوف تمرّ تريسي مباشرة دون تردّد أو عذر. جلست على مقربة من شاشة التّلفاز، مستعدة لتشير هذه اللحظة

---

25) Jeni Le Gon (1916-2012) راقصة أميركية وممثلة ومدرّسة رقص، وواحدة من أوائل النساء الأفرو أميركيات التي امتهنت الرّقص النّقري كراقصة منفردة.

أو تلك إلى الحركة أو التعبير، عاطفة تمرّ على وجه جيني، تنويع في خطوة أو في أخرى، وتقاطع كل شيء رأته بذلك البصر الثّاقب الذي شعرت أني أفتقر إليه، والذي اعتبرت أن تريسي تمتلكه منفردة في هذه المرحلة. بات ذلك منفذها وبيانها الوحيد هنا في غرفة الجلوس، أمام جهاز التّلفاز، ولم يسبق لمدرّس أن لاحظها، وما من امتحان تمكّن يومًا أن يوثقها بنجاح أو حتى يُدركها، وربما هذه الذّكريات عنها هي الشّاهد الحقيقي الوحيد والسّجل.

أخفَقت في ملاحظة أمر وحيد ولم أرغب في إعلامها عنه: انفصال والدَيّ. لم أعرف ذلك إلّا بسبب أن أمي أخبرتني بواقع الحال. غير أنهما أقاما في الشقّة نفسها وتشاركا غرفة النّوم نفسها. إلى أين يمكن أن يذهبا؟ كانت حالات الطلاق الحقيقية لأناس امتلكوا محامين وأماكن جديدة للإقامة فيها. كان هناك أيضًا مسألة مؤهلات أمي. عرفنا نحن الثلاثة أنه عند حدوث الطّلاق يغادر الأب، لكن والدي لم يستطع المغادرة، لم يكن ذلك موضع شك. من كان في غيابه سيربّت على ركبتي عندما أقع، أو يتذكر مواعيد تناول أدويتي، أو يفلّي شعري من الصّئبان بهدوء؟ من سيهرع إليّ عندما تنتابني كوابيس الليل؟ من سيغسل ملاءاتي الصّفراء النتنة صباح اليوم التالي؟ لا أقصد القول إن أمي لم تحبني، لكنها لم تكن شخصًا بيتوتيًا: كانت حياتها في عقلها. إدارة الوقت، المهارة الأساسية لكل الأمهات، لم تكن في متناولها.

قاست الوقت بعدد الصّفحات. نصف ساعة عنت لها قراءة عشر صفحات أو أربع عشرة، استنادًا إلى نوع الكتاب، وعندما تفكّر في الوقت بهذه الطّريقة لا يبقى هناك وقت لشيء آخر، ليس هناك وقت للذهاب إلى المتنزه أو لتناول المثلّجات، ما من وقت لتحمل طفلًا إلى مهده، ما من وقت لتصغي إلى السّرد الدامع لكابوس. لا، والدي لم

يستطع المغادرة.

ذات صباح عندما كنت أفرّش أسناني دخلت أمي إلى الحمّام، جلست على حافة المغطس الأخضر وبأسلوب رقيق لخّصت الترتيب الجديد. في البدء بالكاد تمكّنت من فهمها، بدت تستغرق وقتًا طويلًا جدًا للدخول في صلب الموضوع، متحدّثة عن نظريات نفسية الطفل و«أماكن في أفريقيا» حيث لم يترعرع الأطفال على أيدي أوليائهم، بل قامت «القرية» بذلك، ومسائل أخرى إمّا لم أفهمها أو لم أهتم لها، لكن أخيرًا جذبتني نحوها وعانقتني بإحكام شديد وقالت: « أنا ووالدك سوف نعيش مثل أخ وأخت» بوسعي تذكّر التفكير بأن هذا أكثر الأمور التي سمعتها ضلالًا: كنت سأترك طفلًا وحيدًا بينما يصبح والداي شقيقين. لابدّ أن ردّ فعل والدي الأوّل كان مشابهًا لأنه لعدة أيام بعد ذلك شنّ حربًا في الشّقة، صراعًا شاملًا، وكان عليّ أن أنام ووسادتين مضغوطتين إلى أذني. لكن عندما فهم أخيرًا أنها لم تكن تمزح ولن تغيّر رأيها، أصيب بالكآبة. أخذ يمضي عطلات نهاية الأسبوع بطولها على الأريكة يشاهد التّلفاز، بينما لزمت أمي المطبخ جالسة على مقعدها العالي منشغلة بالفروض المنزلية من أجل شهادتها. ذهبت إلى حصّة الرّقص بمفردي. تناولت وجبتي الخفيفة مع واحد منهما، ليس معهما معًا.

بعد فترة قصيرة من إعلان والدتي اتّخذ والدي قرارًا محيّرًا: عاد إلى تسليم البريد. استغرقه الأمر عشر سنوات ليصبح «مدير مكتب توزيع البريد» لكن في حزنه قرأ رواية أورويل «الصّعود إلى الهواء» وهذه الرواية أقنعته أنه من الأفضل القيام «بعمل شريف»، على حدّ قوله – ويستغل وقت فراغه يوميًا في «نيل التعليم الذي لم يحصل عليه أبدًا» – بدلًا من القيام بعمل مكتبيّ عديم الحيوية استهلك وقته كلّه. كان تصرّفًا غير عملي، لكنه شريف المبادئ، استحسنته أمي عادة ولم يبد

لي توقيت الإعلان محض صدفة. لكن إذا كان مقصده استعادتها فلم ينجح: نهض مرة ثانية كل صباح عند السّاعة الثالثة وعاد عند الواحدة بعد الظهر، غالبًا يقرأ متفاخرًا بعض المقررات الخاصّة بعلم الاجتماع مستلّة من رفوف أمي، لكن مع أن أمي سألته عن أموره باحترام بعد عمله الصّباحي وبعد قراءته بين الحين والآخر، فإنّها لم تعد تحبه. بعد فترة توقفا عن التحدث مع بعضهما. تغير الجو في الشّقة. في الماضي، كان عليّ دومًا انتظار إحدى الفجوات النّادرة في جدال والدي الذي استمر عقدًا من الزمن، التي بدأت حينها أحاول إقحام نفسي فيها. الآن أصبح بوسعي التحدث إن شئت مع أي منهما دون مقاطعة، لكن الأوان قد فات. في الشّكل السّريع للطفولة في المدينة لم يعودا أهمّ شخصين في حياتي. لا، أنا حقًّا لم أهتم لما يظنه والديّ بي بعد الآن. فقط حُكم صديقتي وحده أعتدّ به. الآن أكثر من أي وقت، وأشك أنها بإحساسها بهذا اختارت أن تكتمه باطّراد.

ثمانية

قيل لاحقًا إنني صديقة سيئة لإيمي وأني لطالما كنت كذلك، أنتظر فقط اللحظة المواتية لأؤذيها، بل لأدمّرها. ربما صدّقت ذلك. لكن الصديقة التي توقظ صديقة من حلمها هي صديقة جيدة. اعتقدت للوهلة الأولى أن من سيفعل ذلك لن يكون أنا على الإطلاق، وأن «القرية» ذاتها سوف توقظها، لأنه لم يبد ممكنًا أن تواصل الحلم في ذلك المكان أو تفكر بأنك استثناء بأي شكل من الأشكال. كنت مخطئة في ذلك. على مشارف القرية الشّمالية، عند الطّريق المؤدية إلى السّنغال، انتصب منزل كبير من القرميد الزهري اللون يتألف من طابقين – المنزل الوحيد من نوعه على مساحة أميال – مهجور، لكن مستكمل أساسيًا فيما عدا النّوافذ والأبواب.

أخبرني لامين أنه شُيّد من نقود الحوالات المالية التي أرسلها شاب محلي كان يكسب جيدًا من عمله كسائق سيارة أجرة في أمستردام، إلى أن تبدّل حظه وتوقّفت النّقود بغتة. الآن سوف يصبح للمنزل الشّاغر منذ سنة حياة جديدة باعتباره «قاعدة عملياتنا». عند وصولنا إليه كانت الشّمس على أفول، وكان وزير السّياحة يرينا بسرور المصابيح البسيطة التي تتوهج في سقف كل غرفة. قيل لنا: «ومع كل زيارة لكم، سيغدو أفضل فأفضل». كانت القرية تنتظر الإنارة منذ وقت طويل – منذ الانقلاب، قبل عشرين عامًا – مع ذلك خلال بضعة

أيام تمكّنت إيمي من إقناع السّلطات المسؤولة أن تصل مولدًا كهربائيًا إلى هذا المنزل – هيكل منزل – وكان هناك من المقابس ما يكفي لشحن جميع هواتفنا، وفريق من العمال ألصقوا نوافذ من البلاستيك المقوّى ووضعوا أبوابًا متينة مصنوعة من ألواح «الألياف متوسطة الكثافة»، وأسرّة للجميع وموقدًا أيضًا. كان طفلاها متحمّسين – بدا أشبه بمخيم – وبالنسبة لإيمي اتخذت الليلتان اللتان خططت لإمضائهما هنا شكل مغامرة أخلاقية. سمعتها تخبر مراسل صحيفة رولينج ستون عن مدى أهمية البقاء «في العالم الواقعي، بين النّاس». وصباح اليوم التالي، إلى جانب الأحداث الرسمية المصوّرة – تلميذات يرقصن وهنّ يقلبن التربة – التُقطت صور كثيرة لإيمي في هذا العالم الواقعي، تتناول الطعام من القدور المشتركة، وتجثم بيسر إلى جانب النّساء – مستعملة العضلات التي نمّتها بركوب الدّراجة داخل البيت – أو تتباهى برشاقتها، تتسلق أشجار الكاجو مع مجموعة من الفتيان. بعد الغداء، ارتدت بنطالها الزيتي الفضفاض وتجولنا في القرية مع مبعوثة إدارة التنمية الدّولية، التي كانت مهمتها الإشارة إلى «نواحٍ على قدر معين من الحرمان». رأينا مراحيض مهملة تدبّ فيها الديدان، عيادة منسيّة نصف منجزة البناء، غرفًا كثيرة خانقة بسطوح من الحديد المموّج نام فيها الأطفال، عشرة في كل سرير. فيما بعد تجولنا في الحدائق المشتركة – لنشهد على «حدود زراعة الكفاف» – لكن عندما دخلنا الحقل صادف أن الشّمس رمت بظلال طويلة فتّانة، وشتول البطاطا كانت كثّة للغاية ويانعة والأشجار عُقدت بالدّوال، خصوبة كل شيء تضفي جوًّا من جمال استثنائي. تمتعت النّساء الشّابات منهن والعجائز بمظهر طوباوي، في دُثرهنّ الملونة، يقتلعن الحشائش الضّارة من الأرض، يتحدّثن بعضهن مع بعض وهن يعملن، يصرخن عبر صفوف البازلاء أو الفليفلة، يضحكن على

نكات بعضهن. عندما وقع بصرهن علينا نقترب استقمن ومسحن العرق عن وجوههن، بأوشحة الرأس إذا كنّ يرتدينها وبأيديهن بخلاف ذلك.

«نهارك طيب. كيف حال اليوم؟»

قالت إيمي لامرأة مسنة تجرّأت على أن تلف خصر إيمي النّحيل بذراعها: «أوه، أرى ما الذي يحدث هنا. أيتها الفتيات تظفرن بحديث حقيقي مع بعضكن. ما من رجال على مدّ البصر. نعم، يمكنني تصوّر ما يجري».

ضحكت مبعوثة المنظمة الدّولية كثيرًا. فكرت أني استطعت تخيل القليل مما حدث. حتى أبسط الأفكار التي جلبتها معي لم تبد أنها تنجح هنا عندما حاولت وضعها موضع التنفيذ. على سبيل المثال، لم أكن واقفة في هذه اللحظة في حقل مع قبيلتي الموسّعة، مع رفيقاتي النسوة السّود. لم يكن يوجد هنا مثل هذه الفئة. كن فقط النّساء السّيري، الولوف، والماندينكا، السيراهولي، الفولا والجولا، قيل لي سابقًا على مضض إني أشبه الأخيرات من بينهن، أقلّه في بنية الوجه الأساسية: الأنف الطويل نفسه، عظمتا الوجنتين ذاتهما. من حيث وقفت الآن استطعت سماع أذان الصّلاة منبعثًا من مئذنة المسجد الأخضر الإسمنتية التربيعية الشّكل تنتصب فوق الأشجار وفوق هذه القرية حيث النّساء سواء متلفعات أم لا، كنّ أخوات وبنات عمومة وصديقات بعضهن لبعض، أمهات وبنات، أو متلفعات في الصّباح وسافرات في الأصيل، ببساطة لأن بعض الرفاق جاؤوا للزيارة، فتيان وفتيات، وواحدة منهن عرضت أن تضفر لهن شعرهن. هنا كان يُحتفى بعيد الميلاد بحماسة مجفلة واعتبر جميع أهل الكتاب «إخوة وأخوات»، بينما أنا التي أمثّل الكافرة تمامًا، لم أكن عدوّة أحد، لا، مجرد شخص يجب أن يكون محميًّا ومرثيًّا له كما ينبغي – هذا ما شرحته لي إحدى

الفتيات اللاتي قاسمتهن غرفة – كما قد تفعلين مع عِجل فارقت أمه الحياة أثناء الولادة.

الآن شاهدت الفتيات يصطففن عند البئر، يملأن الدلاء البلاستيكية الضّخمة بالماء من ثم يرفعنها على رؤوسهن ليبدأن المسيرة الطويلة إلى القرية. تعرّفت على بعض منهن من المجمّع السّكني الذي كنت أقيم فيه الأسبوع الفائت. التوأم ابنتا عم مضيفتي هاوا، بالإضافة إلى ثلاث من أخواتها. لوّحت لهن جميعًا مبتسمة. فأومأن لي. قالت المرأة من المنظّمة الدوليّة همسًا وهي تتبع خط بصري: «نعم، نحن دومًا نصدم بالقدر الكبير من العمل الذي تؤديه النّسوة والفتيات هنا، إنهن يؤدين الأعمال المنزلية كما ترين، لكن أيضًا جميع أعمال الحقل وكما سوف ترين إنهن النّساء في أغلب الأحيان من يُدرن كُلًّا من المدرسة والسّوق، قوّة الفتيات[26] بالفعل».

انحنت لتتحسّس جذع نبتة باذنجان وانتهزت إيمي الفرصة لتلتفت إلي، حوّلت عينيها ومدّت لسانها. استقامت المرأة من المنظمة الدولية ورمقت الطابور المتطاول من الفتيات.

«الكثير منهن ينبغي أن يكن في المدرسة، بالتأكيد، لكن للأسف أمهاتهن بحاجة إليهن هنا. ثم تفكرين بهؤلاء الفتيان الذين رأيناهم للتو، يتكاسلون على أرجوحة شبكية بين أشجار الكاجو...»

رفع لامين صوته بنبرة تنمّ عن الضّجر والإهانة بعض الشّيء: «التعليم هو الحل لتطوير فتياتنا ونسائنا»، فكّرت بشخص حضر عددًا كبيرًا من محاضرات لممثلي منظمة التنمية الدولية. «التعليم، التعليم، التعليم».

26) Girl Power: قوة الفتيات هو شعار يشجع ويحتفي بتمكين المرأة واستقلالها وثقتها. يعود الفضل في اختراع الشعار إلى فرقة البانك الأمريكية بيكيني كيل، التي نشرت مجلة تحمل الاسم نفسه عام 1991.

ابتسمت له إيمي ابتسامة باهرة وقالت: «هذا ما نحن من أجله هنا».

أثناء فعاليات النهار جميعها أبقت إيمي لامين بالقرب، مسيئة فهم ميله إلى الهمس على أنه مودّة خاصّة بينهما وبعد حين بدأت تجيبه همسًا، تتغنّج مثل تلميذة. فكرت أمام الصّحفي الحاضر دومًا: «خطير»، لكن لم ننفرد ببعضنا لحظة لأتمكن من إخبارها بذلك بحزم. بدلًا من ذلك راقبتها تكافح لكبح نفاد صبرها كلما لم يكن لدى كارابيتشانو المسكين خيار إلا أن يجذبها بعيدًا عن لامين ويعيدها إلى جميع المهمّات الضرورية الدنيوية المدرجة لليوم: توقيع أوراق، لقاء وزراء، مناقشة رسوم المدرسة، الاستدامة، المنهاج الدراسي، أجور المدرسين.

ست مرات جعل إيمي ونحن البقية نتوقف حيث كنا كي نصغي إلى موظف حكومي يلقي خطبة أخرى – عن الشّراكة والاحترام المتبادل، لا سيما الاحترام الذي رغب الرئيس مدى الحياة أن يبثه إلى إيمي في غيابه، وهو ذاته لم يكن سوى الاستجابة الصّائبة المستحقة للاحترام الذي تكنّه إيمي «بوضوح لرئيسنا المحبوب» – عندما وقفنا جميعًا نعاني في الشّمس. كل خطبة شابهت الخطبة التي سبقتها تقريبًا، كما لو أن هناك نصًّا أصليًّا في المدينة أُمر جميع هؤلاء الوزراء الاقتباس منه. وفيما نحن نقترب من المدرسة، رويدًا فلا نتجاوز المصور – الذي عدا إلى الخلف أمامنا – واحد من هؤلاء الوزراء ضغط مرة أخرى على يد كارابيتشانو وعندما حاول كارابيتشانو بهدوء وبعيدًا عن مجال رؤية إيمي ثنيه، رفض الوزير، ثابتًا في مكانه عند بوابة المدرسة، سادًّا المدخل ويبدأ خطبته التي أدارت لها إيمي ظهرها فجأة.

«انظر يا فِرن، لا أقصد أن أكون حمقاء بهذا الشّأن، لكنني أرغب أن أقدم في هذه اللحظة؟ وأنت تعسّر عليّ ذلك للغاية الآن. الجو

حار، نحن جميعًا نشعر بالحر وأنا مدركة حقًا أننا لا نملك الكثير من الوقت هذه المرة. لذا أظن أن في وسعنا وضع حدّ للخطابات. أظن أننا جميعًا نعرف أين نقف، جميعنا نشعر بأننا مرحّب بنا، جميعنا نشعر باحترام متبادل أو أيًّا يكن. الآن أنا هنا لأقدم. لا مزيد من الخطابات اليوم، حسنًا؟»

خفض كارابيتشانو بصره شبه منهزم نحو لوح الكتابة خاصته وللحظة اعتقدت أنه على وشك فقدان صوابه. وقف الوزير بجانبه رابط الجأش، لم يتابع ما قالته إيمي، ببساطة ينتظر الإشارة ليبدأ ثانية.

قال كارابيتشانو دون أن يرفع بصره: «حان الوقت لزيارة المدرسة» ملتفًّا من حول الوزير ودافعًا البوابة. لاقتنا المربية إستيل هناك مع الطفلين وهرعا عبر الباحة الرملية الواسعة الفارغة إلا من مرْمَيين بلا شباك ومقوّسين يحيّيان كل طفل يقترب، مبتهجان بإطلاق سراحهما بين الكثير من أشباههما. كان جاي في الثامنة من عمره في ذلك الحين وكارا في السّادسة، يتلقيان التعليم في البيت طوال حياتهما. عندما عبرنا جولة مكوّنة من ستّ محطات عند كل واحدة من غرفنا الدراسية الست الفسيحة الحارة المطلية بألوان مبهجة، جاءت أسئلتهما الطفولية الكثيرة متعثرة، أسئلة ليست بخلاف أسئلتي، لكن في حالتهما غير محرّرة وغير مدروسة، والتي ظلت مربيتهما تحاول سُدى أن تسكتها. تمنّيت لو أمكنني أن أضيف إليها: لماذا لدى المدير زوجتين؟ لماذا ترتدي بعض الفتيات الحجاب والبعض لا؟ لماذا الكتب ممزقة وقذرة؟ لماذا درسوا بالإنكليزية إذا كانوا لا يتحدثون بها في البيت؟ لماذا يتهجّى الأساتذة الكلمات بطريقة خاطئة على السّبورة؟ إذا كانت المدرسة الجديدة للفتيات فما الذي سوف يحلّ بالفتيان؟

⊹ تسعة ⊹

معظم أيام السّبت، مع دنو «العبور الأوسط» خاصتي، رافقت أمي إلى مسيرة احتجاجية، ضد جنوب أفريقيا، ضد الحكومة، ضد القنابل النووية، ضد العنصرية، ضد الاقتطاعات، ضد تحرير البنوك من القيود الحكومية أو لدعم نقابة المدرسين «مجلس لندن الكبرى» أو الجيش الإيرلندي الجمهوري. صعُب عليّ استيعاب الغرض من كل هذا، بالنظر إلى طبيعة عدوّنا. شاهدتها على التّلفاز معظم الأيام – حقيبة يد قاسية، شعر قاس، غير متحولة، غير قابلة للتحول – ودومًا لامبالية بعدد النّاس الكبير الذي تمكنت أمي وأصدقاؤها الحميمين من جمعهم للمسيرة، صباح السّبت المنصرم، عبر ساحة الطّرف الأغر وتمامًا نحو بابها الرئيس الأسود اللامع. أتذكّر المسيرة التي تطالب بالحفاظ على مجلس لندن الكبرى، قبل سنة، السّير لمدة بدت كما لو أنها أيّام – مسافة نصف ميل خلف أمّي التي كانت في المقدمة، مستغرقة في محادثة مع ريد كين[27] – أحمل ملصقًا فوق رأسي، من ثم بعد أن أصبح ذلك ثقيلًا جدًا، حاملة إياه فوق كتفي كما حمل يسوع صليبه، جارة إياه على طريق وايتهول، إلى أن وصلنا أخيرًا إلى الحافلة التي أوصلتنا

---

27) Kenneth Robert Livingstone: كينيث روبرت ليفنغستون هو سياسي بريطاني، لقبه هو كين الأحمر بسبب مواقفه المثيرة داخل حزب العمال الذي ينتمي إليه (من مواليد 17 يونيو 1945) شغل منصب قائد مجلس لندن الكبرى (GLC) منذ عام 1981 وحتى ألغي المجلس في عام 1986، وكعمدة لندن منذ إنشاء المكتب في عام 2000 وحتى عام 2008.

إلى البيت، انهرت في حجرة الجلوس، فتحت التّلفاز وعلمت أن مجلس لندن الكبرى قد ألغي في وقت مبكّر من ذلك النّهار ذاته. مع ذلك قيل لي إنه «ليس هناك وقت للرقص» أو، في تنويع على العبارة، «هذا ليس وقتًا للرّقص»، كما لو أنّ اللحظة التاريخية نفسها منعته. كان لدي «مسؤوليات» تتعلّق «بذكائي» الذي أكّده مؤخّرًا مدرّس شاب مؤقّت في المدرسة، الذي فكّر أن يطلب من صفّنا جلب «أي كتاب كنا نقرأه في البيت». كانت واحدة من تلك اللحظات – هناك الكثير منها – عندما ذكّرنا نحن الطلبة ببراءة مدرسينا الجوهرية. أعطونا بذارًا في الربيع «لنزرعها في حدائقنا»، أو طلبوا منّا بعد العطلة الصيفية كتابة صفحة عن «المكان الذي أمضينا فيه العطلة». لم يكن شيئًا يؤذيني: لقد ذهبت إلى منتجع مدينة برايتون مرّات عدّة، ومرّة في جولة بحريّة إلى فرنسا، وكنت بستانية متحمسة لأصص النوافذ. لكن ماذا عن الفتاة الغجرية التي فاحت منها رائحة كريهة، التي عانت من قراح تنزّ حول فمها وعين سوداء أسبوعيًّا؟ أو التوأم، مُسنّان جدًّا وداكنان للتبنّي، اللذين قفزا حول البيوت المحلية للرعاية البديلة؟ ماذا عن الفتى المصاب بالأكزيما الذي لمحناه تريسي وأنا عبر قضبان متنزه» الملكة» ذات ليلة صيفية وحيدًا يغفو سريعًا على مقعد؟ كان المدرسون المؤقتون أكثر الجميع براءة. أتذكر المفاجأة عندما جلب عدد ليس بالقليل من الأطفال إمّا مجلّة الراديو أو تي في تايمز[28].

جلبتُ سير حياة الرّاقصين، كتبًا سميكة على غلافها صور شخصية معتمة على نحو طفيف من السّبعينيات للنجوم العظماء في شيخوختهم – فساتين حريرية، ربطات عنق، أردية زهرية من ريش

28) مجلة قوائم التلفزيون كانت تُنشَر في المملكة المتحدة، وعُرِفَت بوصولها إلى ممثلي التلفزيون وبرامجهم، كُشف مرّة عن نشرها لرسائل مزيفة من القرّاء.

النّعام – وعلى صفحة وحيدة كان مقرّرًا أن «مناقشة» مستقبلي واجبة. دخلت أمي إلى اجتماع باكرًا قبل المدرسة حيث قيل لها إن الكتب ذاتها التي أغاظتني أحيانًا لقراءتها كانت دليلًا على ذكائي، وأن هناك اختبار يمكن لمثل هؤلاء الأطفال «الموهوبين» التقدم إليه، إذا اجتازوه سوف يسمح لهم بالالتحاق بنوع من مدارس جيدة تقدّم المنح – لا، لا، لا – ما من رسوم، لا تقلقي، لقد عنيت «القواعد» وهي أمر مختلف كليًّا، ما من نقود على الإطلاق، لا لا، من فضلك لا تقلقي.

رمقتُ أمي، التي لم ينمّ وجهها عن شيء. شرحت المدرسة متجاهلة صمتنا: إنه بسبب عمر القراءة، أنت ترين أن عمر القراءة لديها متقدّم للغاية حقًا. تطلعت المدرّسة نحو أمي – إلى كنزتها حيث لم تكن ترتدي حمالة للصدر وبنطال جينز، قطعة قماش كينتي غطاءً للرأس، زوجان من الحلق الضّخم الذي له شكل قارة أفريقيا – وسألت إذا كان الأب سينضم إلينا.

قالت أمي: «الأب في العمل».

قالت المدرسة ملتفتة إلي: «أوه، وماذا يفعل والدك يا عزيزتي؟ هل هو قارئ المنزل، أم...؟»

قالت أمي: «الأب ساعي بريد». الأم هي القارئة.

قالت المدرسة متوردة عائدة إلى ملاحظاتها: «نحن عادة لا نقترح امتحان قبول من أجل المدارس المستقلة حقًا. أعني، هناك بعض المنح التّعليمية المتاحة لكن ما الفائدة من تعريض هؤلاء الأولاد للخيبة... لكن هذه الآنسة الشّابة برادويل التي كانت لدينا مؤخرًا فكرت ربما، حسنًا، فكرت أنه في حالة ابنتك، قد تكون تمامًا الحالة التي...»

مشينا إلى البيت بصمت، لم يكن هناك المزيد لمناقشته. كنا قد زرنا سلفًا المعسكر الضّخم والوعر الذي كنت سأرتاده في الخريف،

عرض عليّ بوعد أنه يحتوي على «استديو للرقص» في مكان ما في تلك المنطقة المكتظة من ممرات مجوفة، قاعات دراسية متنقلة ومراحيض مؤقتة. كان جميع من عرفتهم فيما عدا تريسي - يتوجهون إلى هناك وهذا كان مُريحًا: السّلامة في كثرة العدد. لكن أمي فاجأتني. في باحات المجمّع السّكني توقّفت عند قاعدة بيت الدرج وقالت لي إنّ عليّ التقدّم إلى ذلك الاختبار، وأعمل بجد لأنجح. ما من رقص في عطلة نهاية الأسبوع، ما من تلهية من أي نوع، قالت إنني كنت أمنح فرصة من نوع ما، لم تحصل عليها بنفسها أبدًا، وقد نصحت في نفس العمر الذي كنت فيه الآن - ومن قبل مدرسيها - أن تعمل على إتقان أربعين كلمة في الدّقيقة، مثل جميع الفتيات السود الأخريات.

بدا لي كما لو أنني على متن قطار ما، أتوجه إلى أي مكان ذهب إليه أناس مثلي عادة في مراهقتهم، غير أنه الآن فجأة كان شيئًا مختلفًا. أبلغت أني سأترجّل عند محطة غير منتظرة، لاحقًا على الخط نفسه. فكّرت في والدي، أقحم في القطار قبل مغادرته المحطة بلحظة. وبتريسي، مصممة جدًا على القفز، بالضّبط لأنها تفضّل السير على أن يقال لها أيّ محطة هي محطتها، أو كم بعيدًا يُسمح لها البقاء. حسنًا، ألم يكن هناك شيء نبيل في ذلك؟ ألم يكن ينطوي على شيء من الكفاح، على الأقل - بعض المواجهة؟ ثم كانت هناك جميع الحالات التاريخية العنيفة التي سمعت عنها وأنا جالسة عند ركبة أمي، حكايات عن النّساء الموهوبات بشراسة - وهؤلاء كنّ جميع النّساء، في رواية أمي - نساء ربما ركضن بسرعة أكبر من سرعة القطار لو امتلكن الحريّة لفعل ذلك، لكن أغلقت جميع المحطات في وجوههن وقد وُلدن في الزمان الخطأ وفي المكان الخطأ، من لم يكن مسموحًا لهن أبدًا دخول المحطة. أولم أكن أكثر تحرّرًا من أيّ منهن - مولودة في إنكلترا، في أزمنة معاصرة - ناهيك

عن أن لون بشرتي أفتح بكثير، استقامة في الأنف، أقلّ احتمالًا بكثير من أن أعتبر جوهر السّواد ذاته على نحو خاطئ؟ ما الذي يمكن أن يمنعني عن مواصلة السّفر؟ ومع ذلك عندما جلست في قاعة مدرستي، في يوم خانق من أيام شهر تموز، خارج ساعات المدرسة العادية – حيث من غير طبيعي أن تكون في المدرسة – وتفتح أوراق الامتحان تلك، لتقرأ عبر الإمكانية التي تمنّت أمي أني «سأتشبث بها بكلتا يدي»، استولى عليّ غضب عبوس عظيم، لم أشعر أنني راغبة بالسّفر على متن قطارهم، كتبت بضع كلمات هنا وهناك، متجاهلة صفحات الرياضيات والعلوم، باءت بفشل ذريع.

عشرة

بعد عدّة أسابيع، التحقت تريسي بمدرسة المسرح «أكاديمية فنون الأداء». لم تملك والدتها الخيار إلا أن تطرق باب أمي، تدخل شقتنا وتخبرنا بذلك. ثبتت تريسي أمامها مثل درع، ودخلت القاعة متثاقلة، رفضت الجلوس أو شرب الشّاي. هي لم تطأ عتبتنا من قبل أبدًا. «قال أعضاء لجنة التحكيم إنهم لم يروا مثلها شخصًا مبدعًا» – وقفت والدة تريسي جامدة ونظرت بحنق نحو ابنتها التي قدمت حينها الكلمة غير المألوفة – «تصميم رقص أصيل»، ليس كذلك. هكذا كان الخبر. أبدًا! قالت وهي تضمّ تريسي إلى صدرها الضخم: «قلت لها دومًا إنه ينبغي عليها أن تكون أفضل مرتين من الفتاة المجاورة حتى تحقّق أي نجاح، والآن هي كذلك». حملت معها شريطًا مصوّرًا لتجربة الأداء لتعطينا إياه، أخذته أمي بما يكفي من اللطف. وجدته تحت كومة كتب في غرفة نومها وشاهدته بمفردي ذات ليلة. كانت الأغنية «السوينغ جاء إلى هنا كي يبقى» وكانت كل حركة وطرفة وإيماءة لجيني لو جون.

ذلك الخريف، في الفصل الأوّل في مدرستي الجديدة، اكتشفت ما كنته دون صديقتي: جسدًا دون محيط واضح. فتاة انتقلت من مجموعة إلى أخرى، لا هي مرحّب بها ولا هي مُحتقرة، مسكوت عنها، ودومًا توّاقة لتفادي المواجهة. شعرت أنني لم أترك انطباعًا. لفترة من الزمن، اعتقد عدد من الفتيات أنني افتخرت بتورد بشرتي، بأنفي

الطويل، بنَمَشي، وأسأن معاملتي، سرقن مني النقود، ضايقنني على متن الحافلة، لكن المتنمّرات احتجن إلى مقاومة من نوع ما، حتى لو كانت مجرّد دموع، ولم أمنحهن شيئًا وسرعان ما سئمن وتركنني وشأني. لا أتذكّر معظم السّنوات التي أمضيتها في تلك المدرسة. حتى عندما كنت أعيشها، جزء متعنّت مني لم يقبلها البتة كأي شيء أكثر من مكان عليّ أن أحيا فيه يومًا بيوم، حتى أتحرّر مجدّدًا. كنت أكثر ارتباطًا بما تخيّلته عن تمرين تريسي من ارتباطي بواقعي الشّخصي. على سبيل المثال، أتذكرها تخبرني، ليس بعد مضي وقت طويل من دخولها المكان، أنه عندما توفي فرِد آستر أقامت مدرستها مجلس عزاء له وطُلب من بعض الطلاب أن يرقصوا تكريمًا له. أثارت تريسي إعجابًا شديدًا وقد تزيت بزي بوجانجلز، بقبعة بيضاء وسترة ذات حواشٍ. أعلم أنني لم أرها يومًا وهي تفعل هذا، لكن حتى الآن أشعر بأني أمتلك ذكرى عنه.

ثلاثة عشر، أربعة عشر، خمسة عشر، «العبور الأوسط» الصّعب – في تلك السّنوات أنا لم أرها كثيرًا حقًا. ابتلعَتها حياتها الجديدة. لم تكن موجودة عندما انتقل أبي أخيرًا، أو عندما بدأتُ أحيض. لا أعرف متى فقدَت عذريتها أو إذا ما فقدتها بالفعل ومن حطّم قلبها للمرة الأولى. كلما رأيتها في الشّوارع بدت لي بخير. كانت عادة ملتفة حول شاب بالغ الوسامة ناضج المظهر، غالبًا طويل القامة وله تسريحة حادة حيث الشّعر محلوق نهائيًا عند الأطراف، وأفكر بها في تلك المناسبات على أنها لا تسير بقدر ما كانت تقفز – بوجه نضر، وشعر مشدود نحو الأعلى في عقصة شعر راقصة، وترتدي جوارب فاقعة اللون وكنزة قصيرة تكشف عن خصرها – ولكن أيضًا محمرة العينين مخمورة بوضوح. فاتنة، ساحرة، مثيرة بشكل صادم، مفعمة بحيوية الصّيف على الدّوام، حتى في شهر شباط ببرده المجمد. وكانت مصادفتي

لها هكذا، كما كانت حقًا – بمعنى خارج أفكاري الحاسدة عنها – تشكّل صدمة وجوديّة دومًا، مثل رؤية شخصية من كتاب قصَصِيّ في الحياة الواقعية، وصرت أبذل قصارى جهدي لأختصر اللقاء قدر الإمكان، أحيانًا أعبر الشّارع قبل أن تصل إلي، أو أقفز في الحافلة، أو أدّعي أنني متوجهة نحو مكان ما حالًا. حتى عندما سمعت بعد وقت قصير من أمي ومن آخرين في الحي، أنها كانت تمر بمتاعب، متورطة مرارًا وتكرارًا، لم أستطع تخيّل سبب حدوث هذا، كانت حياتها مثالية في نظري، وهذا الفشل في التّخيل ربما هو أثَرٌ جانبيٌّ للحسد. كانت نضالاتها في عقلي قد انتهت. كانت راقصة: لقد عثرت على قبيلتها. كنت أنا عالقة لا شعوريًا في هذه الأثناء، تمامًا في مرحلة المراهقة، لا أزال أدندن أغاني غيرشوين في مؤخرة القاعة الدراسية عندما أخذت حلقات الصّداقة تنعقد وتزداد متانة من حولي، معرّفة باللون، الطّبقة، المال، الرمز البريدي، الأمّة، الموسيقى، المخدرات، السّياسة، الرياضة، التّطلعات، اللغات، الرغبات الجنسية... في لعبة الكراسي الموسيقية الضّخمة تلك التفت من حولي ذات يوم ووجدت أني لا أملك مكانًا لأجلس. وأنا في حيرة من أمري، صرت «همجيّة» – وهو ما كان ينتهي إليه النّاس الذين لا يملكون مكانًا آخر يذهبون إليه. شكّل الهمجيون أقليّة في هذا الوقت، وانضممت إلى أكثر المجموعات غرابة، مجموعة صغيرة مؤلّفة من خمسة أولاد وحسب.

كان أحدهم من رومانيا وكانت إحدى قدميه حنفاء، الآخر كان يابانيًا. كان الهمجيون السّود معدودين لكنهم ليسوا فريدين من نوعهم: كنت قد رأيت بعضًا منهم يتجولون حول كامدن والآن أصبحت مثلهم بأفضل ما يمكن، أعفّر وجهي بالأبيض الشّبحي وأطلي شفتي بالأحمر القاني، تاركة شعري مجدّلًا نصفه وأرشّ بعض الخصل باللون الأرجواني. اشتريت حذاء من ماركة د. مارتنز وكسوته برموز الأناركية

المرسومة بالقلم المصحح. كنت في الرابعة عشرة: كان العالم ألمًا. كنت أحب صديقي الياباني، فيما يحبّ الفتاة الشّقراء الرقيقة في حلقتنا ذات الندوب على ذراعيها وبدت مثل قطة كسيرة متروكة تحت المطر – لم تستطع أن تحبّ أحدًا. على مدى سنتين تقرِيبًا أمضينا كل وقتنا معًا. كرهت الموسيقى ولم يكن الرّقص مُجازًا – فقط القفز صعودًا ونزولًا، أو التمايل بترنح نحو بعضنا – لكن أعجبني أن الخمول السّياسي ضايق أمي وأن وحشية مظهري الجديد أظهرت الوجه الأمومي بشدة عند أبي الذي قلق عليّ الآن بغير حدود وحاول تغذيتي عندما فقدت الوزن على نحو فظّ. بتّ عنده معظم أيام الأسبوع: الحافلة التي ذهبت إلى المدرسة ذهبت أيضًا إلى كامدن لوك. جلسنا على ممرات السّحب على ضفّة النّهر، نشرب خمر عصير التّفاح وندخّن، تتدلى أحذيتنا من فوق القنال، نناقش زيف جميع من عرفناهم، محادثات متحررة الشّكل أمكنها التهام أيام بطولها.

ندّدت بوالدتي بعنف، الحي القديم، كل شيء من طفولتي، وتريسي فوق كل شيء. استمع أصدقائي الجدد إلى كل تفصيل من تفاصيل تاريخنا المشترك، روي كله من جديد بمرارة، يمتد عائدًا حتى يوم لقاءنا الأول، ونحن نسير عبر باحة الكنيسة. بعد أصيل من ذلك صرت أعود على متن الحافلة، أمر بالمدرسة الابتدائية التي فشلت في الالتحاق بها، وأنزل عند محطة خارج شقة والدي العازب الجديدة – لكن على باب الشّقة بالضّبط، حيث تمكنت بنجاح من العودة في الوقت المناسب، أتناول طعامه المريح، أنغمس في المتع القديمة السّرية. تتظاهر المغنية والممثلة جودي جارلاند بأنها من قبيلة الزولو، ترقص الرّقصة الزنجية، في فيلم لاقني في سانت لويس.

✧ أحد عشر ✧

جاءت زيارتنا الثانية بعد أربعة أشهر في الموسم الماطر. وصلنا في الظّلام بعد رحلة جويّة مرجأة، وعندما وصلنا المنزل الزهري لم أتمكّن من تجاوز غرابة ذلك المكان، حزنه وخواءه، الشّعور الذي راودني عن الدّخول في طموح كسير لشخص آخر. رشق المطر سطح السّيارة. طلبت من فرناندو الإذن كي أعود إلى مسكن هاوا.

«بالنسبة لي ممتاز للغاية. يتوجب عليّ إنهاء الكثير من العمل».

«ستكون بخير؟ أعني بمفردك؟»

ضحك قائلًا: «لقد كنت وحيدًا في أماكن أكثر سوءًا بكثير».

افترقنا عند لوحة الإعلانات الضّخمة المتقشرة التي وسمت مدخل القرية. تبللت وأنا أمشي مسافة عشرين ياردة، دفعت باب مسكن عائلة هاوا المصنوع من الألمنيوم، المثقل بعلبة زيت نصف مملوءة بالرمل لكن غير مقفل كالعادة. كان يصعب التّعرف على الدّاخل تقريبًا. في الباحة، حيث كان هناك قبل أربعة أشهر تراب أحمر ممهد بإحكام، وجدّات، أبناء عم، أبناء أخوة، بنات أخ، أخوات، والكثير من الأطفال جالسين في المكان في وقت متأخر من الليل، الآن لم يكن هناك أحد، فقط حفرة وحل مزبدة غرقت فيها في الحال وفقدت فردة حذاء. عندما مددت يدي لأتناولها سمعت ضحكًا. رفعت بصري وأدركت أني مراقبة من على الشّرفة الاسمنتية. هاوا وعدد من صديقاتها

يُعِدن أطباق الصّفيح بعد العشاء إلى المكان الذي يحفظنها فيه.

صرخت هاوا: «أوه – أوه، أنظروا ما جلب المطر!» ضاحكة لمظهري، غير مهندمة، والآن أحمل بين ذراعي حقيبة كبيرة أبت أن تتدحرج عبر الوحل. لم أتوقع أن أقيم مع هاوا ثانية، لم أُخطرها، لكن لم تبدُ هي ولا أي شخص آخر في المجمع متفاجئًا للغاية بوصولي، ومع أني لم أكن ناجحة بصورة خاصّة، أو ضيفة محبوبة أزور للمرة الأولى، فقد كان مرحبًا بي كأنني فرد من أفراد العائلة. صافحت الجدّات المتعددات، وتعانقنا هاوا وأنا وبحنا بأشواقنا لبعضنا. شرحت أني أتيت في هذه الرحلة بصحبة فرناندو فقط – إيمي تسجل في نيويورك – وأن سبب وجودنا هنا هو ملاحظة ما أنجز في المدرسة القديمة بالتفصيل وما يمكن تحسينه في المدرسة الجديدة. دُعيت للانضمام إلى هاوا وزوّارها في غرفة الجلوس الصّغيرة المضاءة بشكل خافت بمصباح شمسي أبيض، منارة بحدة أكبر بشاشة هاتف كل فتاة. ابتسمنا لبعضنا، الفتيات وهاوا وأنا. سُئل عن صحة كلٍّ من والدي ووالدتي بتهذيب – أدهشهن مجددًا أن ليس لدي أشقاء – من ثم سُئل عن صحة إيمي وصحّة طفليها وكارابيتشانو وجودي، لكن ليس أكثر من القلق على صحّة جرانجر. اهتموا لأمر صحة جرانجر حقًا، لأن جرانجر كان الحدث الحقيقي للزيارة الأولى، أكثر بكثير من إيمي أو أيّ منا نحن البقية. كنا مثار فضولهم – أما هو فكان محبوبًا. عرف جرانجر جميع أغاني الآر آند بي التافهة التي عشقتها هاوا، فيما إيمي احتقرتها، ولم أكن قد سمعت بها أبدًا، انتعل شتى أنواع الأحذية الخفيفة التي أعجبت بها للغاية، وخلال حلقة الطبل الاحتفالية التي تظاهرت بها الأمهات في المدرسة، دخل الحلقة دون تردد وانطلق بخفة، يرج جسده، رقص وأدى مشية القمر، بينما انكمشتُ خوفًا في مقعدي وشغلت نفسي بالتقاط الصّور.

قالت هاوا الآن وهي تهزّ رأسها بحبور على ذكرى جرانجر المثيرة مقارنة بواقعي الكئيب: «جرانجر ذاك! يا له من راقص مجنون! كان جميع الفتيان يقولون: «هل هذه الحركات الجديدة؟» وتذكري قول إيمي لنا: «لا، هذه حركات قديمة!» هل تتذكرين؟ لكنه ليس معك هذه المرة؟ إنه مخجل. أوه، جرانجر رجل مسلٍّ للغاية!» ضحكت الشّابات في الغرفة وهززن رؤوسهن وتنهدن، من ثم ران الصّمت ثانية وبدأ يخطر لي أنني قاطعت اجتماعًا، وقتًا طيّبًا للثرثرة، استؤنف الآن بعد دقيقة من صمت أخرق بلغة الولوف. لست راغبة في الذهاب إلى ظلمة غرفة النّوم المطبقة، جلست على الأريكة وتركت الحديث يغمرني وملابسي يجفّفها الهواء على جسدي.

بجواري ترأّست هاوا جلسة طالت ساعتين من قصص – على حدّ علمي – تدرّجت من الطافحة بُشرًا إلى المحزنة، إلى المهانة بشرف، لكن أبدًا لم تصل حدّ الغضب. كان دليلي الضّحك والتنهدات والصور من هاتفها التي عرضتها سريعًا وسط حكايات بعينها وشرحت على نحو سريع بالإنكليزية إذا ما طرحتُ أيّ سؤال. استدللْت أنها تعاني من مشكلة عاطفية – شرطي شاب في بانجول نادرًا ما رأته – وخطّة كبيرة، متوقعة سلفًا للذهاب إلى الشّاطئ عند انتهاء المطر من أجل اجتماع عائلي سيُدعى الشرطيّ إليه. أرتني الصّورة من هذا الحدث السّنة السّابقة: لقطة بانورامية التَقطت على الأقل مئة شخص. لمحتها في الصف الأمامي ولاحظت غياب الطّرحة، بدلًا منها كان على رأسها وصلة شعر حريري مفروقة في الوسط تنزل على كتفيها.

قلت: «شعر مختلف» وهاوا ضحكت ووضعت يديها على حجابها وأزالته كاشفة عن أربع بوصات من شعرها محبوكة في جدائل صغيرة. «لكنه ينمو ببطء شديد، أوه!»

فهمت بعد حين أن هاوا هي تلك النّدرة النسبية في القرية، فتاة من الطبقة المتوسطة. ابنة مدرّسَين جامعيين لم ألتق بأي منهما قط، عمل والدها في ميلانو الآن، مراقبَ حركة مرور، ووالدتها عاشت في المدينة ولا تزال تعمل في الجامعة. سلك والدها ما سمّاه أهل القرية «الطّريق الخلفي» مع شقيق هاوا الأكبر مسافرًا عبر الصحراء الأفريقية إلى ليبيا، من ثم أخيرًا عبرا الطّريق المحفوف بالمخاطر إلى لامبيدوزا. بعد سنتين تزوّج من إيطالية، أرسل من أجل الأخ الآخر، لكن ذلك حدث قبل ست سنوات، وإذا كانت هاوا لا تزال تنتظر زيارتها إلا أنها كانت شديدة الفخر فلم تخبرني. حقّق المال الذي أرسله الوالد إلى الوطن قدرًا من الرفاهية إلى المجمع السّكني، نادرًا في القرية: جرّارًا، أرضًا خاصّة كبيرة المساحة، مرحاضًا، ولو أنه لم يكن متّصلًا بأي شيء، وتلفازًا ولو أنه لم يعمل. المسكن نفسه أسكن الزوجات الأربع لجدّ هاوا المتوفّى وكثير من الأطفال، والأحفاد وأحفاد الأولاد الذين نتجوا عن زيجاته في توليفات متغيرة على الدوام. لم يكن ممكنًا أبدًا تحديد جميع الآباء لهؤلاء الأطفال: فقط الجدات بقين ثابتات، يمررن الرضع والأطفال جيئة وذهابًا بينهن وبين هاوا التي على الرغم من صغر سنها غالبًا بدت لي أنها رأس البيت أو على الأقل قلبه، كانت واحدة من هؤلاء النّاس الذين يجذبون الجميع. ظريفة بكل تأكيد، مع وجه مدوّر تمامًا، أسود مزرق بملامح مشرقة تلك التي لشخصيات أفلام ديزني، رموش طويلة للغاية وشيء فتان شبيه بالبط في شفتها العلوية الممتلئة والبارزة. أي شخص ينشد الخفة، السّخف، أو ببساطة أن يكون مغاظًا على نحو لعوب لساعة أو ساعتين جاء لزيارة هاوا وهي منحت الجميع اهتمامًا متساويًا، أرادت سماع جميع الأنباء مهما بدت مبتذلة أو عادية («كنت الآن في السّوق؟ أوه، إذن أخبريني! كيف كان الحال هناك؟ هل

كان بائع السّمك هناك؟»). كان يمكن أن تكون واسطة عقد أي قرية صغيرة في أي مكان. بخلافي لم تكن تُكِنّ أي احتقار لحياة القرية بتاتًا: أحبّت القلّة، الثرثرة، التكرار وألفة العائلة. أحبّت أن شأن الجميع كان شأنها والعكس.

جارة من جارات هاوا لديها مشكلة عاطفية أصعب من مشكلتها جاءت لزيارتنا يوميًا - قد وقعت في حب فتى لم يسمح لها والداها بالزواج منه - وأمسكت بيدي هاوا عندما تحدثت وبكت، غالبًا لا تغادر حتى السّاعة الواحدة صباحًا، ومع ذلك لاحظت أنها غادرت مبتسمة دومًا. حاولت التفكير في تأدية خدمة مشابهة لصديق. أردت معرفة المزيد عن هذه المشكلة العاطفية، لكن الترجمة جعلت هاوا تشعر بالملل وفي نسختها البَرِمة تلخّصت ساعتان من الحديث بسهولة في عدة عبارات (حسنًا، تقول إنه جميل جدًا ولطيف وسوف لن يتزوجا. أنا حزينة للغاية! أقول لك لن أنام الليلة! لكن تعالي: ألم تتعلمي حتى القليل من لغة الولوف بعد؟»).

أحيانًا عندما يصل ضيوف هاوا ويجدونني جالسة في ركني المعتم قد يبدو عليهم الضّجر فيديرون ظهورهم، لأن هاوا عُرفت في كل مكان على أنها حمّالة الخفّة، شخص جلب حضوره المجرّد ارتياحًا من المصائب، سرعان ما كان شديد الوضوح للجميع أن الزائرة من إنكلترا جلبت معها الثقل والأسف فقط. جميع الأسئلة الكئيبة التي شعرت بأن عليّ أن أطرحها ممسكة بقلم في يدي، تتعلق بتخفيض الفقر، أو نقص الوسائط في المدرسة، أو المشقات الظاهرة لحياة هاوا - كانت الآن مضافة إلى مصاعب الموسم الماطر، البعوض، تهديد والملاريا غير المعالجة - كل هذا سبّب النفور لضيوفنا واختبر بقسوة صبر هاوا.

الحديث السياسي لم يثر اهتمامها - إلا إذا كان تآمريًا، محليًا

للغاية ومتعلّقًا مباشرة بالنّاس الذين عرفتهم – وهي دومًا عافت أي محادثة متحمّسة للغاية حول مواضيع الدّين والثقافة. مثل الجميع صلّت وذهبت إلى المسجد لكن على حدّ علمي لم تكن مهتمة بالدين اهتمامًا حقيقيًا. كانت فتاة أرادت أمرًا واحدًا في الحياة: أن تتسلى.

تذكرت النّوع جيدًا جدًا من أيام مدرستي، فتيات مثل تلك لطالما حيرنني – ولا يزلن – وشعرت أنني حيرت هاوا على نحو مماثل. أفترش الأرض قربها كل ليلة على فراشينا المتجاورين، ممتنة للهالة الزرقاء التي انبعثت من جهاز السامسونج عندما تنقلت بين الرسائل والصّور، أحيانًا حتى ساعات الصّباح الأولى، تضحك أو تتنهد على الصّور التي أمتعتها، تكسر الظلمة وتبدي رغبة بالمحادثة. لكن لم يبد أن شيئًا يجرحها أو يحزنها بجدية، وربما لأني رأيت كثيرًا من الأمور التي انتزعت بالضبط هذه المشاعر منّي، كل يوم، وجدت نفسي مستنزفة برغبة منحرفة لأثير فيها المشاعر نفسها. ذات ليلة وفيما نحن مستلقيتان جنبًا إلى جنب، وعندما فكّرت مليًّا ثانية بجرانجر وكم كان ظريفًا ومسليًا، سألتها عن رأيها بوعد الرئيس في ضرب عنق أي مِثْليّ يجده في البلاد. أصدرت صوتًا بأسنانها معبرة عن امتعاضها وواصلت التّصفح: «ذلك الرجل دومًا يتحدث ببعض الهراء. بأيّ حال، ليس لدينا من هؤلاء النّاس هنا». هي لم تربط سؤالي بجرانجر لكني خلدت إلى النّوم تلك الليلة وأنا أتحرّق خزيًا لأني لابد كنت راغبة للغاية بتدمير إمكانية أن يعود جرانجر إلى هنا، ومن أجل ماذا؟ المبدأ؟ عرفت كم أحبّ جرانجر المكان هنا حتى أكثر من باريس – وأكثر بكثير من لندن – وأنه شعر بهذه الطّريقة رغم التهديد القائم الذي مثّلته الزيارة له بالتأكيد. كنا قد تحدثنا عنها غالبًا، لقد كسر ملل جلسات التسجيل – جالسين في الحجيرة معًا، نبتسم لإيمي عبر الزجاج، لا نصغي إلى غنائها

- وتلك كانت أكثر المحادثات التي عقدتها مع جرانجر جوهرية، كما لو أن القرية فتحت فينا علاقة لم نعرف أننا نملكها. هذا لا يعني أننا كنا متفقين أو تشاركنا الصلات نفسها. حيث رأيت الحرمان، الظلم، الفقر، رأى جرانجر البساطة، نقص المادية، جمالًا عموميًّا - المناقض لأمريكا التي نشأ فيها. حيث رأيت تعدد الزوجات، كره النّساء، الأطفال يتامى الأم (طفولة جزيرة أمي، غير أنها كبيرة على نحو بين، محفوظة في الغُرف)، تذكّر هو الصّعود إلى الطابق السّادس، شقّة صغيرة تقاسمها مع أمّ عازبة مكتئبة، الوحشة، دمغات الغذاء، نقص المعنى، التهديد من الشوارع تمامًا على بابه، وتحدّث إليّ والدموع الصادقة في عينيه عن كم كان سيكون أكثر سعادة لو لم تربّيه امرأة واحدة بل خمس عشرة.

مرة، عندما صادف أن كنت مع هاوا في الباحة وكانت تضفّر شعري، حاولت ثانية التحدّث عن أمور صعبة، مستغلّة حميمية اللحظة لأسالها عن شائعة سمعتها عن امرأة قروية مختفية، فيما يبدو قبضت عليها الشّرطة، والدة شاب شارك في محاولة انقلاب حديثة. لم يعلم أحد بمكانها، أو ما الذي جرى لها. قالت هاوا كما لو أنني لم أتحدث على الإطلاق: «أتت إلى هنا فتاة السّنة الماضية كان اسمها ليندسي، قبل أن تأتي إيمي وأنتم جميعًا، كانت من بيس كوربس[29] - أميركية، وكانت مسلية حقًّا! لعبنا لعبتي واحد وعشرين ولعبنا بلاك جاك. تلعبين الورق؟ أقول لك، كانت مسلية حقًّا، يا رجل!» تنهدت، ضحكت، وشدت شعري بإحكام. استسلمت.

كان موضوع هاوا الأثير كريس براون نجم الآر آند بي، لكني

29) Peace Corps: فِرَق السّلام هو برنامج تنمية تديره حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ووكالة حكومية تحمل نفس الاسم. رسالة منظّمة فرق السلام تتضمن ثلاثة أهداف: تقديم المساعدة التقنية، ومساعدة الناس خارج الولايات المتحدة على فهم الثقافة الأمريكية، ومساعدة الأمريكيين على فهم ثقافات الدول المختلفة حول العالم.

لم أكن أملك شيئًا تقريبًا أقوله عن كريس براون وله أغنية وحيدة على هاتفي. أعلمتني قائلة إنّ تلك أغنية قديمة جدًا، فقد عرفَت كل شيء يمكن أن تعرفه عن الرجل بما في ذلك حركاته. ذات صباح وقبل مغادرتها إلى المدرسة وقع بصري عليها في الباحة ترقص وهي تضع السّماعتين على أذنيها. كانت تتزيا بلباسها البسيط ومع ذلك بحدّة زيّ مُدرّسة متمرّنة: قميصًا أبيض، تنورة من قماش الليكرا سوداء طويلة، حجابًا أصفر، صندلًا أصفر، ساعة صفراء، وصدارًا مخطّطًا أنيقًا، حرصت على شدها بإحكام لاسيما في الخلف لتصنع ملمح خصر نحيل ونهد مثير. رفعت بصرها عن قدميها حيث كانت تعجب بالخطوات السّريعة، رأتني وضحكت قائلة: «لا تخبري طلابي!» كل يوم من تلك الزيارة ذهبنا كارابيتشانو وأنا إلى المدرسة نزور صفّي هاوا ولامين ندوّن الملاحظات. ركز كارابيتشانو على كل جانب من جوانب عمل المدرسة، بينما كانت إحالتي أضيق: ذهبت أولًا إلى صفّ لامين من ثم إلى صف هاوا أبحث عن «الأفضل والأكثر نباهةً»، بناء على توجيهات إيمي. كان هذا سهلًا في صف لامين، صف الرياضيات: كان عليّ فقط تدوين أسماء الفتيات اللواتي أجبن الإجابات الصّحيحة. وهذا ما فعلته أنتظر أن يؤكد لامين كل مرة على السّبورة أن إجابات الأطفال صحيحة. لأن أي شيء يتجاوز الجمع والطرح الأساسيين كان في الحقيقة يفوق قدراتي وشاهدت طلاب لامين بعمر عشر سنوات يجرين عملية الضرب أسرع مني ويتوصلن إلى إجابات عمليات القسمة بسرعة لم أتمكن حتى من التعثر نحوها.

رحت أقبض على قلمي وأشعر بيدي تتعرقان. كنت مثل مسافرة في الزمن. كنت عائدة إلى صفوف رياضياتي، امتلكت نفس المشاعر المألوفة القديمة بالعار ولا أزال أحتفظ، كما تبيّن، بعادة

طفولتي من خداع الذّات، أغطي أعمالي بيدي عندما مرّ لامين ودومًا أتمكن من إقناع نفسي تقريبًا ما إن يدوّن الجواب على السّبورة أنني كنت على وشك التوصل إليه، لكن من أجل هذا أو ذلك الخطأ الصّغير، الحرارة الرهيبة في الغرفة، قلقي غير المعقول في مواجهة الأرقام... كنت مرتاحة بترك لامين والتوجه إلى حصة هاوا، صفّ عام. هناك قررت البحث عن «تريسي»، بمعنى عن الفتاة الأكثر نباهة، الأسرع، الأكثر إصرارًا، المملولات بشكل قاتل، المزعجات، الفتيات اللاتي اتقدت عيونهن كالليزر مباشرة عبر العبارات الإنكليزية الصّادرة عن الحكومة – العبارات الميتة، العبارات الفاقدة المحتوى أو المعنى. كنت قد توقعت أن أعثر على عدد من شبيهات تريسي في كل صف، لكن سرعان ما اتضح وجود قبيلة منهن في هذه الغرف الحارة أكثر من شبيهات أيّ شخص آخر. بعض تلك الفتيات كنّ مهترئات للغاية حدّ أنهن الآن لا يعدون أن يكُنّ أسمالًا أو أكثر قليلًا، في حين أن بعضهن الآخر حملنَ بثورًا في أقدامهن أو عيونًا تدمع بالقيح، وعندما شاهدت رسوم المدرسة تُدفَع في أيدي الأساتذة كل صباح في شكل نقود معدنية، العديد منهن لم يملكن قطعة نقدية واحدة لمنحها. ومع ذلك لم يستسلمن أولئك التريسيّات الكثيرات. لم يكنّ قانعات بغناء أبياتهن لهاوا، التي هي نفسها فقط قبل بضع سنوات لابدّ أنها جلست على هذه المقاعد تغنّي الأبيات نفسها متشبثة بدفترها حينئذ كما فعلت الآن. مراقبة كل تلك النار بوهجها الصغير للغاية، كان بالتأكيد من السهل أن تيأس. لكن كلما أفلتت المحادثة من قيودها الإنكليزية غير الضّرورية وسمح لها بالعودة إلى اللغات المحلية، كنت أراها ثانية تلك الشّرارات الواضحة للذكاء – مثل لهب يلعق مدرأة كان القصد منها أن تخمده – ومتّخذًا الشّكل نفسه الذي يتخذه الذكاء الطبيعي في القاعات الدراسية حول العالم: ردود وقحة، مزاح، جدال.

كان واجب هاوا المشؤوم كتم كل هذا، كل استجواب طبيعي وفضول، وإعادة الصّف بصعوبة إلى المنهاج الذي تقرّره الحكومة أمامها، أن تكتب «القدر على النّار» أو «الملعقة في القدر» بقطعة طباشير مكسورة على السّبورة وتجعلهم يرددونها، ثم يكتبونها، ينسخونها بالضّبط بما فيها من أخطاء هاوا المتكررة.

بعد مشاهدة هذه العملية المؤلمة بضعة أيام أدركت أنها لم تختبرهم ولو مرة واحدة على هذه السّطور المكتوبة دون أن يكون الجواب أمامهم سلفًا، أو مكرّرًا للتو، وذات أصيل حار على وجه الخصوص، شعرت أن عليّ البتّ في الأمر بنفسي. طلبت من هاوا الجلوس حيث جلست، على مقعد مكسور لذا يمكنني أن أقف أمام الصّف وأطلب منهم أن يدوّنوا في كتبهم: القدر على النّار. رفعوا أبصارهم نحو السّبورة الفارغة من ثم بانتظار نحو هاوا ينتظرن الترجمة. ما كنت لأسمح لها بالتحدث. مرّت دقيقتان طويلتان عندما حدّق الأطفال باندهاش بكتب التمارين خاصتهم نصف المتلفة، المعاد تغليفها مرات كثيرة في ورق لف قديم. ثم تجوّلت في أرجاء الغرفة أجمع الأوراق لأريها هاوا. جزء مني استمتع بفعل هذا. كتبت ثلاث فتيات من بين أربعين العبارة على نحو صحيح بالإنكليزية. كتبت البقية كلمة واحدة أو اثنتين، تقريبًا جميع الفتيان لم يكتبن حرفًا على الإطلاق، فقط وسومًا مبهمة تعيد إلى الذاكرة الأحرف الصّوتية والسّاكنة الإنكليزية، ظلال الأحرف لكن ليست بأحرف. أومأت هاوا نحو كل كتاب، لا تفشي عن عاطفة، من ثم عندما انتهيت، قامت وتابعت الدرس.

عندما رنّ جرس الغداء ركضت عبر الباحة لأجد كارابيتشانو جالسًا تحت شجرة المانجو يدوّن ملاحظات في كراسة، وتلوت عليه بسرعة انفعالية جميع أحداث الصباح والتضمينات كما رأيتها،

متخيلة، إلى أي درجة أن يكون تقدمي بطيئًا لو درس أساتذتي منهاجنا، لنقل بلغة الماندارين، ولو أنني لم أتحدث لغة الماندارين في مكان آخر، لم أسمع الماندارين ولم يتحدث والدي بالماندارين... وضع كارابيتشانو قلمه جانبًا وحدق بي.

«وماذا تظنين أنك حققت للتو؟»

اعتقدت في البداية أنه لم يفهمني، لذا صرّحت بحالتي منذ البداية، لكنه قاطعني يدوس بقدمه في الرمل.

«كل ما فعلته كان إذلال مُدرّسة. أمام طلابها».

كان صوته هادئًا لكن وجهه شديد الحمرة. خلع نظارته وحملق بي، وبدا وسيمًا بخطورة شديدة منحت أهمية محققة لمنصبه، كما لو أن هؤلاء الذين على حق هم دومًا أكثر جمالًا.

«لكن – أعني – أنا لا أقول إنها مسألة قُدرة، إنها «مسألة بنيوية» – أنت دومًا تقول ذلك بنفسك – وأنا أقول فقط ربما يمكننا أن ندرس اللغة الانكليزية، حسنًا، بالتأكيد، لكن لندرسهم بلغاتهم في بلدهم، من ثم يستطيعون – أعني يمكنهم كما تعلم، أن يحلوا اختبارات اللغة الإنكليزية في البيت كفروض منزلية أو ما شابه».

ضحك فرناندو بمرارة وشتم بالبرتغالية.

«فرض منزلي! هل دخلت بيوتهم؟ هل ترين كتبًا على رفوفهم؟ أو رفوفًا؟ مكاتب؟» وقف وبدأ يصرخ: «ماذا تظنين هؤلاء الأطفال يفعلون عند عودتهم إلى البيت؟ يدرسون؟ هل تظنين أنهم ينعمون بالوقت للدراسة؟»

لم يكن قد تقدّم نحوي لكني وجدت نفسي أتراجع بعيدًا عنه حتى وصلت عند جذع شجرة المانجو.

«ماذا تفعلين هنا؟ ما الخبرة التي تملكينها في هذا العمل؟ هذا

عمل للكبار! أنت تتصرفين كمراهقة. لكنك لم تعودي مراهقة، هل أنت كذلك؟ ألم يحن الوقت لتنضجي؟»

انفجرت بالبكاء. رنّ جرس. سمعت فرناندو يتنهّد بما بدا مثل تعاطف وشعرت لحظة بأمل جامح يعتريني من أنه على وشك أن يلفني بذراعه. ورأسي في يدي، سمعت مئات الأطفال يندفعون من صفوفهم ويهرعون عبر الباحة، ضاحكين صارخين في طريقهم إلى دروسهم التّالية، أو من البوّابات ليساعدوا أمهاتهم في المزرعة، من ثم كارابيتشانو يركل قائمة كرسيه، مطيحًا به ويعود عبر الباحة إلى الصف.

✧ اثنا عشر ✧

جاءت نهاية «العبور الأوسط» في منتصف الشّتاء، الوقت المثالي لتكون همجيًّا: أنت في انسجام مع البؤس المحيط بك، مثل تلك السّاعة التي لا تعمل لكنها صحيحة مرّتين في اليوم. كنت في طريقي إلى منزل والدي، أبواب الحافلة لم تفتح بسبب تراكم الثلوج أمامها، توجّب عليّ أن أرغمها على الافتراق بقفازيّ الجلديين الأسودين وأخطو على الكومة، محمية من البرد القارس بحذاء د. مارتنز أسود متوّج بمعدن السّتيل وتصفيفات من قميص الجيرزي الأسود وبنطال الجينز الأسود، بحرارة شعر أفرو منفوش «عشّ طائر»، الجو الخانق لمن لم يستحم إلا لمامًا. كنت قد أصبحت حيوانًا متكيّفًا تمامًا مع محيطه. قرعت جرس باب شقة والدي: فتحَت الباب شابة ربما في العشرين من عمرها. كان شعرها مفتولًا فتائل بسيطة جدًا، امتلكت وجهًا عذبًا على شكل دمعة وبشرة لا تشوبها شائبة لمعت مثل قشرة باذنجان. بدت خائفة، ابتسمت بتوتر، التفتت ونادت باسم والدي لكن بلكنة ظاهرة، لم يكن اسمه على الإطلاق إلا بالكاد. اختفت وحلّ محلها أبي، وبعد ذلك لم تخرج من غرفة نومه طوال مدة زيارتي. وفيما مشينا عبر الرواق المشترك المخرب، مرورًا بورق الجدران المجعّد، صناديق بريدية صدئة، سجّادة رثّة، شرح لي بهدوء كما لو أنه مبشّر خجول قليلًا ليبوح بالحجم الحقيقي لجمعيته الخيرية، أنه وجد هذه الفتاة في محطة

«كينغس كروس».

«كانت حافية القدمين! لم يكن لديها مكان تذهب إليه، على الإطلاق. ترين، إنها من السّنغال. اسمها ميرسي. كان عليك أن تتصلي لتعلني عن قدومك».

تناولت العشاء كالمعتاد، شاهدت فيلما قديمًا: المراعي الخضراء، وعندما حان وقت الذهاب ولم يقل أحدنا المزيد حول ميرسي، رأيته ينظر من فوق كتفه نحو باب غرفة نومه، لكن ميرسي لم تعاود الظهور، وبعد حين غادرت. لم أخبر أمي أو أي شخص في المدرسة. كانت تريسي الشّخص الوحيد الذي شعرت أنها سوف تفهم ولم أكن قد رأيتها منذ أشهر.

كنت قد لاحظت أن أناسًا آخرين امتلكوا منحة المراهقة هذه كي «يشبّوا عن الطوق»، أو «يخرجوا عن المألوف»، لكن أي شيء حبسوه في داخلهم تمكنوا من إطلاقه في أزمنة الحزن أو الأذى لم أكن قادرة على العثور عليه في نفسي. بدلًا من ذلك، قررت عن وعي ذاتي الخروج عن المألوف، مثل لاعب رياضيّ يقرّر نظامًا تدريبيًّا جديدًا. لكن لم يأخذني أحد على محمل الجد كثيرًا، وأولهم أمي، لأنها اعتبرتني مراهقة في الأساس. في حين أمهات محليات أخريات أوقفنها في الشّارع، كما فعلن غالبًا، لطلب النصح حول أبناءهن المتمردين وبناتهن، راحت تصغي إليهن بتعاطف لكن دون أي اهتمام من جانبها، تنهي المحادثة أحيانًا بوضع يد على كتفي وتقول شيئًا من قبيل: «حسنًا، نحن محظوظون للغاية، لا نملك هذا النّوع من المشاكل، ليس بعد». كانت هذه الرواية راسخة جيدًا في عقلها حتى أن أيّ محاولة قمت بها لأحيد عنها لم تستطع رؤيتها: كانت مرتبطة بنسخة ظليّة مني وتبعتها بدلًا منّي. أولم تكن محقّة؟ لم أكن حقًّا مثل أصدقائي الجدد، لا

سيما أنني لست مدمّرة لذاتي أو طائشة. ادّخرت واقيات ذكرية (غير ضرورية)، كنت هلعة من الحقن، خائفة للغاية من الدّم عمومًا لأتدبر جرح نفسي، دومًا توقّفت عن الشّرب قبل أن أضعف بالفعل، تمتعت بشهية صحيّة للغاية وعندما ذهبت للسهر في النّوادي رحت أتسلّل هربًا من زمرتي – أو أتآمر لأضيعهم – بعد منتصف الليل بحوالي ربع ساعة كي أتمكّن من ملاقاة أمي التي كانت قاعدتها أن تأتي لاصطحابي كل ليلة جمعة بعد منتصف الليل بنصف ساعة تمامًا عند باب مسرح كامدن بالاس. رحت أركب سيارتها وأشتم بصورة مدهشة هذا الترتيب، بينما أشعر في قرارة نفسي بالامتنان لوجودها دومًا، كانت ليلة إنقاذنا لتريسي مثل تلك الليلة في كامدن بالاس.

عادة تذهب زمرتي إلى ليلة عزف موسيقى الإيندي، لم أتمكن من احتمالها، لكن هذه المرة ذهبنا لسبب ما إلى عرض فاضح للغاية، جيتارات ممزّعة تشوّه السّماعات الضّخمة، صخب هائل، وعند حدٍّ معين أدركت أنني لن أظل حتى منتصف الليل – حتى لو تعاركت مع أمي من أجل هذه الرخصة تمامًا. حوالي السّاعة الحادية عشرة والنّصف قلت إنني ذاهبة إلى الحمّام وتعثرت عبر ذلك المسرح القديم الذي كان مكانًا تُعرض فيه مسرحيات الفودفيل الهزلية، وجدت مكانًا في إحدى الحجيرات الفارغة في الطابق الأول وبدأت أثمل على زجاجة صغيرة من الفودكا الرخيصة حملتها في جيب ممْطري الأسود. جثوت على المخمل منحول الوبر حيث كانت الكراسي مفتوقة ونظرت أسفل نحو منطقة الرّقص أمام خشبة المسرح. اعتراني نوع حزين من الرضى لفكرة أنني على الأرجح الشّخص الوحيد في المكان في تلك اللحظة الذي عرف أن شابلن أدّى هنا وجرايسي فيلدز، ناهيك عن جميع فصول الكلب التي صارت نسيًّا منسيًّا، فصول العائلة، الرّاقصات المحترفات،

البهلوانات، الشّعراء الجوّالون. نظرت أسفل نحو كل هؤلاء الأولاد سكّان الضّواحي بيض البشرة السّاخطين المكتسين بالسّواد، بعضهم يرشقون بعضًا وتخيّلت في مكانهم «جي.إتش. إليوت[30]»، «الزنجي بلون الشّوكولا»، متّشحًا من رأسه حتى أخمص قدميه بالأبيض، يغني عن القمر الفضّي. خلفي سمعت حفيف السّتارة: دخل فتى حجيرتي. كان فتىً أبيض البشرة بالغ النّحول لا يكبرني سنًا وواضح أنه منتش من تعاطي شيء ما، فيه بثور عميقة وكثير من الشّعر المصبوغ بالأسود يتساقط على جبهته المحفورة. لكن كان لعينيه لون أزرق جميل. وكنا من نفس القبيلة البديلة: ارتدينا الزي نفسه، الجينز الأسود، قطنًا أسود، قميصَ جيرزي أسود، سترة جلدية سوداء. لا أظن أننا تحدثنا مع بعضنا. حسبه أن تقدّم وواجهته، الآن على ركبتي ورفعت يدي نحو فتحة بنطاله. تعرينا بأدنى قدر ممكن، استلقينا على تلك السّجادة الأشبه بمطفأة السّجائر، واتصلنا عند المغبن لدقيقة تقريبًا، بينما ظلّ ما بقي من جسدينا متباعدًا، كل واحد مقمّط في طبقات من السّواد. كانت المرة الوحيدة في حياتي التي مارست فيها الجنس دون ظله، دون ظل الأفكار عن الجنس أو أوهام تعتبره من النّوع الذي يمكن فقط أن يتكدّس مع الوقت. على تلك الشّرفة كل شيء كان لا يزال استكشافيًا، تجريبيًا، وتقنيًا بمعنى أن تعرف بالضّبط ما الذي دخل وأين. لم أكن قد شاهدت أبدًا أي فيلم إباحي. كان ذلك لا يزال ممكنًا حينها.

بدا التقبيل أمرًا خاطئًا للهمجيين، لذا عضعض كلّ واحد منا عنق الآخر بلطف مثل مصاصي دماء صغيرين. فيما بعد جلس وقال بصوت أكثر أناقة مما توقّعت: «لكننا لم نستعمل شيئًا». هل كانت

30) G. H. Elliott: (1882 – 1962) مغنٍ وراقص بريطاني.

تجربته الأولى أيضًا؟ أخبرته بصوت ربما فاجأه بنفس القدر تمامًا أنه ليس مهمًّا، من ثم طلبت منه سيجارة أعطاني إياها في شكل قرصة تبغ، ورقة لفّ من نوع «ريزلا» ومربّعًا من الورق المقوى. اتفقنا على النزول إلى البار لنحتسي شرابًا، لكن على الدّرج ضيعته في جمهور يندفع نحو الأعلى وفجأة مستميتة من أجل الهواء والمكان بدلًا من ذلك شققت طريقي نحو المخرج وخرجت نحو كامدن ساعة السّحر[31] منتصف الليل. كان الجميع ينطلقون بسرعة في الأرجاء نصف المضاءة، يتفرقون من الحانات، في الجينز الممزق أو بسراويل من قماش ذي نقش مربع أو أسود على أسود، البعض جالس على الأرض في حلقات، يغنون، يعزفون على الجيتار، آخرون أخبرهم رجل أن يبحثوا عن رجل آخر قدمًا على الطّريق لديه المخدرات التي يفترض بالرجل الأول أن امتلكها. شعرت في الحال بأني صاحية بوحشية، وحيدة وتمنيت أن تظهر أمي. انضممت إلى حلقة من الغرباء على الأرض بدوا ينتمون إلى جماعتي ولففت تلك السّيجارة.

من حيث جلست استطعت رؤية الشّارع الجانبي المؤدي إلى الجاز كافيه وصدمت لرؤية الحشد المختلف الذي تجمع عند أبوابه، ليسوا في طريقهم إلى الخروج بل إلى الدّخول، ولم يكونوا ثملين على الإطلاق. لمّا كان هؤلاء أناسًا أحبّوا الرّقص لم يكن لزامًا عليهم أن يثملوا ليقنعوا أجسادهم بالحركة. لم تكن أي قطعة من ملابسهم ممزّقة أو ممزّعة أو مشوّهة بآثار حبر القلم المصحح، كل شيء كان ومضة كما يمكن للومضة أن تكون، تلألأت النّساء وخطفن الأبصار، ولم يجلس أحد على الأرض بل على العكس، بذل كل مسعى لفصل الزبائن عن

31) The Witching Hour: منتصف الليل، هو إشارة إلى الاعتقاد القائل بأن السّاحرات ينشطن بسحرهن في تلك الساعة.

الأرض: كانت أحذية الرّجال الرياضية بعلو بوصتين وضعفها كعوب أحذية النسوة. تساءلت من أجل ماذا يصطفّون. ربما فتاة سمراء في شعرها وردة ستغنّي لهم. فكرت في التقدم إلى هناك لأرى بنفسي لكن حينئذٍ تمامًا انتبهت لهرج ومرج عند مدخل موقف محطة قطار الأنفاق مورنينجتون كريسنت، مُشكلة بين رجل وامرأة، يتبادلان الصّراخ والرجل احتجز المرأة إزاء الجدار، كان يصرخ عليها ويده حول حنجرتها. لم يتحرك الفتيان الذين كنت جالسة معهم أو بدوا قلقين للغاية، واصلوا العزف على الجيتار أو لف سجائر الحشيش.

فتاتان هما من أقدمتا على التصرف – فتاة صلعاء قاسية المظهر وربما صديقتها – ووقفت مع كليهما، لا أجاريهما في الصّراخ لكن ألحق بهما سريعًا. عندما دنونا أكثر، مع ذلك أصبحت الحالة مشوشة، لم نعرف فيما إذا كان يتم إيذاء «الضّحية» أو مساعدتها – رأينا ساقيها واهيتين تحتها والرجل كان يرفعها إلى الأعلى – وجميعنا أبطأنا قليلًا في اقترابنا. أصبحت الفتاة الصّلعاء أقل عدوانية، وأكثر قلقًا وفي اللحظة نفسها أدركت أن المرأة لم تكن سوى فتاة أعرفها: تريسي. ركضت نحوها.

تعرّفت عليّ لكنها لم تستطع الكلام، فقط مدّت يدها وابتسمت بحزن. كان أنفها ينزف من منخريه. شممت رائحة فظيعة ونظرت أسفل فرأيت القيء يغطي صدرها متجمعًا في بركة على الأرض. أفلتها الرجل وتراجع، تقدّمت، أمسكت بها وناديت باسمها: تريسي، تريسي، تريسي – لكن انقلبت عيناها نحو الدّاخل وشعرت بكامل ثقلها بين ذراعي. ولأننا في كامدن حيث لكل حشّاش وسكير نظرية: حالة سيئة من الانتشاء، تجفاف، تسمم كحولي، ربما تعاطت المخدرات. عليك أن تبقيها واقفة، أو تمدديها، أو اسقها بعض الماء، أو ابتعدي ودعيها

تستنشق بعض الهواء وكنت بدأت أصاب بالذّعر عندما جاء عبر هذه الضّجة من الجهة الأخرى من الطّريق، صوت أعلى بكثير، ذو سلطة حقيقية ينادي باسم تريسي واسمي معًا. أمي تتوقف أمام البالاس كما اتفقنا سابقًا الساعة الثانية عشرة والنصف في سيارتها الصّغيرة. لوّحتُ لها وترنّحتْ قدمًا ثانية وركنَت بالقرب منّا. اختفى الجميع بمواجهتهم مثل هذه البالغة عنيفة المنظر والقديرة، وأمي لم تتوقف حتى لتسأل ما بدت لي أنها أسئلة ضرورية. فصلتنا، مددت تريسي على المقعد الخلفي ورفعت رأسها بعدد من الكتب الجادة التي تحملها معها في كل حين حتى في منتصف الليل وقادت بنا مباشرة إلى مستشفى سانت ماري. أردت كثيرًا أن أخبر تريسي عن مغامرتي في الشّرفة وعن كيف تهوّرت في الحال. خرجنا على طريق ايدجوار رود: استيقظت وجلست.

لكن عندما حاولت أمي بلطف شرح ما يحدث وإلى أين كنا ذاهبين اتهمتنا تريسي باختطافها وبمحاولة السّيطرة عليها، نحن الذين لطالما كنا نحاول السّيطرة عليها منذ أن كانت طفلة، واعتقدنا دومًا أننا نعرف ما هو الأفضل لصالحها وما هو أفضل لصالح الجميع، حاولنا سرقتها من أمها، من والدها! تنامى غضبها مقارنة بهدوء أمي الجليدي حتى توقفنا عند موقف سيارات قسم الطوارئ، كانت تنحني إلى الأمام في مقعدها تبصق على ظاهر عنق كل واحدة منا في حنقها. لم تستدر أمي أو تغير وجهتها. طلبت مني أن آخذ الجانب الأيسر من صديقتي في حين أخذت الأيمن، وجررنا تريسي وأرغمناها على دخول غرفة الانتظار، حيث أصبحت لمفاجأتنا طيّعة تمامًا، تهمس للممرضة: «سبيدبول، مزيج من الهيروين والكوكايين»، من ثم تنتظر بكومة من المناديل الورقية مضغوطة على منخريها إلى أن شوهدت. دخلت أمي معها. بعد حوالي خمس عشرة دقيقة خرجت – أعني أمي – وقالت إن

تريسي سوف تنام هنا وأنه سيتوجب إفراغ معدتها وأنها قالت – تريسي – عدة أمور جنسية صراحة في هذيانها لطبيب هندي مجهد في نوبته الليلية. لم تكن تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها. تمتمت أمي: «أمر جلل حدث لتلك الفتاة!» وأطلقت صوتًا بأسنانها معبرة عن امتعاضها وانحنت على مكتب لتوقّع على بعض الأوراق قائمة مقام الأهل.

في هذا السّياق لم تكن سكرتي الخفيفة تستحق القلق بشأنها. وقد لمحت زجاجة الفودكا في معطفي. أزالتها أمي دون نقاش ورمتها في سلة مخصصة للنفايات الطبية في المستشفى. في طريقنا للخروج لمحت انعكاسًا لنفسي في المرآة الطويلة على جدار مرحاض معطل صدف أن كانت أبوابه مفتوحة على اتساعها في تلك اللحظة. رأيت زيًّا الأسود باهتًا ووجهًا معفّرًا سخيفًا – بالتأكيد، قد رأيت كل شيء من قبل لكن ليس في ظلّ إضاءة المستشفى القوية تلك، والآن لم يعد وجه فتاة، الآن حدقت بي امرأة. كان الأثر شديد الاختلاف عن كل ما سبق أن رأيته في ضوء المصباح الشّاحب الأرجواني في غرفتي ذات الجدران السوداء. كنت تجاوزت العتبة: تخلّيت عن حياة الهمجيين.

الفصل الخامس

ليل ونهار

✧ واحد ✧

جلسا قبالة بعضهما وبدا المشهد حميمًا للغاية إذا أمكنك أن تطرد من ذهنك ملايين النّاس الذين ينظرون. تجوّلا سابقًا في أرجاء منزله المميز معًا، ينظران إلى كنوزه، فنّه المبهرج، أثاثه المذهّب الرهيب، يتحدّثان عن هذا وعن ذاك وعند حدٍّ معين غنّى لها وأدّى عددًا من حركاته المميزة. لكننا أردنا معرفة أمر واحد فقط وأخيرًا بدت مستعدة لطرحه، وحتى أمي التي كانت تتسكّع في أرجاء الشّقة وادّعت أنها غير مهتمّة، توقّفت وجلست قربي أمام شاشة التّلفاز وانتظرت رؤية ما سوف يحصل. تناولت جهاز التّحكم ورفعت الصّوت.

قالت: «حسنًا مايكل، إذن دعنا نمضي إلى ما أظنه أكثر الأمور مناقشة فيما يتعلق بك، ألا وهو حقيقة أن لون بشرتك مختلف بشكل ماثل للعيان عمّا كان عليه عندما كنت أصغر سنًا، ولذا أظن أنه تسبب بقدر كبير من التأمل والجدل حول ما فعلته وما تفعل...؟»

خفض بصره وبدأ دفاعه. لم تصدّق أمي كلمة واحدة وعلى مدى الدّقائق القليلة التالية لم أتمكن من سماع ما قاله أيٌّ منهما، لم يكن سوى أمي تتجادل مع التّلفاز.

قال: «إذن أنا عبد للإيقاع» وابتسم، ولو أنه بدا مذهولًا مستميتًا لتغيير الموضوع وأوبرا سمحت له بذلك والمحادثة استمرت.

خرجت أمي من الغرفة. بعد حين سئمت أيضًا وأطفأت

التّلفاز. كنت في الثّامنة عشرة من عمري. أمي وأنا لم نقم بشيء معًا ثانية أبدًا بعد تلك السّنة، وسلفًا كنا متشكّكتين كيف سنرتبط ببعضنا البعض في تجسّداتنا الجديدة: امرأتان بالغتان تشغلان المكان نفسه في الوقت الراهن. هل كنا لا نزال أمًّا وابنة؟ صديقتين؟ أختين؟ شريكتين في شقّة؟ كان لكل واحدة منا مواعيد مختلفة ولم نلتق كثيرًا، لكني قلقت من أنني أطلت المكوث وقتًا أطول مما هو مرحّب بي، مثل ذلك العرض الذي يستمر طويلًا جدًّا. ذهبت معظم الأيام إلى المكتبة وحاولت مراجعة دروسي، بينما عملَت كل صباح كمتطوعة في مركز للشباب المضطرب، وفي المساءات في ملجأ للنساء السّود والآسيويات. لا أقول إنها لم تكن مخلصة في هذا العمل، بل تجيده، لكنها أيضًا حالة أنّ كلا الالتزامين مؤثّر في سيرتك الذاتية إذا صادف أنك مرشح لانتخابات عضوية مجلس محلي.

لم يسبق لي أن رأيتها منشغلة إلى هذه الدّرجة من قبل قط. بدت أنها في كل مكان من الحي دفعة واحدة، منخرطة في كل شيء واتفّق الجميع على أن الطلاق ناسبها، بدت أصغر سنًا من أي وقت مضى: شعرت أحيانًا بالخوف أننا عند وقت معين في المستقبل، ليس بعد سنوات عديدة، سوف نجتمع على العمر نفسه بالضّبط. لم أنزل غالبًا إلى الشّارع تحت وصايتها الآن إلا وأتى أحد ليشكرني «على ما تفعله أمك من أجلنا» أو ليطلب مني أن أسألها إذا كانت تعرف كيفية تأسيس ناد مسائي من أجل الأطفال الصّوماليين القادمين مؤخرًا، أو عن أي مكان قد يكون مناسبًا لإقامة دورة لتعليم ركوب الدّراجة. لم تكن منتخبة لعضوية أي شيء، ليس بعد، لكن في طريقنا توّجها النّاس سلفًا. كانت إحدى جوانب حملتها الهامة فكرة تحويل سقيفة الدّراجات القديمة في المبنى إلى «مكان لاجتماع الجمهور»، ما تسبب لها بنزاع مع لوي وطاقم

عمله الذين استعملوا السّقيفة من أجل نشاطاتهم.

أخبرتني أمي لاحقًا أنه أرسل شابين إلى الشّقة لتخويفها لكنها «تعرف والدة كل منهما» ولم تكن خائفة وغادرا دون أن يفوزا بالجدال. يمكنني تصديق هذا. ساعدتها في طلاء المكان بلون أصفر زاهٍ وذهبت معها في جولة على المتاجر المحلية، نبحث عن كراسٍ مكدّسة غير مرغوب بها. حُدد رسم الدّخول بقيمة جنيه واحد وغطى تكلفة بعض وجبات الطّعام الخفيفة، باع «كيلبورن بوكس» كتبًا أدبية وثيقة الصّلة على طاولة محمولة وضعت في الركن. افتتحت في شهر نيسان. ظهر المتحدثون كل يوم جمعة عند السّاعة السّادسة بناء على دعوة أمي، كل أنواع النّاس المحليين غريبي الأطوار: شعراء الشّعر المحكي، ناشطون سياسيون، مستشارو مخدرات، أكاديمي غير مفوّض ألّف كتبًا نشرها على حسابه عن مؤامرات تاريخية مبطلة، ألقى رجل أعمال نيجيري متهور محاضرة عن «المطامح السّوداء»، وتحدثت ممرضة من «غويانا» هادئة إنجيلية عن زبدة الشّيا. دُعي متحدثون أيرلنديون كثر أيضًا – كدليل على الاحترام تجاه ذلك الشّعب الأصلي المحلي سريع الاضمحلال – لكن أمي أمكنها أن تكون صمّاء حول كِفاحات قبائل أخرى ولم تتردد في منح تعريفات متعالية («أينما نقاتل من أجل الحرية فالقتال هو نفسه!») لقطّاع طرق دهاة الهيئة ثبتوا ثلاثة ألوان على الجدار الخلفي ومرروا دلاء الجيش الحر الإيرلندي لجمع النقود عند نهاية خطبهم.

كانت المواضيع التي بدت لي غامضة تاريخيًا وبعيدة عن ظرفنا – أسباط إسرائيل الاثني عشر، قصة كونتا كينتي، أي شيء يتعلق بمصر القديمة – الأكثر شعبية، وغالبًا ما أُرسلتُ إلى الكنيسة في هذه المناسبات لأتوسل الشّماس طلبًا لكراسٍ إضافية. لكن عندما غُني

المتحدثون بجوانب أكثر واقعية من حياتنا اليومية – جريمة محلية، مخدرات، حمل المراهقات، فشل أكاديمي – حينها تمكنوا من الاعتماد فقط على عدد قليل من السّيدات المسنات الجامايكيات اللواتي جئن بغض النظر عن الموضوع، جئن حقًا من أجل الشّاي والبسكويت.

لكن لم يكن هناك أمامي سبيل للخروج من أي منها، توجب عليّ حضورها جميعًا، واجهتُ الفصامي الذي دخل الغرفة يحمل أكوامًا من المدوّنات بعلوّ قدم – جُمعت معًا بأربطة مطاطية ومرتبة وفقًا لنظام لا يعرفه سواه – وتحدث إلينا بشغف عظيم حول المغالطة العنصرية عن نظرية التّطور التي تجاسرت على ربط «الإنسان الأفريقي المقدّس» بالقرد الدّنيوي الوضيع، في حين أن الحقيقة هي أن «الإنسان الأفريقي المقدّس» تحدّر من نور طاهر، أي من الملائكة أنفسهم الذين كان وجودهم مثبتًا بطريقة ما – نسيت بالضبط كيف – بالأهرامات. أحيانًا تحدثت أمي: في تلك الليالي ازدحمت الغرفة. اتخذت من الفخر بكل أشكاله موضوعًا لها. رحنا نتذكر أننا جميلون، أذكياء، قديرون، ملوك وملكات، نمتلك تاريخًا، نمتلك ثقافة، نمتلك أنفسنا ومع ذلك كلما ملأت الغرفة أكثر بهذا الضّوء الفعّال اتضح المعنى الذي فهمته من الشّكل والظّلال المتفاوتة الضخمة التي لابدّ أنها في النهاية خيّمت علينا.

ذات يوم اقترحَت أن أتحدّث. ربما يمكن لشاب الوصول إلى الشّبان بسهولة أكبر. أظن أنها كانت مشوشة لأن خطاباتها ولو أنها تحظى بشعبية، لم تمنع الفتيات من أن يحبلن، أو الفتيان من تدخين الحشيش، أو ترك المدرسة، أو المضي في السرقة. عرضت عليّ عددًا من الموضوعات الممكنة، لم أعرف شيئًا عن أيّ منها وعندما قلت ذلك غضبت مني: «مشكلتك هي أنك لم تعرفي يومًا الكفاح!» انتهينا إلى مشادة طويلة. هاجمت المواضيع «الناعمة» التي اخترتها للدراسة،

الكليات «الرديئة» التي تقدّمت إليها، «نقص الطّموح»، كما رأته، الذي ورثته من الجانب الآخر من عائلتي. انسحبت. تسكّعت في الطّريق العام جيئة وذهابًا لبعض الوقت أدخن السّجائر قبل أن أستسلم للمحتوم وأتوجه إلى منزل والدي. فقد رحلت ميرسي منذ زمن طويل، لم يكن هناك أحد منذ ذلك الحين، كان يعيش وحيدًا مرة أخرى وبدا لي منكوبًا، لم أعرفه أكثر حزنًا في أيّ وقت. أصبحت ساعات عمله – التي لا تزال تبدأ كل صباح قبل الفجر – مشكلة من نوع جديد بالنّسبة له: لم يعرف ماذا يفعل في أمسياته. رجل عائلة بالفطرة، كان تائهًا تمامًا دون عائلة، وتساءلت إذا ما أتى طفلاه الآخران، الأبيضان يومًا لرؤيته. لم أسأل – تحرّجت من السّؤال. لم أعد أخشى من سلطة والديّ عليّ، بل من أنهما قد يكشفان عن مخاوفهما الحميمة، سوداويتهما وحسراتهما. رأيت ما يكفي من كلّ هذا في والدي سلفًا. أصبح واحدًا من هؤلاء الناس الذين أحبّ سابقًا أن يخبرني عنهم، عن أنه التقاهم في طريقه وأشفق عليهم دومًا. رجال مُسنّون منزليّون يشاهدون عروض الأصيل إلى أن تبدأ عروض المساء، بالكاد يرون أحدًا، لا يفعلون شيئًا. مرّة مررت به وجاء لامبرت، لكن بعد فورة وجيزة من المرح بينهما، ترديا نحو أمزجة قاتمة ومتشككة، تلك التي تصيب الكهول ممن هجرتهم نسائهم، زادها سوءًا حقيقة أن لامبرت أهمل جلب أي عون في هيئة الحشيش. كان التّلفاز يعمل وجلسا قبالته في صمت لبقية الأصيل، مثل رجلين يغرقان متشبّثين بقطعة الخشب نفسها، بينما رتّبت المكان من حولهما.

راودتني أحيانًا فكرة أن التشكّي إلى والدي من أمي. قد يكون شكلًا من التسلية لكلينا، شيئًا يمكننا تقاسمه، لكن هذا لم يسر على نحو جيد أبدًا لأنني استهنت بشدة بالحب والإعجاب الذي ظلّ يكنّه لها. عندما أخبرته عن مكان الاجتماع وعن كوني أجبرت على التحدث

هناك، قال: «آه، حسنًا، ذلك يبدو مثل مشروع مثير للاهتمام، شيء للجماعة برمتها». بدا حزينًا. كم كان سيسعده حتى الآن أن يجرّ الكراسي عبر الطّريق، يسوّي مكبر الصّوت، يسكت الجمهور استعدادًا لصعود أمي على المنصة!

✧ اثنان ✧

ثمّة كومة من الملصقات الإعلانية، ليست نسخًا مصوّرة بل مرسومة يدويًّا، كل ملصق يعلن عن نقاش حول – «تاريخ الرّقص» – موضوعة حول المجمّع السّكني، حيث سرعان ما صارت مثلها مثل جميع الإعلانات العامّة، مشوّهة بطرق خلّاقة وقذرة، قطعة من الرسوم الجدارية، الجرافيتي، تفرّخ ردًّا، من ثم ردًّا على الرد دون نهاية. كنت أثبّت إعلانًا بمسامير صغيرة في ممشى عند المبنى الذي تُقيم فيه تريسي عندما شعرتُ بيدين على كتفيّ – ضغطة موجزة قاسية – التفتّ وإذا بها هناك. نظرت إلى الملصق لكنها لم تلمح إليه. تناولَت نظارتي الجديدة، وضعتها على وجهها وضحكت على صورتها المنعكسة في قطعة مشوهة من مرآة رقيقة ملصقة قرب لوحة الإعلانات. ضحكت ثانية عندما قدّمت لي سيجارة ورميتها، ثم ثانية على الحذاء الخفيف البائس الذي كنت أنتعله وقد سرقته من خزانة أمي. شعرت كما لو أنها عثرت على مفكرة يومية قديمة في جارور: رسالة تذكير بعهد أكثر براءة وحماقة في حياتها. مشينا معًا عبر الباحة وجلسنا على الحافة المعشبة عند مؤخرة المبنى، قبالة كنيسة القديس كريستوفر. أومأت نحو الباب وقالت: «ذلك لم يكن رقصًا حقيقيًا مع ذلك. أنا في مستوى آخر تمامًا الآن».

لم أشك في ذلك. سألت عن أمور مراجعتها وعلمت أنه لا يوجد امتحانات في مدرستها، كل ذلك انتهى في سن الخامسة عشرة.

حيث كنت مقيدة، كانت حرة! الآن اعتمدَ كل شيء على «نهاية عمل مسرحيّ مدرسيّ، ذلك الذي «تحضره معظم الوكالات الكبيرة» والذي كنت أيضًا مدعوّة إليه على مضض («في وسعي المحاولة والسّؤال من أجلك»)، وهنا اختيرت أفضل الراقصات، وجدن دورًا تمثيليًا وبدأن بتجارب الأداء من أجل الموسم الخريفي لبرامج «ويست اند» أو الفرق الجوالة المحلية.

تفاخرت بهذا الشأن. اعتقدت أنها أصبحت أكثر تباهيًا في العموم لا سيّما فيما يخصّ والدها. ادّعت أنه يبني بيتًا عائليًا كبيرًا من أجلها في كينغستُن وقريبًا سوف تنتقل للإقامة معه هناك، ومن هناك إلى نيويورك، مجرّد وثبة، قفزة، ونطّة، حيث سوف تحظى بفرصة الأداء على مسرح «برودواي»، حيث ثمّنوا الراقصين حقًا، ليس كما هو الحال عليه هنا. نعم، سوف تعمل في نيويورك لكن تقيم في جامايكا، في الشّمس مع لوي وأخيرًا تتخلص مما أتذكر أنها دعته «هذا البلد البائس اللعين» – كما لو أنها مجرد حادثة أنها عاشت هنا منذ البداية.

لكن بعد بضعة أيام رأيت لوي، في سياق مختلف تمامًا، حدث هذا في « كينتيش تاون». كنت أستقل سطح الحافلة العلوي، لمحته في الشّارع، يلف بذراعه امرأة حبلى في أشهر الحمل الأخيرة، من النّوع الذي اعتدنا تسميته «بنت بلد[32]»، تضع قرطين ذهبيين كبيرين على شكل هرمين، ترتدي الكثير من السلاسل وشعرها مزيت ومجمّد في شكل خصل صغيرة مجعّدة عند الجبهة وأخرى كثيفة طويلة ومدببة. كانا يضحكان ويتمازحان ويتبادلان القبل بين الحين والآخر. كانت تدفع عربة فيها طفل يبلغ من العمر سنتين تقريبًا وتمسك بيد طفل

32) Home girl: وهو تعبير يطلق على الفتاة التي تكون واحدة من معارف الشّخص، سواء من بلدته أو من حيّه، لا سيّما بين السّود في المدن.

في السّابعة أو الثّامنة من عمره. لم يكن أول ما خطر في بالي «من هؤلاء الأطفال؟» بل: «ماذا يفعل لوي في كينتيش تاون؟ لماذا يسير في شارع كينتيش تاون العام كما لو أنه يعيش هناك؟» حقًا لم أتمكن من التفكير أبعد من نصف قطر دائرة بطول ميل واحد.

فقط عندما توارايا عن نظري فكرت بكل المناسبات التي كذبت فيها تريسي أو تحايلت بشأن غيابه - توقفت عن البكاء بسببه عندما كانت فتية للغاية - دون أن تخمّن يومًا كم من المحتمل أنه قريب طوال الوقت. ليس في حفل المدرسة الموسيقي أو عيد الميلاد أو العرض أو يوم الرياضة أو حتى ببساطة في المنزل لتناول العشاء، لأنه ظاهريًا كان يخدم أمه المريضة دومًا جنوب كيلبورن، أو يرقص مع مايكل جاكسن، أو بعيدًا مسافة آلاف الأميال في جامايكا يبني بيت أحلام تريسي. لكن تلك المحادثة أحادية الجانب على الحافة المعشبة أكدت لي أنه لم يعد في وسعنا التحدث عن أمور خصوصية.

عوضًا عن ذلك، حدّثتُ أمي بما رأيته عندما وصلت إلى البيت. كانت تحاول إعداد العشاء، لحظة ضاغطة دومًا من اليوم، وتضايقت مني بسرعة وحرارة أكبر مما ينبغي.

لم أتمكن من فهم موقفها، عرفت أنها تكره لوي - إذن لماذا تدافع عنه؟ تصفق القدور هنا وهناك، تتحدث بشغف عن جامايكا وليس جامايكا المعاصرة بل جامايكا القرن التاسع عشر والثّامن عشر، وخلف وقتنا الراهن دفعت كينتيش تاون جانبًا باعتبارها تفاهة - تخبرني عن مربي الماشية والخيول، عن أطفال منتزعين من أذرع أمهاتهم، عن التكرار والعودة، عبر القرون، والرّجال الكثر المفقودين من سلالتها، بمن فيهم والدها، جميعهم رجال أشباح، لم يسبق أن شوهدوا عن قرب أو بوضوح يومًا. تراجعت عنها عندما تبجحت، إلى أن كنت

مضغوطة على حرارة باب الفرن. لم أعرف ماذا أفعل مع كل الحزن. مئة وخمسون عامًا! هل تملكين فكرة كم هي طويلة مئة وخمسون عامًا في عائلة الإنسان؟ فرقعت بأصابعها، وفكرت بالآنسة ايزابيل، وهي تختار الأطفال من أجل إيقاعات الرّقصة. قالت: بذلك الطول.

بعد أسبوع أضرم أحدهم نارًا في سقيفة الدرّاجات القديمة، الليلة التي سبقت اليوم الذي كان مزمعًا فيه أن أتحدّث، محوّلًا إياها إلى صندوق أسود من الكربون. جُلنا بها مع رجال الإطفاء. فاحت بصورة مريعة برائحة جميع الكراسي البلاستيكية التي كدّست إزاء الجدران وقد ذابت الآن واختلطت معًا. شعرت بالارتياح، بدا مثل عمل إلهي على الرغم من أن كل الدلائل أشارت إلى أنه من فعل شخص، وسريعًا استرجع فتيان لوي مكانهم. اليوم الذي تلا الحريق عندما كنت أنا وأمي معًا في نشاطنا المعتاد، قطع بعض الناس من ذوي النوايا الحسنة الشّارع ليعبّروا عن تعاطفهم أو يحاولوا أن يدخلوها بالموضوع، لكنها زمّت شفتيها وحدّقت بهم كما لو أنهم تفوهوا بأمر فظ أو شخصي. أظن أن قوة بهيمية اجتاحتها، لأنه كان خارج عالم اللغة المحبوب خاصتها، وردًّا عليه لم تملك ما تقوله. على الرغم من تصاميمها الثورية لا أظن أن أمي قد تكون ذات نفع كبير في ثورة حقيقية، ليس بعد انتهاء الحديث والاجتماعات وبدء العنف الفعلي. كان فيها ما يدل على أنها لم تتمكن من الإيمان بالعنف تمامًا، كما لو أنه من وجهة نظرها كان غاية في السّخف ليكون حقيقيًا. عرفت – من لامبرت فقط – أن طفولتها كانت زاخرة بالعنف العاطفي والبدني، لكنها نادرًا ما نوّهت عنه سوى بدعوته «ذلك الهراء» أو أحيانًا «هؤلاء الناس السّخفاء»، لأنه عندما تسنّمت إلى حياة العقل فإن كل ما ليس حياة عقل توقّف عن الوجود بالنسبة لها.

لـوي باعتباره ظاهـرة اجتماعية أو عرضًـا سياسـيًا أو مثـالًا تاريخيًّا أو ببساطة شخصًا نشأ في الفقر القروي الطّاحن نفسه الذي عرفته هي نفسها – شخصًا تعرفّت عليه، وأنا أؤمن أنها فهمته بالتفصيل – لـوي ذاك تمكنت أمي من التعامل معه. لكن نظرة التخلي التّام على وجهها عندما قادها رجال الإطفاء إلى زاوية قصية من السّقيفة لترى البقعة التي أضرم النيران فيها شخص عرفته شخصيًا، وقد حاولت أن تنهاه، لكن على الرغم من هذا، اختار أن يدمر بعنف ما ابتكرته بمودّة – هذه النظرة هي شيء لم أنسه أبدًا. لم يضطر لوي حتى لأن يفعلها بنفسه وعلى حدٍّ سواء لم يتوجب عليه إخفاء أنه من أمر بفعلها. بل على العكس أراد أن يكون معروفًا: كان عرضًا للقوة.

في البداية ظننت أن هذه النار دمّرت عنصرًا أساسيًا في أمي. لكنها أعادت تنظيم صفوفها بعد بضعة أسابيع، بعد أن أقنعت القس بالسّماح لها بنقل اجتماعات جمهورها إلى غرفة الكنيسة الخلفيّة. تبين أيضًا أن الحادثة مفيدة لحملتها بطريقة ما: كانت التأكيد المرئي الحرفي «للعدمية المدنيّة» التي غالبًا ما تحدّثت عنها وشيّدت حملتها من حولها جزئيًّا. ليس بعد وقت طويل أصبحت عضو مجلسنا المحلي. وهنا بدأ الفصل الثاني من حياتها، الفصل السّياسي – الذي أنا على يقين من أنها اعتبرته فصل حياتها الحقيقي.

ثلاثة

انتهى البناء مع بداية الموسم الماطر في شهر تشرين الأوّل. وللاحتفال به، كان مخططًا إقامة حدث في الفناء الجديد، نصف ملعب كرة قدم ذي أرضية ممهّدة. لم نكن منخرطين في التخطيط – لجنة أعمال القرية قامت بذلك – ولم تصل إيمي حتى صباح اليوم نفسه. لكن كنت على الأرض لأسبوعين، وازددت قلقًا بشأن الأمور اللوجستية، نظام الصّوت، حجم الحشد، والقناعة التي تقاسمها الجميع – كبارًا وصغارًا، الكالو، لامين، هاوا وجميع أصدقائها – عن أن الرئيس بنفسه سوف يظهر. كان من الصّعب تحديد مصدر هذه الشّائعة. سمع الجميع بها من شخص آخر، لم يكن ممكنًا الحصول على معلومات إضافية، غمزات وابتسامات فقط، عندما افترض أننا نحن «الأمريكيون» كنا خلف الزيارة بأيّ حال.

قالت هاوا ضاحكة: «تسألينني إذا كان قادمًا؟ لكن ألا تعرفين ؟»

غذّت الشّائعة ودورة الحدث سريعًا واحدتهما الأخرى: أوّلًا ثلاث مدارس حضانة محليّة سوف تشارك في الاستعراض، ثم خمس، ثم خمس عشرة. أولًا كان الرئيس قادمًا، ثم قادة السّنغال أيضًا، توجو وبينين، وهكذا أضيفت إلى حلقة طبول الأمهات نصف دزينة من الموسيقيين يعزفون على آلات الكورا طويلة العنق وفرقة شرطة

موسيقية. بدأنا نسمع أن جماعات من عدة قرى أخرى يستقلون الحافلات وأن دي جي سنغالي شهير سوف يعزف بعد الأحداث الرسمية. شيء آخر كان يجري تحت كل هذا التخطيط الصّاخب، دمدمة خفيضة من الشّك والسّخط لم أتمكّن من سماعها في البداية، لكن فرناندو تعرف عليها في الحال. لأنه ما من أحد عرف بالضّبط مقدار النقود الذي أبرقه قوم إيمي إلى المصرف في سيريكوندا، وهكذا لم يستطع أحد أن يكون متيقنًا من المقدار الذي تلقاه لامين شخصيًا، ولم يستطع أحد تحديد مقدار المال الذي بعد أن وضع في المغلف، وصل لاحقًا إلى منزل الكالو، وكم ترك في ذلك المنزل مع فاتو أمينة صندوقنا، قبل أن يحط الباقي أخيرًا في خزائن مجلس القرية نفسه. لم يتّهم أحدٌ أحدًا، ليس على نحو مباشر. لكن جميع المحادثات لا يهم أين بدأت، بدا أن المطاف ينتهي بها تدوّر السّؤال الملفوف عادة داخل بنى تشبه المثل من قبيل: «إنه طريق طويل من سيريكوندا إلى هنا» أو «هذان الزوجان من الأيدي، ثم هذان الزوجان، ثم سواهما. أيدٍ كثيرة! من سوف يحافظ على نظافة ما مسته كثير من الأيدي؟»

اشمأز فِرن – كما صرت أدعوه أنا أيضًا الآن – من السُّخف العام: هو لم يعمل أبدًا مع بلهاء مثل هؤلاء في نيويورك، حسبهم أنهم اختلقوا المشاكل ولم يكن لديهم تصوّر للعملية أو الواقع المحلي. هو أيضًا أصبح آلة إنتاج أمثال: «في الفيضان يذهب الماء إلى كل مكان، ليس عليك التفكير في ذلك. في الجفاف، إذا كنت تريد الماء فعليك توجيهه بحذر على امتداد كل بوصة من دربه». لكن قلقه الوسواسي، ما دعاه «تذليل العقبات»، لم يزعجني بعد الآن: لقد ارتكبت الكثير من الأخطاء، يوميًا، ليس لأفهم الآن أنه عرف أفضل. لم يكن ممكنًا بعد الآن تجاهل الفرق الحقيقي بيننا، الذي تجاوز كثيرًا تعليمه المتفوق،

شهادة الدكتوراه، أو حتى تجربته الاحترافية. كان يتعلق بنوعية الانتباه. هو أصغى وانتبه.

كان أكثر انفتاحًا. كلما وقعت عيني عليه في مسيرتي اليومية التي كنت أمشيها على مضض حول القرية – أمرٌ فعلته فقط بُغية التمرين وللهرب من رهاب الاحتجاز في دار هاوا – كنت أجد فرن عالقًا في حوار كثيف مع رجال ونساء من كل عمر وظرف، يجثم بالقرب منهم وهم يأكلون، يعدو قرب عربات تجرّها الحمير، جالسًا يشرب الشّاي بالنعناع مع الرّجال المسنين عند بسطات السّوق ودومًا يستمع، يتعلم، يطلب المزيد من التفاصيل، لا يستنتج شيئًا قبل أن يقال له. قارنت كل هذا مع طريقتي في الوجود. ألزم غرفتي الرطبة قدر الإمكان، لا أتحدّث إلى أحد إذا استطعت ذلك، أقرأ الكتب حول المنطقة بضوء الكشّاف، وأشعر بحنق قاتل، أنا المراهقة بطبيعتي، نحو صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، الهولندي الذي اشترى العبيد، الزعماء المحليين الذين باعوهم، وكثير من المفاهيم العقلية البعيدة التي لم أتمكن من تدميرها عمليًّا.

أصبحت أوائل الأمسيات الجزء الأثير من كل يوم، عندما رحت أسير نحو منزل فِرن وأتناول معه عشاءً بسيطًا في المنزل الزهري، طهته لنا نفس السّيدات اللواتي أطعمن المدرسة. قدر صفيح واحد مليء بالأرز، أحيانًا مع الطماطم الخضراء فقط أو مدفون فيه الباذنجان، وأحيانًا أخرى مع وفرة من الخضار الطازجة وسمك هزيل جدًا لكنه لذيذ وضع على القمة التي سمح لي فرن بكرمه أن أمزقها أولًا. قال لي أول مرة أكلنا بهذا الشكل، يد كل منا في القدر نفسه: «نحن أنسباء الآن، يبدو أنهم قرروا أننا عائلة». منذ زيارتنا الأخيرة تعطّل المولّد، لكن لمّا كنا الشّخصين الوحيدين اللذين نستخدمه اعتبر فِرن أن هذه «أولوية منخفضة» – اعتبرتها أولوية عالية لنفس السّبب – ورفضت

أن أخسر يومًا في السّفر إلى المدينة بحثًا عن بديل. لذا الآن ما إن غربت الشّمس، ربطنا كشّافات الرأس الصغيرة وتيقّنا من أن نميلها فلا نبهر بصر بعضنا، وتحدثنا حتى وقت متأخر من الليل. كان صحبة جيدة. امتلك عقلًا فطنًا شفوقًا مشكلًا. مثل هاوا، هو لم يكتئب، لكنه استطاع ذلك ليس بالنظر بعيدًا، بل بالنظر عن كثب، معتنيًا بكل خطوة منطقية في أي مشكلة خاصّة، لذا ملأت المشكلة نفسها كل مكان عقليّ متاح. قبل الحفلة ببضع ليال، بينما جلسنا نتأمل الوصول الوشيك لجرانجر وجودي والبقية – ونهاية نسخة مسالمة من حياتنا هنا – شرع يخبرني عن مشكلة جديدة في المدرسة: ستة طلّاب غائبين منذ أسبوعين عن صفوفهم. لم تربط فيما بينهم صلة قربى. لكن قال له المدير: إن غيابهم جميعًا بدأ يوم عاد فرن إلى القرية.

«منذ وصولنا؟»

«نعم!» وفكرت: لكن هذا غريب، ما السبب؟ أولًا، سألت هنا وهناك. يقول الجميع: «أوه، لا نعرف. ربما لا شيء. أحيانًا الأطفال عليهم العمل في البيت». أعود إلى المدير وأحصل على قائمة بالأسماء. ثم أذهب عبر القرية إلى مساكنهم، واحدًا واحدًا. ليس سهلًا. ما من عنوان، عليك أن تتبعي حدسك. لكني أجد الجميع. «أوه، إنها مريضة»، أو «إنه يزور ابن عمه في البلدة». لدي شعور بأن ما من أحد يخبرني بالحقيقة. ثم كنت أنظر إلى القائمة اليوم وأفكر: هذه الأسماء مألوفة. أعود إلى أوراقي وأجد قائمة التمويل هذه – تتذكرين؟ هذا الأمر الذي فعله جرانجر على نحو مستقل. إنه رجل عذب، يقرأ كتابًا عن التمويل... بأيّ حال، أنظر إلى هذه القائمة وأجد أنها العائلات الست نفسها بالضبط! الأمهات جميعهن نفس النّساء اللواتي أعطاهن جرانجر هذه الثلاثين دولارًا من أجل بسطات السّوق. بالضبط. لذا

أفكر: ما العلاقة بين الدولارات الثلاثين وهؤلاء الأطفال المفقودين؟ الآن الأمر واضح: أمهاتهم اللواتي لم يتمكن من تسديد دينهن على أي جدول رتبه جرانجر معهن، استنتجن أن المال سيسترد عن آخره من رسوم مدرسة أطفالهن، وسوف يشعر الأطفال بالعار! يروننا في القرية، «الأميركيون»، ويفكرون: «من الأفضل إبقاء هؤلاء الأطفال في البيت!» يا له من ذكاء، يبدو منطقيًا.

«مسكين جرانجر. سوف يشعر بالخيبة. كانت نيته حسنة».

«لا، لا، لا... لقد حل الأمر بسهولة. حسبي أني أراه مثالًا مثيرًا للاهتمام يُقتدى به. أو لعدم الاقتداء به. أظن أن التمويل فكرة جيدة أو ليست فكرة سيئة. لكن قد يتوجب علينا تغيير جدول السداد الزمني».

خلال واحدة من النوافذ المكسورة رأيت حافلة صغيرة تدمدم على الطّريق الوحيد الجيّد في ضوء القمر. يتدلّى منها أولاد حتى في مثل هذه السّاعة، وثلاثة شبان يستلقون على بطونهم على سطحها، يحتجزون مفرشًا بثقل أجسادهم. شعرت بموجة السّخف تلك، من انعدام المعنى التي تستولي عليّ عادة في ساعات الصّباح الباكر، مستيقظة قرب هاوا النائمة بعمق عندما اهتاجت الديكة على الجانب الآخر من الجدار.

«لا أعرف... ثلاثين دولار هنا، ثلاثين دولار هناك...»

قال فِرن بابتهاج: «نعم؟» هو أخفق في كثير من الأحيان في اصطفاء النبرة – وعندما رفعت بصري رأيت في وجهه كثيرًا من التفاؤل والاهتمام بهذه المشكلة الصغيرة الجديدة التي أغضبتني. أردت أن أحطّمها.

«لا، أعني – انظر، اذهب إلى المدينة، إلى كل قرية أخرى في الأنحاء، ترى هؤلاء الأولاد من البيس كوربس، المبشرين، الجمعيات

الخيرية، كل هؤلاء البيض أصحاب النوايا الحسنة منشغلين بالقلق حول بضعة أشجار – كما لو أن ما من واحد منكم يرى الغابة!»

«الآن أنت من يتحدث بالأمثال».

وقفت وبدأت أنقب حالًا في كومة من التجهيزات في الزاوية، أبحث عن موقد الغاز من ماركة كالور وإبريق الشّاي.

«ما كنتم لتقبلوا بهذه... الحلول المجهرية في بيوتكم، في أوطانكم – لماذا علينا أن نقبل بها هنا؟»

سأل فرن: «نحن؟» ثم ابتسم.

«انتظري، انتظري». جاء إلى حيث كنت أكافح مع علبة الغاز وانحنى ليساعدني في ربطها بالحلقة التي كنت أتعامل معها برداءة بسبب مزاجي السيّئ. تقارب وجهانا كثيرًا.

«هؤلاء الناس بيض البشرة حسنو النوايا. أنت تفكرين كثيرًا بشأن العرق – هل سبق أن أخبرك أحد بذلك؟ لكن انتظري: أنا أبيض بالنسبة لك؟»

أجفلني السّؤال للغاية فبدأت أضحك.

تراجع فِرن: «حسنًا، إنه مثير للاهتمام بالنسبة لي. في البرازيل لا نعتبر أنفسنا بيضًا. على الأقل عائلتي لا تفعل. لكنك تضحكين – هذا يُفَسّر بنعم، تظنين أنني كذلك؟»

«أوه، فرن...» من لنا هنا سو بعضنا؟ وجّهت الكشّاف بعيدًا عن حيث أضاء الهَمّ العذب في وجهه الذي لم يكن في النهاية أكثر شحوبًا من وجهي. «لا أظن أن ما أفكر فيه يهم، هل يهم؟»

قال عائدًا إلى كرسيه: «أوه، لا، إنه يهم»، وعلى الرغم من المصباح الخامد فوق رأسينا فقد اعتقدت أنني رأيته يتورّد. ركزت على البحث عن زوجين صغيرين ودقيقين من الأقداح الزجاجية المغربية

المصبوغة بالأخضر. قال لي مرة إنه حملهما معه في أسفاره إلى كل مكان، وهذا الاعتراف كان واحدًا من تنازلات قليلة من التي سمعت فرن يعترف بها عن مُتَعه الشخصية، للراحة.

قال عائدًا إلى الوراء في كرسيه ومادًّا ساقيه مثل أستاذ في مكتبه: «لكن أنا لست مستاء، لا، كل هذا يثير اهتمامي، ما نفعله هنا، ما هو أثرنا، ما الذي سيبقى كإرثٍ خلفنا، وهلم جرا. كل شيء يجب التفكير بشأنه بالتأكيد. خطوة خطوة. هذا المنزل مثال جيد».

مدّ يده نحو يسراه وربّت على رقعة من سلك مكشوف في الجدار. «ربما دفعوا للمالك، أو ربما لا يعرف أننا نقيم فيه. من يعلم؟ لكن الآن نحن فيه وكل القرية ترى أننا فيه، وهكذا الآن يعرفون أنه لا ينتمي مبدئيًا لأحد، أو لأي شخص قد تقرّر الدولة في نزوة من نزواتها أن تعطيه. إذن ما الذي سوف يحدث عندما نغادر، عندما تنطلق المدرسة الجديدة ونتوقف عن زيارة المكان هنا – أو على الإطلاق؟ ربما سوف تنتقل عدة عائلات إلى هنا، ربما سوف يصبح المكان ملكيّة مشتركة. ربما. أخمن أنه سوف يتجزأ حجرًا حجرًا». خلع نظارته ودلكها بحافة قميصه: «نعم، أوّلًا شخص ما سوف يأخذ الأسلاك، ثم الكسوة، فالبلاط، لكن في النهاية كلّ حجر سوف يُعاد من جديد. هذا رهاني... قد أكون مخطئًا، سوف يتوجّب علينا أن ننتظر ونرى. أنا لست بارعًا مثل هؤلاء الناس. ما من أحد أكثر براعة من الفقراء أينما وجدتهم. عندما تكونين فقيرة فيجب التفكير على كل مستوى. الثروة هي النقيض. مع الثروة تصبحين عديمة التفكير».

«لا أرى أي شيء بارع حول الفقر مثل هذا. لا أرى أي شيء بارع حول امتلاك عشرة أطفال عندما لا تستطيع أن تتحمل نفقة واحد».

وضع فرن نظارته وابتسم لي بحزن وقال: «يمكن للأطفال أن

يكونوا ثروة».

لبثنا صامتين إلى حين. فكرت – ولو أنني حقًا لم أرغب في ذلك – بسيارة تعمل بالتحكم عن بعد، حمراء براقة، ابتيعت من نيويورك من أجل فتى صغير في المجمّع السّكني كنت مولعة به بشكل خاص، لكنها جاءت بمشكلة غير متوقعة بالبطاريات – لم أتوقعها أنا. توفّرت النقود لشراء البطاريات أحيانًا، ومعظم الوقت لم تتوفر، وهكذا رفعت السّيارة على رفٍّ كنت قد لاحظت أن هاواا احتفظت به في غرفة الجلوس، مملوء بأشياء الزّينة لكن عديمة الفائدة، جلبها الزوار الأغبياء لتبقى بصحبة عدة أجهزة راديو معطلة، وإنجيل من مكتبة في ويسكونسن وصورة للرئيس في إطار مكسور.

قال فِرن بحزم عندما بدأت الرّكوة تصفّر: «أرى عملي بهذا الشّكل، أنا لست من عالمها، هذا واضح. لكني هنا. لذا، عندما تشعر بالملل...».

«عندما تشعر بالملل؟»

«عملي هو أن أحرص على ترك شيء مفيد على الأرض، مهما حدث».

«لا أعرف كيف تفعله».

«أفعل ماذا؟»

«التعامل مع القطرات في حين يمكنك رؤية المحيط».

«أمثولة أخرى! قلت إنك كرهتها، لكن انظري كم التقطت من العادات المحلية!»

«هل سنشرب الشّاي أم ماذا؟»

قال وهو يصب السّائل الدّاكن في كأسي: «في الواقع، إنه أسهل، أحترم الشّخص الذي يمكنه التفكير بالمحيط. عقلي لم يعد يعمل بتلك

الطّريقة. ربما عندما كنت شابًا مثلك، ليس الآن».

لم أعد أستطيع معرفة إذا كنا نتحدّث عن العالم كله، عن القارة عمومًا، عن القرية بشكل خاص، أو ببساطة عن إيمي التي برغم كل مقاصدنا الخيرة، كل أمثالنا، ما من واحد منا بدا قادرًا على التفكير فيها بوضوح شديد.

معظم الأيام أيقظتني عند الخامسة الديكة وأذان الصلاة، اعتدت على العودة إلى النّوم حتى العاشرة أو يزيد، الذهاب إلى المدرسة في وقت الفترة الثّانية أو الثّالثة. صباح وصول إيمي، مع ذلك، شعرت بتصميم نشط أن أرى اليوم كاملًا، لأستمتع به وهو لا يزال ملكي. فاجأت نفسي – وهاوا، لامين، وفرن بالظهور عند السّاعة الثامنة عند باب المسجد، حيث عرفت أنهم يلتقون كل صباح دوني ويمشون معًا إلى المدرسة. كان جمال الصباح مفاجأة أخرى: ذكرني بتجاربي الأولى في أميركا. في نيويورك عرفت لأول مرة إمكانيات الضّوء، متكسرًا عبر الفجوات في الستائر، محولًا الناس والأرصفة والمباني إلى أيقونات ذهبية، أو ظلال سوداء، بحسب مكان وقوفهم بالعلاقة مع الشّمس. لكن الضوء أمام المسجد، الضوء الذي وقفت فيه وأنا أتلقى التحية مثل بطل محلي، ببساطة للنهوض من السّرير بعد ثلاث ساعات من نهوض معظم النّساء والأطفال الذين عشت معهم كان هذا الضّوء شيئًا آخر ثانية. أزّ واحتجزك في حرارته، كثيفًا وزاخرًا بغبار الطلع والحشرات والطيور، ولأن لا شيء أعلى من طابق واحد وقف أمام دربه، فقد منح كل عطاياه مرة واحدة، مباركًا كل شيء بالتساوي، انفجار من إنارة متزامنة.

سألت لامين: «ماذا تدعو هذه الطيور؟ الطيور البيضاء الصغيرة ذات المناقير الحمراء؟ إنها جميلة».

أمال لامين رأسه إلى الخلف وتجهم.

«تلك؟ إنها مجرد طيور، ليست مميزة. تظنين أنها جميلة؟ لدينا طيور أكثر جمالًا من هذه في السّنغال».

ضحكت هاوا: «لامين، أنت تبدو مثل نيجري الآن! أوَ تحب ذلك النهر؟ لدينا نهر أجمل بكثير في لاجوس».

تغضّن وجه لامين في ابتسامة خجولة لا تقاوم: «أنا فقط أقول الحقيقة، عندما أقول إن لدينا طائرًا مشابهًا لكن أكبر. إنه أكثر إثارة للإعجاب» –

وضعت هاوا يديها على خصرها النحيل ونظرت إلى لامين نظرة جانبية مغازلة: رأيت كم أبهجته. كان عليّ أن أرى ذلك من قبل. بالتأكيد أحبها. من لن يحبها؟ أحببت الفكرة. تطلعت لأخبر إيمي أنها تركز اهتمامها في المكان الخطأ.

أعلنت هاوا وهي تتطلع نحو قريتها: «حسنًا الآن تبدو كأميركي. أظن أن كل مكان يتمتع بحصته من الجمال، الحمد لله. وهنا المكان جميل مثل أي مكان آخر أعرفه».

بعد قليل، مع ذلك، سرت عاطفة جديدة على وجهها الجميل، وعندما تطلعتُ إلى حيث بدت أنها تنظر، رأيت شابًا واقفًا قرب مشروع الأمم المتحدة الجديد للمياه الجوفيّة، يغسل ذراعيه حتى المرفقين، ويرمقنا بنظرة كئيبة مساوية. كان واضحًا أن هذين الاثنين مثّلا نوعًا من الاستفزاز لبعضهما. وفيما نحن نقترب أكثر ميزت أنه انتمى إلى نوع رأيته من قبل هنا وهناك، على العبّارة، يمشي على الأرصفة، غالبًا في المدينة لكن نادرًا في القرية. له لحية كثّة وعمامة بيضاء مربوطة حول رأسه على نحو غير محكم يحمل حزمة من نخيل الرافيا على ظهره وسرواله مقصوص بغرابة يرتفع عدة بوصات فوق الكاحل. غندما

ركضت هاوا تتقدمنا لتحييه سألت لامين عنه. قال لامين عائدًا إلى همسه المعتاد وقد تزركش الآن باستنكار لاذع: «إنه ابن عمها موسى، إنه لشؤم أن نلتقيه هنا. يجب ألا تهتمي لأمره. كان متبطلًا والآن هو ما شاء الله، هو مشكلة لعائلته وعليك ألا تلقي إليه بالًا ». لكن عندما وصلنا إلى هاوا وابن عمها، حيّاه لامين باحترام وحتى بقليل من الارتباك، ولاحظت أن هاوا أيضًا بدت خجلة منه – كما لو أنه مسن وهو ليس أكثر من فتى – ومتذكرة أن حجابها قد انزلق إلى عنقها الآن رفعته حتى غطى كل شعرها. قدمتني هاوا إلى موسى بتهذيب بالإنكليزية.

أومأنا لبعضنا. بدا أنه يكافح ليثبت نظرة معينة على وجهه، من سكون لطيف مثل ملك زائر من أمة أكثر استنارة.

تمتم قائلًا: «كيف حالك هاوا».

وهي التي كان دومًا لديها الكثير لتقوله ردًا على ذلك السّؤال، تغلبت على نفسها في وصف متعثر قلق: كانت بخير، جداتها كن بخير، العديد من أبناء الإخوة وبنات الإخوة بخير، الأميركيون بخير، والمدرسة سوف تفتتح مساء الغد وكان مزمعًا أن يقام احتفال كبير، كان دي جي خالي يعزف – هل تذكر ذلك الحين على الشّاطئ يرقص على خالي؟ أوه، يا رجل، كان ذلك مسليًا! – وأتى الناس من منبع النهر، من السّنغال، من كل مكان، لأن ما يجري كان رائعًا، مدرسة جديدة للفتيات، لأن التعليم أمر على قدر كبير من الأهمية، لا سيما بالنسبة للفتيات.

كان هذا الجزء الأخير من أجلي وابتسمت لأبدي استحساني. أومأ موسى، ببعض القلق كما اعتقدت، عبر كل هذا، لكن الآن هاوا توقفت أخيرًا، التفتت قليلًا نحوي أكثر من ابنة عمه وقال بالإنجليزية: «للأسف لن أكون هناك، الموسيقى والرّقص من الشّيطان. مثل الكثير من الأمور هنا هي عادة، عرف، وليست دينًا. في هذا البلد نرقص

مبتعدين عن حيواتنا. كل شيء هو حجّة للرقص. بأية حال، أنا مغادر في «خروج» اليوم إلى السّنغال». خفض بصره نحو الصّندل الجلدي البسيط الذي انتعله كما لو ليتحقق من أنه جاهز للرحلة. «أنا ذاهب إلى هناك من أجل الدّعوة، كي أدعو وأزور».

عند هذا ضحك لامين ساخرًا بشدة، وابن عم هاوا أجاب لامين بحدة بلغة الولوف أو ربما الماندينكا – ولامين ردّ على موسى، ورد ثانية، بينما وقفت هناك، أبتسم بتلك التكشيرة البلهاء الخرقاء من عدم الفهم.

صرخت هاوا فجأة بالإنجليزية: «موسى، نحن نفتقدك في البيت!» تعانق بعاطفة حقيقية ذراع ابن عمها اليسرى النّحيلة كما لو أنها لم تتجرأ على معانقة جزء أكبر منه، وهو أومأ مرات عديدة ثانية لكن لم يجب. فكرت أنه قد يغادرنا هنا – فأخذه ورده مع هاوا ولامين كان قد بدا لي من النّوع حيث يتوجب على شخص ما حقًا أن يغادر فيما بعد – لكن بدلًا من ذلك مشينا جميعنا معًا نحو المدرسة. وضع موسى يديه خلف ظهره وبدأ يتحدث، بتيار لطيف هادئ خفيض بدا لي أشبه بمحاضرة، استمعت إليها هاوا باحترام، لكن لامين ما فتئ يقاطعها، بطاقة متزايدة وصوت، بأسلوب لم أتمكن أن أميزه على أنه أسلوبه. معي كان ينتظر حتى أنتهي من كل جملة، ويترك فجوات طويلة من الصّمت قبل أن يجيب، صمت توصلت للتفكير به على أنه مقابر تحادثيه، حيث أي شيء أخرق أو غير ممتع قدمته له أرسل ليدفن. كان لامين الغاضب المواجه هذا غريبًا للغاية بالنسبة لي، حتى أني شعرت كما لو أن لامين، لم يكن يرغب أن أراه يتصرف على هذا النحو. حثثت الخطو قليلًا وعندما كنت أتقدمهم جميعًا بضعة ياردات التفتّ لأرى ما الذي يجري، ورأيت أنهم أيضًا قد توقفوا. موسى ممسك

برسغ لامين: كان يشير إلى ساعته الكبيرة المكسورة ويقول شيئًا بوقار شديد. استعاد لامين ذراعه وبدا عابسًا وموسى ابتسم كما لو أن كل هذا كان ممتعًا للغاية أو ضروريًا على الأقل، صافح لامين على الرغم من خلافهما الظّاهر، قَبِلَ عناقًا آخر لذراعه من هاواي، أومأ لي عبر الطّريق، والتفت نحو الطّريق الذي جاء منه.

قالت هاواي وهي تهزّ رأسها وهي تقترب مني: «موسى، موسى، موسى... كل شيء عند موسى الآن غواية، نحن غواية. إنه لأمر غريب جدًا، كنا أترابًا، لعبنا معًا دومًا، مثل أخ لي. أحبيناه في البيت، وأحبّنا، لكنه لم يستطع البقاء. نحن عتيقو الطراز بالنسبة له الآن. يريد أن يكون عصريًا. يريد أن يعيش في المدينة: فقط هو، زوجة، ابنان، والله. هو محق بأية حال: عندما تكون شابًا، تعيش بجنون مع عائلتك، من الصّعب أن تكون نقيًا للغاية». قالت وهي تنظر نحو جسدها كما نظر ابن عمها إلى صندله بفضول، كما لو أنهما انتميا إلى شخص آخر: «أحب أن أعيش بجنون – أوه، لا أستطيع أن أمنع نفسي، لكن ربما عندما أكون أكبر سنًا، ربما عندما أكبر سوف أكون أكثر حكمة، سوف نرى». بدت شبه مستمتعة، بالتفكير بهاوا الآن وهاوا مستقبلًا، لكن لامين كان مشغولًا. «ذلك الفتى المجنون يقول للجميع، لا تصلوا هكذا، وصلوا كذلك، صالب ذراعيك على جسدك، لا تضعهما إلى جانبيك! في بيت عائلته هو يدعو الناس سيلا كيبا، أي عتيقو الطراز – هو ينتقد جدته! لكن ماذا يعني مسلم قديم، مسلم حديث؟ نحن شعب واحد! هو يقول لها: لا، ليس عليك أن تقيمي احتفالًا كبيرًا للتسمية، بل متواضعًا، دون موسيقى، دون رقص – لكن جدّة موسى من السّنغال، مثلي – عندما يأتي مولود نرقص!»

بدأت هاواي وحضّرت نفسي لحديث طويل: «الشّهر الماضي

أنجبت ابنة عمي فاتو ابنها البكر، مامادو، وكان عليك أن تري هذا المكان ذلك اليوم، كان لدينا خمسة موسيقيين يرقصون في كل مكان، كان الطّعام وفيرًا – أوه! لم أتمكّن من تناول كلّ شيء، كنت أتألم من كل هذا الطعام وكل ذلك الرّقص، وابنة عمي فاتو كانت تشاهد أخاها يرقص مثل...»

قاطعها لامين: «وموسى متزوج الآن، وكيف تزوج؟ وبالكاد يوجد أحد هناك، ما من طعام – بكت جدتك لأيام!»

«هذا صحيح... جداتنا يحببن الطهو».

قال وهو يريني لسبب ما يده اليمنى ويديرها: «لا تلبسي مفاتن، لا تذهبي إلى... ندعوهم المرابطين – وفي الواقع لا أذهب إليهم، أنا مختلف ربما بوجه من الوجوه عن والدي، عن والده، لكني هل أقول للكبار ما يفعلونه؟ وموسى قال لجدته إنها لا تستطيع الذهاب؟!»

كان لامين يخاطبني، ولو أني لم أعرف من هو المرابط، أو لماذا سوف تذهب إلى واحد منهم. تظاهرت بالغضب.

أسرّت هاوا: «يذهبن طوال الوقت – جداتنا. جدتي أعطتني هذه». رفعت رسغها وأعجبت بإسورة فضية جميلة تتدلى منها تعويذة صغيرة.

طلب لامين: «من فضلك أرني أين يقال إن احترام المسنين إثم؟ لا يمكنك أن تريني ذلك. الآن يريد أن يأخذ ابنه الجديد إلى المستشفى الحديث بدلًا من مستشفى الأجمة. ذلك هو خياره. لكن لماذا لا يستطيع الفتى أن يحظى باحتفال بقدومه؟ سوف يحطم موسى قلب جدته ثانية بهذا، أعدك. لكن سوف يقول لي هذا وذاك فتى الغيتو الذي لا يعرف العربية؟ عدو، شيطان – هذا فقط ما يعرفه باللغة العربية! ارتاد مدرسة تبشيرية كاثوليكية! يمكنني أن أتلو كل حديث،

كل حديث. لا، لا».

كان أطول خطابات لامين وأكثرها إثارة للعواطف، الأكثر إثباتًا، وحتى هو بدا متفاجئًا به، متوقفًا لثانية ليمسح العرق عن جبهته بمنديل أبيض مطوي احتفظ به لهذا الغرض في جيبه الخلفي.

بدأت هاوا: «أقول إن الناس دومًا سوف يملكون اختلافاتهم» لكن لامين قاطعها ثانية: «من ثمّ يقول لي» أشار لامين إلى ساعته المكسورة: «هذه الحياة لا شيء بالمقارنة مع الحياة الأبدية – هذه الحياة التي نحن فيها الآن هي فقط النصف الثّاني قبل منتصف الليل. أنا لا أعيش من أجل هذا النصف الثاني لكن من أجل ما يأتي بعده. لكنه يظن لأنه يصلي وذراعاه مطويتان عبر صدره هو أفضل مني؟ لا. قلت له: اقرأ العربية، موسى، هل تفعل؟ صدقيني، موسى رجل مشوش».

قالت هاوا: «لامين... أظن أنك غير منصف بعض الشّيء، موسى فقط يريد أن يؤدي الجهاد، وما من خطب مع الجهاد – « لابد أن وجهي بدا مجفلًا: أشارت هاوا إلى أنفي وانفجرت ضاحكة: «انظر إليها! أوه، يا رجل! تظن أن ابن عمي يريد أن يذهب ويقتل الناس – أوه لا، هذا مضحك – ماشا الله لا يملك حتى فرشاة أسنان، ناهيك عن السّلاح – هاهاها!»

أشار لامين إلى صدره، أقل استمتاعًا، وعاد إلى الهمس: «لا مزيد من الريغي، لا مزيد من التجول في الغيتو، لا مزيد من تدخين الماريوانا. هي تعني هذا. موسى اعتاد أن يجدل شعره – تعرفين ماهي؟ حسنًا، إذن جدائل تصل حتى هنا! لكن الآن هو في هذا الجهاد الروحي، في الدّاخل. هي تعني هذا».

أعلنت هاوا وهي تتنهد بعذوبة: «أتمنى لو أني كنت شديدة النقاء! أوه، أوه... إنه لأمر جيد أن تكون طاهرًا – ربما!»

قال لامين وهو يتجهم: «حسنًا، بالتأكيد هو كذلك، نحن جميعًا نحاول أن نؤدي الجهاد، كل يوم على طريقتنا، بقدر ما نستطيع. لكنك لست بحاجة إلى أن تقصري سروالك وتهيني جدّتك. موسى يرتدي مثل هندي. نحن لسنا بحاجة إلى هذا الإمام الغريب هنا – لدينا إمامنا!»

كنا قد وصلنا إلى بوابة المدرسة. فتلت هاوا تنورتها الطويلة التي تزحزحت جراء المشي، إلى أن استقامت ثانية على وركيها.

«لماذا سرواله بذلك الشّكل؟»

قالت هاوا بخفوت: «أوه تعنين قصير؟» بموهبتها تلك التي تملكها التي تجعلني دومًا أشعر بأني طرحت السّؤال الأكثر بداهة على الإطلاق. «كي لا تحترق قدماه في الجحيم!»

تلك الليلة تحت سماء صافية بشكل رائع ساعدت فرن وفريقًا من المتطوعين المحليين في وضع ثلاثمائة كرسي، ونصب مظلات بيض لتسلقها ووضع أعلام على أعمدة وطلاء مرحبًا إيمي على جدار. إيمي نفسها، جودي، جرانجر وفتاة العلاقات العامة، كانوا جميعًا نيامًا في الفندق في بانجول، منهكين من رحلتهم، أو من فكرة المنزل الزهري، لم يعلم أحد. كان الحديث عن الرئيس من حولنا. تحملنا نفس النكات مرارًا وتكرارًا: كم عرفنا، أو كنا ندعي أننا لا نعرف، أو من مِن بيننا نحن الاثنان عرف أكثر. لم يشر أحد إلى إيمي. بين هذه الشائعة الهوجاء والشائعة المضادة لم أستطع معرفة فيما إذا تاقت إلى زيارة من الرئيس وخشيتها. شرح فرن، ونحن نغرز قوائم الكراسي المطوية من الصفيح في الرمل: الأمر نفسه عندما تسمع عن عاصفة قادمة إلى البلدة. حتى لو تخافينها فإن لديك فضول لرؤيتها.

أربعة

كنت عند محطة «كينغس كروس» مع والدي في الصّباح الباكر، في إحدى جولاتنا المرتجلة لمعاينة إحدى الجامعات. كنا قد فوّتنا قطارنا للتو، ليس لأننا تأخرنا، بل لأن ثمن التذكرة يساوي ضعف المبلغ الذي حذّرت والدي منه، وأثناء الجدال بشأن ما سنفعل بعد ذلك - واحد منا يذهب الآن، الآخر لاحقًا، أو لا نذهب كلانا، أو نذهب في أصيل آخر، خارج فترة ذروة سعر التّذكرة - انطلق القطار مبتعدًا عن المنصّة من دوننا. كنا لا نزال نتبادل الاتهامات بنزق أمام لوحة الإعلانات عندما لمحنا تريسي تصعد السّلم المتحرك من النّفق. يا له من منظر! جينز أبيض نظيف وجزمة تصل حتى الكاحل ذات كعب عال وسترة جلدية سوداء ضيقة مغلق سحابها حتى ذقنها: بدت مثل درع للجسم. انقلب مزاج والدي. رفع كلتا ذراعيه مثل مراقب للحركة الجوية يرسل الإشارات في طائرة. شاهدت تريسي تتقدم منا بطريقة رسمية مستغربة، كلفةٌ والدي افتقر إليها كليًا، معانقًا إياها كما فعل في سالف الأيّام، دون أن يلاحظ صلابة جسدها إزاء جسده، أو سكون ذراعيها الأشبه بمدكي بندقية. تراجع وسأل عن والديها، وعن كيفية سير عطلتها الصّيفية. قدمت تريسي سلسلة من الإجابات الفاترة التي لم تحتو، لمسمعي، على معلومات حقيقية. رأيت وجهه يمتقع. ليس بسبب ما قالته بالضّبط، لكن بسبب أسلوبها في قوله، أسلوب جديد بدا أن لا شأن له بالفتاة

الجريئة، المسلية، الجامحة التي اعتقد أنه عرفها. انتمى إلى فتاة أخرى كليًا، من حي مختلف، عالم مختلف.

سأل: «ما الذي يعطونك في ذلك المكان المجنون؟ دروسًا في فنّ الخطابة؟»

قالت تريسي بتكلّف: «نعم»، ورفعت أنفها في الهواء، وكان واضحًا أنها أرادت إنهاء الموضوع عند هذا الحد، لكن والدي، الذي لم يكن يجيد التقاط التلميحات أبدًا، لم يرغب في إنهائه. ما لبث يغيظها، ولتدافع عن نفسها إزاء سخريته، بدأت تريسي الآن تدرج المهارات الكثيرة التي عملت على تطويرها في دروسها الصّيفية في الغناء والمبارزة، دروسها في رقص الصّالونات والتمثيل، مهارات ليست ضرورية في الحي، لكن يحتاجها المرء ليؤدي على المسرح الذي دعته الآن «مسرح ويست إند». تساءلت، لكني لم أسأل، كيف استطاعت دفع رسوم هذا كله. عندما خاطبتني بحديثها المفكك، وقف والدي يحدق بها من ثم قاطعها فجأة:

«لكنك لست جادّة، هل أنت كذلك، تريسي؟ كفّي عن كل ذلك – لا يوجد سوانا هنا! لا داعي للحديث المبهرج معنا. نحن نعرفك، لقد عرفناك منذ أن كنت بهذا الطّول، ليس عليك أن تتظاهري بأنك امرأة شديدة الأهمية معنا!»

لكن تريسي اهتاجت، تحدّثت أسرع وأسرع، بهذا الصّوت الجديد المضحك الذي ربما اعتقدت أنه قد يستهوي والدي بدلًا من أن ينفره، الصوت الذي لم يملك سيطرة على نفسه، وحرّف بصورة شاذة كل عبارة نحو ماضينا المشترك، وعرّج على حاضرها الغامض، إلى أن فقد والدي السيطرة على نفسه كليًا وقهقه وسط محطة كينغس كروس أمام هؤلاء المسافرين في ساعة الذّروة جميعًا. هو لم يقصد الأذى – اندهش فقط – لكني رأيت كم جرحها ذلك. يحسب لها مع ذلك أنها

لم تثر ثائرتها الشّهيرة، ليس في تلك اللحظة. في الثامنة عشرة من عمرها كانت خبيرة بفن تخمير الغضب لامرأة أكبر سنًا، حفظه لاستخدام لاحق. طلبت العذر لنفسها بتهذيب وقالت إن عليها الذهاب إلى صف.

في شهر تموز، اتصلت الآنسة ايزابيل بوالدتي لتسأل إذا كنا سنرغب أنا وتريسي بالتّطوع في عرضها لنهاية الصّيف. كنت مُداهنة: عندما كنا أولادًا بدا الطلاب السّابقون لنا مثل آلهة، طوال القامة ومستقلين، يقهقهون في ما بينهم، ويتحدثون عن مراهقتهم المتقلبة همسًا عندما أخذوا تذاكرنا، أداروا لعبة الطمبلة، قدموا الوجبات الخفيفة، سلموا الجوائز. لكن ذلك الصباح المؤلم في محطة كينغس كروس كان لا يزال طازجًا في عقلي. عرفت أن فكرة الآنسة ايزابيل عن صداقتنا كانت من زمن مضى، لكن لم يسعني احتمال كسر صورتها عنها. قلت نعم بواسطة أمي، وانتظرت أن أسمع عن رد تريسي. في اليوم التالي اتصلت الآنسة إيزابيل ثانية: وافقت تريسي. لكن لم تهاتف إحدانا الأخرى، أو أقدمت على محاولة للاتصال. لم أرها حتى صباح الحفل ذاته، عندما رأيت أني قد أكون الشّخص الأكثر نضجًا وأذهب إلى بيتها. ضغطت جرس الباب مرتين. بعد وقفة طويلة بغرابة فتح لوي. كنت متفاجئة: بدينا أننا فاجأنا بعضنا. مسح بعض العرق من فوق شاربه وسألني بفظاظة عما أريده. قبل أن أتمكّن من الإجابة سمعت تريسي تصرخ بصوت مضحك – كدت لا أتعرف إليه – على والدها كي يدعني أدخل، ولوي أومأ وسمح لي بالمرور لكن مشى في الاتجاه الآخر، مباشرة من الباب وعلى طول الممر. شاهدته يهرع على الدّرج عبر المرج وبعيدًا. التفتّ نحو الشّقة، لكن تريسي لم تكن في القاعة، ثم ليست في غرفة الجلوس، وليست في المطبخ: انتابني شعور بأنها غادرت كل غرفة قبل لحظة من وصولي إليها. وجدتها في الحمام. ظننت إنها كانت تبكي

مؤخرًا، لكني لم أستطع أن أكون جازمة بهذا الشأن. ألقيت التحية. في اللحظة نفسها نظرت سريعًا إلى نفسها نحو نفس البقعة التي كنت أنظر إليها تسوي قميصها إلى أن غطى ثانية كليًا حمالة صدرها.

خرجنا ونزلنا الدرج. لم أتمكن من الحديث، لكن تريسي لم تكن يومًا معقودة اللسان، حتى في أسوأ الأحوال، وثرثرت الآن بأسلوب مضحك متألّق عن جميع «العاهرات النحيلات» التي كانت تنافسهن في تجارب الأداء، الحركات الجديدة التي توجب عليها أن تتعلمها، مشكلة إبراز صوتك خلف أضواء المسرح. تحدّثت بسرعة ودون توقف لتضمن عدم وجود فجوة أو وقفة قد أطرح فيها سؤالًا وبهذه الطّريقة أوصلتنا كلانا بأمان خارج المبنى وحتى باب الكنيسة، حيث التقينا بالآنسة ايزابيل. كنا أعطينا مفتاحين متطابقين، وأرينا كيف نقفل صندوق النقود وأين نحفظه، وكيف نغلق ونفتح الكنيسة قبل وبعد، وأمورًا صغيرة عملية أخرى. وفيما مشينا حول المكان طرحت الآنسة إيزابيل كثيرًا من الأسئلة حول حياة تريسي الجديدة، حول الأدوار الجديدة التي تؤديها الآن ضمن مدرستها، والأدوار الكبيرة خارجها التي أملت ذات يوم بالحصول عليها. انطوت هذه الأسئلة على شيء جميل وبريء. تمكنت من رؤية تريسي راغبة في أن تكون الفتاة التي وضعتها الآنسة إيزابيل في ذهنها، النّوع الذي حياته مرتبة ومستقيمة، لا يوجد أمامه شيء سوى أهداف ساطعة وصافية ولا يقف في طريقها شيء.

متناولة دور هذه الفتاة، مشت في هذا المكان المألوف من عهد بنوتتنا، تستغرق في الذكريات، تتذكر أن تختصر الأحرف اللينة، يداها خلف ظهرها مثل سائح يتجوّل في متحف، ينظر نحو معروضات تاريخ مؤلم، سائح لا يربطه شيء شخصي بما يراه. عندما وصلنا إلى مؤخرة الكنيسة، حيث اصطف الأطفال للحصول على العصير والبسكويت،

رفعوا جميعًا أبصارهم نحو تريسي بإعجاب جامح. ربط شعرها في كعكة الراقصة وحقيبة «باينابل ستوديو[33]» مقذوفة على كتفها، أدارت قدميها إلى الخارج وهي تمشي، كانت الحلم الذي حلمنا به كلينا، قبل عقد من الزمن، عندما اصطففنا من أجل العصير هنا، فتاتين صغيرتين. لم يدفع لي أحد الكثير من الانتباه، حتى الأطفال استطاعوا أن يروا أني لم أعد راقصة بعد الآن – وبدت تريسي سعيدة بأن تكون محاطة بكل هؤلاء المعجبين الصّغار. كانت بالنسبة لهم جميلة وناضجة، موهوبة بشكل تحسد عليه، حرّة. وبالنّظر إليها بهذه الطّريقة أيضًا، كان من السّهل أن أقول لنفسي أني أتخيل أمورًا.

شققت طريقي عبر الغرفة وعدت في الزمن إلى أن وصلت إلى السّيد بوث. كان لا يزال جالسًا على مقعد البيانو البالي، أكبر سنًا بقليل لكن بالنسبة لي لم يتغير، ويعزف نغمة في غير أوانها: «احصل لنفسك على عيد ميلاد مجيد صغير». وهنا حصل ذلك الشّيء السّلس، الذي في عدم واقعيته ذاتها، يجعل الناس يكرهون الأفلام الموسيقية، أو هذا ما يقوله لي النّاس عندما أقول إني أحبها: بدأنا بصنع الموسيقى معًا دون نقاش أو تدريب. عرف اللحن وعرفت الكلمات. غنّيت عن أصدقاء مخلصين. ظهرت تريسي في طريقي وابتسمت ابتسامة كئيبة لكن حنونة، أو ربما حملت فقط ذكرى الحنان. رأيت فيها الفتاة التي في السابعة، الثامنة، التاسعة – العاشرة، المراهقة، المرأة الصغيرة. كل تلك النسخ من تريسي كانت تصل عبر سنوات قاعة الكنيسة لتطرح عليّ سؤالًا: ماذا أنت فاعلة؟ وعليه عرف كلانا الجواب. لا شيء.

---

33) Pineapple Studios: وهو مجمّع استديوهات للرقص، ومدرسة لفنون الأداء، مقرّها لندن، تنتج ملابس رقص ونظارات تحمل اسمها.

خمسة

لم يبد افتتاحًا لمدرسة بقدر ما بدا إعلانًا عن نهاية نظام قديم. وقفت فرقة جنود شبّان اكتسوا ببدل زرقاء داكنة في الوسط، يحملون آلاتهم النّحاسية، يتعرّقون بوحشية. لم يكن هناك ظلّة في الخارج وكانوا على هذه الحال منذ ساعة. كنت أبعد عنهم مسافة مائة ياردة جالسة تحت ظلّة، مع وجهاء منطقة النهر الأعلى برمتها، بعض الصّحافة المحلية والعالمية، جرانجر وجودي، لكن ليس الرئيس، أو إيمي، ليس بعد. كان من المزمع أن يرافقها فرن، بعد أن يستتب كل شيء وقد اتخذ الجميع مكانهم: عملية طويلة. نفي كل من لامين وهاوا اللذين لم يكونا من الوجهاء، إلى بقعة بعيدة عنا، لأن تراتبية الجلوس كانت مطلقة. كل خمس عشرة دقيقة تقريبًا جودي أو جرانجر أحيانًا أو أنا أحيانًا رحنا نقترح أنه ينبغي على شخص ما حقًا أن يقدم لهؤلاء الجنود المساكين قليلًا من الماء، لكن لم يفعل واحد منا، ولا أحد آخر فعل أيضًا. في هذه الأثناء تجمعت مدارس الحضانة، كل مدرسة في زيها المميز، مراويل المدرسة، قمصان وسراويل قصيرة في توليفة مدهشة من الألوان – البرتقالي والرمادي، أو الأرجواني والأصفر – تتقدمها مجموعات صغيرة من النّسوة، مدرساتهم، اللواتي بذلن أقصى جهودهن لتحقيق الفتنة. ارتدت مدرسات حضانة كونكوجانغ كيتايا قمصانًا قصيرة الأكمام ضيقة وبناطيل جينز سوداء مع جيوب من الماس المزيف

وشعرهن مجدول ضفائر متقنة. ارتدت مدرسات حضانة «توجيرينغ» دثرًا وأوشحة للرأس من تصميم أحمر وبرتقالي مطابق، وصنادل واطئة بيضاء متماثلة. كل فريق اتخذ نهجًا مختلفًا عن المجاور لكن حافظوا على اتساق تام ضمن فريقهم كما فعل أعضاء فرقة السوبريمز.

دخلوا من البوابة الرئيسة، مشوا عبر الباحة، يجرون الأطفال، بوجوه لا تنم عن شيء كما لو أنهم لم يسمعونا نهتف جميعًا – وعندما وصلوا إلى مواقعهم المحددة، راحت اثنتان من النسوة تبسطان دون ابتسام حينها راية منزلية الصّنع عليها اسم المدرسة وتقفان وهما تحملانها، تبدلان وزنيهما من ورك إلى آخر طالما استمر الانتظار. لا أظن أني رأيت يومًا كثيرًا من النّساء الجميلات بشكل صادم في مكان واحد. كنت متأنقة أيضًا – قالت لي هاوا بحزم إن بنطال الخاكي المعتاد والمغضّن سوف لن يكون ملائمًا – اقترضت إزارًا أبيض وأصفر وقميصًا من مضيفتي ضيقًا للغاية حتى أني لم أتمكّن من إغلاقه عند الظهر، وهكذا توجّب عليّ إخفاء الدّرزة المفتوحة بوشاح عريض أحمر مرمي كيفما اتفق على كتفي، على الرغم من أن درجة الحرارة لم تقل عن 102 درجة فهرنهايت.

أخيرًا، بعد ساعتين من جلوسنا تقريبًا كل من كان يفترض بهم التواجد في الباحة كانوا هناك، وإيمي، محاطة بحشد متدافع من متمني الخير، قادها فِرن إلى مقعدها المركزي. توهّجت مصابيح آلات التصوير. وأول سؤال التفتت لتطرحه: «أين لامين؟» لم أمتلك الفرصة لأخبرها: الزمامير دوّت، كان الحدث الأساسي فوقنا، وتساءلت وأنا جالسة في كرسي إذا أسأت فهم كل ما كنت واثقة أني فهمته في الأسبوعين المنصرمين.

الآن دخل استعراض للأطفال في السّاحة، جميعهم في السّابعة

أو الثّامنة من عمرهم، يتزيّون كما لو أنهم قادة الشّعوب الأفريقية. دخلوا بأغطية الكينتي وأثواب الداشيكي وقمصان ذات ياقات نهرو وبزّات السّفاري، وكل واحد ومعه حاشيته، مؤلفة من أطفال آخرين قاموا مقام حراس شخصيين: بزّات داكنة اللون ونظارات سوداء، يتحدثون في أجهزة اتصال لاسلكية «وكي توكي» مزيفة. كان إلى جانب الكثير من الزعماء الصّغار زوجات صغيرات تتدلى من أيديهن حقائب صغيرة ولو أن السّيدة ليبريا مشت وحيدة، وزعيم جنوب أفريقيا أتى بصحبة ثلاث زوجات وصلن أذرعهن مع بعضهن وسرن خلفه. عندما تنظر إلى الحشد سوف تفكر أن أحدًا لم ير أمرًا يفوقه تسلية في حياته، وإيمي التي وجدته مرحًا أيضًا مسحت الدموع من عينيها وهي تمتد لتعانق رئيس السّنغال أو تعصر خدّ رئيس ساحل العاج.

استعرض القادة الجنود المتعرقين اليائسين، من ثم أمام مقاعدنا، حيث لوحوا وتوقفوا لالتقاط الصّور لكنهم لم يبتسموا أو يتكلموا. ثم توقّفت الفرقة عن الدوي بالأبواق المرحبة وبدأت موسيقى آلات نحاسية بأداء النشيد الوطني بصوت عال جدًا. تذبذبت كراسينا. التفت ورأيت عربتين كبيرتين تدمدمان نحو الباحة على الأرض الرملية: الأولى سيارة رياضية مثل التي سافرنا فيها قبل أربعة أشهر، والثانية سيارة «جيب» حقيقية للشرطة مدرعة بشدّة حتى أنها بدت مثل دبابة. ربما عدا مائة طفل ومراهق من القرية على جانبي هاتين العربتين، أحيانًا خلفهما أو أمامهما لكن دومًا قريبًا من العجلات على نحو خطر، يهللون ويهتفون. في السّيارة الأولى، كان واقفًا عبر السّقف المفتوح، نسخة من الرئيس نفسه بعمر ثمانية أعوام، في الرداء الطويل «البوبو» الفضفاض الأبيض وقبعة كوفي بيضاء يمسك بعصاه. تمت محاولة لمحاكاة الحقيقة: كان داكنًا مثل الرئيس ولديه وجه الضّفدع

نفسه. وقفت قربه فتاة فاتنة بعمر ثمانية أعوام، لبشرتها لون بشرتي نفسه تقريبًا، تضع شعرًا مستعارًا وترتدي فستانًا أحمر مثيرًا، ترمي حفنات من نقود لعبة مونوبولي على الحشد. تشبث المزيد من هؤلاء الحراس الشخصيين الصّغار بجانبي السّيارة، مع نظارات شمسية صغيرة وأسلحة صغيرة، وجهت نحو الأطفال، بعض منهم فتحوا أذرعهم بابتهاج ليعرضوا صدورهم الصّغيرة لتكون هدفًا لأقرانهم. ركض اثنان بالغان من رجال الأمن هؤلاء في الزي نفسه لكن دون أسلحة أو هذا ما استطعت رؤيته، بجانب السّيارة يصوران كل هذا بكاميرات فيديو حديثة. في سيارة الجيب الخاصّة بالشّرطة التي تسير في المؤخرة، تقاسم المكان رجال الشّرطة الصّغار مع أسلحتهم غير الحقيقية، مع رجال الشّرطة الحقيقيين الذي يحملون كلاشينكوفات حقيقية. رفع كل من رجال الشّرطة الكبار والصّغار أسلحتهم في الهواء، لبهجة الأطفال، الذين ركضوا خلفهم وحاولوا تسلق مؤخرة سيارة الجيب بأنفسهم، ليصلوا إلى مكان القوة. بدا الكبار الذين جلست بينهم ممزقين بين الهتافات المبتسمة – كلما تأرجحت الكاميرات في الأرجاء لتلتقطهم – ويبكون في رعب عندما هددت العربات كل لحظة أن تصطدم بأطفالهم الراكضين.

سمعت رجل شرطة حقيقي يصرخ على فتى دؤوب يبتهل طلبًا للحلوى، عند محوره اليميني: «ابتعد أو سوف ندهسك!»

أخيرًا، ركنت السّيارتان، ترجل الرئيس المصغر وتقدم نحو المنصة ملقيًا خطبة قصيرة لم أتمكن من سماع كلمة منها بسبب الصّدى المنبعث من السّماعات. لم يتمكن أحد من سماعها أيضًا لكن جميعنا ضحكنا وصفقنا عندما انتهت. خطرت لي فكرة أنه إذا جاء الرئيس نفسه سوف لن يكون الأثر شديد الاختلاف. عرض القوّة هو

عرض القوّة. ثم ذهبت إيمي وقالت بضع كلمات، قبلت الرجل الصّغير، أخذت منه عصاه ولوحت بها في الهواء ما استدعى هتافًا عظيمًا. أعلن عن افتتاح المدرسة.

لم ننتقل من هذا الاحتفال الرسمي إلى حفلة منفصلة بقدر ما أنهي الاحتفال الرسمي فورًا وحلت حفلة محله. كل هؤلاء الذين لم يكونوا مدعوين إلى الاحتفال اجتاحوا الملعب الآن، تفكك التراصف الاستعماري المحكم للكراسي، كل واحد أخذ ما احتاجه الجلوس. قادت المدرسات الفاتنات صفوفهن إلى أماكن الظل وأخرجن وجبات غدائهم التي انبثقت حارة ومحفوظة في قدور كبيرة من أكياس التسوق الكبيرة من التارتان المربع النّقش التي كانت تباع أيضًا في سوق كيلبورن، رمز عالمي للمقتصد والمتمرس بالأسفار. في الزاوية الواقعة أقصى الشّمال من السّاحات انطلق نظام الصّوت الموعود. أي طفل استطاع التخلص من الشخص البالغ الذي يصحبه، أو من لم يكن مصحوبًا في الأصل، كان هناك يرقص. بدا لي جامايكيًا، نوعًا من صالة للرقص، وعندما بدوت أني فقدت الجميع في الانتقال المفاجئ تجولت وشاهدت الرّقص. كان هناك نمطان. كانت الرّقصة السّائدة محاكاة ساخرة لأمهاتهم: ميل على الركب، محدبات الظهور والمؤخرة ناتئة، يشاهدون أقدامهن وهي تخبط الإيقاع على الأرض. لكن بين الحين والآخر – لا سيما إذا لمحوني أراقبهم – يقفزون إلى أزمنة أخرى وأماكن أكثر ألفة لي، عبر الهيب هوب والريغي، اطلانطا وكينغستن وأرى الاهتزاز، الفرقعة، الانزلاق، الطّحن. فتى وسيم متكلف الابتسام لا يتجاوز عمره عشر سنوات عرف بعض الحركات الفاحشة على وجه الخصوص وشرع يؤديها في دفعات صغيرة فالفتيات من حوله كن مروّعات دوريًا، يصرخن، يهرعن ليختبئن خلف شجرة، ثم يزحفن عائدات ليشاهدنه يؤدي المزيد. كانت عينه علي.

ظل يشير نحوي، يصرخ بشيء أعلى من صوت الموسيقى، لم أتمكن من أن أفهم تمامًا: «رقص؟ سيء جدًا! رقص؟ رقص! سيء جدًا!» تقدمت خطوة، ابتسمت وهززت رأسي بالنفي ولو أنه عرف أني كنت أفكر بالأمر. قالت هاوا من خلفي: «آه، ها أنت ذا»، ووصلت ذراعها بذراعي وأعادتني إلى حفلتنا.

تحت شجرة تجمع كل من لامين، جرانجر، جودي، مدرسينا وبعض الأطفال، جميعهم يمصون أهرامًا صغيرة ملفوفة بورق البلاستيك إما من مثلجات البرتقال أو الماء المثلج. أخذت ماء من البنت الصّغيرة التي تبيعها وهاوا علمتني كيف أمزق زاوية بأسناني لأمص منها السّائل. عندما انتهيت نظرت إلى الغلاف الصّغير المثني في يدي، مثل واق ذكري منكمش وأدركت أنه لا يوجد مكان لأرميه سوى على الأرض، وأن تلك المشروبات الهرمية الشّكل لابد أنها مصدر كل تلك اللفافات البلاستيكية التي رأيتها مكومة في كل شارع، على فروع الأشجار، تفترش المساكن، في كل أجمة مثل براعم. وضعتها في جيبي لأؤجل المحتوم وذهبت لآخذ مقعدًا بين جرانجر وجودي اللذان كانا يتناقشان.

همست جودي: «لم أقل ذلك، قلت: لم يسبق لي أن رأيت شيئًا مثله قط.» توقّفت لتمص المثلجات بصوت مسموع.

«وأنا لم أرَا»

«نعم، حسنًا، ربما لم يروا أبدًا بعضًا من الجنون الذي نفعله. عيد القديس باتريك. أعني، ما هو عيد القديس باتريك؟»

«جرانجر، أنا أسترالية – وبشكل أساسي بوذية. لا يمكنك أن تلصق يوم القديس باتريك بي».

«فكرتي هي: نحن نحب رئيسنا – »

«ها! تحدّث عن نفسك!»

«– لماذا لا ينبغي على هؤلاء الناس أن يحترموا ويحبوا قادتهم؟ ما شأنك؟ لا يمكنك أن تدخلي إلى هنا دون سياق وتصدري الأحكام»

قالت امرأة شابّة ذات عينين حادّتين جلست قبالة جرانجر وإزارها مسحوب إلى خصرها وطفل على صدرها الأيمن الذي بدلته الآن ووضعت الرّضيع على الثّدي الأيسر: «لا أحد يحبه»، كان وجهها وسيمًا وذكيًا، تصغرني بعشر سنوات على الأقل، لكن لعينيها النظرة نفسها التي تنم عن الخبرة التي قد بدأت ألمحها عند أصدقاء قدامى من الكلية أثناء أصائل طويلة يزورون مع أطفالهم البلداء وأزواجهم الأكثر بلادة. وقد تلاشت طبقة من الوهم بتّاتية. قالت مخفضة صوتها ساحبة يدها من تحت رأس رضيعها ولوّحت بها نحو الحشد: «كل أولئك الشّابات، لكن أين الرّجال؟ فتيان، نعم – لكن شبان؟ لا. لا أحد هنا يحبه أو يحب ما فعله هنا. جميع من يستطيع يغادر. الطّريق الخلفي، الطّريق الخلفي، الطّريق الخلفي». وهي تتحدث أشارت إلى بعض الفتيان الذين كانوا يرقصون بالقرب منّا، على عتبة المراهقة، تنتخبهم كما لو أنها امتلكت القوّة لإخفائهم. أصدرت صوتًا بأسنانها معبرة عن امتعاضها تمامًا كما كانت أمي ستفعل. «صدقيني، كنت سأذهب أيضًا لو بوسعي ذلك».

جرانجر الذي أنا على ثقة من أنه قد تصوّر كما تصورت أن هذه المرأة لا تتحدث الإنكليزية – أو على الأقل لن تتمكن من اللحاق بتنويعاته هو وجودي عليها – أومأ الآن على كل كلمة قالتها، قبل أن تقولها تقريبًا. الجميع على مرمى السمع – لامين، هاوا، بعض المدرسين الشبان من مدرستنا، آخرون لم أعرفهم – تمتموا وصفروا لكن دون أن يضيفوا شيئًا. جلست الشّابة الوسيمة باستقامة في مقعدها، تعرف نفسها على أنها شخص استثمر المجموعة فجأة بقوة. قالت ولم

تعد تهمس على الإطلاق الآن لكن أيضًا لاحظت أنها لا تستخدم اسمه أبدًا: «لو أحبوه أما كانوا ليكونوا هنا معنا، بدلًا من المخاطرة بحياتهم في الماء؟» نظرت أسفل وأعادت تسوية حلمتها وتساءلت إذا لم تكن «هم» في حالتها، تجريدًا، لكن امتلكت اسمًا، صوتًا، علاقة مع الرضيع الجائع بين ذراعيها.

همست هاوا: «الطّريق الخلفي جنون».

قال جرانجر: «لكل بلد كفاحه»، سمعت صدى معكوس لما أخبرتني هاوا به ذلك الصّباح – «كفاحات جدية في أمريكا. من أجل شعبنا، الشّعب الأسود. لهذا السّبب إنه مفيد لروحنا أن نكون هنا معك». تحدث ببطء عمدًا ومسّ روحه التي تبين أنها نقطة ميتة بين عضلات صدره. بدا كما لو أنه على وشك البكاء. كانت غريزتي تدفعني لأن أشيح ببصري كي أمنحه خصوصيته، لكن هاوا حدقت في وجهه وأمسكت بيده وقالت: «انظري كيف يحس جرانجر بنا حقًا» عصر يدها بدوره – « ليس فقط بعقله، لكن بقلبه!» لوْمٌ مُعْدٍ لي ليس بارعًا للغاية. أومأت السّيدة الشّابة القاسية، انتظرنا المزيد، بدا أنها هي فقط قد تمنح للقصة معنى أخير، لكن رضيعها أنهى الرضاعة وخطابها انتهى. رفعت إزارها الأصفر ووقفت لتربت على ظهره كي يتجشأ.

قالت إحدى صديقات هاوا: «إنه لأمر رائع أن نحظى بأختنا إيمي هنا معنا»، وهي شابة مفعمة بالحيوية تدعى ايستر، لاحظت أنها كرهت أي لمحة من الصمت. «اسمها معروف في كل العالم! لكنها واحدة منا الآن. سيتوجب علينا أن نمنحها اسمًا قرويًا».

قلت: «نعم».

كنت أراقب المرأة التي تحدثت ذات الإزار الأصفر. تتجول الآن نحو الراقصين، ظهرها مشدود للغاية. أردت أن أتبعها وأتحدث معها.

«هل هي هنا الآن؟ أختنا إيمي؟»

«ماذا؟ أوه، لا... أظن أنه توجب عليها الذهاب لتجري بعض المقابلات أو ما شابه».

«أوه إنه رائع. هي تعرف جاي زي، تعرف ريهانا وبيونسيه».

«نعم».

«وتعرف مايكل جاكسن؟»

«نعم».

«هل تظنين أنها من المتنورين[34] أيضًا؟ أو أنها فقط على معرفة بالمتنورين؟»

استطعت أن أميز المرأة ذات الإزار الأصفر، مميزة بين الكثيرين، إلى أن مرت خلف شجرة ومبنى المرحاض ولم أتمكن من العثور عليها ثانية.

«ما كنت... صدقًا، استر، لا أظن أن أيًا من ذلك الكلام حقيقي».

قالت استر برصانة: «أوه، حسنًا»، كما لو أنها قالت إنها تحب الشوكولا وقلت بأني لا أحبها. «هنا بالنسبة لنا هو حقيقي، لأنه يوجد الكثير من القوة بالتأكيد. نسمع الكثير عن هذا».

أكدت هاوا: «إنه حقيقي، لكن على هذا الانترنت، صدقيني، لا يمكنك أن تثقي بكل شيء! على سبيل المثال، أراني ابن عمي صورًا لهذا الرجل الأبيض، في أميركا، كان ضخمًا بحجم أربعة رجال، بدينًا للغاية! قلت: هل أنت شديد الحماقة، هذه ليست صورة حقيقية، هيا! هذا

---

34) المتنورون: جمعية سرية تأسست في الأوّل من أيّار عام 1776 فيما يسمى آنذاك (عصر التنوير). و«المتنورون» اسم يشير إلى عدة مجموعات، سواء التاريخية منها أو الحديثة، الحقيقية منها أو الوهمية. تُشير من الناحية التاريخية إلى فرقة المتنورين في مدينة إنغولشتات بولاية بافاريا في ألمانيا. وتُشير في العصور الحديثة إلى التآمر.

ليس ممكنًا، لا يمكن لأحد أن يكون بها الشكل. هؤلاء الأولاد مجانين يصدقون كل ما يرونه».

عندما سلكنا طريق عودتنا إلى المجمّع السّكني أضاءت النجوم الظلمة المدلهمة في الخارج. وصلت ذراعي بذراعي كل من لامين وهاوا وحاولت أن أغيظهما قليلًا.

احتج لامين: «لا، لا، لا، حتى على الرغم من أني أناديها زوجة صغيرة، وهي تناديني السّيد زوج، الحقيقة هي أننا مجرد أتراب».

قالت هاوا مغازلة: «غزل، غزل، غزل وهذا كل شيء!»

سألت وأنا أركل الباب على اتساعه بقدمي: «وهذا كل شيء؟».

قال لامين: «هذا مؤكد».

في المجمّع السّكني ركض كثير من الأطفال الساهرين نحو هاوا مبتهجين كما ابتهجت لاستقبالهم. صافحت الجدات الأربع جميعهن وهذا كان واجبًا دومًا كما لو أنها المرة الأولى، وكل امرأة مالت لتحاول أن تقول لي شيئًا هامًا – أو أكثر دقة قالت لي شيئًا هامًا صدف أني لا أفهمه – من ثم عندما باءت الكلمات بالفشل كما فعلت دومًا جذبتني بخفة من ردائي نحو الطرف القصي من الشرفة. قالت هاوا وهي تتقدم مني وابن أخ بين ذراعيها: «أوه! لكن ها هو أخي!»

كان نصف شقيق في الواقع ولم يبد في نظري على شبه كبير بهاوا، لم يضاهها جمالًا ولم يملك شيئًا من موهبتها. امتلك وجهًا جادًا لطيفًا مدورًا مثل وجهها لكن بذقن مزدوجة، نظارة أنيقة وطريقة محايدة للغاية في اللباس أخبرتني قبل أن يفعل بنفسه أنه لا بد أمضى وقتًا في أميركا. كان واقفًا على الشّرفة يحتسي الشاي من نوع ليبتون في كوب كبير، مرفقاه يرتكزان على حافة الجدار الاسمنتي. تقدمت من حول العمود لأصافحه. أخذ يدي بحرارة لكن رأسه إلى الخلف، وعلى

وجهه نصف ابتسامة متكلفة، كما لو أنه يحيط اللفتة بالسخرية. ذكرني بشخص – بأمي.

قال: «وأنت تقيمين هنا في المجمّع السّكني، أرى»، وأومأ نحو الجدّ الهادئ المحيط بنا، ابن الأخ الصارخ في ذراعي هاوا التي أطلقته الآن نحو الباحة. «لكن كيف تعاملك حياة القرية الريفية؟ عليك أولًا أن تعودي نفسك على الظروف كي تستحسنيها كليًا، كما أظن». بدلًا من إجابته سألته أين تعلم هذه الإنكليزية المتقنة. ابتسم رسميًا لكن عيناه تجمدتا بإيجاز خلف نظارته: «هنا. هذا بلد يتحدث الإنكليزية».

قهقهت هاوا غير واثقة ماذا تفعل بهذا الإحراج وهي تخفي فمها بيدها.

قلت متوردة: «أنا أستمتع كثيرًا جدًا، هاوا لطيفة للغاية».

«تحبين الطعام؟»

«إنه لذيذ حقًا».

ربّت على بطنه المدوّر وناول قدره الفارغ إلى فتاة عابرة: «إنه بسيط. لكن أحيانا البسيط شهي أكثر من المعقد».

«نعم بالضبط».

«إذن بالنتيجة كل شيء بخير؟»

«كل شيء جيد».

«إن التأقلم مع حياة القرية الريفية هذه يستغرق فترة من الوقت، كما أقول. حتى بالنسبة لي، يستغرق وقتًا، وأنا ولدت هنا».

مرر شخص ما الآن لي قدرًا من الطعام، ولو أني قد أكلت للتو، لكن لما شعرت أن كل ما فعلته في حضرة شقيق هاوا كان مقدمًا على أنه نوع من اختبار، أخذته.

انفعل: «لكن لا يمكنك أن تأكلي بتلك الطّريقة»، وعندما

حاولت أن أسند الطبق على الجدار قال: «لنجلس».

ظل لامين وهاوا يستندان على الجدار، بينما جلسنا على زوجين من مقاعد منزلية الصّنع متداعيين قليلًا. لم نعد تحت أنظار جميع من في الباحة، ارتاح شقيق هاوا. أخبرني أنه ارتاد مدرسة جيدة في المدينة، قرب الجامعة التي درس فيها والده ومن تلك المدرسة تقدّم للدخول إلى كلية كواكر الخاصّة في كنساس، الكلية التي تقدم عشر منح تعليمية في السّنة لطلاب أفارقة وكان واحدًا منهم. تقدم إليها ألف شخص لكن قبل طلبه، لقد أعجبتهم أطروحته ولو أن وقتًا طويلًا للغاية مر عليها حتى أنه الآن بالكاد يتذكر عما تتحدث. تدرّب في بوسطن، في الاقتصاد، لاحقًا أقام في مينيبوليس، روشتستر، وبولدر، كلها أماكن زرتها ذات حين مع إيمي وما من واحد منها عنى لي أي شيء، حتى الآن وجدت أني أردت السّماع عنها ربما لأن يومًا أمضيته في القرية بدا لي بطول سنة – الزمن بطيء هناك – لهذا استطاع حتى بنطال شقيق هاوا الواسع وقميصه الأحمر قصير الكمين أن يلهمني محبة نوستالجية للمنفى. طرحت عليه كثير من الأسئلة الخاصّة عن الفترة التي أمضاها فيما هو ليس بوطني تمامًا، بينما وقف لامين وهاوا بالقرب منا متجمدين خارج الصّورة التحادثية.

سألته بنبرة أكثر حزنًا مما نويت لها أن تكون: «لكن لماذا توجب عليك المغادرة؟» نظر إليّ بدهاء.

«لم يجبرني شيء على الإطلاق. كان في وسعي البقاء. عدت لأخدم وطني. أردت أن أعود. أعمل في وزارة المال».

«أوه، لصالح الحكومة».

«نعم. لكن بالنسبة لي بيت مال الدولة مثل صندوق مال شخصي... أنت شابة نبيهة. أنا واثق من أنك على الأرجح سمعت عن ذلك». أخذ علكة من جيبه واستغرق وقتًا طويلًا في إزالة الغلاف

الفضي. «أنت تفهمين عندما أقول أخدم وطني، أعني جميع الناس، ليس رجلًا واحدًا. سوف تفهمين أيضًا أن أيدينا مغلولة في هذه اللحظة. لكنها لن تكون هكذا دومًا. أحبّ بلادي. وعندما تتغير الأمور على الأقل سوف أكون هنا لأراها».

احتجّت هاوا وهي ترمي ذراعيها حول عنق أخيها: «بابو، الآن أنت هنا ليوم واحد! وأريد أن أتحدث إليك عما يحدث في هذه الباحة – لا يهم المدينة!»

أخ وأخت أمالا رأسيهما بمودة نحو بعضهما.

«أختي، لا أشك بأن الحالة هنا أكثر تعقيدًا – انتظري، أحب أن أنهي هذه الفكرة من أجل ضيفتنا المهتمة. أنت ترين، نيويورك كانت محطتي الأخيرة. أنا محق في فهم أنك من نيويورك؟»

قلت نعم. كان أسهل.

«ثم سوف تعرفين كيف هي، وكيف تعمل الطبقة في أميركا. بصراحة كان كثيرًا جدًا علي. لقد اكتفيت منه عندما وصلت نيويورك. بالتأكيد لدينا نظام طبقي هنا أيضًا لكن ليس الازدراء».

«الازدراء؟»

«الآن، لنرَ.. هذا المجمّع السّكني الذي أنت فيه؟ هذه عائلتنا التي أنت بين ظهرانيها. حسنًا، في الواقع، جانب صغير جدًا منها، لكنها سوف تفيد في أن تكون مثالًا. ربما بالنّسبة لك هم يعيشون ببساطة شديدة، إنهم أناس قرويون ريفيون. لكننا فوروس في الأصل، نبلاء، من خلال سلالة جدتي. بعض الناس سوف تلتقين بهم – المدير على سبيل المثال، هو نيامالوس، ما يعني أن شعبه كانوا حرفيين – جاؤوا في تشكيلة متنوعة، حدّادين، دبّاغين، إلى آخره... أو، لامين، عائلتك جالي، أليست كذلك؟»

عبرت نظرة متوترة للغاية وجه لامين. أومأ بأقل ما يمكن من ثم رفع بصره وأشاح به نحو بدر التمام الضّخم الذي يهدد بأن يشقّ نفسه في شجرة المانجو.

قال شقيق هاوا مقلّدًا العزف على آلة موسيقية: «موسيقيون، قصّاصون، عازفون، بينما بعض الناس من ناحية أخرى هم جونجو، الكثير في قريتنا يتحدرون من الجونجو».

«لا أعرف ماذا يكون ذلك».

ابتسم وهو ينظر إليّ من أعلى إلى أسفل: «المتحدرون من العبيد. لكن فكرتي هي أن الناس هنا لا يزالون قادرين على القول: بالتأكيد، جونجو مختلف عني لكني لا أحتقره. تحت عين الله لدينا اختلافاتنا لكن أيضًا مساواتنا الأساسية. رأيت في نيويورك أناسًا من طبقات دنيا يعاملون بطريقة لم أتخيل أبدًا أنها ممكنة. باحتقار تام. إنهم يقدمون الطّعام والناس لا يجرون اتصالًا بصريًا معهم. صدّقي أو لا تصدقي، كنت أحيانًا أعامل بتلك الطّريقة».

تمتمت هاوا في وثبة مفاجئة من الإلهام: «هناك طرق كثيرة مختلفة لتكون فقيرًا»، كانت تجمع كومة من الحسك عن الأرض.

قلت: «وغنيًا»، سلّم شقيق هاوا بالفكرة وهو يبتسم بخفوت.

ستة

صباح اليوم التّالي للعرض رنّ جرس الباب في وقت مبكّر جدًا حتى قبل أن يبدأ ساعي البريد عمله. ذهلت الآنسة ايزابيل. اختفت صناديق النّقود وفيها ثلاثمائة جنيه إسترليني تقريبًا وما من دليل على الاقتحام. شخص ما دخل أثناء الليل. جلست أمي على حافة الأريكة في قميص نومها تفرك عينيها إزاء نور الصّباح. أصغيت من عتبة الباب، افترضت براءتي منذ البداية. دارت المناقشة حول ما يجب فعله مع تريسي. بعد حين جلبت واستجوبت وقلت الحقيقة: أغلقنا عند السّاعة الحادية عشرة والنصف، مكومين جميع الكراسي، بعدها ذهبت تريسي في حال سبيلها وأنا كذلك. اعتقدت أنها أعادت المفتاح عبر الباب، لكن بالتأكيد يمكن أنها وضعته في جيبها. التفتت أمي والآنسة ايزابيل إليّ وأنا أتكلم لكنهما أصغتا دون كبير اهتمام، بوجهين فارغين ولحظة انتهيت أشاحتا وعادتا إلى نقاشهما. كلما أصغيت كلما ازددت ذعرًا. كان هناك شيء راض على نحو فاحش بالنسبة لي في يقينهما بكل من إثم تريسي وبراءتي، مع أني فهمت بعقلانية أن تريسي لا بد متورطة بطريقة ما. أصغيت إلى نظرياتهما. اعتقدت الآنسة إيزابيل أن لوي لا بد سرق المفتاح. كانت أمي واثقة على حدٍّ سواء بأنه أعطي له. لم يبدُ مستغربًا في ذلك الوقت أن أيًا منهما لم تفكّر بالاتصال بالشّرطة. قالت الآنسة إيزابيل وهي تأخذ منديلًا لتمسح عينيها: «مع عائلة مثل تلك...»

طمأنتها أمي: «عندما تأتي إلى المركز سوف أتحدث».

لم أسمع أن تريسي ترتاد مركز الشّباب قبل ذلك الحين وهو مركز تطوعت فيه أمي وقد رفعت بصرها نحوي مجفلة الآن. استغرقها لحظة لتستعيد رباطة جأشها، لكن دون النظر إلي عينًا بعين بدأت تشرح بلين أنه «بعد حادثة المخدّرات» رتبت الأمر بطبيعة الحال من أجل تريسي كي تتلقى بعض النصح المجاني، وإذا لم تخبرني فذلك كان بسبب «السرية». هي لم تخبر والدة تريسي أيضًا.

الآن أرى أن ما من شيء من هذا جافى المنطق على نحو خاص، لكن في ذلك الوقت رأيت مؤامرات أمومية في كل مكان، مناورات، محاولات للتحكم بحياتي وحيوات أصدقائي. أثرت ضجّة وهربت إلى غرفتي. حدث كل شيء بسرعة بعد ذلك. ذهبت الآنسة إيزابيل ببراءتها للتحدث مع والدة تريسي وطردت تقريبًا من شقتهم، عندما عادت إلى شقتنا بدت مهزوزة، وجهها زهري أكثر من أي وقت مضى. أجلستها أمي ثانية وذهبت لتحضر الشّاي، لكن بعد لحظة سمعنا صوت الباب الأمامي المفتوح يخبط في إطاره: والدة تريسي مدفوعة بحنقها غير المكتمل تعبر الطّريق وتصعد الدّرج وتدخل ردهتنا حيث بقيت طويلًا بما يكفي لاختلاق تهمة مضادة، تهمة رهيبة عن السّيد بوث. كان صوتها مرتفعًا بما يكفي لأسمعها عبر السقف. نزلت الدرج بسرعة ومباشرة نحوها، كانت تملأ عتبة الباب، متجاسرة مفعمة بالازدراء – لي.

قالت: «أنت وأمك اللعينة، لطالما اعتقدتما بأنكما أفضل منا، دومًا اعتقدت بأنك نوع من طفل ذهبي لعين لكن يتبين أنك لست أنت على الإطلاق، أليس صحيحًا؟ إنها تريسي، وكلكم فقط مجرد غيورين لعينين، وسوف أموت قبل أن أدعك تعترضين سبيلها، إن حياتها كاملة تنتظرها ولا يمكنك أن توقفيها بالأكاذيب، لا يمكن لأي واحدة منكما».

لم يتحدث شخص بالغ معي بتلك الطّريقة من قبل، كما لو أنهم امتهنوني. وفقًا لها، كنت أحاول تدمير حياة تريسي وهكذا كانت أمي والآنسة إيزابيل والسّيد بوث وآخرون متنوعون في المبنى وجميع الأمهات الحسودات من صفّ الرّقص. ركضت أبكي صاعدة الدرج فصرخت: «يمكنك أن تبكي بقدر ما تريدين حبيبتي!» في الأعلى سمعت الباب الأمامي يصفق، وبعد ساعات كل شيء كان هادئًا.

مباشرة قبل العشاء جاءت أمي إلى غرفتي وطرحت سلسلة من الأسئلة الحساسة – المرة الوحيدة التي حضر فيها موضوع الجنس بصراحة بيننا – وأنا وضّحت قدر الإمكان أن السّيد بوث لم يضع يده يومًا عليّ أو على تريسي ولا على أي شخص آخر، على حدّ علمي. لم يتكلل الأمر بالنجاح: بنهاية الأسبوع أرغم على التخلي عن عزف البيانو في صفّ الآنسة إيزابيل. لا أعرف ما الذي حل به بعد ذلك، سواء استمر بالعيش في الحي، أو انتقل، أو مات، أو حطمته الشائعات ببساطة.

فكرت في حدس أمي – «أمر جلل حدث لتلك الفتاة!» وشعرت الآن أنها محقة كالعادة، وأنه إذا كنا طرحنا فقط على تريسي الأسئلة المناسبة في اللحظة المناسبة وبطريقة أكثر دقة ربما لكنا حصلنا على الحقيقة. بدلًا من ذلك كان توقيتنا سيئًا، حشرناها وأمها في زاوية، كان رد فعلهما متوقعًا بحريق هائل يمزق كل شيء في طريقه – في هذه الحالة المسكين العجوز السّيد بوث. وهكذا حصلنا على شيء يشبه الحقيقة، إلى حد بعيد، لكن ليس تمامًا.

الفصل السادس

نهار وليل

⟡ واحد ⟡

ذلك الخريف، بعد مقاصّة، قُبلت في الجامعة التي أدرجتها كخيار ثانٍ، لدراسة الإعلام، على مسافة نصف ميل عن القنال الإنكليزي الرمادي المسطح، مشهد تذكرته من إجازات طفولتي. تهدب البحر بحصى الشّاطئ من أحجار بنية حزينة كثيرة، بين الحين والآخر حجرة كبيرة زرقاء شاحبة، أجزاء من أصداف بيضاء، براجم مرجانية، قطع زاهية الألوان يسهل أن تظنها شيئًا ثمينًا تبين أنها زجاج أو خزف مكسور. حملت معي سلوك مدينتي المحدودة، جنبًا إلى جنب أصيص نبات وعدد من الأحذية الرياضية، واثقة من أن كل شخص في الشّارع سوف يندهش لرؤية أشباهي. لكن أشباهي لم يكونوا استثنائيين للغاية. من لندن ومانشستر، من ليفربول وبريستول، في بناطيل الجينز الفضفاضة وسترنا القصيرة (سترة الطّيار الحربي) ومنحنياتنا الصّغيرة أو رؤوسنا الحليقة أو كعكات الشّعر المشدودة الملّسة بمستحضر داكس، وتفاخرنا بمجموعة قبعاتنا. تلك الأسابيع الأولى انجذبنا نحو بعضنا البعض، نسير في عصابة دفاعية معًا على امتداد الواجهة البحريّة، مستعدين للإهانات، لكن المحليين لم يكونوا مهتمّين بنا قدْرَ اهتمامنا بأنفسنا. جفّف الهواء المالح شفاهنا ولم يكن هناك على الإطلاق مكان ترتب فيه شعرك، لكن عبارة «هل أنت في الكليّة؟» كانت استفهامًا مهذّبًا صادقًا، ليس هجومًا على حقّك في التّواجد هناك. وكان هناك

مزايا أخرى غير منتظرة. هنا حصلت على «منحة إعاشة» تغطي كلًّا من الطّعام والإيجار، وكانت عطلات نهاية الأسبوع رخيصة – لم يكن من مكان للذهاب إليه ولا شيء لتفعله. أمضينا وقت فراغنا معًا في غرفنا، نتبادل الأسئلة عن ماضينا برهافة بدت مناسبة لأناس يمكن تتبع أشجار عائلاتهم فقط حتى فرع أو اثنين قبل أن تغرق في الغموض. كان هناك استثناء وحيد، فتى من غانا: تحدر من سلالة طويلة من الأطباء والمحامين وشعر يوميًا بالكرب لأنه لا يجد نفسه في أوكسفورد. لكن بالنسبة لبقيتنا الذين لم نبتعد في حياتنا سوى مرة واحدة أو اثنتين أحيانًا، عن آباء ميكانيكيين أو أمهات تعملن في التنظيف، عن جدّة خادمة في مستشفى وجد سائق لحافلة، كنا لا نزال نشعر بأننا حققنا المعجزة، أننا «أول المنطلقين في سلالتنا»، وهذا كان بذاته كافيًا. إذ كانت الكلية حديثة العهد كما كنا، ذلك أيضًا أمكن الشّعور به على أنه أشبه بمزيّة. لم يكن هناك ماضٍ أكاديمي كبير هنا، لم يتوجّب علينا رفع قبعاتنا لأي شخص. كانت مواضيعنا جديدة نسبيًا – دراسات إعلامية، دراسات جندرية – وهكذا كانت غرفنا والكلية الفتية. كان المكان ملكًا لنا لنبتكره. فكّرت بتريسي تهرب باكرًا نحو مجتمع الراقصين ذاك، بمدى شعوري بالغيرة، لكن الآن على العكس شعرت ببعض الأسف عليها، بدا لي عالمها طفوليًا، فقط طريقة للعب بالجسد، في حين تمكنت من السّير في القاعة وحضور محاضرة تدعى شيئًا من قبيل «تفكير الجسد الأسود: جدلي»، أو الرّقص بسعادة في غرف أصدقائي الجدد، في وقت متأخر من الليل، وليس على أنغام العرض القديم لكن على الموسيقى الحديثة، على موسيقى الّثنائي جانج ستار أو المغني الأميركي ناس. عندما رقصت الآن لم يكن علي الخضوع لأية قواعد قديمة في الوضعية أو الأسلوب: تحركت كما راق لي، كما اضطرتني الضّربات نفسها على الحركة. تريسي

المسكينة: الصّباح الباكر يبدأ، قلق على السّلالم الموسيقية، مشطا قدميها المتألمين، تعرض جسدها الفتي لحكم أناس آخرين! كنت حرّة للغاية بالمقارنة معها. هنا لبثنا ساهرين حتى وقت متأخر، أكلنا ما طاب لنا، دخّنا سجائر الحشيش. استمعنا إلى عصر الهيب هوب الذّهبي، غافلين في ذلك الحين عن أننا نعيش في عصر ذهبي. دربني على كلمات الأغاني هؤلاء الذين عرفوا أكثر مني وتعاطوا مع هذه الدروس غير الرسمية بجدية مثل أي شيء سمعته في قاعات المحاضرات. كانت روح الأزمنة: طبقنا نظرية راقية على إعلانات الشّامبو، الفلسفة على أغاني فرقة إن دبلوي أي المصوّرة. كان ما يهم في حلقتنا الصّغيرة أن تكون «واعيًا» وبعد سنوات من إرغام شعري على أن يكون سبطًا بالمشط الحار صرت الآن أتركه مجعدًا ومموجًا وأصبحت أضع خريطة صغيرة لأفريقيا حول عنقي، صنعت البلدان الأكبر مساحة من جلد مرقّع من الأسود والأحمر، الأخضر والذهبي. كتبت مقالات طويلة عاطفية حول ظاهرة «العم توم».

عندما جاءت أمي لتقيم ثلاث ليال نحو نهاية ذلك الفصل الأول، ظننت أن كل هذا سيقع عندها موقعًا حسنًا. لكن قد نسيت أني لم أكن تمامًا مثل الآخرين، لست حقًا «أول المنطلقين في سلالتنا». في سباق الحواجز هذا كانت أمي تسبقني بقفزة، وكنت قد نسيت أن ما كان كافيًا للآخرين لم يكن أبدًا كافيًا من أجلها. وفيما نحن سائرتان على طول الشّاطئ معًا في ذلك الصّباح الأخير من إقامتها، بدأت بعبارة تمكنت أن أرى بنفسي أنها أفلتت منها بطريقة ما، مبتعدة عن أي شيء كانت تنوي قوله، لكن مع ذلك قالتها، قارنت شهادتها التي أتمتها للتو مع الشّهادة التي كنت أبدأ بدراستها، دعت كليتي «فندقًا ملفّا»، ليست جامعة على الإطلاق، لا شيء سوى خدعة قرض طلابي انطلت على

أولاد لم يعرفوا ما هو أفضل، كان آبائهم غير متعلمين، واستشطت غضبًا، احتدّ الكلام بيننا على نحو رهيب. طلبت منها ألا تكلّف نفسها عناء الزيارة ثانية وأذعنت لطلبي.

ارتقبت شعورًا بالوحشة – كما لو أني قطعت الحبل الوحيد الذي يربطني بالعالم – لكن هذا الشّعور لم يستولي عليّ أبدًا. كان لدي للمرة الأولى في حياتي حبيب وكنت مشغولة تمامًا به حتى أني وجدت أن بوسعي تحمل خسارة أي شيء وكل شيء عداه. كان شابًا واعيًا يدعى راكيم – قد أعاد تسمية نفسه تيمنًا باسم مغني الراب – وكان وجهه الطويل مثل وجهي، ذا درجة بنية عسلية أكثر دكنة، فيه عينين ثاقبتين وداكنتين للغاية، أنف بارز وفك غير متوقع، أنثوي لطيف مثل الناشط السياسي هوي ب. نيوتون نفسه. جدّل شعره ضفائر رفيعة تصل حتى كتفيه، انتعل حذاء رياضيًا من ماركة كونفيرس اول ستارز مهما كان حال الطقس، نظارة صغيرة مدورة مثل نظارة جون لينون. فكرت أنه أجمل رجل في العالم. هذا ما ظنه هو نفسه أيضًا. اعتبر نفسه ينتمي إلى «أمة الخمسة بالمائة»[35]، بمعنى إله في نفسه – كما كان جميع أبناء أفريقيا الذّكور آلهة – وعندما شرح لي أولًا هذا المفهوم كان أول ما تبادر إلى ذهني هو: كم لطيف أن تظن نفسك إلهًا حيًا، كم مريح! لكن لا، كما تبين، كان واجبًا ثقيلًا: لم يكن من السهل أن تكون مثقلًا بحقيقة

---

35) Five – Percent Nation: أمّة الخمسة بالمئة، ويُشار إليها باسم أمّة الآلهة والأرض، هي حركة تأسست عام 1964 في حي هارلم في مانهاتن، نيويورك. أسّسها عضو سابق في «أمّة الإسلام»: كلارنس ثيرتين إكس، واسمه في الولادة كلارنس إدوارد سميث، أصبح يُعرف في نهاية المطاف باسم الله الأب. مصطلح «خمسة في المئة» يأتي من عقيدة حركة «أمة الإسلام» التي ترى أن عدد سكان العالم مقسّم إلى ثلاث مجموعات: 85% من الناس عميان عن معرفة أنفسهم والله، في حين أن 10% من الناس يعرفون الحقيقة، لكنهم يكذبون لكسبهم الشخصي؛ يُنظَر إلى الزعماء الدينيين الذين يعلمون أن الله كائن معنويّ (وبالتالي مصطلح الله الغامض) كجزء من تلك الـ 10 %. كما أن نسبة الـ10% يمكن أن تشمل حكومات العالم التي تخدع وتضلل أغلبية العالم عبر معظم وسائل الإعلام المتاحة. أمّا نسبة الـ5% المتبقية فهي تشمل المعلمين الصالحين الفقراء – أولئك الذين لا يُقرّون تعاليم الـ10%، كما يعلمون ويعلّمون أن الله هو الرجل الأسود الآسيوي.

بينما عاش الكثير من الناس في جهل، خمسة وثمانون بالمائة من الناس، كي أكون دقيقة. لكن أسوأ من الجاهل كان الخبيث، العشرة بالمائة الذين عرفوا جميعًا كل ما ادعى راكيم أنه يعرفه لكنهم عملوا على التخفي بنشاط وتدمير الحقيقة، كل ما بوسعهم لإبقاء الخمسة وثمانين في جهل للسّيطرة عليهم. (في هذه المجموعة من المخادعين المنحرفين شمل راكيم جميع الكنائس، أمة الإسلام نفسها، الإعلام، «المؤسسة».) كان يضع ملصقًا «للنمور[36]» معتّقًا ورائعًا على جدراه، بدت فيه القطة الكبيرة توشك أن تقفز عليك وتحدث غالبًا عن الحياة العنيفة للمدن الأميركية الكبيرة، عن معاناة شعبنا في نيويورك وشيكاغو، في بلتيمور ولوس أنجلس، أماكن لم أزرها أبدًا وبالكاد يمكنني تخيلها. ساورني أحيانًا انطباع عن أن حياة الغيتو هذه – ولو أنها على بعد ثلاثة آلاف ميل – أكثر واقعية بالنسبة إليه من المنظر البحري الهادئ اللطيف الذي عشنا فيه بالفعل.

هناك أوقات عندما أمكن للضغط الذي شعر به كونه معلّمًا وصالحًا وفقيرًا أن يسحقه. أنزل الستائر في غرفته، دخّن الماريوانا منذ الصّباح، فوّت المحاضرات، توسّلني ألا أتركه وحيدًا، أمضى ساعات يدرس الأبجدية العليا والرياضيات العليا، التي بدت لي فقط مثل مذكرة بعد مذكرة مملوءة بأحرف وأرقام في تراكيب غير مفهومة. في أوقات أخرى بدا مناسبًا تمامًا لمهمة التنوير العالمي. هادئ وواسع الاطلاع، يجلس مصالبًا ساقيه مثل معلم روحي على الأرض، يصب شاي الخبيزة لحلقتنا الصغيرة، «يستعرض ما يمتلكه من معارف »،

36) النمور أو الفهود السّود، هي حركة حقوقية لسود الولايات المتحدة نشأت بعد مقتل مالكوم إكس وما عقبه من توترات راح ضحيتها أكثر من 300 مواطن أسود مما جعل جماعات سوداء تؤسس ما يسمى بمنظمة النمور السود للدفاع عنهم. كانت المنظمة تحمل السلاح ولا تنبذ العنف ودخلت في اشتباكات عديدة مع الشّرطة .

يرقّص رأسه برفق وهو يستمع إلى سميّه (مغني الراب راكيم) عبر جهاز الستيريو. لم ألتقِ من قبل أبدًا بفتى مثله. الفتيان الذين عرفتهم لم يتمتعوا بالشّغف، ليس حقًا، لم يكن في متناولهم: إبداء عدم الاكتراث هو ما كان يهم بالنسبة لهم. كانوا في تنافس مدى الحياة مع بعضهم – ومع العالم – بالضبط ليظهروا من هو أقل اكتراثًا، من مِن بينهم أكثر لا مبالاة. كان شكلًا من الدّفاع ضدّ الخسارة، التي بدت لهم محتومة بأية حال.

كان راكيم مختلفًا: كل شغفه على السّطح، لم يتمكّن من إخفائه، لم يحاول – هذا ما أحببته فيه. لم ألاحظ للوهلة الأولى كم كان صعبًا عليه أن يضحك. لم يبدُ الضّحك مناسبًا لإله في هيئة بشر – أقل من ذلك بالنسبة لصديقات إله – وكان عليّ ربما أن أقرأ تحذيرًا في ذلك. بدلًا من هذا تبعته بولاء إلى أكثر الأماكن غرابة. دراسة معاني الأعداد! كان مسلوب اللب بدراسة معاني الأعداد. علمني كيف أحول اسمي إلى أرقام، من ثم كيف أعالج هذه الأرقام بطريقة خاصّة، تبعًا للرياضيات العالية، إلى أن عنى: «الكفاح للانتصار على التقسيم داخلها». لم أفهم كل ما قاله – كنا غالبًا مخمورين خلال هذه المحادثات – لكن الانقسام الذي ادعى أنه استطاع رؤيته في داخلي فهمته جيدًا، لم يكن يوجد شيء أكثر سهولة للفهم بالنسبة لي من فكرة أني قد ولدت بنصفٍ صحيح ونصف خطأ، نعم، طالما لم أفكر بوالدي والحب الذي أكنّه له تمكنت من صبّ هذا الشّعور في نفسي بغاية السّهولة.

لم يكن لمثل هذه الأفكار شأنًا بواجبات راكيم الدّراسية الحاليّة ولا مكان لها فيها: كانت شهادته في دراسات الأعمال وحسن الضّيافة. لكنها هيمنت على وقتنا معًا ورويدًا رويدًا بدأت أشعر بأني تحت غمامة من تصويب مستمر. ما من شيء فعلته كان صحيحًا. اشمأز من الإعلام

الذي يفترض أني أدرسه – الموسيقيون الجوالون والأمهات الراقصات، الراقصون المحترفون وفتيات الجوقة – لم يرَ أي قيمة في أي منها حتى لو كان هدفي نقدًا، كان الموضوع برمته بالنسبة له فارغًا، منتج «لهوليوود اليهودية»، التي شملها بالجملة في تلك العشرة بالمائة المراوغة. إذا حاولت التحدث معه عن شيء كنت أكتبه – لا سيما في حضرة أصدقائنا – كان يقول شيئًا للتقليل من شأنه أو ليستهزئ به. مخمورة للغاية في صحبة ذات مرة، ارتكبت خطأ محاولة شرح ما وجدته جميلًا حول أصول الرّقص النّقري – الجماعة الأيرلندية والعبيد الأفارقة، يقرعون الوقت بأقدامهم على السّطوح الخشبية لتلك السّفن، مبدلين الخطوات، مبتكرين شكلًا هجينًا – لكن راكيم أيضًا كان مخمورًا وفي مزاج بغيض، نهض، قلب عينيه وبوز شفتيه، صافح يديه مثل مغن جوّال وقال: «أو ماسا(سيدي)، أنا سعيد للغاية على سفينة العبيد هذه، سأرقص فرحًا».

نظر في عيني، وعاود الجلوس. نظر أصدقاؤنا إلى الأرض. كانت الإهانة شديدة: لأشهر تلت استطاع مجرد التفكير فيها أن يعيد الوهج إلى خدي. لكن في ذلك الحين لم ألمه على التصرف بهذه الطّريقة، أو أشعر أنه قلّل من حبي له: كانت غريزتي دومًا أن أجد العيب في نفسي. كان عيبي الأكبر في ذلك الوقت، من وجهة نظره ومن وجهة نظري، أنوثتي التي كانت من النّوع الخطأ. في خطة راكيم كانت تفترض بالمرأة أن تكون «الأرض»، هي وضعت رجلًا، هو نفسه كان فكرة مجرّدة، من «استعراض معارفه»، وأنا كنت في حكمه بعيدة عن المكان الذي يجب أن أكون فيه، عند جذور الأشياء. لم أزرع النباتات أو أطهو الطعام، لم أتحدّث أبدًا عن الأطفال أو عن قضايا منزلية وتنافست مع راكيم متى وأين يتوجب عليّ أن أكون داعمة. لم تكن الرومانسية

في متناولي: تطلّبت شكلًا من غموض شخصي لم أتمكن من صنعه وكرهته في الآخرين. لم أتمكّن من التّظاهر بأن الشّعر لا ينمو في ساقي، أو أن جسدي لا يطرح تشكيلة من مواد حمقاء، أو أن قدمي ليستا مسطحتين كالزلابية. لم أستطع المغازلة، ولم أرَ فحوى المغازلة. لم أمانع التّأنق من أجل الغرباء - في حفلات الكلية أو إذا ما ذهبنا في لندن إلى النّوادي - لكن في غرفنا، ضمن إطار خصوصيتنا، لم أتمكّن من أن أكون فتاة، ولا تمكنت من أن أكون حبيبة أحد، تمكنت فقط من أن أكون أنثى بشرية والجنس الذي فهمته كان من النّوع الذي يحدث بين أصدقاء متساوين، محادثة موضوعة بين قوسين، مثل رف من الكتب بين مسندي كتب. هذه الأخطاء العميقة تتبعها راكيم حتى دم والدي الذي يجري في عروقي مثل السّم. لكن كان أيضًا مصطنعًا، ذهنيًّا، منشغلًا للغاية في ذاته. دعاه عقل المدينة، من النّوع الذي لا يمكنه أن يعرف أبدًا السّلام، لأنه لا يوجد فيه شيء طبيعي ليتأمل فيه، فقط اسمنت وصور، وصور للصور - «صورة زائفة»، كما قلنا في ذلك الحين. أفسدتني المدن، جعلتني مسترجلة. ألم أعرف أن المدن بناها العشرة بالمائة؟ وأنها كانت أداة مدروسة للاضطهاد؟ عادة غريبة على الروح الأفريقية؟ كان دليله على هذه النظرية أحيانًا مؤامرات حكومية مبطلة - معقدة، مخططات مرسومة على عجل لمشاريع معمارية، اقتباسات غامضة منسوبة إلى رؤساء وقادة مدنيين كان عليّ أن أؤمن بها وفي مرات أخرى بسيطة وملعونة. هل أعرف أسماء الأشجار؟ أسماء الزهور؟ لا؟ لكن كيف يمكن لأفريقية أن تعيش بهذه الطريقة؟ في حين عرفها كلها، ولو أن هذا كان بسبب الواقعة - التي لم يهتم لنشرها - أنه كان ابنًا لإنكليزي ريفي، نشأ أولًا في يوركشاير، ثم في دورست، في قرى نائية ودومًا الوحيد من نوعه في شارعه، في مدرسته، واقعة وجدتها أكثر غرابة

من كل تطرّفه وغموضه. أحببت أنه عرف أسماء المقاطعات وكيف اتصلت ببعضها البعض، أسماء الأنهار وأين وكيف بالضّبط جرت نحو البحر، أمكنه أن يعرف شجرة التوت من ثمر العلّيق، الأيكة من الأجمة. أبدًا في حياتي لم أذهب سيرًا على الأقدام دون هدف معين، لكني الآن فعلت، مصاحبة إياه في نزهاته، على طول الواجهة البحرية الوعرة، على أرصفة مهجورة، وأحيانًا عميقًا في البلدة، على أزقتها الصّغيرة المفروشة بالحصى، نعبر الحديقة، نترنح عبر المقابر وعلى طول الطرق، بعيدًا حتى يمكن لنا أن نصادف حقولًا أخيرًا ونستلقي فيها. في هذه النزهات الطويلة لم ينسَ انشغالاته. استعملها ليؤطر ما رأيناه بطرق أمكنها أن تفاجئني. الفخامة الجورجية لهلال من المنازل قبالة البحر، واجهاتها بيضاء كالسّكر – شرح قائلًا إن تلك أيضًا سدّد ثمنها بالسّكر، بناها مالك مزرعة من جزيرة أسلافنا، الجزيرة التي لا أنا ولا هو سبق لنا أن زرناها. وباحة الكنيسة الصّغيرة التي تجمعنا فيها أحيانا ليلًا لندخّن ونشرب ونستلقي على العشب، فيها تزوّجت سارة فوربس بونيتا، قصّة رواها مرارًا بحيوية تجعلك تظن أنه تزوج المرأة هو نفسه. استلقيت معه على العشب القصير للمقبرة وأصغيت. فتاة صغيرة تبلغ من العمر سبعة أعوام من غرب أفريقيا من عائلة نبيلة لكن حوصرت في حرب بين القبائل، اختطفها غزاة داهومي. شهدت مقتل عائلتها، لكن «أنقذت» لاحقًا – كلمة وضعها راكيم بين قوسين مستعملًا أصابعه – من قبل قبطان انكليزي أقنع ملك داهومي أن يهديها للملكة فكتوريا. «هدية من ملك السّود إلى ملكة البيض». هذا القبطان أطلق عليها اسم بونيتا على اسم سفينته ومع وقت وصولهم إلى إنكلترا أدرك كم كانت الفتاة الصّغيرة ذكية وسريعة ومتنبّهة على غير المعتاد، نبيهة مثل أي فتاة بيضاء وعندما التقتها الملكة تمكنت من رؤية

كل هذا أيضًا، مقررة أن تربي سارة على أنها ابنتها بالمعمودية، مزوجة إياها بعد عدة سنوات عندما بلغت إلى تاجر غني من شعب اليوروبا. قال راكيم: «في هذه الكنيسة، حدث في هذه الكنيسة هنا». نهضت على مرفقي في العشب وتطلعت نحو الكنيسة، متواضعة للغاية، شرفاتها البسيطة وبابها الأحمر الصّلب. قال متتبعًا رحلتهم من البوابة إلى باب الكنيسة بطرف لفافة متوهجة: «وهناك كان ثماني وصيفات سوداوات في زفة. تخيلي ذلك! ثمانية سود وثمانية بيض، وسار الرّجال الأفارقة مع الفتيات البيض والرّجال البيض مع الفتيات الأفريقيات». حتى في الظلمة تمكنت من رؤية ذلك كله. الأحصنة الاثنا عشر الرمادية تجر العربة، وفستان بديع بتخاريمه عاجية اللون والحشد العظيم الذي تجمع ليرى المشهد، يتدفق من الكنيسة، على المرج ويعود طوال الطريق إلى البوابة المسقوفة واقفين على جدران حجرية منخفضة ويتدلون من الأشجار، فقط لإلقاء نظرة عليها.

أفكر في راكيم كيف جمع معلوماته في ذلك الحين: في المكتبات العامة، في أرشيف الكلية، يقرأ بإصرار صحفًا قديمة، يتفحص ميكروفيش (البطاقات الفيلمية المسطحة)، يتتبع الهوامش. من ثم أفكر به الآن في عصر الانترنت وكيف لابد أنه سعيد على نحو تام وإلا كم هو مستنزف، إلى حد الجنون الهاذي. الآن يمكنني أن أعرف في لحظة اسم ذلك القبطان، ويمكنني أن أعلم في نفس النقرة رأيه بالفتاة التي أهداها إلى ملكة. منذ وصولها إلى البلاد، كانت قد حققت تقدمًا ملحوظًا في دراسة اللغة الإنكليزية، وبرهنت على موهبة موسيقية عظيمة وذكاء من طراز ليس شائعًا. شعرها قصير، أسود، ومجعّد، يدل بقوة على ولادتها الأفريقية، بينما قسماتها سارة ووسيمة، وسلوكها وتصرفاتها معظمها لطيفة وودودة مع جميع المحيطين بها. أعرف الآن أن

اسمها بلغة اليوروبا كان «اينا»، يعني «ولادة عسيرة»، اسم تمنحه لطفل ولد وحبل السّرة معقود حول عنقه. يمكنني أن أرى صورة لآينا ترتدي مشدًا فيكتوريًا عالي الياقة ووجهها كتوم، جسدها ساكن تمامًا. أتذكّر أن راكيم كان لديه لازمة يرددها باستمرار، يحاجج بها بفخر دومًا، وفكه مسحوب إلى الخلف فوق أسنانه: «لدينا ملوكنا! لدينا ملكاتنا!» رحت أومئ طوال الوقت من أجل السّلام، لكن في الحقيقة جزء مني تمرد دومًا. لماذا يظن أنه على قدر كبير من الأهمية، بالنسبة لي أن أعرف أن بتهوفن أهدى سوناتا إلى عازف كمان خلاسي، أو أن سيدة شكسبير السّوداء كانت حقًا سوداء، أو أن الملكة فكتوريا تعطفت لتربي طفلة من أفريقيا، «فاتحة اللون مثل أي فتاة بيضاء»؟ لم أرغب أن أعتمد على كل حقيقة أوروبية تملك ظلها الأفريقي، كما لو أنه دون مساندة الحقيقة الأوروبية قد يتحول كل شيء أفريقي إلى غبار بين يدي.

لم أستمتع لرؤية تلك الفتاة حلوة الوجه تتزيا مثل واحد من أطفال فكتوريا، متجمّدة في صورة رسمية، وحول عنقها يلتف حبل من نوع جديد. لطالما رغبت بحياة – حركة.

ذات يوم أحد بطيء نفث راكيم بعض الدّخان، وبدأ يتحدث عن الذهاب لمشاهدة فيلم حقيقي. كان فرنسيًا، يعرض في نادي الكلية السّينمائي في ذلك اليوم نفسه، وفي الفترة الصّباحية لم نتوقف عن تمزيق منشور عنه، مستعملين البطاقة الصّقيلة لصنع الكثير من الأعقاب الصّغيرة من أجل سجائرنا. لكن مع ذلك أمكنك أن تميز وجه الفتاة السمراء في وشاح أزرق للرأس ادّعى راكيم الآن أن فيه شيئًا من ملامحي، أو أني امتلكت ملامحها. كانت تحدق مباشرة بما بقي من عينها اليمنى. جررنا أنفسنا عبر حرم الجامعة إلى غرفة الوسائط وجلسنا على الكراسي غير المريحة القابلة للطي. بدأ الفيلم. لكن والسّيجارة تدور في

رأسي كان في غاية الصّعوبة أن أفهم ما كنت أشاهده، بدا أنه تألف من الكثير من القطع الصّغيرة، مثل نافذة من زجاج ملطخ، ولم أعرف أي الأجزاء كانت هامة، أو على أي مشاهد شعر راكيم أن عليّ التركيز، رغم أن جميع من في الغرفة ربما شعروا بالأمر نفسه، ربما هو جزء من أثر ذلك الفيلم أن على كل مشاهد أن يرى فيه شيئًا مختلفًا. لا يمكنني أن أعرف ما رآه راكيم. رأيت قبائل. كثيرة مختلفة، من كل ركن من أركان العالم، تعمل في ظلّ القواعد الدّاخلية لمجموعاتها، من ثم جمعت معًا بشكل معقد بدا أنه يتمتع بمنطقه الغريب في تلك اللحظة. رأيت فتيات يابانيات في زي تقليدي، يرقصن في تشكيل، يؤدين حركات هيب هوب بغرابة وهن ينتعلن الأحذية الخشبية التقليدية الجيتا المرتفعة. أشخاص من جمهورية الرأس الأخضر ينتظرون بصبر مثالي غير محدود مركبًا قد يأتي وقد لا يأتي. رأيت أطفالًا بيضًا شقرًا يسيرون على طريق ايسلندي مقفر بخلاف ذلك، في بلدة سودها الرماد البركاني. سمعت صوت امرأة مدبلج ومفصول تتحدث عن هذه الصّور، كان زمنًا أفريقيًا متعاكسًا مع زمن أوروبا ومع الزمن كما هو مختبر في آسيا. قالت إن الجنس البشري منذ مئة عام كان يتصدى لسؤال المكان، لكن مشكلة القرن العشرين كانت الوجود المتزامن لمفاهيم مختلفة عن الزمن. تطلعت نحو راكيم: كان يدون ملاحظات في الظلمة، مخمورًا للغاية. وصل إلى حدٍّ عندما كانت الصّور نفسها كثيرة بالنسبة له، تمكن فقط من الاستماع إلى صوت المرأة ويدون ملاحظاته، أسرع وأسرع مع استمرار الفيلم، إلى أن كتب نصف السيناريو على كراسته.

بالنسبة لي لم يمتلك الفيلم بداية أو نهاية، وهذا لم يكن إحساسًا غير مرضٍ، حسبه أنه غامض، كما لو أن الزمن نفسه امتد ليفسح مكانًا لهذا العرض اللانهائي من القبائل. استمر طويلًا رافضًا أن

ينتهي، أعترف أني نمت خلال أجزاء منه، فقط لأستيقظ بحدة عندما ضربت ذقني صدري، عند هذه النقطة رحت أرفع بصري وأجد نفسي أتصدى لصورة غريبة – معبد مكرس للقطط، الممثل جيمي ستيوارت يطارد الممثلة كيم نوفاك على درج لولبي – صور زادت غرابة لأني لم أتبع ما جاء قبلها وما كنت لأرى ما جاء بعدها. وفي واحدة من هذه الفجوات الصّافية بين اليقظة والنّوم سمعت مرة أخرى ذلك الصّوت المفصول نفسه يتحدث عن اللافنائيّة الأساسية عند النّساء، وعن علاقة الرّجال بها. قالت: «لأن عمل الرّجال أن يمنع النّساء عن إدراك لا فنائيتهن، ولأطول وقت ممكن. كلّ مرة استيقظت مجفلة تمكنت من الشعور بفراغ صبر راكيم مني، حاجته لأن يصحح لي، وبدأت أخشى انتهاء الفيلم، أمكنني أن أتخيل الحدة بالضبط وطول الجدال الذي سوف يتبعه، في تلك اللحظة الخطيرة عندما كنا خارج السينما، في غرفته وبعيدًا عن الشّهود. لم أرغب أبدًا أن ينتهي الفيلم.

بعد بضعة أيام تخلصت من راكيم، بطريقة جبانة، في شكل رسالة زلقتها تحت بابه. لمت فيها نفسي وقلت إني أملت لو أمكننا أن نكون صديقين، لكنه أرسل لي واحدة بحبر أحمر مزرق، يعلمني أنه عرف أني كنت أنتمي إلى العشرة بالمائة، وأنه منذ الآن سوف يحذر مني. لم يحنث بما قاله. لبقية حياتي الجامعية راح ينقلب على عقبيه إذا رآني قادمة، يعبر الشّارع إذا وقعت عينه علي في البلدة، يترك أي محاضرة دخلتها. بعد سنتين، في حفل التخرج، أسرعت امرأة بيضاء عبر القاعة وأمسكت بكم أمي، وقالت: «اعتقدت أنها كانت أنت – أنت إلهام لشباننا، أنت حقًا كذلك – لكني مسرورة للغاية للقائك! وهذا ابني». التفتت أمي ووجهها الآن مثبت في تعبير عرفته جيدًا في ذلك الحين – تفضلٌ لطيف ممزوج بالفخر، نفس الوجه الذي امتلكته غالبًا الآن

كلما كانت مدعوة للظهور على التّلفاز «للتحدث عن هؤلاء الذين لا صوت لهم». مدّت يدها لتصافح ابن هذه المرأة البيضاء الذي ما كان أولًا ليخرج من خلف والدته وعندما نظر إلى الأرض، جدائله الرفيعة تحجب وجهه، مع ذلك عرفته في الحال من حذائه كونفيرس أول ستارز بارزًا من تحت عباء حفل التخرج.

⊹ اثنان ⊹

في زيارتي الخامسة ذهبت بمفردي. أسير بخطى واسعة عبر المطار مباشرة وأخرج إلى الطقس الحار، أشعر بلياقة عظيمة. كان التائهون والحذرون يحيطون بي من كل جانب: سياح متجهون إلى الشّاطئ، إنجيليون في قمصانهم العريضة قصيرة الأكمام وكل علماء الأنثروبولوجيا الألمان الشّبان الجدّيين. لم يرشدني موفد إلى عربتي. لم أكن أنتظر «بقية أفراد جماعتي». جهزت نقودي لأعطيها للعُرج في موقف السّيارات، أجرة السّيارة محشورة في مؤخرة بنطالي، نصف دزينة من العبارات. ناكام! جامون جام؟ جاما ريك! الخاكي والبنطال الكتّان الأبيض المغضّن رحلا منذ زمن طويل. جينز أسود، قميص حريري أسود وقرط كبير متأرجح ذهبي في أذني. خيل إليّ أني أتقنت التوقيت المحلي. عرفت الآن كم يستغرق الوصول إلى العبّارة من وقت وفي أي وقت من اليوم، لذا عندما توقفت سيارة الأجرة عند المعبر كان مئات الأشخاص سلفًا قد انتظروا بالنيابة عني، كان كل ما توجب عليّ فعله الخروج من السّيارة والسّير مباشرة على السّطح. ترنحت السّفينة مبتعدة عن الشّاطئ. طرحتني الأرجحة على السّطح العلوي قدمًا، عبر طبقتين من النّاس حتى الحاجز، وسعيدة بكوني هناك، مثل شخص دُفع حينها في ذراعي حبيبه. نظرت نحو الحياة والحركة في الأسفل: أناس يتدافعون، دجاج يقوقئ، دلافين تقفز في الزبد، قوارب صغيرة

تصطاد في إثرنا، كلاب جائعة تجري على طول الخط السّاحلي. لمحت هنا وهناك ما عرفت الآن أنهم «جماعة التبليغ»، تخفق بناطيلهم القصيرة من حول كواحلهم، لأنها إذا كانت أطول ستتسخ وصلوات القذر غير مستجابة، لذا ينتهي بك الأمر محرقًا قدميك في الجحيم. لكن خلف لباسهم كان سكونهم هو ما وسمهم جميعًا حقًا. في خضم كل ذلك النشاط بدوا متوقفين، إما يقرؤون من كتب الصّلوات أو يجلسون في صمت، غالبًا وعيونهم مكحلة الحواف مغمضة وابتسامة سعيدة عششت في لحاهم المحنّاة، مسالمين للغاية بالمقارنة معنا نحن البقية. حالمة بإيمانهم النقي والحديث ربما: بعائلات صغيرة تتعبد لله في شقق كتومة، بالتسبيح دون سحر، بالوصول المباشر إلى إله دون وسطاء محليين، بالختان المعقم في المشفى، رضّع ولدوا دون أي رقص احتفالي، نساء لم يفكرن في أمر تطابق حجاب زهري حار اللون مع ثوب قصير من قماش الليكرا الأخضر الزيزفوني. تساءلت كم لا بد أن يكون صعبًا أن تصون هذا الحلم، الآن تمامًا على هذه العبارة، عندما انبسطت العقيدة اليومية العنيدة من حولهم جميعًا.

جلست على مقعد. جلس إلى يساري أحد هؤلاء الشّبان الروحيين، مغمض العينين، يتشبث بسجادة صلاة مطوية إلى صدره. على جانبي الآخر فتاة فاتنة لها مجموعتان من الحواجب – زوجان مرسومان بغرابة فوق حاجبيها – جلست تهزهز كيسًا صغيرًا من الكاجو في يديها. فكرت في كل الشّهور التي فصلت رحلتي الأولى في العبّارة عن هذه الرحلة. أنهت الأكاديمية المنارة للفتيات سنتها الأولى – التي اختصرنا اسمها من أجل الراحة ولحفظ الجميع من عار التلفظ به، دون علم إيمي، إلى أ م ب. بازدهار، إذا اعتبرت النجاح خبرًا في عمود صحفي بحجم بوصات.

كانت بالنسبة لنا نحن البقية محنة دوريّة، شديدة كلما توالت الزيارات أو جلبت بعض الأزمات المدير المحاصر إلى غرف اجتماعاتنا في لندن أو في نيويورك من خلال اتصال فيديو جماعي حافل. بعيد بغرابة في كل الأوقات الأخرى. كان لدي غالبًا سبب لأتذكر جرانجر في هيثرو، ليلة عودتنا الأولى، معانقًا كتفي عندما كنا ننتظر في طابور لدفع الرسوم الجمركية: «ما من واحد من هذا يبدو حقيقيًا لي الآن! شيء تغير. لا يمكن أن يكون نفسه بعد رؤية ما رأيته!» لكن خلال بضعة أيام كان بالضبط نفسه، كنا جميعًا كذلك: تركنا الحنفيات مفتوحة، تركنا زجاجات بلاستيكية بعد بضع رشفات، اشترينا بنطال جينز بثمن يساوي مجموع مرتّب المدرس السنوي. إذا كانت لندن غير حقيقية، إذا كانت نيويورك غير حقيقية، كانت عروضًا مسرحية فعالة: فور عودتنا إليها لم تبد فقط حقيقية، بل الواقع الوحيد الممكن، والقرارات المتخذة بشأن القرية من هذه المواقع بدت دومًا أنها تملك معقولية محددة بينما كنا نتخذها، وفقط لاحقًا، عندما عاد أحدنا إلى هنا وعبر هذا النهر، أصبح واضحًا السّخف الكامن لأي شيء كان. قبل أربعة أشهر، على سبيل المثال، قد بدا مهمًا في نيويورك تدريس نظرية التطور لهؤلاء الأطفال – ومدرسيهم – الكثير منهم لم يسمعوا باسم داروين. بدت أولوية أدنى مرتبة بكثير في القرية نفسها، عندما وصلنا إليها في خضم موسم المطر لنجد ثلث الأولاد مصابين بالملاريا، نصف سقف قاعة دراسية متهاوٍ، عقد الحمام غير منجز والدوائر الكهربية المدارة بالطاقة الشمسية صدئة وفاسدة. لكن مشكلتنا الكبرى، كما تنبأ فرن، لم تكن أوهامنا التربوية، بالضّبط، بل الطبيعة المترددة لاهتمام إيمي. كانت التكنولوجيا أمرها الجديد. بدأت تمضي الكثير من الوقت الاجتماعي

مع شبان وادي السيليكون[37] اللامعين، وأحبت أن تعتبر نفسها واحدة منهم، «بشكل أساسي طالبة مجدّة في الدراسة». كانت قد أصبحت متجاوبة للغاية مع رؤيتهم لعالم متحول - أنقذته - التكنولوجيا.

في أول ومضة من هذا الاهتمام الجديد لم تتخل عن المدرسة أو عن خفض الفقر بقدر ما غطى الانشغال الجديد على الانشغالات القديمة، مع نتائج مفزعة أحيانًا («سوف نعطي كل واحدة من تلك الفتيات حاسبًا محمولًا: سوف يكون كتاب تمارينهن، مكتبتهن، مدرسهن، كل شيء!») ما توجب على فِرن حينها أن يتلاعب بها معيدًا إياها إلى ما يشبه الواقع. هو بقي «على الأرض» ليس فقط لأسابيع وحسب لكن مواسم بأكملها، جزئيًا نابعًا من عاطفة نحو القرية وعن التزامه بدوره هناك لكن أيضًا عرفت أن ذلك كان كي يتجنب العمل مباشرة مع إيمي بدلًا من مسافته المفضلة الممتدة أربعة آلاف ميل. رأى ما لم يره أحد. لاحظ استياء الفتيان المتنامي الذين تركوا ليتعفنوا في المدرسة القديمة التي رغم أن إيمي نفحتها بين الحين والآخر ببعض المال - كانت الآن أكثر قليلًا من مدينة أشباح، جلس فيها الأطفال ينتظرون مدرسين قد كفوا عن القدوم إلى العمل لأن أجورهم لم تدفع لهم منذ فترة طويلة. بدا أن الحكومة تعتكف عن القرية عمومًا: كثير من الخدمات التي كانت تعمل بشكل جيد سابقًا، أو تعمل على نحو معقول، فترت الآن بقسوة. لم تفتتح العيادة مجددًا، أخدود ضخم في الطريق خارج القرية ترك ليزداد عمقًا واتساعًا. تقارير إيطالية علميّة بيئية عن مستويات خطرة من مبيدات الذباب في المياه الجوفية تمّ

37) Silicon Valley: هي المنطقة الجنوبية من منطقة خليج سان فرانسيسكو في كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية. هذه المنطقة أصبحت مشهورة لوجود عدد كبير من مطوّري ومنتجي الشرائح أو الرقاقات السيليكونية (الدوائر المتكاملة)، وحاليًا تضم جميع أعمال التقنية العالية في المنطقة، حيث أصبح اسم المنطقة مرادفًا لمصطلح التقنية العالية.

تجاهلها مهما حاول فرن مرارًا تنبيه الوزراء المعنيين. ربما هذا النّوع من الأمور كان سيحدث بأيّة حال. لكن كان من الصّعب تفادي الشّك بأن القرية كانت معاقبة لاتصالها بإيمي، أو متجاهلة عمدًا في افتراض أن نقود إيمي سوف تسدّ الفجوة.

مشكلة واحدة لم تتمكن من العثور عليها مكتوبة في أي من التقارير، لكن فرن وأنا كنّا واعيين لها بشدة، على الرغم من أننا اختبرناها من وجهتي نظر متناقضتين. لم يكلف أحدنا نفسه عناء نقاشها مع إيمي أبدًا. (لكن كان ردها الوحيد «ماذا لو أحبه؟» عندما استجمعنا القوة بمناسبة مؤتمر في سعي للتدخل). بدلًا من ذلك عملنا دون علمها، نتبادل المعلومات مثل محقّقين خاصّين في القضية نفسها. أنا ربما كنت الشخص الذي لاحظه في البداية في لندن. ما فتئت أدخل على الكلمات العذبة التي يتبادلانها جيئة وذهابًا، في مكتبها، على هاتفها الذي يغلق فورًا أو تطفئه لحظة دخولي أي غرفة كانت فيها. ثمّ لم تعد تشعر بالخجل. عندما مرّ اختبار الايدز الذي جعلته يقوم به، سرت للغاية لدرجة أنها أخبرتني بشأنه. كنت قد اعتدت على رؤية رأس لامين دون بقية جسده في زاوية يبتسم لي، نشاهده في بث حي افترضت أنه من مقهى الانترنت الوحيد في بارا. كان هناك يتناول الفطور مع الأولاد في الصّباحات، ولوح بالوداع لهم عندما وصل مدرسوهم. كان قد ظهر للعشاء، مثل زائر آخر إلى الطاولة. بدأ ليكون متضمنًا في الاجتماعات، النّوع «المبدع» السّخيف («لام، ما رأيك بهذا المشد؟») لكن أيضًا في اجتماعات جدية مع محاسبين، مدير الأعمال، العلاقات العامة.

من جهة فرن كانت الحالة أقل رومانسية على نحو مغثٍ، أكثر تماسكًا: حصل بيت لامين على باب رئيس جديد، ثم مرحاض، ثم جدران داخلية للتقسيم، ثمّ سطح جديد من الآجر. هذا لم يكن

غير ملحوظًا. تسبب تلفاز ذو شاشة مسطحة بالمشكلة الأخيرة. أعلمني فرن عندما اتصلت به لأخبره بأن الطائرة تقلع: «دعا الكالو إلى اجتماع بشأنه يوم الثلاثاء»، كان لامين بعيدًا في داكار يزور العائلة. غالبًا أتى الشبان. كان الجميع مستاء للغاية. تحدر إلى نقاش طويل حول كيف ومتى انضم لامين إلى المدرسة...»

كنت أكتب لفِرن لأعطيه موقعي الأخير عندما سمعت فوضى في الجانب الآخر من غرفة المحرك، ورفعت بصري فرأيت أجسادًا تفترق، تتحرك نحو الدّرج، لتتفادى رجلًا نحيلًا يضرب وبدا الآن للعيان أنه يصرخ ملوحًا بذراعيه الهزيلتين في ألم شديد.

التفت نحو الرجل إلى يساري: حافظ وجهه على هدوئه وعيناه مغمضتين. رفعت السّيدة إلى يميني حاجبيها وقالت: «رجل ثمل، أوه يا إلهي». ظهر جنديان وكانا عنده في لحظة، أخذاه بكل واحدة من ذراعيه الوحشيتين وحاولا إرغامه على السّير نحو بقعة على المقعد بعيدًا عنا بعض الشيء، لكن كلما التقت مؤخرته الضيقة بالمقعد وثب كما لو أن الخشب يحترق، وهكذا تغيرت الخطة الآن، جراه نحو مدخل غرفة المحرك، مباشرة قبالتي وحاولا إرغامه على عبور الباب الصّغير ونزول الدرجات المظلمة إلى حيث لم يعد ممكنًا رؤيته. عرفت حينها أنه مصاب بالصّرع – استطعت أن أرى الزبد يتجمع عند زاويتي فمه – وفي البداية فكرت أن هذا ما لم يفهماه.

عندما أرغماه على خلع قميصه واصلت الصراخ: «مصاب بالصرع! إنه مصاب بالصّرع!» إلى أن شرحت امرأة الحواجب الأربعة: «يا أخت، هما يعرفان هذا». عرفا هذا لكن لم يمتلكا مجموعة رفيقة من الحركات. كانا نوعًا من الجنود المزودين بأوامر وحشية فقط. كلما تشنج الرجل، كلما أزبد أكثر، كلما زاد من غضبهما وبعد كفاح مقتضب

في عتبة الباب، حيث تشنج لحظيًا بطريقة حتى أن أطرافه تصلبت مثل طفل يرفض أن يتحرك، ركلاه على الدّرج، نزلا خلفه وأغلقا الباب. سمعنا كفاحًا، وصرخات رهيبة، لكمات متواصلة بليدة. ثم صمت.

صرخت المرأة ذات الحواجب الأربعة بجانبي: «ماذا تفعلون لذلك الرجل المسكين؟»، لكن عندما انفتح الباب مجددًا خفضت عينيها وعادت إلى الكاجو، ولم أقل أيًا من الأمور التي اعتقدت أني سوف أقولها، بالتوسط بين الضّعيف والقوي كانت غائبة، ليس على متن العبّارة، ليس في البلاد. فقط عندما أصبح الجنود خارج مرمى النظر دخل رجل جماعة التبليغ الذي كان جالسًا قربي – مع رجلين آخرين مجاورين – غرفة المحرك واستردوا المصاب بالصّرع وأخرجوه إلى الضّوء. مدده رجل جماعة التبليغ بلطف على حجره: بدا مثل البييتا[38]. كان حيًا وهادئًا. أفسح له جانب من مقعد، ولبقية الرحلة تمدد هناك، دون قميص، يتأوه برفق، إلى أن عبرنا، عندما وقف مثل أي راكب آخر، نزل الدرج واندمج في الحشود المتوجهة إلى بارا.

كم كنت سعيدة لرؤية هاوا، بصدق! كان موعد الغداء عندما فتحت الباب وأيضًا موسم الكاجو: كان الجميع ينتظمون في حلقات من خمس أو ست، جاثمين حول قدور كبيرة من المكسرات المسودة بالنّار وكان يجب إزالتها من قشرتها المحروقة لتوضع في سلسلة من الدّلاء المصطبغة بألوان متداخلة بشحوب. حتى أطفال صغار للغاية استطاعوا فعل هذا لذا كان الجميع يمدون يد المساعدة، حتى غير المؤهلين مثل فرن الذي ضحكت هاوا ساخرة من تلّته الصّغيرة نسبيًا من القشور.

---

38) Pietà: تعتبر واحدة من الأعمال التي لا يمكن نسيانها للفنان مايكل آنجلو في كاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان. ويجسّد العمل تصويرًا للسيد المسيح وهو في حضن أمه مريم العذراء بُعيد إنزاله عن الصليب.

«انظر إليك! تبدو مثل الآنسة بيونسيه نفسها! حسنًا، آمل أن أظافرك ليست فاخرة للغاية، يا سيدتي، لأنه الآن عليك أن تأتي وتري هذا الرجل فرن المسكين كيف عمل. حتى محمّد لديه كومة أكبر – وهو في الثّالثة من عمره!» تركت حقيبة ظهري الوحيدة عند الباب – تعلمت أيضًا أن أحزم – وذهبت لأعانق هاوا من خلف ظهرها الضيق القوي.

همست في أذني: «حتى الآن ما من طفل؟» وهمست لها بالأمر نفسه وتعانقنا بشدة أكبر وتضاحكنا في عنق واحدتنا الأخرى. كان مفاجئًا لي للغاية أن هاوا وأنا استطعنا أن نجد في هذا رابطًا، عابرًا للقارات والثقافات، لكن هكذا كان الأمر. لأنه تمامًا عندما انفجر عالم إيمي وبناء على ذلك عالمي، في لندن ونيويورك – بالأطفال، أطفالها وأطفال أصدقائها، التعامل معهم والتحدث عنهم، لذا لم يبد أن هناك شيئًا ما عدا الولادة وليس فقط في العالم الشخصي، لكن أيضًا كل الصّحف، التّلفاز، أغانٍ ضالّة على الراديو، بدت لي مهووسة بموضوع الخصوبة عمومًا وبخصوبة نساء مثلي على وجه الخصوص، فقط هاوا كانت ترزح تحت ضغط في القرية، عندما مر الوقت والناس انسجموا مع حقيقة أن رجل الشّرطة في بانجول كان مجرد خدعة وهاوا نفسها فتاة من نوع جديد، ربما غير مختونة، بالتأكيد غير متزوجة، وليس لديها أطفال، وما من خطط حالية لإنجاب أي منهم.

«ما من أطفال حتى الآن؟» أصبح اختزالنا وشعارنا لكل حالتنا المشتركة هذه وبدا أكثر الأمور تسلية في العالم كلما تبادلنا العبارة، قهقهنا وتأوهنا عليها، وفقط بين الحين والآخر خطر لي، وفقط عندما كنت في عالمي الخاص – أني في الثانية والثلاثين وهاوا تصغرني بعشر سنوات.

نهض فرن من كارثة الكاجو ومسح الرماد عن يديه بسرواله:

«هي تعود!»

أتوا لنا بالغداء مباشرة. أكلنا في ركن من الباحة، أطباقنا على ركبنا، جائعين بما يكفي لنتجاهل واقعة أن ما من أحد آخر حصل على فرصة من تقشير الكاجو للغداء.

قال فرن وثغره يفترّ نحوي: «تبدين على خير ما يرام، سعيدة للغاية».

كان الباب الصّفيح في مؤخرة المجمّع السّكني مفتوحًا على وسعه، مانحًا إمكانية لرؤية أرض عائلة هاوا. مساحة مزروعة بأشجار الكاجو المتشحة بالقرمزي، أجمة صفراء شاحبة، وهضاب صغيرة سوداء محروقة من الرماد الذي وسم المكان حيث أضرمت هاوا وجداتها مرة في الشّهر محارق كبيرة من نفايات منزلية والبلاستيك. كانت بشكل ما مورقة وقاحلة في الوقت نفسه، وجميلة بالنسبة لي في هذا المزيج. رأيت أن فرن كان محقًا: هذا مكان كنت فيه سعيدة. في الثانية والثلاثين من عمري وبعد ربع سنة كنت أخيرًا أقترب من سنة عطلتي.

«لكن ماذا تعني سنة عطلة؟»

«أوه، إنها عندما تكونين شابة وتمضين سنة في بلد بعيد، تتعلمين سبله، تتحادثين مع... المجتمع. لم نتمكّن يومًا من تحمل تكلفة واحدة».

«عائلتك؟»

«حسنًا، نعم، لكن – كنت أفكر على نحو خاص بي وبرفيقتي تريسي. اعتدنا مشاهدة الناس يذهبون فيها من ثم عندما يعودون نتحدّث عنهم بسوء». ضحكت بيني وبين نفسي على الذّكرى.

«تتحدثان عنهم بسوء، ماذا يعني هذا؟»

«أوه، اعتدنا تسميتهم سياح الفقر كما تعلمين، تلك الأنواع من الطلاب الذين يعودون من إجازتهم بالسراويل الإثنيّة الحمقاء

وتحف أفريقية غالية الثّمن، منحوتة يدويًا ومصنوعة في مصنع في كينيا... اعتدنا أن نفكر بأنهم بلهاء للغاية».

لكن ربما فِرن نفسه كان واحدًا من هؤلاء المسافرين الشّبان الهيبيين المتفائلين. تنهد ورفع قدره الفارغ عن الأرض لينقذه من معزة فضولية.

«كم كنتما شابتين ساخرتين... أنت ورفيقتك تريسي».

كان مزمعًا أن يستمر تقشير الكاجو ليلًا. لتفادي المساعدة، اقترحت نزهة إلى مورد الماء، في عذر واه لجلب الماء من أجل حمام الصّباح، وفرن، حيي الضّمير للغاية كعادته فاجأني بالقول بأنه يود أن يأتي. روى على طول الطريق حكاية عن زيارة موسى ابن عم هاوا، لتفقد صحة طفل حديث الولادة. عندما وصل إلى المكان وهو بيت بدائي للغاية قد بناه موسى بنفسه على طرف القرية، وجد موسى وحيدًا. زوجته والأطفال ذهبوا لرؤية والدتها.

«دعاني للدخول، أظن أنه كان وحيدًا بعض الشيء. لاحظت أن لديه تلفاز صغير قديم مرفق به مشغل شرائط فيديو. تفاجأت، هو دومًا مقتصد للغاية مثل جميع الماشا الله، لكنه قال إن امرأة من البيس كوربس تركته له قبل عودتها إلى الولايات المتحدة. كان متحمسًا للغاية لجعلي أعرف أنه لم يشاهد يوما أفلام نوليوود (السينما النيجيرية) أو أي من المسلسلات التلفزيونية أو أي شيء من ذلك القبيل، ليس بعد الآن. فقط أفلامًا نظيفة. هل رغبت برؤية واحد؟ قلت: بالتأكيد. نجلس وخلال دقيقة أدرك إنه واحد من تلك الفيديوهات التدريبية من أفغانستان، فتيان يكتسون بالأسود ويؤدّون شقلبات بالكلاشينكوفات... قلت له: موسى؟ هل تفهم ما يقال في هذا الشّريط المصور؟ لأن خطابًا بالعربية كان يدندن باستمرار- يمكنك أن تتخيلي

– واستطعت أن أعرف أنه لم يفهم كلمة. وهو يقول لي حالمًا للغاية: أحب الطريقة التي يقفزون بها! أظن بالنسبة له كان مثل شريط مصور لرقصة جميلة. شريط لرقصة إسلامية متطرفة! قال لي: طريقتهم في الحركة تجعلني أرغب في أن أكون أكثر طهرًا من الدّاخل. موسى المسكين. أضاف عندما لم أضحك: بأيّ حال، اعتقدت أنك قد تجدين هذا مسليًا لأني أعرف أنك مهتمّة بالرّقص!».

ثلاثة

أول رسالة إلكترونية تلقيتها على الإطلاق وصلت من أمي. أرسلتها من جهاز كمبيوتر في مختبر في قبو كلية لندن الجامعية حيث شاركت للتو في مناظرة عامّة، وتلقيتها على جهاز كمبيوتر في مكتبة كليتي. كان المحتوى قصيدة واحدة للشّاعر لانغستُن هيوز: جعلتني أتلوها كاملة عندما اتصلت بها لاحقًا ذلك المساء دليلًا على وصولها. بينما يحلّ الليل بلطف، داكنًا مثلي – كان صف تخرّجنا أوّل الحاصلين على عناوين بريد الكتروني، وأمي الفضولية تواجدت دومًا حول الأشياء الجديدة، اقتنت جهاز كمبيوتر من نوع كومباك قديم رث وصلت به جهاز مودم ضعيف. معًا دخلنا هذا الفضاء الجديد الذي فتح الآن بين الناس اتصالًا لا بداية أو نهاية دقيقة له وكان دومًا متاحًا، وكانت أمي واحدة من الرواد الذين عرفت أنهم يفهمون هذا ويستغلونه أفضل استغلال. نحت معظم الرسائل الإلكترونية المرسلة في منتصف التسعينات إلى أن تكون طويلة وشبيهة بالرسائل :بدأت وانتهت بتحيات تقليدية – التحيات التي استعملناها سابقًا على الورق – وكانت توّاقة لوصف المشهد المحيط، كما لو أن الوسط الجديد صنع من الجميع كاتبًا. (أنا أكتب هذا تمامًا بحذاء النافذة، أتطلع إلى البحر الأزرق الشّاحب، حيث ثلاثة نوارس تغطس في المياه.») لكن أمي لم ترسل يومًا بريدًا إلكترونيًا بتلك الطريقة، برعت في استخدامه

في الحال وبعد تخرجي من الكلية ببضعة أسابيع فقط، لكن كنت لا أزال على ذلك البحر الأزرق الشّاحب، شرعت ترسل لي رسائل متعددة مؤلفة من سطرين أو ثلاثة أسطر في اليوم، غالبًا خالية من علامات التّرقيم ودومًا تمنح إحساسًا بشيء مكتوب على جناح السّرعة. كان لجميعها الموضوع نفسه: متى كنت أخطط للعودة؟ هي لم تقصد إلى المبنى القديم، كانت قد انتقلت من هناك السّنة السّابقة. أقامت في هذا الوقت في شقة جميلة أرضية في هامبستيد مع الرجل الذي اعتدنا أن ندعوه أنا وأبي النّاشط الشّهير، بعد جملة أمي المعترضة المألوفة: («أنا أؤلف معه بحثًا، هو ناشط شهير، ربما سمعت عنه؟» «إنه رجل رائع، رائع، نحن على علاقة وطيدة وبالتأكيد هو ناشط ذائع الصّيت»). كان الناشط الشّهير وسيمًا من جزيرة توباجو الكاريبية، ذا إرث هندي، مع لحية بروسية صغيرة، وشعر أسود غزير مجروف ومرتب على نحو مؤثر أعلى رأسه بأفضل ما يمكن ليبرز خصلة شائبة وحيدة.

التقته والدتي في مؤتمر ضد النّووي قبل سنتين. خرجت معه في مسيرات، كتبت أبحاثًا عنه – من ثمّ معه – قبل أن تنتقل للشرب معه، تناول العشاء معه، النّوم معه، والآن تقيم معه. معًا كانا غالبًا يصوران واقفين بين الأسود في ساحة الطّرف الأغر، يخطبان واحدًا بعد الآخر – مثل سارتر وبوفوار، غير أنهما يبدوان أجمل بكثير – والآن كلما دعي الناشط الشهير للتحدث عن هؤلاء الذين لا صوت لهم، سواء في المظاهرات أو في المؤتمرات، كانت أمي غالبًا إلى جانبه في دورها الجديد باعتبارها «عضو مجلس محلي وناشطة على مستوى القاعدة الشّعبية».

كانت سنة كاملة قد مضت على علاقتهما. في ذلك الحين، أصبحت أمي معروفة إلى حدٍّ ما. واحدة من الناس الذين قد يتصل بهم منتج منفّذ لبرنامج إذاعي ويطلب أن تبدي وجهة نظرها في أي نقاش

يساري الطّابع كان دائرًا ذلك اليوم. ليس الاسم الأول على تلك اللائحة، ربما، لكن إذا حدث أن رئيس اتحاد الطلبة، محرر صحيفة النيو ليفت ريفيو، والمتحدث باسم الاتحاد ضد العنصرية جميعًا منشغلون، يمكن أن يعوّل على أمي وعلى الناشط الشّهير لتوافرهما المستمر تقريبًا.

حاولت أن أسعد من أجلها. عرفت أنه كان ما أرادته دومًا. لكن من الصّعب أن تسعد من أجل الآخرين، عندما أنت نفسك غير مستقر، إلى جانب أني شعرت بالأسف على والدي، وأكثر أسفًا على نفسي. بدت فكرة العودة للإقامة مع أمي تبطل القليل الذي أنجزته في السّنوات الثّلاث السّابقة. لكني لم أتمكّن من العيش على قرضي الطلابي مزيدًا من الوقت.

قانطة، أحزم غرفتي، أتصفح مقالاتي غير الضّرورية الآن، نظرت إلى البحر وشعرت أني أخرج من حلم، وأن هذا كل ما كانت الكليّة من أجلي، حلمًا وضع على مسافة بعيدة جدًا عن الواقع، أو عن واقعي على الأقل. كانت قلنسوتي الجامعيّة المستأجرة مرتجعة بالكاد قبل أن يبدأ الأولاد الذين بدوا ليسوا مختلفين كثيرًا عني يعلنون أنهم يغادرون إلى لندن، مباشرة، أحيانًا يتوجهون إلى حيي، أو إلى أحياء أخرى مشابهة، ما ناقشوه بمصطلحات بطولية، كما لو أن هذه حدود برية لتستباح. غادروا بعرابين في اليد، كي يدفعوها من أجل شقق أو منازل، حصلوا على فترات امتياز غير مأجورة، أو تقدموا لأعمال حيث صادف أن مجري المقابلة زميل والدهم القديم في الجامعة. لم أكن أملك خططًا، ما من عربون وما من أحد سيموت ليورثني المال: كان جميع أقاربنا أشد فقرًا منا. ألم نكن ننتمي إلى الطبقة المتوسطة، في الطموح والممارسة؟ وربما من أجل أمي كان هذا الحلم هو الحقيقة، وبمجرد الحلم به شعرت أنها حملته على التحقق. لكني كنت مستيقظة الآن وصافية الذّهن: كانت

بعض الوقائع ثابتة ومحتومة. من أي اتجاه نظرت إليها، على سبيل المثال، كان مبلغ التّسعة والثّمانين جنيهًا حاليًا في حسابي الجاري، كل ما امتلكته من المال على الأرض. حضّرت وجبات من الفول المخبوز على الخبز المحمص، أرسلت عشرات الرسائل من طلبات العمل، انتظرت. وحيدة في بلدة غادرها الجميع، امتلكت الكثير من الوقت لأتأمل. بدأت أنظر إلى أمي من زاوية جديدة حانقة.

نسويّة، كانت دومًا مدعومة من الرّجال – أولًا والدي والآن الناشط الشّهير – وهي ولو أنها ما فتئت تنتقدني حول «نبل العمل»، لم تكن أبدًا بحسب علمي في الحقيقة موظفة بصورة مربحة. عملت «من أجل الناس» – لم يكن هناك مرتب. قلقت من أن الأمر نفسه ينطبق تقريبًا على الناشط الشهير الذي بدا أنه ألّف كثيرًا من الكتيبات لكن ليس الكتب، ولم يمتلك منصبًا رسميًا في الجامعة. أن تضع جميع بيضها في سلة رجل مثل هذا، أن تترك شقتنا – الأمان الوحيد الذي عرفناه يومًا – أن تذهب وتعيش معه في هامبستيد، بالضبط في نوع من الوهم البرجوازي الذي انتقدته دومًا، صدمني في كونها سيئة النية ومتهورة للغاية على حد سواء.

نزلت إلى الواجهة البحرية كل ليلة لأستعمل كوة الهاتف المراوغة التي اعتقدت أن قطع النقد المعدنية بقيمة بنسين كانت عشرات وأجريت معها كثيرًا من المحادثات الغاضبة عن الأمر. لكني كنت الوحيدة الغاضبة، كانت أمي عاشقة وسعيدة، مفعمة بالعاطفة نحوي، على الرغم من أن هذا لم يكن منه إلا أن زاد الأمر صعوبة عليها لتثبت على تفاصيل عملية. كلما حاولت التعمق في الوضع المالي الدقيق للناشط الشهير، على سبيل المثال، قدمت لي أجوبة مخادعة أو غيرت الموضوع. كان الأمر الوحيد الذي سعدت دومًا بمناقشته، شقته بغرفها

الثلاث للنّوم، الشّقة التي أرادت مني أن أنتقل إليها، ابتيعت بثمن 20 ألف جنيه عام 1969 بمال موروث من وصية عم متوفى والآن تساوي «أكثر من مليون». هذه الواقعة على الرغم من ميولها الماركسية، منحتها بجلاء قدرًا كبيرًا من المتعة والهناء.

«لكن يا أمي: هو لن يبيعها، هل سيفعل؟ إذن إنه أمر غير ذي صلة. إنها لا تستحق أي شيء وأنتما العاشقان تعيشان فيها».

«انظري، لماذا لا تستقلين القطار وتأتين لتناول العشاء؟ عندما تلتقين به سوف تحبينه – الجميع يحب هذا الرجل. سوف يكون لديكما الكثير لتتحدثا عنه. التقى مالكولم اكس! إنه ناشط شهير...»

لكن مثل كثير من الناس الذين يتجلى عملهم في تغيير العالم أثبت أنه شخصيًا تافه بشكل معيب. لم يهيمن على لقائنا الأول النقاش السياسي أو الفلسفي، بل حديث صاخب مسهب ضد جاره، رجل كاريبي ثري بخلاف مضيفنا، نشرت له عدة كتب، وُظّف في جامعة أميركية، امتلك المبنى بكامله وكان يبني حاليًا «نوعا من تعريشة لعينة» عند طرف حديقته. هذا سوف يحجب قليلًا إطلالة الناشط الشّهير على الهيث، وبعد العشاء، عندما غربت شمس حزيران أخيرًا، أخذنا زجاجة رُم من نوع راي آند نيفيو وفي تصرف تكافلي خرجنا إلى الحديقة لنحملق في الشّيء نصف المشيّد. جلست أمي والناشط الشّهير إلى طاولتهما الصّغيرة الحديدية وببطء لفّا ودخنا سيجارة ماريوانا برداءة شديدة. شربت الكثير من الرّم. عند حد معين أصبح المزاج تأمليًا وجميعنا حدقنا بالبحيرات وخلف البحيرات نحو الهيث نفسه، عندما اشتعلت أضواء المصابيح الفيكتورية والمشهد فرغ من كل شيء ما عدا البط والرّجال المغامرون. حوّلت الأضواء العشب إلى لون النّار المطهرة البرتقالي.

تمتمت أمي: «تخيّل طفلين من الجزيرة مثلنا، طفلين حافيين من اللاشيء، ينتهي بهما الأمر هنا...» وأمسكا بيد أحدهما الآخر وضغطا جبهتيهما معًا، وشعرت بالنظر إليهما أنه حتى إذا كانا سخيفين، كم كنت أكثر سخفًا، امرأة ناضجة ممتعضة من امرأة ناضجة أخرى حققت في النهاية الكثير من أجلي، والكثير من أجل نفسها، ونعم من أجل شعبها، وكل شيء، كما قالت بحق، من لا شيء على الإطلاق. هل كنت أشعر بالأسف على نفسي لأني لم أمتلك مهرًا؟ وعندما رفعت بصري عن السّيجارة التي كنت ألفها بدا أن أمي قرأت أفكاري. قالت: «لكن ألا تدركين كم أنت محظوظة على نحو رائع أن تكوني حية في هذه اللحظة؟ أمثالنا من الناس لا يمكن أن يشعروا بالحنين. ليس لدينا بيت في الماضي. النوستالجيا تَرَف. بالنسبة لشعبنا، الزمن هو الآن!»

وأنا أشعل سيجارتي، سكبت لنفسي كميّة أخرى من الرُم وأصغيت ورأسي محني بينما البط يقوقئ وأمي تخطب، إلى أن تأخر الوقت وحبيبها وضع يده بنعومة على خدها ورأيت أن الوقت قد حان لأستقل القطار الأخير.

في أواخر شهر تموز عدت إلى لندن، ليس إلى بيت والدتي بل إلى بيت والدي. عرضت أن أنام في غرفة الجلوس، لكنه لم يقبل بذلك، قال إذا نمت هناك سوف توقظني ضجته وهو يغادر إلى جولاته كل صباح، وأنا اقتنعت سريعًا بحجته وتركته يتكوّر على الأريكة. بالمقابل شعرت أنه من الأفضل أن أجد عملًا: والدي آمن حقًا بنبل العمل، ضحّى بحياته من أجله وجعلني أشعر بالعار من أكون كسولة. أحيانًا غير قادرة على العودة إلى النّوم بعد سماعه يتسلل من الباب، صرت أجلس في السّرير وأفكر بكل هذا العمل، عمل والدي وعمل شعبه الذي يعود إلى أجيال كثيرة. عمل دون تعليم، عمل عادة دون مهارة

أو براعة، بعض منه شريف وبعض منحرف، لكن كله يقود بطريقة ما إلى حالتي الراهنة من الكسل. عندما كنت فتيّة للغاية، في الثّامنة أو التّاسعة من عمري، أراني والدي شهادة ميلاد والده ومهن أجداده المدوّنة عليها – مسخّن خرق ومفصّل خرق – وكان هذا، كما يفترض بي أن أفهم، الإثبات على أن عشيرته كانت دومًا معرّفة بعملها، سواء أرادوا أم لا. كانت أهمية العمل رؤية تمسّك بها كما تمسكت أمي باعتقادها أن التّعريفات التي تهم حقًا كانت الثقافة واللون.

شعبنا، شعبنا. فكرت بكم استعملنا هذه العبارة جميعًا عن طيب نفس، قبل بضعة أسابيع، في تلك الليلة الجميلة من حزيران في شقّة النّاشط الشّهير، جالسة أحتسي الرُم، أبدي إعجابي بعائلات البط السّمين، رؤوسها ملوية إلى الدّاخل، مناقيرها عششت في ريش أجسادها، تجثم على امتداد ضفة البحيرة. شعبنا! شعبنا! والآن، ممددة في خوف سرير والدي، أدوّر العبارة مرارًا في عقلي – لافتقاري لأي شيء أفضل لأفعله – ذكرتني بصياح البط المتداخل وثرثرة تلك الطّيور، يرددون مرارًا وتكرارًا نفس الرسالة العجيبة، المرسلة من مناقيرهم إلى ريشهم: «أنا بطة! أنا بطة!».

أربعة

حال خروجي من سيارة الأجرة المشتركة – بعد غياب عدّة أشهر – لمحت فِرن واقفًا إلى جانب الطريق، يبدو أنه ينتظرني، في الوقت المناسب، كما لو كان هناك موقف للحافلة وجدول للمواعيد. سعدت برؤيته. لكن تبين أنه ليس في مزاج للتحيات أو المزاح، مسايرًا إياي في الخطو وفي الحال منطلقًا باستجواب خفيض الصّوت، لذا قبل أن أصل إلى منزل هاوا أنا أيضًا كنت أنوء بالشّائعة المنتشرة حاليًا في القرية: أن إيمي كانت تعمل على تنظيم تأشيرة دخول ولامين سوف ينتقل قريبًا إلى نيويورك بشكل دائم.

«حسنًا هل هذه هي الحال؟» أخبرته بالحقيقة: لا أعرف، ولم أرغب في أن أعرف. لقد أمضيت وقتًا منهكًا في لندن وأنا آخذ بيد إيمي خلال شتاء قاس، شخصيًا ومهنيًا، وبالنتيجة كنت أشعر بأني مشمئزة عمليًا على وجه الخصوص من طابعها الدرامي التمثيلي .الألبوم الذي كان مزمعًا صدوره الآن والذي استغرقت في تسجيله شهري كانون الثاني وشباط البريطانيين الكئيبين – تمّ التخلي عنه عوضًا عن ذلك، نتيجة علاقة قصيرة قبيحة مع منتجها الشّاب الذي أخذ حينها أغانيه معه. فقط قبل بضع سنوات كان لانفصال مثل هذا أن يكون مجرد عقبة ثانوية بالنسبة لإيمي، بالكاد يستحق نصف يوم في السّرير تشاهد مقاطعًا قديمة من مسلسلات أسترالية صارت نسيًا منسيًا – الأطباء

الطائرون، السوليفانز – أمر أقدمت على فعله في لحظات الضّعف الشّديد. لكني لاحظت فيها تغيرًا، درعها الشّخصي لم يعد كما كان عليه في السّابق. أن تهجر وأن تكون مهجورة – هذه عمليات أثرت الآن فيها بعمق كبير، لم تعد تحذيرًا بالنسبة لها، كانت مجروحة في الحقيقة ولم تلتق بأي شخص ما عدا جودي لما يقارب الشّهر، بالكاد تغادر المنزل وتطلب مني عدة مرات النّوم في غرفتها قرب سريرها على الأرض، لأنها لم ترغب في أن تكون وحيدة. استنتجت أنه لم يكن أحد أقرب إليها مني خلال هذه الفترة من العزلة مهما كانت الظّروف. بالإصغاء إلى فِرن شعرت بداية أني كنت مخدوعة، لكن كلما فكرت بالأمر أكثر كلما رأيت أن هذا ليس صائبًا تمامًا: لم يكن خداعًا بل شكلًا من انفصال عقلي. كنت راحة لها ورفقة في لحظة توقّف، في حين في جزء آخر من قلبها، كانت تخطط بانشغال للمستقبل مع لامين – وجودي تواطأت معها في ذلك. بدلًا من أكون منزعجة من إيمي، وجدت نفسي محبطة من فِرن: كان يحاول حملي على الكلام، لكني لم أرغب بذلك، كان مزعجًا لي، كانت رحلتي مخططة سلفًا، وكلما تحدّث فرن عن المستقبل رأيت مخطط الرحلة في رأسي ينزلق بعيدًا عني. زيارة إلى جزيرة كونتا كنتي، بضع أصائل على الشّاطئ، ليلتان في أحد الفنادق الفاخرة في البلدة. لم تمنحني إيمي تقريبًا أي إجازة سنوية، كان عليّ أن أكون واسعة الحيلة، أسرق الإجازات حيثما استطعت.

«حسنًا، لكن لماذا لا تصحبي لامين معك؟ هو سوف يتحدث إليك. معي هو مثل شخص كتوم».

«إلى الفندق؟ فِرن – لا. فكرة مريعة».

«إذن في رحلتك. لا يمكنك الذهاب إلى هناك بمفردك بأية حال، سوف لن تعثرين على المكان أبدًا».

استسلمت. سرّ لامين عندما أخبرته وشككت أن سعادته ليست ناجمة عن زيارة الجزيرة نفسها، لكن لإمكانية التخلص من قاعة الدّرس وإمضاء أصيل يتفاوض مع صديقه لولو، سائق سيارة أجرة، حول سعر الرحلة ذهابًا وإيابًا. كان شعر لولو الأفرو قد قص إلى موهيكان[39]، صبغ باللون البرتقالي، وارتدى حزامًا سميكًا ذا إبزيم كبير فضي كتب عليه توي بوي[40]. ظهرا أنهما يتفاوضان طوال طريق الرحلة الممتدة ساعتين مترعتين بالضحك والنقاش في المقعد الأمامي، موسيقى لولو الريفي المصمّة، كثير من الاتصالات الهاتفية. جلست في الخلف وأنا أعرف الآن أكثر بقليل مما امتلكت سابقًا من لغة الولوف، أشاهد الأجمة تمر بنا، تقع عيني على القرد الرمادي الفضي ومستوطنات أكثر عزلة من الناس لا يمكنك حتى أن تدعوها قرى، فقط كوخان أو ثلاثة معًا، من ثم لا شيء ثانية على مسافة عشرة أميال أخرى.

أتذكّر بصورة خاصّة فتاتين حافيتين تسيران على جانب الطريق، يدًا بيد، بدتا مثل صديقتين عزيزتين. لوّحتا لي ولوّحت لهما. لم يكن هناك شيء أو أحد من حولهما، كانتا على حافّة العالم، أو على حافة العالم الذي عرفته، وبمشاهدتهما أدركت أنه كان بالغ الصعوبة، يكاد يكون مستحيلًا بالنسبة لي، أن أتخيل كيف بدا الوقت لهما هنا. وسعني تذكر كوني في مثل عمرهما، بالتأكيد، ممسكة بيد تريسي، وكيف اعتبرنا أنفسنا «أولاد الثمانينات»، أكثر ذكاء من آبائنا، أكثر حداثة بكثير. اعتقدنا أننا منتجات لحظة خاصّة، لأنه بالإضافة إلى أفلامنا الموسيقية القديمة أحببنا أمورًا مثل فيلم صائدو الأشباح ومسلسل دالاس، والمصاصات التي على شكل فلوت، شعرنا أننا امتلكنا

39) حيث يُحلق الشّعر على جانبي الرأس، ويُترك شريط من الشّعر الطويل بشكل ملحوظ في المركز.
40) وهو لقب يُطلق على الفتى الذي تستغله بعض الفتيات لإقامة علاقة جنسية معه أو فقط للخروج معه.

مكاننا في الزمان. من على الأرض لا ينتابه هذا الشعور؟ مع ذلك عندما لوحت لهاتين الفتاتين لاحظت أني لم أتمكّن من تخليص نفسي من فكرة أنهما رمزان أزليان للبنوتة، أو للصداقة الطفولية. عرفت إنها ربما قد لا تكون الحالة لكني لم أمتلك أي طريقة أخرى للتفكير بهما.

انتهى الطريق أخيرًا عند النهر. خرجنا وصعدنا إلى تمثال إسمنتي بارتفاع ثلاثين قدمًا لرجل هزيل وقف بمواجهة النهر. كان رأسه كبيرًا بحجم الكرة الأرضية برمتها، وكان يدفع ذراعيه الهزيلتين من سلاسل العبودية. مدفع وحيد من القرن التاسع عشر، القنبلة من الآجر الأحمر من محطة تجارية أصلية، «متحف صغير للرقيق شيد عام 1992 «ومقهى معزول أتمّ ما شرحه دليل يائس في فمه بضعة أسنان على أنه «مركز الترحيب». خلفنا قرية من أكواخ متهالكة، أشد فقرًا بأضعاف مضاعفة من القرية التي أتينا منها، بعناد واجهت المحطة التجارية القديمة، كما لو أنها تأمل أنه قد يعاد افتتاحها. جلس حشد من الأطفال يشاهدون وصولنا، لكن عندما لوحت لهم طلب مني دليلنا أن أتوقف: «ليس مسموحًا لهم بالاقتراب. إنهم يشحذون النقود. إنهم يزعجونكم أنتم السياح. الحكومة اختارتنا كأدلاء رسميين فلا يزعجونكم».

على بعد حوالي ميل عبر النهر استطعت رؤية الجزيرة نفسها، بروز صغير صخري مع الأنقاض الفاتنة للثكنات فوقها. كل ما أردته كان دقيقة هدوء لأتأمل مكاني ومعناه، إذا كان يعني شيئًا. هنا وهناك، بين مثلث مقهى، تمثال عبد، وأطفال يراقبون، استطعت رؤية وسماع مجموعة من السّياح – عائلة بريطانية سوداء مهيبة، بعض المراهقين الأميركيين – الأفريقيين المتحمسين، امرأتين بيض البشرة هولنديّتين، كلاهما الآن تبكيان ما شاء لهما البكاء – كانوا جميعًا يحاولون أن

يفعلوا المثل وبنفس الطريقة يستمعون إلى محاضرة يتلوها أحد الأدلاء الرسميين بكنزاتهم الزرقاء البالية، أو تقحم في أيديهم قوائم طعام من المقهى، أو يفاوضون المراكبي التواق إلى أخذهم ليروا الزنازين التي سجن فيها أسلافهم. رأيت أني محظوظة بوجود لامين معي: بينما هو انغمس في نشاطه المفضل – مفاوضات مالية مهموسة مع عدة أطراف في المرة الواحدة، كنت حرة لأتجول نحو المدفع، أن أجلس وأتطلع نحو المياه.

حاولت أن أضع نفسي في إطار تأمّلي. لأتصور السّفن في المياه، المتاع البشري يصعد الألواح الخشبية للعبور، الشّجعان القلة الذي جربوا حظهم وقفزوا في المياه، في محاولة مشؤومة للسباحة إلى الشّاطئ. لكن كل صورة امتلكت صورة كرتونية دقيقة، وبدت ليست أقرب إلى الواقع من اللوحة الجدارية على جانب المتحف التي صوّرت عائلة من قبيلة الماندينكا عارية ممشوقة القوام في سلاسل العنق يطاردها خارج الأجمة رجل هولندي شرير، كما لو أنهم أوقعوا في شرك مثل فريسة صيّاد، وليس مباعين مثل الحبوب من قبل زعيمهم. أخبرتني أمي دومًا أن كل الدروب تقود إلى هناك، لكن الآن وأنا هنا في زاوية القارة المشهورة هذه، اختبرته ليس على أنه مكان استثنائي، لكن كمثال على قاعدة عامة .هنا افترست القوة الضّعف: كل نوع من أنواع القوة – المحلية، العرقية، العشائرية، الملكية، الوطنية، العالمية، الاقتصادية – على كل أنواع الضّعف، غير متوقفة عند شيء، ليس حتى عند أصغر فتاة. لكن القوة تفعل ذلك في كل مكان. العالم منقوع بالدّم. لكل قبيلة إرثها المنقوع بالدم: هنا إرثي. انتظرت مخرجًا لتطهير العواطف من النّوع الذي يأمل الناس أن يختبروه في مثل هذه الأماكن، لكني لم أتمكن من حمل نفسي على التّصديق بأن ألم قبيلتي كان متجمعًا هنا على نحو فريد، في هذا المكان، كان الألم واضحًا للغاية في كل مكان، صدف أن

هذا هو المكان الذي اختاروه لوضع النصب التذكاري. استسلمت ورحت أبحث عن لامين.

كان يستند على التمثال، يتحدث على هاتفه الجديد، من نوع بلاك بيري فاخر المظهر، وعلى وجهه نظرة دائخة، ابتسامة كبيرة حمقاء، وعندما رآني قادمة أغلقه دون أن يقول وداعًا.

«من كان ذلك؟»

همس لامين وهو يحشر الجهاز الكبير في جيبه الخلفي: «وإذا كنت جاهزة، هذا الرجل سوف يأخذنا الآن لنعبر».

تقاسمنا قاربًا ضيقًا مع العائلة البريطانية السّوداء. حاولوا إجراء محادثة مع الدليل فيما يخص المسافة التي تبعدها الجزيرة عن البرّ الرئيس وفيما إذا أي رجل، حتى لو كان مصفدًا بالسلاسل، من المحتمل أنه استطاع أن يسبح عبر هذه التيارات سريعة الحركة. أصغى الدليل إليهم يتحدثون لكنه بدا متعبًا للغاية، بياض عينيه مغشى بعدد هائل من أوردة دم متكسرة، ولم يبد أنه مهتم كثيرًا بالافتراضات، كرر تعويذته: «إذا ما وصل رجل إلى الشاطئ كان يمنح حريته ».

سرنا على الجزيرة من حول الأنقاض من ثم اصطففنا لندخل «الملاذ الأخير». غرفة تحت أرضية صغيرة، عشرة بأربعة أمتار، حيث «احتجز الرّجال الأكثر ثورية، مثل كونتا».

ظل الجميع يقول هذا لبعضهم البعض: «تخيّل!»، وحاولت أن أتخيل كوني مجلوبة إلى هنا لكن عرفت بالغريزة أني لست من النموذج الثّوري، ليس مرجحًا أن أكون واحدة من عشيرة كونتا. بعض الناس هم كذلك. استطعت أن أتخيل أمي هنا بالتأكيد وتريسي أيضًا. وإيمي – كانت على طريقتها فرد آخر من السّلالة. لكن ليس أنا. غير واثقة مما أفعل مع نفسي مددت يدي لأمسك بطوق حديدي في الجدار

إليه ربط هؤلاء «الأكثر تمردًا» بسلاسل من العنق.

قالت الوالدة من العائلة البريطانية: «يثيرون فيك الرغبة بالبكاء، أليس كذلك؟» وشعرت بأن البكاء واجب حقًا، لكن عندما أشحت ببصري عنها استعدادًا، عاليًا نحو النافذة الصغيرة، وجدت الدليل الحكومي ممدّدًا على بطنه، فمه ذو الأسنان الثلاثة يحجب كل الضوء المتاح تقريبًا.

شرح عبر القضبان: «سوف تشعرون الآن بالألم، وسوف تحتاجون للانفراد بأنفسكم لدقيقة. سوف ألتقيكم في الخارج بعد أن تنتهوا».

على ظهر المركب سألت لامين عما كانا هو وإيمي يتحدثان غالبًا. كان جالسًا على مقعد المجدف في القارب وسوى ظهره رفع ذقنه: «هي تظن أني راقص جيد».

«حقًا؟»

«قد علمتها الكثير من الحركات التي لم تعرفها. عبر الكمبيوتر. شرحت خطواتنا المحلية. تقول إنها سوف تستخدمها في عروضها».

«أرى. وهل تحدثت عن مجيئك إلى أمريكا؟ أو إنكلترا؟»

قال وهو يلقي بنظرة قلقة على المسافرين الآخرين: «كل شيء بين يدي الله».

«نعم. ومكتب الأجانب».

قاد لولو الذي كان ينتظر بصبر في سيارته إلى خط الشّاطئ عندما اقتربنا وفتح باب السّيارة، يبدو في نيته أن يأخذني مباشرة من المياه إلى السّيارة، في جولة من ساعتين أخريين، دون غداء.

«لكن لامين يجب أن آكل!»

لاحظت أنه كان يمسك بقائمة طعام المقهى المؤلفة من عدة

صفحات أثناء زيارتنا إلى الجزيرة والآن أراني إياها، الجزء الحيوي المحسوم من دليل في تمثيلية قانونية.

«هذا مبلغ كبير من المال ثمنًا لوجبة غداء! سوف تحضّر لنا هاوا الغداء في البيت».

«سوف أدفع ثمن الغداء. إنه يساوي تقريبًا ثلاثة جنيهات لكل واحد. أعدك لامين، إنه ليس كثيرًا بالنسبة لي».

تلا ترتيب بين لامين ولولو الذي كنت مسرورة لرؤيته، بدا أن لامين ينهزم. وضع لولو يديه على إبزيمه مثل رجل كاوبوي منتصر، أغلق باب سيارته ودحرجها صاعدًا التلة.

قال لامين ثانية يتنهد بشكل هائل: «إنه كثير جدًا».

لكني تبعت لولو ولامين تبعني. جلسنا إلى واحدة من طاولات النزهة وأكلنا السمك في صفيحة والأرز. أصغيت إلى الحديث الذي تناهى إلى مسمعي من الطاولات المجاورة، محادثات غريبة متقطعة لم أتمكن من معرفة موضوعها: التأملات الثقيلة للزوار إلى صدمة تاريخية أو الثرثرة الخفيفة للناس عن عطلاتهم على الشّاطئ. جلست امرأة بيضاء البشرة طويلة القامة لوّحتها الشّمس، في العقد السّابع من عمرها على الأقل، وحيدة إلى طاولة في المؤخرة، محاطة بركام من قماش منقوش مطوي، طبول وتماثيل، قمصان كتب عليها «لن يحدث ثانية أبدًا»، سلع محلية أخرى. لم يقترب أحد من بسطتها أو بدا من المحتمل أن يشتري شيئًا وبعد حين نهضت وبدأت تمر من طاولة إلى أخرى، مرحبة بالزوار، تسألهم عن مكان إقامتهم ومن أين أتوا. كنت آمل أننا سوف ننتهي من تناول الطعام قبل أن تصل إلى طاولتنا، لكن لامين كان يأكل ببطء على نحو مؤلم وأمسكت بنا، وعندما سمعت أني لست من أي فندق، ولست عاملة مساعدة ولست مبشّرة، اهتمت

اهتمامًا خاصًا وجلست معنا، قريبة جدًا من لولو الذي تحدّب على سمكته ولم ينظر إليها.

سألت: «أي قرية قلتِ؟» على الرغم من أني لم أفعل، لكن الآن قال لامين لها قبل أن أحظى بإمكانية أن أكون غامضة. فهمت الأمر.

قالت: «أوه، لكنك معنية بالمدرسة! بالتأكيد. حسنًا، أعرف أناسًا يقولون أكثر الأمور فظاعة عن تلك المرأة، لكني حقًا أحبها، أنا معجبة بها صدقًا. أنا في الواقع أميركية أيضًا، في الأصل»، وتساءلت كيف اعتقدت أنه يمكن لأي شخص ألا يكون واثقًا من هذه النقطة. «بطبيعة الحال لا أهتم للأميركيين، عمومًا، لكنها من الناس الذين يملكون جواز مرور، إذا كنت تعرفين ما أعنيه. أنا حقًا أجدها بديعة جدًا وانفعالية وإنه لأمر عظيم من أجل البلاد، كل الدّعاية التي تجلبها. أوه، أسترالية؟ حسنًا، بأية حال هي امرأة دخلت قلبي! مغامرة! على الرغم من أني جئت إلى هنا من أجل الحب بالتأكيد وليس الإحسان. جاء الإحسان فيما بعد في حالتي»، مسّت قلبها الذي كان نصف مكشوف، في فستان ملون مخطط مكشوف الصّدر على نحو مخيف. كان نهداها طويلين، حمراوين وبشرتهما مغضّنة. كنت قطْعًا مصمّمة ألا أسألها عن حبّ من جاءت من أجله ولا عن أي أعمال صالحة أودى هذا التصرف في النهاية، لكن لما أحست بمقاومتي، قررت بتفوق امرأة مسنة أن تخبرني: «كنت تمامًا مثل هؤلاء الناس، هنا فقط لقضاء عطلة. لم أقصد أن أقع في الحب! فتى يساوي عمره نصف عمري». غمزتني. «وذلك حدث منذ عشرين عامًا! لكن كانت أكثر بكثير من قصة حب في إجازة، كما ترين: معًا نبني كل هذا». نظرت من حولها بفخر نحو هذا الأثر العظيم الباقي للحب: مقهى ذا سطح من الصّفيح مع أربع طاولات وثلاثة أطباق على القائمة. «أنا لست ثرية، كنت مجرد مدرّسة

يوغا متواضعة. لكن هؤلاء الناس في بيركلي، فقط عليك أن تقولي لهم: انظروا، هذه هي الحال، هؤلاء الناس في حاجة ماسّة... ويمكنني أن أخبرك وسوف تتفاجئين، هؤلاء الناس حقًّا يمضون من أجله، حقًّا يفعلون. رغب الجميع بالمساعدة. عندما تشرحين كم يساوي الدولار هنا؟ عندما تشرحين كم بعيدًا سوف يذهب ذلك الدولار؟ أوه، لا يمكن للناس تصديق الأمر! الآن، بحزن، أطفالي، من زواجي الأول؟ لم يكونوا داعمين كثيرًا. نعم، أحيانًا الغرباء هم الذين يدعمونك. لكني دومًا أقول للناس هنا: «لا تصدقوا كل ما تسمعونه من فضلكم!» لأن ليس جميع الأميركيين أخبار سيئة، لا على الإطلاق. هناك فرق كبير بين الناس في بيركلي والناس في فورت وورث، لو تفهمين ما أقصده. ولدت في تكساس، ابنة لعائلة مسيحية، وعندما كنت شابة كانت أميركا مكانًا قاسيًا للغاية بالنسبة لي، لأني كنت روحًا حرة ولم أستطع إيجاد مكاني. لكني أخمن أنه يناسبني أكثر قليلًا الآن».

سأل لامين: «لكنك تعيشين هنا مع زوجك؟»

ابتسمت لكن لم تبد مسحورة بالسّؤال أكثر مما ينبغي: «في الأصياف. الشّتاءات أمضيها في بيركلي».

سأل لامين: «وهو يذهب معك حينها؟» شعرت أنه كان يجري بحثًا دقيقًا.

«لا، لا. هو يبقى هنا. هو لديه الكثير ليفعله هنا، طوال السّنة. إنه الرجل الكبير هنا وأظن أنك قد تقول إني المرأة الكبيرة هناك! لذا الأمر ينجح غاية النجاح. من أجلنا».

فكرت بتلك الطبقة من الوهم البنّاتي التي بدت جميع صديقات إيمي من الأمهات الجدد أنهن فقدنها، تبدد بريق ما في عيونهن، بغض النظر عن شهرتهن وثروتهن، من ثم نظرت في عيني هذه المرأة

الواسعتين، الزرقاوين، نصف المجنونة، ورأيت تجويفين تامّين. بالكاد بدا ممكنًا أن شخصًا تجرد من طبقات كثيرة ولا تزال قادرة على أداء الدور الذي تلعبه.

⊰ خمسة ⊱

بعد التخرج، متخذة من شقة والدي قاعدة لي، تقدّمت لكل عمل في الإعلام للمبتدئين استطعت التفكير فيه، تاركة رسائل الاستعطاف على نضد المطبخ كل ليلة ليرسلها في الصّباح، لكن انقضى شهر ولا شيء. عرفت أن علاقة والدي بهذه الرسائل كانت معقّدة – الأخبار الجيدة بالنسبة لي كانت أخبارًا سيئة بالنسبة له، عنت لي الانتقال – وأحيانًا راودتني خيالات مريضة أنه لم يرسلها على الإطلاق، فقط أودعها في الحاوية في آخر الشّارع. فكرت بما قالته أمي دومًا حول افتقاره إلى الطموح – كنت دومًا أدافع عنه بغضب – وكنت مرغمة على الاعتراف أني استطعت أن أرى الآن ما كانت تتعامل معه. لم يجعله شيء أكثر ابتهاجًا من زيارات خالي لامبرت أيام الآحاد بين الحين والآخر، عندما رحنا نحن الثلاثة نثبت أنفسنا في الكراسي المريحة القابلة للطي على السطح المستوي لشقة جار والدي الأرضية المكسوّة باللبلاب، ندخّن الحشيش ونتناول زلابية السّمك المحضّرة منزليًا التي كانت عذر لامبرت لتأخره ساعتين أو ثلاث ساعات يستمع إلى برنامج خدمة العالم ويشاهد قطارات أنفاق محطة اليوبيلي لاين تظهر، كل ثمان إلى عشر دقائق، من أحشاء الأرض.

«الآن هذه هي الحياة، حبيبتي، أما كنت لتقولين؟ لا مزيد: افعلي هذا، لا تفعلي ذاك. فقط نحن جميعنا أصدقاء سوية –

متساوون. ايه، لامبرت؟ متى توصلت لأن تكون صديقًا لابنك؟ هذه هي الحياة، أليست كذلك؟ ألم تكن؟» لم أتذكره أبدًا يتولى السّلطة الأبوية المؤثرة التي ادعى الآن أنه ينسلخ عنها، هو لم يقل أبدًا: افعلي هذا، ولا تفعلي ذاك. لم يقدم لي سوى الحب وحرية التصرف. وإلى أين أفضى؟ هل كنت سأنضم إلى لامبرت في تقاعد مبكر مخمور؟ غير عارفة ماذا أفعل سوى ذلك، عدت إلى عمل رهيب، العمل الذي حصلت عليه في العطلة الصيفية الأولى في الكلية، في مطعم للبيتزا في كينسال رايز.

كان يديره رجل إيراني سخيف يدعى بهرام، طويل القامة للغاية ونحيل، اعتبر نفسه على الرغم من محيطه، أنه رجل الجودة. أحب أن يرتدي معطفًا طويلًا أنيقًا بلون وبر الجمل، مهما كان الطقس، غالبًا يعلقه على كتفيه مثل بارون إيطالي، ودعا مزبلته «مطعمًا»، على الرغم من أن حجم المكان لم يتجاوز حجم حمام عائلة صغيرة، يشغل رقعة زاوية من أشجار منخفضة تصل بين محطة الحافلات والسّكة الحديدية. لم يأت أحد أبدًا ليأكل، طلبوا الطعام عبر الهاتف أو حملوا طعامهم إلى البيت. اعتدت أن أقف إلى النضد وأشاهد الفأرة تنطلق عبر مشمع الأرضية.

إلى طاولة مفردة كان للزبون حرية أن يتناول طعامه إليها نظريًا، لكن في الواقع شغل بهرام هذه الطاولة طوال النهار ونصف الليل: عانى متاعبًا في البيت، زوجة وثلاث بنات عازبات صعبات، وشككنا أنه فضّل رفقتنا على صحبة هذه العائلة، أو على الأقل فضّل الصراخ علينا على الجدال معهم. في العمل لم يكن يومه منهكًا. أمضاه في التعليق على أي شيء يعرض على شاشة التّلفاز الموضوع في الزاوية اليسرى العلوية من المكان، أو يسيء معاملتنا لفظيًا نحن العاملين لديه وهو جالس.

كان حانقًا طوال الوقت حول كل شيء. غضبٌ صارخ هزلي

أعرب عن نفسه من خلال مضايقة قذرة مستمرة لكل من يحيط به – مضايقة عنصرية، جنسية، سياسية، دينية، نجم عنها كل يوم تقريبًا خسارة زبون أو موظّف أو صديق، وهكذا بدا لي أنه ليس عدوانيًّا للغاية بقدر ما هو مدافع حاد عن النفس. بأية حال كانت التسلية الوحيدة المتوفرة. لكن عندما دخلت لأول مرة كنت في التاسعة عشرة من عمري لم أُشْتَم، لا، كان مرحّبًا بي فيما فهمت لاحقًا أنها اللغة الفارسية، وبصورة فياضة حتى أني شعرت حقًا أني فهمت ما يقوله. كم كنت شابة ومحبوبة وذكية بوضوح – هل حقًا أنني كنت في كلية؟ لكن كم فخورة لا بد أن تكون أمي! نهض وأمسك بذقني وأدار وجهي ذات اليمين وذات الشمال مبتسمًا.

لكن عندما أجبت بالإنكليزية قطب ونظر عن كثب، بشكل انتقادي، نحو المنديل الأحمر الذي يغطي شعري – كنت قد فكرت أنه سوف يكون مرحبًا به في مكان لمنتج غذائي – وبعد بضع لحظات، بعد أن أكدنا أني لست فارسية على الرغم من أنفي الفارسي، ليس حتى ولو قليلًا، ولست مصرية، أو مغربية، أو عربية من أي بلد، ارتكبت خطأً بنطق اسم جزيرة أمي وكل الود تبدد: وجهت نحو النضد، حيث كان عملي الرد على الهاتف، وتسجيل الطلبات للمطبخ وتنظيم عمل فتيان التوصيل. كانت مهمتي الأكثر أهمية الاعتناء بمشروع محبوب من مشاريعه: قائمة الزبائن المحظورين. كان يكلف نفسه عناء كتابة هذه القائمة على ورقة طويلة ويعلقها على الجدار خلف نضدي، مرفقًا بها ورقة بولارويد شفافة لاستقطاب الضّوء أحيانًا. أشار إليّ كيفما اتفق في يومي الثاني: «غالبًا شعبك. إنهم لا يدفعون، أو يقاتلون، أو أنهم تجار مخدرات. لا تنظري إليّ هكذا! كيف يمكن أن تشعري بالإهانة؟ أنت تعلمين! إنها حقيقة!»

لم أستطع تحمل كلفة شعوري بالمهانة. كنت مصممة على البقاء أشهر الصّيف الثلاثة، فترة طويلة بما يكفي لأجمع من المال ما يكفي لأدفع عربونا لأستأجر شقة حين تخرجي. لكن التنس كان دائرًا، وهذا جعل كل شيء مستحيلًا. كنت أنا وفتى توصيل صومالي نتابعه باهتمام شديد، وبهرام الذي سوف يتابع التنس بطبيعة الحال أيضًا – اعتبر الرياضة المظهر الأنقى لنظرياته الاجتماعية – كان هذه السّنة في غضب شديد عليها، وغاضبًا منا لأننا نستمتع بها، وكل مرة قبض علينا نشاهده ازداد حنقًا، واختل عنده الاحساس بالنّظام بشدة لأن بريان شيلتون لاعب التنس الأمريكي لم ينسحب من أول جولة.

«لماذا تتبعه؟ ها؟ ها؟ لأنه واحد منكم؟»

كان يطعن إصبعه في صدر الفتى الصّومالي الضّيق، أنور، الذي امتلك روحًا مشرقة عظيمة، قابلية ملحوظة للفرح – على الرغم من أن لا شيء في حياته يبدو أنه يوفر مجرد سبب واحد لهذا – والذي رد فعله الآن كان أن يصفّق بيديه ويكشر تكشيرة عريضة للغاية.

«نعم، يا رجل! نحن نشجع بريان!»

قال بهرام: «أنت أبله، هذا نعرفه»، من ثم التفت نحوي خلف النّضد: «لكنك ذكية وهذا يجعلك أكثر بلاهة». عندما لم أقل شيئًا جاء إليّ وخبط على النضد بقبضتيه: «هذا الرجل شيلتون – سوف لن يفوز. لا يستطيع».

صرخ أنور: «يربح! يربح!»

التقط بهرام جهاز التحكّم وأطفأ التّلفاز ليكون صوته مسموعًا حتى المؤخرة، حتى المرأة الكونغولية التي تحفّ جوانب فرن البيتزا.

«التّنس ليست لعبة للسود. يجب أن تفهموا: لكل شعب ألعابه».

سألت وكنت فضولية بصدق: «وماهي لعبتك؟» وبهرام جذب نفسه عاليًا طويلًا جدًا وفخورًا في مقعده: «البولو». انفجر المطبخ بالضّحك.

«عليكم اللعنة جميعًا يا أبناء الزنى!»

هيستيريا. كما جرى، لم أكن أتابع شيلتون، لم أكن قد سمعت به قط حقًا قبل أن يشير إليه أنور، لكن الآن تابعته مع أنور وأصبحت المعجبة الأولى به. اشتريت أعلامًا أميركية صغيرة لألوح بها في أيام مبارياته وحرصت في هذه المناسبات على إرسال جميع فتيان التوصيل ما عدا أنور. معا هتفنا لشيلتون، رقصنا حول المكان عند كل نقطة رابحة، وعندما كسب مباراة واحدة ثم أخرى، بدأنا نشعر كما لو أننا برقصنا وهتافنا كنا من يحثه قدمًا، وأنه من دوننا ما كان ليحقّق إنجازه. أحيانًا تصرف بهرام كما لو أنه صدق هذا أيضًا، كما لو أننا كنا نؤدي شعيرة فودو أفريقية قديمة. نعم، بطريقة ما سحرنا بهرام بقدر ما سحرنا شيلتون ومع مرور أيام البطولة وشيلتون لا يزال رافضًا أن يهزم، رأيت مخاوف بهرام الأخرى الكثيرة الملحة – العمل، زوجته الصّعبة، البحث المرهق للأعصاب عن خاطبين لابنتيه – كله ينزلق بعيدًا، إلى أن كان انشغاله الوحيد ضمان أننا لم نهتف لبريان شيلتون، وأن شيلتون نفسه لم يصل إلى تصفيات ويمبلدون النهائية.

ذات صباح في منتصف البطولة، كنت واقفة سئمة إلى النضد عندما رأيت أنور على دراجته، يصعد الطوار نحونا بسرعة عظيمة ثم يتوقف عشوائيًا، يقفز ويسرع إلى نضدي وقبضته في فمه وابتسامة بالكاد أمكنه أن يتحكم بها. لطم نسخة من صحيفة ديلي ميرور قدامي مشيرًا إلى عمود في الصّفحات الرياضية وقال: «عربي!» لم نستطع تصديق الأمر. كان اسمه كريم العلمي. من المغرب، وكان مصنفًا أدنى

رتبة حتى من شيلتون. كانت مباراتهما ستبدأ عند السّاعة الثانية. وصل بهرام عند الواحدة. انتشر شعور عظيم بالقلق والحدس في المكان، فتيان التوصيل الذين لم يكن من المفترض أن يأتوا حتى الخامسة جاؤوا باكرًا وعاملة التنظيف الكونغولية بدأت تعمل في مؤخرة المطبخ بسرعة غير مسبوقة على أمل أن تصل مقدمة المنزل – وعلاوة على ذلك التّلفاز – مع وقت بدء المباراة.

استمرت تلك المباراة خمس جولات. بدأ شيلتون قويًا وعند نقاط متنوعة في المجموعة الأولى كان بهرام متضائلًا ليقف على كرسي ويصرخ. عندما انتهت المجموعة الأولى بنتيجة ستة ثلاثة لصالح شيلتون، قفز بهرام عن كرسيه وخرج مباشرة من المبنى. نظرنا إلى بعضنا: هل كان هذا نصرًا؟ بعد خمس دقائق عاد وعلبة سجائر من نوع غولواز في يده، جلبها من سيارته، وبدأ يدّخن بشكل متواصل ورأسه محني. لكن في المجموعة الثانية أخذت الأمور تتحسن قليلًا لصالح كريم، وبهرام جلس باستقامة ثم وقف وشرع يذرع المكان الصّغير بطريقة دائرية مقدمًا تعليقه الذي كان له علاقة باليوجينا، علم تحسين النسل، عن الضربات الخلفية وقذف الكرة ببطء والأخطاء المزدوجة، وعندما وصلنا إلى التعادل، أصبح بليغًا بازدياد في محاضرته، ملوّحًا بسيجارته في يده، أكثر ثقة بإنكليزيته من أي وقت مضى.

أعلمنا أن: «الرجل الأسود موهبة، هو جسد متحرك، قوي، وهو موسيقى، نعم، بالتأكيد، وهو إيقاع، هذا ليس بخافٍ عن الجميع، وهو سرعة وهذا جميل، ربما، نعم، لكن دعوني أخبركما أن التّنس لعبة العقل – العقل! يمكن للرجل الأسود أن يكون مقدرة جيدة، عضلات جيدة، يمكنه أن يضرب الكرة بقوة، لكن كريم مثلي: هو يفكر خطوة، اثنتين سلفًا. يمتلك عقلًا عربيًا. العقل العربي آلة معقدة، دقيقة.

اخترعنا الرياضيات. اخترعنا الفلك. أناس بارعون. خطوتان قدمًا. بريان الآن خاسر».

لكنه لم يكن خاسرًا: فاز بالمجموعة بنتيجة سبعة إلى خمسة، وأنور أخذ المكنسة من عاملة التنظيف الكونغولية – التي لم أعرف اسمها، ولم يفكر أحد يومًا بالسّؤال عن اسمها – وجعلها ترقص معه، على هاي لايف كانت تبث على الراديو الصّغير الذي حمله معه إلى كل مكان. في المجموعة الثانية انهار شيلتون، واحد إلى ستة. ابتهج بهرام. قال لأنور: «أينما تذهبون في العالم، أنتم في الحضيض! أحيانًا على القمة الرجل الأبيض، اليهود، العرب، الصينيّون، اليابانيّون، على حسب. لكن شعبك دومًا يخسرون. مع بدء المجموعة الرابعة. توقفنا عن التظاهر بأننا في مكان لبيع البيتزا. رن الهاتف ولم يجب أحد، كان الفرن فارغًا، والجميع محشورين في المكان الصّغير في المقدمة. جلست على النضد مع أنور، سيقاننا المتوترة تركل الألواح المصنوعة من الألياف متوسطة الكثافة الرخيصة إلى أن خشخشت. شاهدنا هذين اللاعبين – في الحقيقة، تقريبًا متكافئين – يقاتلان لكسر تعادل موجع خَسِره شيلتون بعدها، ستة إلى سبعة. انفجر أنور ببكاء مرير.

شرح الطاهي البوسني اللطيف: «لكن أنور، يا صديقي الصّغير: هو لديه مجموعة أخرى».

وكان أنور ممتنًّا، يجري عبر القاعة. كانت المجموعة النهائية سريعة: ستة إلى اثنان. لعبة، مجموعة، مباراة – شيلتون. رفع أنور صوت الراديو حتى أعلى حد ممكن وكل نوع من الرّقص انفجر مني، التمعج، ضرب الأرض بقدمي، جر القدمين – حتى أني أديت واحدة من رقصات الرّقص النّقري الشيم شام. اتهمنا بهرام جميعًا بأننا نضاجع أمهاتنا وخرج غاضبًا. عاد بعد حوالي ساعة. كانت اندفاعة أول المساء

عندما تقرر الأمهات أنهن لا يستطعن مواجهة تحضير العشاء وكل الذين يدخنون طوال اليوم فجأة يدركون أنهم لم يأكلوا منذ الصّباح. كنت منهكة على الهاتف، أحاول كالعادة أن أفهم ما يُقال لي من الرطانات الإنجليزية المختلفة، ومنشغلة مع فريق التوصيل، عندما بهرام تقدم نحوي ووضع صحيفة المساء في وجهي. أشار إلى صورة لشيلتون، ذراعه ملوحة عاليًا في استعداد لواحدة من ضرباته القوية، الكرة في الهواء أمامه، متوقفة عند لحظة الاتصال. غطيت سماعة الهاتف بيدي.

«ماذا؟ أنا أعمل».

«انظري عن كثب. ليس أسود. أسمر. مثلك».

«أنا أعمل».

«ربما هو نصف – نصف، مثلك. لذا: هذا يشرح...»

نظرت عن كثب لكن ليس إلى شيلتون بل إلى بهرام، ابتسم. قال: «نصف فائز». وضعت سماعة الهاتف، خلعت مئزري وخرجت. لا أعرف كيف عرفت تريسي بأني كنت أعمل عند بهرام. لم أرغب أن يعرف أحد، بالكاد أمكنني مواجهة حقيقة الأمر بنفسي. ربما ببساطة وقع بصرها عليّ من خلال الزجاج. عندما دخلت ذات أصيل مشبع بالبخار أواخر شهر آب، أحدثت ضجّة، بسروالها الضّيق للغاية وقميصها القصير الذي لا يكاد يغطي السّرة. لاحظت أن ملابسها لم تتغير مع الوقت، وأنها لم تكن بحاجة للتغيير. لم تكافح، كما فعلت – كما فعلت معظم النّساء اللاتي أعرفهن – لأن تجد سبلًا لتغطي جسدها برموز، أشكال، وإشارات العمر. كان كما لو أنها فوق كل ذلك، سرمدية. كانت دومًا ترتدي ثيابًا للتدريب على الرّقص ودومًا بدت رائعة بتلك الطريقة. أنور وبقية الفتيان، ينتظرون في الخارج على دراجاتهم، استغرقوا وقتًا طويلًا طيبًا على المشهد الأمامي من ثم غيروا موقعهم

ليحصلوا على ما يدعوه الإيطاليون الجانب ب (أي من الخلف). عندما انحنت على النضد لتتحدث معي رأيت واحدًا منهم يغطي عينيه، كما لو أنه يتألم بدنيًا.

«جيد أن أراكِ. كيف كان ساحل البحر؟» تكلفت الابتسام مؤكدة الإحساس الذي امتلكته سلفًا من أن حياتي الجامعية كانت نوعًا من مزحة محليّة، محاولة بائسة للعب دور خارج حيزي، دور لم يحقق نجاحًا. «أرى أمك هنا. هي في كل مكان هذه الأيام».

«نعم. أنا مسرورة لعودتي، أظن. تبدين رائعة. هل تعملين؟»

«أوه، أنا أقوم بكل الأنواع. لدي أخبار هامة. متى تنتهين؟»

«لقد بدأت للتو».

«إذن ماذا عن الغد؟»

تقدم بهرام جانبيًا منا، وبأسلوب متملق للغاية استفسر عما إذا ما كانت تريسي فارسية بصدفة ما. التقينا أمسية اليوم التالي في بار محلي عرفناه دومًا على أنه إيرلندي، لكن لم يكن الآن لا إيرلنديًا ولا أي شيء آخر. أزيلت السقائف القديمة واستبدلت بأرائك كبيرة كثيرة وكراس ذات مساند عالية، من عصور تاريخية مختلفة، مكسوة برسومات متعارضة، ومتناثرة حول المكان، مثل خشبة مسرح جردت مؤخرًا. كان ورق جدران أرجواني ملصقًا فوق صدر المدخنة والكثير من المخلوقات البرية محنطة برداءة، موقوفة في فعل القفز أو الجثوم، كانت معلبة في أوان زجاجية وموضوعة على رفوف عالية، تنظر إلى اجتماعي مع تريسي بعيونها الزجاجية المعتلّة. كسرت نظرة سنجاب متحجر لأخي تريسي، التي كانت عائدة من البار وفي يديها كأسي نبيذ أبيض ونظرة شديدة من القرف على وجهها.

«سبعة جنيهات؟ أي لعين هذا؟»

«يمكننا الذّهاب إلى مكان آخر».

رفعت أنفها: «لا. هذا ما يريدونه. لقد ولدنا هنا. اشربي على مهل».

لم نتمكن يومًا من الشّرب ببطء. واصلنا المضي على حساب تريسي، نستغرق في الذكريات ونضحك – نضحك أقسى مما ضحكت في سنوات الكلية الثلاث – آخذتين بعضنا إلى حذاء الآنسة إيزابيل الأصفر، إلى حفرة وحل أمي، إلى كتاب تاريخ الرّقص، عبر كل شيء، حتى أمور لم أفكر يومًا بأننا سوف نكون قادرتين على الضّحك عليها معًا. رقص لوي مع مايكل جاكسن، وهمي عن مدرسة الباليه الملكية. سألت عن والدها وقد شعرت بالجرأة. توقفت عن الضّحك.

«لا يزال هناك. حصل على مجموعة كاملة من أطفال خارج المنزل الآن، هذا ما قيل لي...»

تحوّل وجهها المعبّر دومًا إلى متأمّل، ثم تناول تلك النظرة من برود جليدي كلي تذكرتها جيدًا من عهد الطفولة. فكرت في إخبارها عما رأيته، قبل سنوات، في بلدة كينتيش، لكن ذلك البرود أوقف العبارة في فمي.

«ماذا عن والدك؟ لم أره منذ مدة».

«صدقي أو لا تصدقي، أظن أنه لا يزال يحب أمي».

قالت: «هذا لطيف»، لكن تلك النظرة ظلت على وجهها. كانت تحدق بمحاذاتي نحو السنجاب. قالت مرة ثانية: «هذا لطيف». استطعت أن أرى أننا وصلنا إلى نهاية تذكرنا، وأنه ربما الوقت المناسب لنجازف في اللحظة الراهنة.

استطعت التخمين كم سوف تبز أخبار تريسي بسهولة أيًّا ما كان لدي لأقدمه. وهذا ما فعلته بالفعل: امتلكت دورًا على مسرح

الويست إند. كان إحياء لواحد من عروضنا المفضلة، جايز آند دولز، وكانت تلعب دور «فتاة الهوت بوكس رقم واحد»، الذي تذكرت أنه ليس دورًا كبيرًا – في الفيلم لم يكن لديها اسم وتحدثت أربعة أو خمسة أسطر فقط – لكن مع ذلك كانت تقدم الكثير، الغناء والرّقص في نادي الهوت بوكس وإلا تتبع اديليد، التي يفترض بها أن تكون صديقتها المفضّلة. كانت تريسي ستؤدي أغنية «استرجع فرو المنك خاصتك» – التي أديناها عندما كنا صغارًا، نلوح بلفاعين من الريش لهما مظهر رث – وارتدت مشدًا يعقد برباط وعباءات من السّاتان الحقيقي وشعرها ملّس وجعّد. «نحن نتدرب بملابس التمثيل الآن. هم يستخدمون مكواة كل ليلة، إنه يقتلني». مست خط شعرها وتحت الشمع الذي استخدم ليملسه رأيت أنه بالفعل الآن منهك ومرقّع. كانت قد وضعت تفاخرها جانبًا. في إثره مع ذلك صدمتني في كونها دفاعية وهشة وشعرت بأني لم أستجب تمامًا كما أرادت. ربما تخيلت حقًا أن خريجة جامعية في الحادية والعشرين من عمرها سوف تسمع أخبارها الجيدة وتنهار بالبكاء على الأرض. التقطت نبيذها وأفرغته. سألت أخيرًا عن حياتي. أخذت نفسًا عميقًا ورددت أنواع الأمور التي قلتها لأمي: فقط بديل مؤقت، أنتظر أخبارًا عن فرص أخرى، أقيم في منزل والدي مؤقتًا، الإيجار غالٍ، ما من علاقة، لكن العلاقات كانت معقدة للغاية، ليس ما احتجته الآن، وأردت الوقت لأستقل بنفسي.

«صحيح، صحيح، صحيح، لكن لا يمكنك البقاء في العمل من أجل البيتزا، هل يمكنك؟ أنت بحاجة إلى خطة».

أومأت وانتظرت. شعرت بارتياح مألوف، مع أني لم أكن قد شعرت به منذ وقت طويل، وربطته بأن تريسي كانت تهتم به لتمحو قراراتي واستبدلت بإرادتها وبنواياها. ألم تكن تريسي دومًا تعرف أي

ألعاب نلعبها، أي قصص نرويها، أي إيقاع نختار، أي حركة نؤديها؟

قالت بثقة وهي تعود إلى الوراء في كرسيها، وقدمها موجهة إلى الأسفل، تخلق خطًا عموديًا جميلًا من ركبتيها إلى أصابع قدمها: «انظري، أعرف أنك امرأة ناضجة الآن، هذا ليس شأني. لكن إذا كنت بحاجة إلى شيء، إنهم يبحثون عن عمال مسرح الآن. يمكنك أن تحاولي. قد أزكيك عندهم. إنها فقط أربعة أشهر لكنها أفضل من لا شيء».

«لا أعرف أي شيء عن المسرح. ليس لدي خبرة».

قالت تريسي وهي تهز رأسها نحوي واقفة لتحصل على دورة أخرى: «أوه يا إلهي، إنها مجرد كذبة!»

ستة

تصوّرت أن استجوابي للامين نما إلى مسامع إيمي، لأنه في يوم رحيلي من فندق الكوكو أوشِن اتّصل مكتب الاستقبال بغرفتي ليخبروني أن لديهم رسالة لي وعندما فتحت المغلّف الأبيض وجدت هذه الملحوظة: الطّائرة النّفاثة غير متوفرة. سوف يتوجّب عليك أن تطيري على متن الدّرجة الاقتصادية، احتفظي بالفواتير. جودي.

كنت معاقبة. للوهلة الأولى اعتقدت أن الأمر مضحك، أن فكرة إيمي عن العقاب كانت الطيران على متن الدّرجة الاقتصادية، لكن عندما وصلت إلى المطار فوجئت بكم نسيت في الواقع: الانتظار، الاصطفاف في الطابور، الخضوع إلى تعليمات سخيفة. كل جانب منه، حضور عدد كبير من الناس، فظاظة الموظفين، حتى وقت الطيران الثابت على الشّاشات في غرفة الانتظار – كله بدا مثل إهانة. كان مقعدي قرب سائقي شاحنة من هودرسفيلد، كانا في عقدهما السّادس وسافرا معًا. أحبّا المكان هنا، جاءا كل سنة، إذا استطاعا تحمّل التكلفة. بعد الغداء بدءا يشربان من زجاجات ويسكي البيليز صغيرة، وتبادلا الرأي حول فتياتهما. ارتدى كل منهما محبسًا، نصف منغرس في أصابعهما المشعرة السّمينة. كنت أضع سماعاتي في ذلك الوقت: ربما اعتقدا أني لا أستطيع سماعهما.

«أخبرتني فتاتي أنها في العشرين، لكن ابن عمها – إنه نادل هناك

أيضًا – قال لي إنها في السابعة عشرة. مع ذلك أكثر فطنة من عمرها».

كان يوجد بقعة صفار بيض جامدة على قميصه. لصديقه أسنان مصفرة ولثّة نازفة. أمضيا عطلة من سبعة أيام سنويًا. كان الرجل ذو الأسنان الصّفر قد عمل نوبات مضاعفة لثلاثة أشهر ليتمكن من دفع تكلفة هذه العطلة الأسبوعية الطويلة مع فتاته في بانجول. راودتني خيالات قاتلة – عن أخذ سكيني البلاستيكية المسننة، لأجرها عبر حنجرة كل واحد منهما – لكن كلما أصغيت كلما بدا الأمر أكثر حزنًا.

«قلت لها، ألا تريدين أن تأتي إلى إنكلترا؟ وهي تقول لي: لا خوف، حبي. تريدنا أن نبني منزلًا في واسو، أينما تكون هذه. إنهن لسن حمقاوات أولئك الفتيات. واقعيات. الجنيه يذهب هناك إلى أبعد مما يعود إلى الوطن. إنه مثل الزوجة التي تتأوه حول رغبتها في الذهاب إلى أسبانيا. قلت لها: أنت تعيشين في الماضي، حبيبتي. أنت تعرفين كم هي أسبانيا في هذه الأيام؟»

ضعف يتغذى على آخر. بعد بضعة أيام عدت إلى العمل. لبثت أنتظر لقاءً رسميًا أو استنطاقًا لكن كان كما لو أني لم أقم بهذه الزيارة على الإطلاق.

لم يشر أحد إلى رحلتي وذلك لم يكن في حد ذاته استثنائيًا للغاية، الكثير من الأمور الأخرى كانت تجري في ذلك الحين – ألبوم جديد، جولة جديدة – لكن في الطريقة الدقيقة لأفضل المتنمرين، كافحت جودي وإيمي لتجميدي من كل القرارات الهامة، بينما بشكل متزامن تضمنان أن لا شيء مما قالتاه أو فعلتاه يمكن أن يفسر بشكل واضح على أنه عقاب أو جزاء. كنا نحضر من أجل انتقالنا الخريفي إلى نيويورك – فترة كنا فيها إيمي وأنا عادة ملتصقات ببعضنا – لكن

الآن بالكاد رأيتها، ولأسبوعين كنت مكلفة بنوع من العمل الجائر أنسب لمدبرات المنازل. كنت على الهاتف مع شركات الشحن. كنت حذاءً نسّق ورفع عن الواجهة. رافقت الأطفال إلى صف اليوغا. كمنت لجودي حول ذلك باكرًا ذات صباح يوم سبت. كانت إيمي تتمرن في القبو والطفلان يشاهدان ساعتهما الأسبوعيّة على التّلفاز. بحثت في أرجاء المنزل ووجدت جودي جالسة في المكتبة ترفع قدميها على المكتب من النّسيج الأخضر، تطلي أظافر قدميها بلون فوشيا رهيب، إسفين من الحُباب الأبيض ملصق بين كل إصبع طويل وآخر. لم ترفع بصرها إلى أن انتهيت من التحدث.

«نعم، حسنًا، كرهت أن أنقل لك الخبر، لكن إيمي لا تهتم ولو قليلًا لما تظنين عن حياتها الخاصّة».

«أنا أحاول الاعتناء بمصالحها. هذه مهمتي كصديقة».

«لا، حبيبتي، ليس صحيحًا. عملك هو: مساعدة شخصية».

«أنا هنا منذ تسع سنوات».

«وأنا هنا منذ تسعة وعشرين عامًا».

لوحت بقدميها ووضعتهما في صندوق أسود على الأرض التي تأججت بالأرجواني.

«لقد رأيت الكثير من هؤلاء المساعدات يذهبن ويأتين. لكن يا مسيح، ما من واحدة منهن كانت مخادعة مثلك».

«أليس هذا صحيحًا؟ ألا تحاول أن تحصل له على تأشيرة دخول؟»

«أنا لا أناقش هذا معك».

«جودي، أمضيت اليوم بشكل أساسي أعمل للكلب. أنا أحمل شهادة. لا تقولي لي أنا لست معاقبة».

سحبت جودي حاشيتها إلى الخلف بكلتا يديها.

«بادئ ذي بدء، لا تكوني ميلودرامية إلى هذه الدرجة. ما تفعلينه هو العمل. مهما كان ما تظنين، أيتها العجوز، عملك ليس ولم يكن يومًا أفضل رفيقة. أنت مساعدتها. وكنت دائمًا. لكن مؤخرًا يبدو أنك نسيت ذلك – وقد حان الوقت لتذكيرك. إذن هذه مسألتنا الأولى. رقم اثنان: إذا كانت تريد أن تجلبه إلى هنا، إذا كانت تريد أن تتزوجه، أو ترقص معه على قمة بيغ بين اللعينة، هذا ليس من شأنك. أنت بعيدة جدًا عن منطقتك».

تنهدت جودي ونظرت إلى أصابع قدميها: «والجزء المضحك منه هو أنها لم تغضب منك حول الفتى، الأمر لا يتعلق بالفتى اللعين».

«ماذا إذن؟»

«هل تحدثت إلى والدتك مؤخرًا؟»

جعلني هذا السّؤال أتورد بشدة. منذ متى كان؟ شهر؟ اثنان؟ البرلمان كان في انعقاد، كانت منشغلة، وإذا أرادت أن تلتقي بي كان في وسعها معرفة مكاني. كنت أمر عبر هذه التبريرات في رأسي للحظة طويلة حتى خطر لي أن أتساءل عن سبب اهتمام جودي.

«حسنًا، ربما يجب عليك. إنها تجعل الحياة صعبة علينا الآن ولا أعرف السبب حقا. قد يساعد إذا أمكنك أن تعرفي».

«أمي؟»

«أعني، هناك مليون قضية في حفرة القذارة الصّغيرة هذه من جزيرة تسميها بلادًا – حرفيًا مليون. هي تريد أن تتحدث عن الديكتاتوريات في غرب أفريقيا؟» قالت جودي مستعملة أصابعها لصنع قوسي الاقتباس. «التورط البريطاني مع الدكتاتوريات في غرب أفريقيا. هي على التّلفاز، تكتب مقالات الرأي، تقف في استجواب رئيس الوزراء

ساعة الشّاي أو أيًا يكن ما يدعوها شعبك. إنها تتحدث عنه طوال الوقت. ممتاز. حسنًا، هذه ليست مشكلتي – ما تفعله إدارة التنمية الدولية، ما يفعله صندوق النقد الدولي – هذا خارج عن نطاق عملي. إيمي، بأية حال، هي مجال عملي – ومجالك. نحن في شراكة مع هذا الرئيس المجنون، وإذا ذهبتِ وسألتِ حبيبك فِرن فسوف يخبرك أيّ سَيْر على الحبال نسير الآن. صدّقيني حبيبتي، إذا كان جلالته طال عمره ملك الملوك الجليل لا يريدنا في بلاده؟ نحن نخرج من هناك في رفّة عين. لتذهب المدرسة إلى الجحيم، ليذهب الجميع إلى الجحيم. الآن، أنا أعرف أنك في إجازة. لقد أخبرتني مرات كثيرة جدًا. هل هي في التّنمية الدوليّة؟ لا، لا أظن ذلك. وأنا واثقة من أن أمك الثرثارة هناك على المقاعد الخلفية ربما تفكر بأنها عون، أيضًا، الله يعلم، لكن أنت تعلمين ما تفعله بالفعل؟ إيذاء الناس الذين تدعي أنها ترغب في مساعدتهم، وتزعجنا نحن الذين نحاول أن نحدث فرقًا هناك. الجحود. يبدو أنه يسري في العائلة».

جلستُ على الكرسي الطويل.

سألت جودي: «يا يسوع، ألم تقرئي يومًا الصّحف؟»

بعد ثلاثة أيام من تلك المحادثة طرنا إلى نيويورك. بعثت برسائل إلى أمي، أرسلت إليها رسائل نصية، راسلتها عبر البريد الإلكتروني، لكنها لم تتصل بي حتى نهاية الأسبوع التالي، بالتوقيت الاستثنائي للأمهات اختارت الثانية والنصف من بعد الظهر يوم أحد، تمامًا عندما خرجت كعكة جاي من المطابخ والرايات سقطت من سقف غرفة الرينبو، وغنى مئتا ضيف «عيد ميلاد سعيد»، يصحبهم عازفو الكمنجات من قسم الآلات الوترية لفرقة نيويورك الفيلهارمونية.

«ما كل هذه الجلبة، أين أنت؟»

فتحت الأبواب الزلقة على التراس وأغلقتها خلفي.

«إنه عيد ميلاد جاي. إنه يُتم التاسعة اليوم. أنا على قمة الروكفيلر».

قالت أمي: «أنظري، لا أريد أن أتجادل معك على الهاتف»، وهي تبدو إلى حد كبير كما لو أنها أرادت أن تتجادل على الهاتف. «لقد قرأت رسائلك الإلكترونية، أتفهم موقفك. لكني آمل أنك تفهمين أني لا أعمل عند تلك المرأة – أو عندك، في الواقع. أنا أعمل من أجل البريطانيين، وإذا طورت اهتمامًا في تلك المنطقة إذا أصبحت مهتمة بازدياد_»

«نعم، لكن أمي، ألا يمكن أن تصبحي مهتمة بازدياد حول شيء آخر؟»

«ألا يهمك من هم شركاؤك في هذا المشروع؟ أعرفك، عزيزتي، وأعرف أنك لست مرتزقة، أعرف أن لديك مثل عليا – لقد ربيتك، بحق الله، لذا أعرف. فكرت في هذا عميقًا جدًا، ميريام أيضًا وتوصلنا إلى استنتاج أنه عند هذه المرحلة تصبح مسألة حقوق الانسان متعذر الدفاع عنها – أتمنى لو لم تكن كذلك، من أجلك، لكن هذا هو الحال. عزيزتي، ألا ترغبين أن تعلمي»

«أمي، آسفة – سأتصل بك لاحقًا – عليّ الذهاب».

كان فرن يرتدي بدلة غير لائقة واضح أنها مستأجرة، قصيرة جدًا عند الكاحلين، يتقدم نحوي، يلوح بحماقة ولا أظن أني أدركت كم كنت جاهلة بما يجري حتى تلك اللحظة. بالنسبة لي كانت صورة مقتطعة ألصقت في الصّورة الخطأ، في اللحظة الخطأ. ابتسم، فتح الأبواب الزلقة، مال رأسه إلى الجانب مثل كلب صغير من نوع ترير: «آه، لكن تبدين حقًا جميلة».

«لماذا لم يخبرني أحد بقدومك؟ لماذا لم تفعل؟»

مرر يدًا عبر التجعدات شبه الممهدة بجيل الشّعر الرخيص وبدا مرتبكًا، تلميذ التقط في جنحة شرير ثانوي. «حسنًا، كنت في عمل سري. إنه سخيف، لكن مع ذلك لم أتمكن من إخبارك، أنا آسف. أرادوه أن يبقى سرًا». رفعت بصري إلى حيث كان يشير ورأيت لامين. جلس إلى الطاولة المركزية في بدلة بيضاء، مثل عريس في حفل زفاف وجودي وإيمي تحيطان به من كل جانب.

«يا يسوع المسيح».

«لا، لا، لا أظن أنه كان هو. ليس إلا إذا كان يعمل في وزارة الخارجية الأميركية». تقدم خطوة ووضع يديه على الجدار الحاجز. «لكن يا له من منظر!»

المدينة برمتها تمتد أمامنا. أدرت ظهري لها، ملتفتة لأتفحص فرن بدلًا من ذلك، لأتحقق من واقعيّته، من ثم لأراقب لامين يتلقى قطعة كعك من نادل عابر. حاولت أن أتحمل مسؤولية الذعر الذي شعرت به. كان أكثر من كوني ببساطة أبقيت في الظلمة، كان رفضًا للطريقة التي طلبت فيها واقعي الخاص. لأنه في عقلي، في ذلك الحين – كما هو ربما بالنسبة لمعظم الشّبان – كنت في مركز الأمور، الشّخص الوحيد في العالم الذي يمتلك حرية حقيقية. انتقلت من هنا إلى هناك، أراقب الحياة كما قدمت نفسها لي، لكن الجميع في هذه المشاهد، جميع الشّخصيات المساعدة، انتمت فقط إلى الأدوار التي وضعتها فيها: فرن أبديًا في المنزل الزهري، لامين مقيد لدروب القرية المتربة. ماذا كانوا يفعلون هنا الآن في نيويوركي؟ لم أعرف كيف أتحدّث إلى أي منهما في الرينبو روم، لم أكن واثقة من الشكل الذي على علاقتنا أن تتخذه، أو فيما إذا كنت في هذا السّياق مدينة أو دائنة. حاولت تخيل شعور لامين الآن، على الجانب الآخر من المصفوفة أخيرًا، وإذا ما كان معه شخص

ما ليرشده عبر هذا العالم الجديد المحير، شخص ليشرح له الكميات الفاحشة من النقود التي صرفت هنا على أمور مثل بالونات الهليوم وكعك الحبّار المطهو على البخار، أربعمئة شجرة من أشجار الفاونيا. لكن كانت إيمي إلى جانبه، وليس أنا، ولم تمتلك مثل هذه المخاوف، تمكنت من رؤية ذلك من هنا، هذا كان عالمها وهو كان ببساطة مدعوًا إليه كما قد تدعو أي شخص آخر، كامتياز وكهدية، كما تفعل الملكات عندما تعرض حمايتها دون وعي. في عقلها كان كله قدر، دومًا كان كذلك وعلاوة على ذلك بسيط بشكل أساسي. هذا ما كنا أنا وجودي وفرن وجميعنا يدفع لنا من أجله حقًا: أن نحافظ على بساطة الحياة من أجلها. نخوض عبر الأعشاب المتشابكة فيمكنها أن تعوم فوق السطح.

«بأية حال، سرني أن آتي. أردت أن أراكِ».

مدّ فِرن يده وفرك بها كتفي الأيمن وفي اللحظة التي فكرت أنه كان فقط ينفض بعض الغبار، كان عقلي في مكان آخر، كنت عالقة عند صورة لي وأنا عالقة في الأعشاب وإيمي تعوم بسكون فوق رأسي. ثم ذهبت يده الأخرى إلى كتفي الآخر: مع ذلك لم أفهم. مثل الجميع في تلك الحفلة، فيما عدا ربما فرن نفسه، لم أتمكن من إزاحة بصري عن لامين وإيمي.

«يا إلهي، انظروا إلى هذا!»

نظر فِرن دون إطالة حيث كنت أشير وأدرَك لامين وإيمي عندما تبادلا قبلة سريعة.

أومأ: «آه، إذن هما لا يخفيان ذلك بعد الآن!»

«يا يسوع المسيح. هل سوف تتزوجه؟ هل سوف تتبناه؟»

«من يهتم؟ لا أريد أن أتحدث عنها».

فجأة أمسك فِرن كلتا يدَيّ، وعندما التفتّ مجدّدًا وجدت أنه

كان يحدّق بي بحدّة هزليّة.

«فرن ماذا تفعل؟»

«أنت تتظاهرين بأنك ساخرة» – ظل ينشد عيني عندما حاولت بشدة مساوية أن أتفادى عينيه – «لكني أظن أنك خائفة». بدا في لكنته كأنه سطر من أحد المسلسلات المكسيكية التي اعتدنا مشاهدتها مع نصف عدد سكان القرية، كل أصيل يوم جمعة، في غرفة التّلفاز في المدرسة. ضحكت رغمًا عني. حاجباه تلاقيا في خط حزين. «من فضلك لا تسخري مني». نظر إلى نفسه وأنا نظرت أيضًا: أظن أنها المرة الأولى التي رأيته بغير بنطاله القصير الفضفاض.» الحقيقة هي أني لا أعرف كيف ألبس في نيويورك». حررت يدي من يديه. «فِرن، لا أعرف ماذا تفكّر. أنت حقًا تجهلني».

«حسنًا، من الصّعب أن تعرفي جيدًا. لكنك أريد أن تعرفي. هذا ما هو عليه، عندما تكوني عاشقة. ترغبين أن تعرفي الشخص على نحو أفضل».

بدا لي أن الحالة خرقاء للغاية لدرجة أن عليه أن يختفي في هذه اللحظة – تمامًا مثلما تقطع هكذا مشاهد في المسلسلات من أجل بث الإعلانات – لأنه بخلاف ذلك لم أعرف كيف لنا أن نعبر هاتين الدقيقتين. لم يتحرك. بدلًا من ذلك أمسك بكأسين عابرين من الشّمبانيا عن صينية النادل وشرب كأسه في جرعة واحدة.

«ليس لديك ما تقولينه لي؟ أنا أقدم لك قلبي!»

«أوه يا إلهي فرن – من فضلك! توقف عن التحدث بتلك الطريقة! لا أريد قلبك! لا أريد أن أكون مسؤولة عن قلب شخص آخر. عن أي شيء لأي شخص آخر!»

بدا مشوّشًا: «فكرة مميزة. ما إن تكوني حية في هذا العالم

فأنت مسؤولة».

«عن نفسي». الآن شربت كل الكاس. «أنا فقط أريد أن أكون مسؤولة عن نفسي».

«أحيانا في هذه الحياة عليك أن تجازفي مع أناس آخرين. انظري إلى إيمي».

«أنظر إلى إيمي؟»

«لم لا؟ عليك أن تبدي إعجابك بها. هي ليست خجلى. هي تحب هذا الشاب. سوف يعني ربما الكثير من المشاكل لها».

«أنت تعني: لنا. سوف يعني الكثير من المشاكل لنا».

«لكنها لا تهتم بما يظنه الناس».

«ذلك لأنها كالعادة ليس لديها فكرة عما هي مقدمة عليه. الأمر برمته عبثي».

كانا يستندان على بعضهما، يشاهدان السّاحر، سيد فاتن في بدلة سافيل رو وربطة على شكل فراشة وكان في حفل عيد ميلاد جاي الثامن أيضًا. كان يؤدي خدعة الخواتم الصينية. انسكب ضوء في الرينبو روم والخواتم انزلقت دخولًا وخروجًا من بعضها البعض على الرغم من صلابتها الظاهرة. بدا لامين مفتونًا – كما فعل الجميع. تمكنت من سماع موسيقى الصلاة الصينية الخافتة للغاية، وفهمت، في الموجز، أن هذا لا بد أن يكون جزءًا من الأثر. تمكنت من رؤية ما كان يشعر به كل شخص، لكني لم أكن معهم ولم أتمكن من مشاركتهم الشعور به.

«هل تشعرين بالغيرة؟»

«أتمنى لو بوسعي خداع نفسي على طريقتها. لكم حسدتُ الأشخاص الذين ينسون بسرعة وسهولة. القليل من الجهل لم يوقفها

أبدًا. لا شيء يوقفها».

أفرغ فرن كأسه ووضعه بخراقة على الأرض.

«لم يكن علي أن أتحدث. أؤمن أني حرفت معنى الحالة».

كانت لغة الحب خاصته سخيفة للغاية لكن الآن وقد عاد إلى لغته الإدارية المألوفة شعرت بالأسف. التفت وعاد إلى الدّاخل. السّاحر انتهى. شاهدت إيمي تنهض وتقترب من المنصة الصغيرة المدورة. نودي على جاي أو على الأقل وصل إلى جانبها، من ثم كارا، من ثم لامين. أحاط الحفل برمته بهم في شكل هلال محب .بدوت أني الشّخص الوحيد الذي لا يزال في الخارج، أنظر إلى الدّاخل. كانت تعانق بإحدى ذراعيها جاي وكارا، وبالذراع الأخرى أمسكت يد لامين اليسرى في وضعية المنتصر. صفّق الجميع وهتفوا، هدير مكتوم عبر الزجاج المزدوج. هي ضبطت هذا المنصب: غرفة مليئة بوهج آلات التّصوير. من حيث وقفت كانت وقفة قوّضت العديد من الفترات في حياتها إلى واحدة: أم وعاشقة، أخت كبرى، صديقة حميمة، نجمة ودبلوماسية، بليونيرة وشوارعية، فتاة حمقاء وامرأة ثرية. لكن لِمَ توجب عليها أن تحصل على كل شيء، وتملك كل شيء، أن تفعل كل شيء، أن تكون الجميع، في كل الأماكن في كل الأوقات؟

✧ سبعة ✧

الأمر الذي أتذكّره بوضوح شديد هو دفء جسدها عندما عدت من الخشبة نحو جناح المسرح، في ذراعي حيث وقفت مستعدة بتنورة ضيقة لتبدل فستان السّاتان، أو ذيل قطة سوداء ليثبت على مؤخرتها – حالما خلعت التنورة الضيقة – ومناديل نظيفة لمسح العرق الذي انبثق دومًا من جسر أنفها المنمش. كان هناك بالتأكيد كثير من الفتيان والفتيات الآخرين الذين كان عليّ أن أناولهم مسدسات أو عِصِيًّا، أو أثبت دبوس ربطة العنق، أسوي درزة أو أضع مشبكًا، لكن تريسي هي التي أتذكرها، ممسكة بمرفقي لتتوازن بيد وتخطو بخفة في بنطال أخضر فاتح اللون يصل حتى ما بعد الركبة، أغلقت حينها السحّاب الجانبي بعناية كي لا يلتقط جلدها، قبل أن أركع لأربط عقدتي حذائها الأبيض الخاص بالرّقص النّقري. كانت دومًا جديّة وصامتة أثناء هذه التغييرات السّريعة. لم تقهقه أبدًا أو تتململ مثل فتيات الهوت بوكس الأخريات، ولا كانت تفتقر إلى الثّقة بالنّفس أو بحاجة لإعادة طمأنة، كما علمت سريعًا أنه أمر نموذجي بالنسبة لفتيات الكورس، لكن غريبًا على طبيعة تريسي. عندما ألبستها أو خلعت عنها ملابسها ظلت مركزة على ما يحدث على الخشبة. كانت تشاهد العرض إذا تمكنت من ذلك. إذا كانت عالقة في الكواليس في غرفة تبديل الملابس وتصغي إليه عبر أجهزة المراقبة التلفزيونية، كانت تركز للغاية على ما

تسمع حتى أنك ما كنت لتستطيع أن تشركها في محادثة. مهما كان عدد المرات التي شاهدت فيها ذلك العرض، لم تتعب منه أبدًا، كانت دومًا برمة لتعود إلى داخله.

كل ما وراء الكواليس جعلها تشعر بالسأم، كانت حياتها الحقيقية في الخارج هناك، في تلك القصة الخيالية، تحت الأضواء، وهذا شوّشني لأني عرفت كما لم يعرف أحد من فريق العمل أنها كانت على علاقة غرامية سرية مع أحد النّجوم، رجل متزوج. لعب دور الأخ ارفايد ابيرناثي، السّيد المسن اللطيف الذي يحمل طبلًا كبيرًا في فرقة جيش الخلاص. لم يكونوا بحاجة إلى رش أي صبغة رمادية على شعره، كان عمره يساوي ثلاثة أضعاف عمر تريسي تقريبًا ولديه الكثير من الشّيب سلفًا، تسريحة شعر أفريقي ملح وفلفل، أسهمت في حمل نقّاد المسرح في الهواء الطلق على دعوته «المتميّز». في الحياة الحقيقية كان كيني المولد والنشأة، متبوعًا بعمل في الأكاديمية الملكية للفن الدرامي، تبع بآخر في شركة شكسبير الملكية: امتلك صوتًا شكسبيريًا غنيًا للغاية، أضحك معظم النّاس، من خلف ظهره، لكن أحببت سماعه لا سيما على الخشبة، كان مخملًا لفظيًا مترفًا للغاية. كانت علاقتهما علاقة انساقت في فترات صغيرة من الوقت المتاح دون حريّة لتوسيعها. لم تجمعهما على الخشبة مشاهد مشتركة إلا بالكاد – جاءت شخصيتاهما من عالمين مختلفين، منزلٌ للصّلاة ووَكْرٌ للآثام – بينما بعيدًا عن الخشبة كان كل شيء سريًا ومُستلبًا. لكن أسعدني أن ألعب دور الوسيط، استكشف غرف الملابس الفارغة، وأحرس باستمرار، أكذب من أجلهما عندما كان الكذب مطلوبًا – منحني شيئًا متماسكًا لأفعله بوقتي بدلًا من التساؤل، كما فعلت معظم الليالي، عما كنت أفعله هناك. كانت مراقبة علاقتهما أمرًا مثيرًا لاهتمامي أيضًا لأنها كانت مبنية بصورة غريبة. كلما

لمح الرجل المسكين تريسي بدا كما لو أنه قد يموت من حبه لها، ومع ذلك لم تكن يومًا غاية في اللطف معه، على حدّ علمي وقد سمعتها غالبًا تناديه بالأحمق العجوز، أو تضايقه حول زوجته البيضاء، أو تلقي بنكات فظّة حول شهوته الجنسية الهرمة.

مرة قاطعتهما بطريق الخطأ، عندما دخلت غرفة ملابس لم أدرك أنهما كانا فيها، ووجدت مشهدًا مفردًا: كان على ركبتيه على الأرض، يرتدي كامل ملابسه لكن رأسه محني ويبكي بصراحة، وكانت جالسة على مقعد، ظهرها له، تواجه المرآة، تضع أحمر الشّفاه. سمعتها تقول عندما أغلقت الباب بعنف: «من فضلك لا تفعل، وانهض. انهض عن ركبتيك اللعينتين...»

قالت لي لاحقًا إنه كان يعرض عليها أن يترك زوجته. الأكثر غرابة بالنسبة لي حول تناقضها نحوه كان كم اختلّت تراتبية العالم المسرحي الذي شغلته بقسوة، الذي فيه امتلك كل شخص في الإنتاج قيمة دقيقة وقوة متطابقة، وكل العلاقات راعت بدقة مخطّطًا محدّدًا. اجتماعيًّا، عمليًّا، جنسيًّا، النجمة كانت حَريّة بكل فتيات الكورس العشرين، على سبيل المثال، وفتاة الهوت بوكس رقم واحد كانت تستحق تقريبًا ثلاث فتيات من الكورس وكل الممثلات الرديفات، بينما دور ذكر متحدث من أي نوع كان مساويًا لكل النّساء على الخشبة معًا – فيما عدا ربما الدور الرئيس النسائي – ونجم ذكر قد يطبع عملته الخاصّة، كلما دخل غرفة أعيد تشكيلها من حوله، عندما اختار فتاة كورس تقدمت إليه في الحال، عندما اقترح تغييرًا جلس المخرج في مقعده وأصغى. كان هذا النظام متينًا للغاية ولم يتأثر بالثورات في مكان آخر. كان المخرجون قد بدأوا على سبيل المثال، اختيار طاقمهم بشكل يتجاوز الطبقة القديمة والخطوط الملونة وضدها – كان هناك الملك هنري من

السّود وريتشارد الثالث من الكوكني (سكان ايست إند في لندن) وارفايد ابيرناثي كيني يبدو مثل لاري اوليفير – لكن تراتبية المقامات القديمة على الخشبة ظلت ثابتة كما كانت.

في أسبوعي الأول، تائهة خلف الكواليس ومشوشة حول موقع الخزانة العمودية، أوقفت فتاة هندية جميلة في مشد كانت تركض بجانبي وحاولت أن أسألها عن الاتجاهات. قالت دون أن تبطئ: «لا تسأليني، أنا لا أحد...» علاقة تريسي صدمتني على أنها نوع من الانتقام من كل ذلك: مثل مشاهدة قطة منزلية تأسر أسدًا، تروضه، تعامله مثل كلب. كنت الشخص الوحيد الذي استطاع العاشقان مخالطته بعد ساعات. لم يتمكنا من الذّهاب إلى حانة الكوتش آند هورسس مع بقية الفريق، لكن كانت لديهما الرغبة نفسها في إغراق الأدرينالين الذي ترتفع نسبته بعد العرض بالكحول، لذا ذهبا بدلًا من ذلك إلى نادي الكولوني رووم حيث لم يذهب أحد آخر من المشاركين في العرض، لكن حيث كان عضوًا لسنوات. غالبًا دعيت للذهاب معهما. هنا دعاه الجميع «تشالكي»، وعرفوا شرابه – الويسكي وبيرة الزنجبيل – وكان دومًا موضوعًا على البار بانتظاره عندما يصل عند الساعة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة.

هو أحب ذلك، واللقب الأحمق، لأنها كانت عادة انكليزية فخمة أن تمنح ألقابًا حمقاء، وكان عاكفًا على كل الأشياء الفخمة والانكليزية. لاحظت أنه تحدث بالكاد عن كينيا أو أفريقيا. ذات ليلة حاولت أن أسأله عن وطنه لكنه انزعج: «انظري، أيها الأولاد، أنتما نشأتما هنا، تظنان أن المكان الذي أتيت منه كله أطفال يتضورون جوعًا ويعيشون على المساعدات الغذائية أو أيًا يكن الجحيم الذي تظنانه. حسنًا، كان والدي مدرسًا لمادة الاقتصاد، أمي وزيرة في الحكومة، نشأت في مسكن

جميل للغاية، شكرًا لك جزيلًا، مع خدم، طاه، بستاني...» ومضى هكذا قليلًا ثم عاد إلى موضوعه المفضل، أيام المجد في سوهو. شعرت بالإحراج، لكن أيضًا بأنه تعمد إساءة فهمي: بالتأكيد عرفت بوجود عالمه – ذلك النوع من العالم موجود في كل مكان. لم يكن ذلك ما أردت معرفته .كان ولاءه الحقيقي للبار نفسه، أي عاطفة كافح ليترجمها لفتاتين بالكاد سمعتا عن فرنسيس باكون ورأتا فقط غرفة ضيقة ملطخة بالدخان، الجدران الخضراء المتقعة والفوضى المجنونة – دعته تريسي «فنًّا رخيصًا» – استولى على كل سطح. لتزعج حبيبها، أحبت تريسي أن تستعرض جهلها، لكن مع ذلك حاولت أن تخفيه، شككت أنها كانت غالبًا مهتمة بالقصص الطويلة الاستطرادية الثملة التي رواها عن الفنانين والممثلين والكتاب الذين عرفهم، حياتهم وأعمالهم، مع من مارسوا الجنس وماذا شربوا أو تعاطوا وكيف ماتوا. عندما ذهب إلى الحمام أو خرج لشراء السّجائر أمسكتُ أحيانًا بها تتأمل عميقًا لوحة قريبة أو أخرى فكرت تتبع حركة فرشاة ألوانها بانتباه، بتلك الحدة التي منحتها لكل شيء.

وعندما ترنّح تشالكي عائدًا واستأنف موضوعه، راحت تقلب عينيها لكنها كانت تصغي، استطعت أن أعرف. تشالكي عرف باكون قليلًا فقط بما يكفي ليقرع كأس شرابه معه، وكان لديهما صديق مشترك جيّد، ممثل شاب يدعى بول، رجل على «جمال عظيم، سحر شخصي عظيم»، ابنُ غانيّين عاش مع صديقه وباكون بعض الوقت في مثلث أفلاطونيّ في باتيرسي، قال تشالكي (بعد عدد من كؤوس الويسكي كان هناك دومًا هذه الأمور التي علينا فهمها): «والشيء الذي عليك أن تفهميه، الأمر الذي عليك أن تفهميه هو أنه هنا في سوهو في ذلك الحين لم يكن هناك سود وبيض. لا شيء بمثل هذه التفاهة. لم يكن مثل

بريكستون، لا، هنا كنا إخوة في الفن، في الحب» – عصر تريسي – «في كل شيء. ثم حصل بول على ذلك الدّور في تيست اوف هوني – جئنا إلى هنا لنحتفل – وكان الجميع يتحدثون عنه، وشعرنا كما لو أننا مركز الأمر بمجمله، لندن المتأرجحة[41] بثورتها الثقافية، لندن البوهيمية، لندن الأدبية، لندن المسرحية، وأن هذا كان بلدنا، أيضًا الآن. كان جميلًا! أقول لكما، إذا بدأت لندن وانتهت على شارع دين، كل شيء سوف يكون... سعادة». تلوّت تريسي عن حجره وعادت إلى مقعدها.

تمتمت: «أنت ثمل لعين»، وضحك السّاقي لسماعه ما قالته وقال لها: «أخشى أن ذلك شرط العضوية هنا حبيبتي...» التفت تشالكي نحو تريسي وقبلها برخص: «تعالي، تعالي، أيها الدبور، أعتقد أنك غاضبة للغاية...»

صرخت تريسي وهي تبعده عنها: «انظري إلى ما أتعامل معه!»

كان تشالكي مولعًا بالقصص الشّعرية الشكسبيرية الشّبيهة بالمرثاة، قاد تريسي عاليًا على الجدران الخضراء، من ناحية لأنها كانت تغير من صوته الجميل لكن أيضًا لأن تشالكي عندما بدأ بالغناء عن أشجار الصفصاف والنّساء المتسلطات الخائنات كانت إشارة موثوقة على أنه قريبًا يجب أن يكون نصف محمول على ذلك الدرج الشّاهق والمتقلقل، مرفوعًا إلى سيارة أجرة، مرسلًا إلى زوجته البيضاء، دفعت تريسي أجرة السّيارة مقدمًا من نقود سحبتها من محفظته، واعتادت أن تأخذ أكثر قليلًا مما هو مطلوب بالضبط. لكنها كانت براغماتية، هي أنهت الليلة عندما فقط علمت شيئًا. أؤمن أنها كانت تحاول التقاط ما فقدته هذه السّنوات الثّلاث الماضية وكنت قد كسبته: تعليمًا مجانيًّا.

41) إشارة إلى الثّورة الثقافية التي قادها الشّباب في منتصف الستينيات من القرن العشرين والتي وقعت أحداثها في المملكة المتحدة.

كان العرض قد تلقّى تقريظًا ممتازًا وفي شهر تشرين الثاني وراء الكواليس قبل خمس دقائق من رفع الستارة، كنا مجتمعين وأخبرنا المنتجون أن عرضنا مُدّد إلى ما بعد موعده النهائي في عيد الميلاد حتى الربيع. ابتهج فريق العمل وتلك الليلة حملوا بهجتهم معهم على الخشبة. وقفت في جناح المسرح، سعيدة من أجلهم أيضًا لكن وأخباري السرية مدسوسة في داخلي، التي لم أكن بعد قد أخبرت الإدارة عنها أو تريسي. جاء رد واحد من طلباتي أخيرًا: منصب مساعدة إنتاج، فترة تدريب مدفوعة الأجر، في النسخة البريطانية المفتتحة حديثًا من واي تي في.

الأسبوع السّابق كنت قد ذهبت إلى مقابلة، صورتها ببراعة مع مجري المقابلة الذي قال لي بشكل اعتقدت أنه غير احترافي بعض الشيء، بالنظر إلى طابور الفتيات في الخارج، إني أملك العمل، هناك وفي حينها. كان فقط مبلغ 1300 جنيه لكن إذا بقيت في شقة والدي فهو أكثر من كاف. كنت سعيدة ومع ذلك ترددت في إخبار تريسي، دون أن أسأل نفسي حقًا عن مصدر ترددي. اندفعت فتيات الهوت بوكس بجواري خارجات للتو من غرف الماكياج وعلى الخشبة، يرتدين مثل قطط، وادليد في وسط المقدمة وهوت بوكس رقم واحد إلى يسارها تمامًا. نفخن صدورهن عاليًا على نحو مثير ولعقن براثنهن وأمسكن بذيولهن – واحد منهم كنت قد ثبته على تريسي قبل عشر دقائق – جثمن مثل قطيطات على وشك القفز، وبدأن الغناء، عن «بوبّاس» الوضيع الذي يمسك بك بإحكام شديد ويجعلك راغبة بالتجوال، وغرباء لطفاء آخرين يجعلونك تشعرين أنك في البيت... كان دومًا شخصًا مشاغبًا، لكن تلك الليلة كان إحساسًا حقيقيًا. من حيث وقفت، مع فرجة واضحة للصف الأول، استطعت أن أرى الرغبة العلنية في عيون الرّجال وكم كانت كثير من

تلك العيون مشدودة تحديدًا نحو تريسي عندما يجب أن تكون عن استحقاق على المرأة التي تلعب دور اديليد. حجبن جميعهن بمرونة ساقي تريسي في ذلك الثوب الراقص، الحيوية الصافية لحركاتها، مثل قطة بحق، أنوثة فائقة في نحو حسدتها عليه ولم يسعفني الأمل في أن أخلقها في جسدي مهما ألصقت من ذيول علي. كان هناك ثلاث عشرة امرأة ترقص في ذلك المشهد لكن فقط حركات تريسي كانت مهمة حقًا، وعندما ركضت عن الخشبة مع البقية وقلت لها كم رقصت بشكل رائع، لم تتحر نواياي مثل بقية الفتيات أو تطلب أي تكرار للثناء، قالت فقط: «نعم أعرف» انحنت، تعرت وناولتني ثوب الرّقص المكوّر.

تلك الليلة احتفل طاقم الراقصين في حانة الكوتش آند هورسس. ذهبت تريسي وتشالكي معهم وأنا أيضًا فعلت، لكن كنّا معتادين على حرارة نادي الكولوني روم الأليفة والمخمورة – على مقاعدنا أيضًا، وأن نسمع صوتنا ونحن نتحدث – وبعد حوالي عشر دقائق من الوقوف، نصرخ بأعلى أصواتنا ولا أحد يقوم على خدمتنا، رغبت تريسي بالمغادرة. اعتقدت أنها عنت العودة إلى الكولوني روم مع تشالكي، لتفعل ما نفعله عادة، فيمكنها هي وحبيبها أن يشربا الكثير ويمضيا في وضعهما المستحيل: أمنيته أن يخبر زوجته، تصميمها أنه سوف لن يفعل، تعقيد أطفاله – الذين كانوا في مثل عمرنا – والإمكانية التي خشيها تشالكي لكن اعتقدت أنها مستبعده، أن الصحف قد تكتشف وتثير جلبة من حولها. لكن عندما ذهب إلى الحمام جذبتني تريسي إلى الخارج وقالت: «لا أريد أن أفعله الليلة» – أتذكر «أفعل» تلك – « لنعد إلى بيتك ونثمل».

كانت حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف عندما وصلنا إلى كيلبورن. كانت تريسي قد لفت سيجارة على متن القطار والآن دخّنا

ونحن نمشي في الشارع، نتذكر الأوقات التي أدينا هذه الحركة نفسها على الطريق نفسها في عمر العشرين، الخامسة عشرة، الثالثة عشرة، الثانية عشرة... ونحن نمشي أخبرتها بالمستجدات. بدت مبهجة للغاية، واي تي في، ثلاثة أحرف من عالم شغلنا في مراهقتنا، وشعرت بالإحراج تقريبًا لقولها، محظوظة بشكل فاحش كما لو كنت على وشك أن أكون على القناة بدلًا من حفظ بريدها البريطاني وتخمير شايها البريطاني. توقّفت تريسي عن السّير وأخذت مني اللفافة. «لكنك لن تغادري الآن؟ في وسط العرض؟»

تململت واعترفت: «الثلاثاء. هل أنت حقًا متضايقة؟»

لم تجب. سرنا في صمت قليلًا من ثم قالت: «أنت تخططين للانتقال أيضًا، أم ماذا؟»

لم أكن. كنت قد وجدت أن العيش مع والدي قد راقَ لي وكوني قريبة من أمي – لكن ليس في المكان نفسه. ولمفاجأتي لم أكن في عجلة للمغادرة. وأتذكر أني رويت الكثير عن هذا لتريسي، عن كم «أحببت» الحي القديم، راغبة أن أثير الإعجاب، كما أفترض، أثبت كم كانت قدماي لا تزالان بحزم على الأرض المحلية، رغم أي تغير في حظي، عشت مع والدي كما عاشت مع والدتها. أصغت، ابتسمت بطريقة متوترة، رفعت أنفها في الهواء وحافظت على سرية خططها. بعد بضع دقائق وصلنا إلى شقّة والدي وأدركت أني لم أكن أحمل مفتاحي. أنا نسيته غالبًا، لكني لم أرغب برن الجرس – في حال كان نائمًا، عارفة أن عليه أن ينهض باكرًا – لذا قد أنزلها من المدخل الجانبي وأدع نفسي في المطبخ الخلفي، الذي كان عادة مفتوحًا. لكن في تلك اللحظة كنت أنهي اللفافة ولم أرغب أن أغامر بأن يراني والدي – كنا مؤخرًا قد وعدنا بعضنا البعض بأن نتوقف عن التدخين. لذا أرسلت تريسي. بعد دقيقة عادت

وقالت إن باب المطبخ مقفل ومن الأفضل أن نذهب إلى بيتها.

اليوم التالي كان يوم سبت. غادرت تريسي باكرًا إلى الحفلة النهارية، لكني لم أعمل أيام السّبت. عدت إلى شقة والدي وأمضيت الأصيل معه. لم أر الرسالة ذلك اليوم ولو أنها ربما كانت على الحصيرة. وجدتها صباح يوم الأحد: كانت مدفوعة عبر بابي وموجهة لي، مكتوبة بخط اليد، وبقعة طعام صغيرة على زاوية الصّفحة، وأظن أنها آخر رسالة مكتوبة شخصيًا بحق تلقيتها في حياتي، لأنه حتى ولو أن تريسي لم تملك كمبيوتر، ليس في ذلك الحين، كانت الثورة تحدث من حولنا وبسرعة كافية الورقة الوحيدة التي وجهت إليّ كانت تأتي من البنوك، شركة الكهرباء، أو الحكومة، وفيها نافذة صغيرة بلاستيكية لتخطرني بالمحتويات. جاءت هذه الرسالة دون تحذير – لم أكن قد رأيت خط تريسي منذ سنوات – وفتحتها وأنا جالسة إلى طاولة والدي ووالدي جالس أمامي.

سأل: «ممن تلك إذن؟» ولبضعة أسطر كنت لا أزال لم أعرف أنا نفسي. بعد دقيقتين كان السّؤال الوحيد الذي ظل فيما إذا كانت حقيقة أم خياليّة. كان عليه أن يكون خيالًا: لأصدق بخلاف ذلك كان أن أجعل كل شيء في حياتي الراهنة مستحيلًا بالإضافة إلى تدمير الكثير من الحياة التي عشتها حتى هذه اللحظة. كان أن أسمح لتريسي أن تضع قنبلة تحتي وتفجرني إلى أشلاء. قرأتها ثانية لأتيقن من أني فهمت. تبدأ بالتحدث عن واجبها وعن كونه واجبًا رهيبًا، وأنها سألت وسألت نفسها («سألت» تهجّتها خطأ) ماذا تفعل وشعرت أنها لا تملك خيارًا («خيار» تهجّتها خطأ). وصفت ليلة الجمعة كما تذكرتها أنا أيضًا: نسير على الشّارع إلى شقة والدي، ندخن لفافة، حتى النقطة حيث نزلت إلى المدخل الجانبي لتدخل من باب المطبخ ولم تنجح. لكن هنا

انقسم تسلسل الأحداث، في واقعها وواقعي، أو خيالها - على حدّ علمي - وحقيقتي. في نسختها دارت من خلف شقة والدي، وقفت في الباحة الصغيرة المفروشة بالحصى، من ثم، لأن المطبخ بدا مقفلًا، سارت خطوتين إلى اليسار ودست أنفها في النافذة الخلفية، إلى نافذة غرفة نوم والدي، الغرفة التي نمت فيها، كوبت يديها على الزجاج ونظرت. وهناك رأت والدي، عاريًا يعتلي شيئًا ما، يتحرك صعودًا ونزولًا، وأولًا فكرت بطبيعة الحال أنها امرأة، وإذا ما كانت امرأة، أو هكذا أقنعتني، ثم سوف لن تذكرها ثانية أبدًا، لم يكن شأنها أو شأني، لكن الحقيقة أنها لم تكن امرأة على الإطلاق، كانت دمية بحجم إنسان، لكن منفوخة ولون بشرتها غامق للغاية - كتبت: مثل «دمية سوداء بشعة»، مع هلال من شعر اصطناعي من صوف الغنم وزوج ضخم من شفتين حمراوين فاقعتين، حمراوين كالدم.

سأل والدي عبر الطاولة عندما أمسكت تلك الرسالة الشّنيعة الفاجعة السّخيفة المأسوية الهزلية تهتز في يدي: «هل أنت بخير، حبيبتي؟». قلت إني بخير، أخذت رسالة تريسي إلى الباحة الخلفية وأخرجت ولاعة سجائر وأحرقتها.

الفصل السّابع

الأيّام الأخيرة

✧ واحد ✧

لم تقع عيني على تريسي مجددًا طوال ثمانِ سنوات. كانت أمسية من شهر أيار دافئة على غير العادة، ليلة خرجتُ بصحبة دانيل كرامر للمرة الأولى. جاء إلى المدينة في زيارات ربع سنوية وكان واحدًا من الأشخاص الأثيرين عندي إيمي، بمعنى أنه لم يدمج كليًا بحكم كونه وسيمًا مع جميع المحاسبين الآخرين والمرشدين الماليين ومحامي حقوق النشر الذين استشارتهم بانتظام، وهكذا في عقلها، كانت وهبت أمورًا مثل اسم، صفات، من قبيل «هالة جيدة» و«حسّ نيويورك بالدعابة»، وبعض التفاصيل المتعلقة بالسّيرة التي تمكّنت من تذكّرها. في الأصل من كوينز. ارتاد مدرسة ستايفيسنت. يلعب التنس. في محاولة لإبقاء الترتيبات فضفاضة قدر الإمكان اقترحت عليه الذّهاب إلى سوهو ونترك القرار للظروف، لكن إيمي أرادت منا أن نأتي أولًا إلى المنزل لنحتسي شرابًا. لم يكن شائعًا على الإطلاق هذا النّوع من الدعوات الحميمة الطارئة، لكن كرامر لم يبدُ متفاجئًا أو مروّعًا لقبولها. انقضت الدقائق العشرون التي مُنحت لنا دون أن يتصرّف كرامر كأنّه زبون. عبّر عن إعجابه بالفن – دون مبالغة – مصغيًا بتهذيب عندما رددت إيمي جميع الأمور التي قالها التّاجر الذي باعها الأعمال الفنية عن الفن عندما اشترتها، وسريعًا بما فيه الكفاية تحررنا من إيمي، من الفخامة الطاغية لذلك المنزل، نثب على الدّرج الخلفي دائخين قليلًا من الشّمبانيا الجيدة

ونخرج إلى طريق برومبتون رود، نحو الليل الخانق، الرطب الحار المهدّد بعاصفة. أراد أن يسلك الدّرب الطويل نحو البلدة – حملنا خُططًا ملتبسة لنرى ما يعرض في سينما كورزون – لكني لم أكن سائحة، وتلك كانت أيام شبابي وخبرتي الضئيلة بالأحذية ذات الكعب العالي. كنت على وشك البحث عن سيارة أجرة عندما تنحّى رغبة «بالتسلية» عن الحاجز الحجري ولوّح لعربة ثلاثية العجلات عابرة.

قال ونحن نعتلي المقاعد المرقّطة: «هي تجمع الكثير من الفن الأفريقي»، كان فقط يجري محادثة، لكني قاطعته على أهبة الاستعداد لأي إشارة على أنّه زبون: «حسنًا، أنا لا أعرف حقًا ما يمكن أن تعني بفن أفريقي». بدا متفاجئًا بنبرتي لكنه استطاع رسم ابتسامة محايدة. اعتمد على عمل إيمي وكنت امتدادًا لإيمي.

بدأت بنبرة مناسبة أكثر لقاعة محاضرات: «معظم ما رأيته هو في الواقع من أعمال النحاتة أوغستا سافاج. أي هارلم. حيث عاشت عندما جاءت إلى نيويورك – أعني إيمي. بالتأكيد، إنها داعم عظيم للفن عمومًا».

الآن بدا كرامر سئمًا. أنا نفسي كنت سئمة. لم نتحدّث ثانية إلى أن توقفت العربة عند تقاطع جادة شافتيسبوري وشارع جريك. عندما توقفنا عند الحاجز تفاجأنا بوجود فتى بنغالي الذي كنا قد نسينا كليًا واقعه المستقل حتى تلك اللحظة، لكنه هو بلا شك من قطع بنا كل تلك المسافة والآن التفت على مقعد دراجته ووجهه منقوع بالعرق، بالكاد قادر على الشّرح من خلال اللهاث كم يكلف هذا الشّكل من الكدح البشري بالدقيقة.

لم نجد في السّينما ما قد نرغب بمشاهدته. في مزاج متوتر بعض الشّيء، تلتصق ملابسنا بنا في الحر، تجولنا نحو ساحة البيكاديلي

سيركس، دون أن نعرف إلى أي بار كنا ذاهبين، أو فيما إذا كان علينا أن نأكل بدلًا من ذلك، كلانا الآن اعتبر أن الأمسية فشلت. ننظر أمامنا، وتقابلنا برامج الحفلات المسرحية الضّخمة كلّما سرنا بضع خطوات. أمام إحدى تلك البرامج، عندما تابعنا سيرنا، توقّفتُ بلا حراك. إنّه عرض للمسرحية الموسيقية شو بوت، المسرح العائم، لقطة من جوقة الزنوج: مناديل للرأس، سراويل مطوية نحو للأعلى، مرابيل وتنانير عمل، لكن كلها منجزة بذوق سليم، بعناية، «على نحو أصيل»، دون ما يشير فيها إلى مامي أو إلى العم بِن. والفتاة الأقرب إلى آلة التصوير، فمها مفتوح على اتساعه وهي تغني، وذراع ممتدة عاليًا فوق رأسها، تمسك بمكنسة – صورة فرح مفعم بالحياة – كانت تريسي. جاء كرامر من خلفي لينظر من فوق كتفي. أشرت بإصبع نحو أنف تريسي المرفوع، كما اعتادت تريسي أن تشير إلى وجه راقصة عندما عبرت شاشاتنا.

«أعرفها!»

«أوه، نعم؟»

«أعرفها جيدًا».

أخرج سيجارة من علبة السّجائر، أشعلها وأجال نظره في المسرح جيئة وذهابًا.

«حسنًا... تريدين الذهاب لرؤيته؟»

«لكنك لا تحب الأفلام الموسيقية، أليس كذلك؟ الشّخص الجادّ لا يفعل ذلك».

تململ قائلًا: «أنا في لندن، إنه عرض. هذا ما يفترض أن تفعله في لندن، أليس كذلك؟ تذهب وتشاهد عرضًا؟»

مرر لي سيجارته، دفع فاتحًا الأبواب الثّقيلة وتوجّه إلى شبّاك التّذاكر. على حين غرّة بدا كل شيء غاية في الرومانسية ومتطابقًا وحسن

التوقيت وجرت رواية طائشة سخيفة في رأسي عن لحظة مستقبلية سوف أشرح فيها لتريسي – في الكواليس في مكان ما في مسرح محلي حزين، وهي ترتدي جوارب تشبه شباك الصّيد قديمة مهترئة – أنه في اللحظة ذاتها التي أدركت فيها أني التقيت بحبي، اللحظة التي بلغت فيها سعادتي الحقيقية، كانت اللحظة نفسها التي صادف أني لمحتها، بمحض الصدفة تمامًا، في ذلك الدّور الصغير للغاية الذي أدته سابقًا، في جوقة المسرح العائم، كل تلك السّنوات التي انقضت...

خرج كرامر ومعه تذكرتين، مقعدين عظيمين في الصّف الثاني. بدلًا من عشاء اشتريت كيسًا كبيرًا من الشّوكولا، من النّوع الذي نادرًا ما أكلته، إيمي تعتبر مثل هذه الأشياء ليست فقط قاتلة غذائيًا لكن دليلًا واضحًا على ضعف أخلاقي. اشترى كرامر كأسين بلاستيكيين كبيرين من نبيذ أحمر رديء. فتشت عبر البرنامج لكني لم أتمكّن من العثور على تريسي. لم تكن حيث يجب أن تكون في قائمة طاقم العمل المرتبة بحسب الأحرف الأبجدية، وبدأت أقلق من أني كنت أعاني نوعًا من الوهم، أو ارتكبت خطأ محرجًا. قلبت الصّفحات جيئة وذهابًا، يتفصد العرق على جبهتي – لابد أني بدوت مجنونة.

سأل كرامر: «هل أنت بخير؟». كنت تقريبًا في نهاية البرنامج ثانية عندما ضغط كرامر إصبعًا على صفحة ليوقفني عن قلبها.

«لكن أليست تلك فتاتك؟»

نظرت ثانية: كانت هي. قد غيّرت اسمها الأخير الوحشي الذي يبدو عاديًا – الاسم الذي عرفتها به دومًا – جعلته فرنسيًا، لو روي، وسخيفًا بالنسبة لي. عدّل اسمها الأول أيضًا: الآن كان تراسي. وفي الصّورة كان شعرها سبطًا ولماعًا. ضحكت عاليًا. نظر كرامر إليّ بفضول.

«وأنتما صديقتان جيدتان؟»

«أعرفها جيدًا. أعني، لم أرها خلال ثمان سنوات تقريبًا».

قطّب كرامر: «أرى، في عالم الذكور نسمّي ذلك صديق سابق، أو أفضل: غريب».

انطلقت الأوركسترا. كنت أقرأ سيرة تريسي، أحللها باهتياج، في سباق مع الزمن قبل أن تطفأ أضواء المسرح، كما لو أن الكلمات المرئية كانت تخفي مجموعة أخرى، مع معنى أعمق بكثير تطلّب فك الشّيفرة وسوف يكشف شيئًا أساسيًا حول تريسي وكيف هي حياتها الآن:

تراسي لو روي

جوقة/ راقصة داهومي

شاركت في أعمال مسرحيّة تشمل:

جايز آند دولز (مسرح ويلنجتون)،

استعراض الفصح (جولة المملكة المتحدة)،

جريز (جولة المملكة المتحدة)، فيم! (المسرح الوطني الأسكتلندي)، آنيتا، ويست سايد ستوري (ورشة)

إذا كانت هذه قصة حياتها فقد كانت مخيبة. افتقرت إلى الإنجازات الشّائعة في كل السّير الأخرى: ما من دور تلفزيوني، ما من فيلم، وما من ذكر للمكان الذي «تدربت» فيه، ما اعتبرته أنها لم تتخرج أبدًا. بغض النظر عن «جايز آند دولز»، لم يكن هناك عمل آخر في ويست إند، فقط تلك «الجولات» التي تبدو مُقبضة. تخيلت قاعات كنيسة صغيرة ومدارس شغبة، حفلات نهارية فارغة على منصات سينمات مهجورة، مهرجانات مسرحية محلية ثانوية. لكن إذا أمتعني جزء من كل هذا، جزء آخر، فهو أن هذه السيرة لتريسي لو روي قد تكون قيد المقارنة – تحت عينَي أي شخص من الأشخاص في المسرح

الذين يقرؤونها حاليًا، أو أيّ من الممثلين في الطاقم – مع أي من هذه القصص الأخرى. ما علاقة تراسي لو روي بهؤلاء الناس؟ بهذه الفتاة قربها في البرنامج، الفتاة ذات السيرة الذاتية اللانهائية، اميلي وولف برات، التي درست في الأكاديمية الملكية للفنون التمثيلية، والتي لم تستطع أن تعرف، كما فعلت، عدم الأرجحية الإحصائية الهائلة لوقوف صديقتي على هذه الخشبة، أو أي خشبة على الإطلاق – في أي دور، في أي سياق – ومن ربما كانت متهورة لتظن أن اميلي وولف برات، كانت صديقة حقيقية لتريسي، فقط لأنها رأتها كل ليلة، فقط لأنهما رقصتا معًا، بينما في الواقع هي لم تملك أدنى فكرة عمّن كانت تريسي، أو من أين جاءت، أو كم كلّفها الوصول إلى هنا. لفتُّ عنايتي نحو صورة تريسي. حسنًا، كان عليّ أن أعترف: تبين أنها جيدة إلى حدٍّ ما. أنفها لم يعد يبدو فظيعًا للغاية بعد الآن، كانت قد صار مناسبًا لها، والوحشية التي لمستها دومًا في وجهها حجبتها ابتسامة برودواي القويّة التي تشاركتها مع كل ممثل على الصّفحة. لم تكن المفاجأة من كونها جميلة، أو مثيرة – هي كانت سلفًا تمتلك هذه الصّفات كمراهقة فتية للغاية. كانت المفاجأة كم أصبحت أنيقة. غمّازتاها اللتان تشبهان غمازتي الممثلة شيرلي تيمبل قد اختفتا، جنبًا إلى جنب مع أي لمحة على البدانة المثيرة التي حملتها عندما كانت طفلة. كان يكاد يكون مستحيلًا أن أتخيل صوتها، كما عرفته وتذكّرته، منبعثًا من هذه المخلوقة المنمشة بشكل لطيف، ذات الشّعر الحريري والأنف الأنيق. ابتسمت لها. تراسي لو روي، من تتظاهرين بأنك تكونين الآن؟

قال كرامر عندما افتتحت الستارة: «ههنا ننطلق!». وضع مرفقيه على ركبتيه، يديه في قبضتين طفوليّين تحت ذقنه وصنع وجها ظريفًا: أنا متشوق.

يسار الخشبة، بلوط جنوبي، مكسو بالطحلب الأسباني، مقدمة على نحو جميل. يمين الخشبة، إيحاء ببلدة من بلدات المسيسيبي. وسط الخشبة، مسرح عائم في ميناء، زهر القطن. ظهرت تريسي مع أربع نساء أخريات أولًا على الخشبة، من خلف البلوط، تحمل مكنستها، وخلفها يأتي الرّجال مع مجارفهم المتعددة والرفوش. عزفت الأوركسترا الفواصل الافتتاحية لأغنية. تعرفت عليها حالما سمعتها، نمرة الكورس الكبير، وفي الحال شعرت بالذّعر دون أن أعرف السّبب، استغرق لحظة، إلى أن استحثت الموسيقى نفسها الذكرى. رأيت الأغنية بكاملها موضوعة على ورقة الموسيقى القديمة، وتذكرت أيضًا إحساسي أول مرة رأيتها. والآن الكلمات التي أجفلتني عندما كنت طفلة، تشكلت في فمي، في وقت مثالي مع مقدمة الأوركسترا، تذكرت المسيسيبي، حيث عمل «الزنوج» جميعًا، حيث البيض لم يعملوا، وتشبثت بسندة الذراع وشعرت بتوق للنهوض من مقعدي – كان مثل مشهد في حلم – مع فكرة إيقاف تريسي قبل أن تبدأ حتى، لكن حالما خطرت لي الفكرة كان الأوان قد فات، وفوق الكلمات التي ظننت أني عرفتها، استبدلت بكلمات جديدة، لكن بالتأكيد كان عليها أن تستبدل – لم يغنّ أحد الكلمات الأصلية سنوات وسنوات. «هنا جميعنا نعمل... هنا جميعنا نعمل...»

عدت وغرقت في المقعد. شاهدت تريسي تناور بمكنستها بإتقان هذا الاتجاه وذاك، مانحة إياها حياة، لذا بدت تقريبًا حضورًا بشريًا آخر على الخشبة، مثل الخدعة التي قام بها آستر، مع منصب القبعة ذاك في فيلم زفاف ملكي. عند حد معين تماشت على نحو مثالي مع الصّورة التي على الملصق، مكنسة في الهواء، ذراع ممدودة، فرح مفعم بالحياة. أردت أن أوقفها هناك في تلك الوضعية إلى الأبد.

وصل النجوم الحقيقيون إلى خشبة المسرح لتبدأ المسرحية. في الخلفية كنست تريسي الدّرج الأمامي لمخزن عام. كانت على الجهة اليسرى من الشّخصيات الأساسية، جولي لافين وزوجها المخلص ستيف، ممثلان في ملهى، عملا معًا لصالح المركب المسمى زهر القطن وهما عاشقان. لكن سرعان ما تبين قبل الفاصل تمامًا أن جولي لافين هي جولي دوزير، أي أنها ليست امرأة بيضاء البشرة، كما تظاهرت دومًا، بل خلاسية[42]، التي «تنجح» بإقناع الجميع بمن فيهم زوجها، حتى يوم افتضاح أمرها. عند هذه النقطة الزوجان مهددان بالسّجن، لأن زواجهما غير شرعي في ظل قوانين تمازج الأجناس. ستيف يجرح راحة يد جولي ويشرب قليلًا من دمها: «قاعدة القطرة الواحدة[43]» – هما الآن زنجيّان. في الضوء الشّاحب، في خضمّ هذه الميلودراما السّخيفة، تحققت من سيرة الممثلة التي تؤدي دور جولي. كان اسم عائلتها يونانيًا ولم تكن أكثر دكنة من كرامر. خلال الفاصل شربت الكثير، وبسرعة كبيرة، وتحدثت مع كرامر بقسوة. كنت أستند على البار أسدّ طريق الآخرين نحو طاقم عمل البار، ألوح بيدي وأتشدّق حول ظلم اختيار الممثلين، عن كيف كانت بضعة أدوار من أجل ممثلين مثلي، وحتى عندما وُجدَت مثل هذه الأدوار فلم يكن ممكنًا الحصول عليها، شخص ما دومًا أعطاها إلى فتاة بيضاء، لأنه حتى الخلاسي فيما يبدو لم يكن مناسبًا تمامًا للعب دور خلاسي حتى في هذا اليوم و...

«ممثلون مثلك؟»

«ماذا؟»

---

42) Tragic mulatto: هم الأشخاص المولدون الذين يُفترض أنّهم حُزانى لأنهم يُخفقون في الانسجام كليًا مع مجتمع البيض.

43) مبدأ اجتماعي وقانوني للتصنيف العنصري، برز تاريخيًا في الولايات المتحدة مؤكدًا أن أيّ شخص لديه سلف واحد من أصل أفريقي («قطرة واحدة» من الدم الأسود) يُعتبر أسود (زنجيًا من الناحية التاريخية).

«قلتِ: ممثلون مثلي».

«لا لم أفعل».

«نعم، فعلتِ».

«فكرتي هي: ذلك الدّور يجب أن يكون دور تريسي».

«أنتِ قلت للتو إنها لا تستطيع الغناء. مما رأيت، إنه دور غنائي إلى حد كبير».

«هي تجيد الغناء!»

«يا يسوع لماذا تصرخين علي؟»

جلسنا صامتين أثناء النّصف الثّاني حالنا في النّصف الأول، لكن هذه المرة كان للصّمت بنية جديدة، مبرّد بثلجية ازدراء متبادل. تشوّقت للخروج من هناك. مرت امتدادات طويلة من العرض دون أي إشارة إلى تريسي ولم تثر اهتمامي. فقط نحو النهاية عاود الكورس الظهور، هذه المرة على أنهم «راقصو داهومي»، أي أفارقة من مملكة داهومي، كان يفترض أنهم يؤدون في معرض شيكاغو العالمي عام 1893. شاهدت تريسي في حلقة من النّساء – رقص الرّجال قبالتها في حلقتهم – تؤرجح ذراعيها، تجثم منخفضة وتغني بلغة أفريقية متخيّلة، بينما خبط الرّجال بأقدامهم وقرعوا رماحهم ردًا: جونجا، هونجو، بونجا، جوبا! فكّرت بوالدتي، وبعبارتها من قصص داهومي: تاريخ الملوك الباعث على الفخر، شكل وملمس الأصداف الصّفراء المستعملة كنقود، فوج الأمازون المكون فقط من النّساء، يأخذن أسرى حرب كعبيد للمملكة، وإلا ببساطة يقطعون رؤوس أعدائهن ويرفعونها بأيديهن. كما يسمع أطفال آخرون حكاية ليلى والذئب والفتاة الشّقراء والدّببة الثّلاثة، سمعت عن «اسبرطة السّوداء» هذه، مملكة داهومي النبيلة، تقاتل لتقاوم الفرنسيين حتى النّهاية. لكن كان تقريبًا مستحيلًا أن توفّق بين

هذه الذكريات والمهزلة التي تجري حاليًا، على المسرح وخارجه، لأن معظم الناس الذين جلست بينهم لم يعرفوا ماذا يأتي تاليًا في العرض وأدركت أنهم شعروا بالنتيجة أنهم يشاهدون نوعًا من عرض موسيقي شائن وكانوا راغبين أن ينتهي المشهد. على المسرح أيضًا، تراجع «الجمهور» في المعرض العالمي عن راقصي داهومي، ولو أنه ليس ناجمًا عن شعور بالعار بل عن إحساسهم بالخوف، من أن هؤلاء الراقصين كانوا ربما أشرارًا، لا فرق عن بقية عشيرتهم، حرابهم ليست دعامات بل أسلحة. تطلعت نحو كرامر، كان يتلوّى. التفت وشاهدت تريسي. يا لها من تسلية عظيمة كانت تحظى بها من القلق العام، تمامًا كما استمتعت دومًا بمثل هذه اللحظات في طفولتها. لوّحت برمحها وهدرت، تمشي مع البقية نحو الجمهور الخائف في المعرض، من ثم ضحكت مع البقية عندما هرع جمهورهم عن المنصة. غادروا إلى أدواتهم، أطلق سراح راقصي داهومي: غنوا عن مدى سرورهم وتعبهم، سرورهم لرؤية مؤخرة الناس البيض، وتعبهم، تعبهم الشديد لكونهم في عرض داهومي.

والآن فهم الجمهور - الجمهور الحقيقي. رأوا أن ما يشاهدونه مقصود منه أن يكون مضحكًا، ساخرًا، وأن هؤلاء راقصون أميركيون، وليسوا أفارقة - نعم، أخيرًا استوعبوا أن خدعة انطلت عليهم. هؤلاء الناس لم يكونوا من داهومي على الإطلاق! كانوا فقط زنوجًا مسنين جيدين، في النهاية، مباشرة من الجادة أ، في مدينة نيويورك نفسها! قهقه كرامر، تحوّلت الموسيقى إلى الريغي تايم، وشعرت بقدمي تتحركان تحتي، أحاول أن أعيد على السّجادة الحمراء المخمليّة حركة جر القدمين المعقّدة بحذاء ذي نعل ناعم كانت تريسي تؤديها تمامًا فوقي على خشبة المسرح الصّلبة. بدت الخطوات مألوفة - قد تكون كذلك لأي راقص - وتمنيت لو أني معها هناك. كنت عالقة في لندن، في العام

2005، لكن تريسي كانت في شيكاغو عام 1893، وداهومي مئة عام قبل ذلك، وفي أي مكان وزمان حرك الناس أقدامهم بتلك الطريقة. كنت أشعر بغيرة شديدة فبكيت. انتهى العرض، خرجت من الطابور الطويل للسيدات ووقعت عيني على كرامر قبل أن يراني، كان واقفًا في البهو، سئمًا وغاضبًا، يحمل معطفي على ذراعه. في الخارج كانت قد بدأت تمطر بغزارة.

قال وهو يمرّر لي معطفي بالكاد قادر على النظر إلي: «إذن، أنا سأذهب، أنا واثق من أنك قد ترغبين بالذهاب لإلقاء التحية على صديقتك». قلب ياقته نحو الأعلى ودخل في ذلك المساء الرهيب، دون مظلّة ولا يزال غاضبًا. لا شيء يهين الرجل أكثر من أن يتم تجاهله. لكني كنت متأثرة: كان نفوره مني بوضوح شديد أقوى من خوفي من سلطتي على ربة عمله. ما إن أصبح خارج مدى الرؤية مشيت إلى جانب المسرح ووجدت أنه تمامًا كما تراه دومًا في الأفلام القديمة: كتب على الباب باب الخشبة وكان هناك حشد معقول من الناس ينتظرون خروج طاقم العمل، رغم المطر، يتشبثون بأقلامهم وكراريسهم.

دون مظلة، ضغطت نفسي إزاء الجدار، وجهي للخارج، فقط مغطاة بظلة ضيقة. لم أعرف ما خططت لقوله أو كيف سأفاتحها، لكني بدأت فقط بالتفكير بالأمر عندما توقفت سيارة في الزقاق، تقودها والدة تريسي. كانت بالكاد قد تغيرت: عبر الحاجب الزجاجي المضروب بالمطر تمكنت من رؤية أطواق الصّفيح نفسها في أذنيها، الذّقن الثلاثية، شعر مكشوط إلى الخلف بشدة، سيجارة تتدلى من فمها. التفت في الحال نحو الجدار وعندما ركنت، هربت. هرعت على جادة شافتيسبوري أتبلل، أفكر بما رأيته في مؤخرة تلك السّيارة: طفلين نائمين مربوطين إلى مقعديهما. تساءلت فيما إذا كان هذا ولا

شيء آخر، السّبب الحقيقي الذي جعل من قصة حياة تريسي تستغرق القليل من الوقت لقراءتها.

✧ اثنان ✧

عليك أن تصدّق أن هناك حدودًا لما يمكن للمال تحقيقه وهي خطوط لا يمكنه تجاوزها. بدا لامين في تلك البدلة البيضاء في صالة رينبو روم أشبه بمثال على العبرة المقابلة. لكن في الواقع هو لم يملك تأشيرة دخول، ليس بعد. امتلك جواز سفر جديد وموعدًا للعودة. وعندما يحين وقت المغادرة كان مزمعًا أن أرافقه إلى القرية، برفقة فِرن وأبقى أسبوعًا لأكمل التقرير السّنوي لمجلس المؤسسة. بعده سيظل فِرن وسوف أطير إلى لندن، لألتقي الطفلين وأشرف على زيارتهما الربع سنوية إلى أبويهما. هذا ما أعلمتنا به جودي. حتى ذلك الحين، شهر معًا في نيويورك.

خلال العقد الماضي، كلما كنّا في المدينة، كانت قاعدتي غرفة الخادمة في الطّابق الأرضي إلى جانب المطبخ، على الرغم من أن نقاشًا تعوزه الحماسة سوف يجري أحيانًا حول إمكانية الإقامة في مكان منفصل – فندق، إيجار في مكان ما – لم يفضِ أبدًا إلى أي شيء، وسرعان ما كان منسيًا. لكن هذه المرة استأجرت شقة من أجلي حتى قبل وصولي، مؤلفة من غرفتي نوم في ويست الشّارع العاشر، سقوف عالية، مواقد، الطابق الثاني بكامله من مبنى جميل من الحجر البني.

أقامت ايما لازاروس[44] هنا سابقًا: أحيت لويحة زرقاء تحت نافذتي ذكرى جماهيرها المحتشدة، التواقة للتنفس بحرية. كانت تطل على شجرة قرانيا حمراء وردية في إزهار تام. حسبت خطأ أن هذا كله ترقية. ثم ظهر لامين وفهمت بأني نقلت كي يتمكن من الإقامة معها.

سألتني جودي صباح اليوم التّالي لحفلة عيد ميلاد جاي: «ما الذي يجري معك بالضّبط؟». دون مقدمات، فقط صراخها الحاد قادم نحوي عبر هاتفي وأنا أحاول أن أخبر العامل في دكان البقالة في ميرسير، ألا يضع التفاحة في العصير الأخضر. «هل تجادلت مع فرناندو؟ لأننا فقط لا نستطيع أن نستقبله في المنزل الآن – ليس هناك غرفة له في النّزل. النزل ممتلئ عن آخره، كما لاحظتِ ربما. يرغب عاشقانا أن يختليا بنفسيهما. كان يفترض أن يقيم معك بضعة أسابيع، في الشّقة، كل شيء كان مقررًا – الآن فجأة هو يرفض».

«حسنًا، ما كنت سأعرف أي شيء حول ذلك. لأن أحدًا لم يخبرني. جودي، حتى أنك لم تذكري لي أن فرن كان قادمًا إلى نيويورك!»

أطلقت جودي صوتًا ينمّ عن نفاد الصّبر: «انظري، كان أمرًا إيمي طلبت مني معالجته. كان له علاقة باصطحاب لامين إلى هنا، هي لم ترغب أن يخرج إلى العلن... كان دقيقًا، وقد عالجته».

«هل تعالجين أمر مع من أقيم الآن أيضًا؟»

«أوه حبيبتي، أنا آسفة – هل تدفعين إيجارًا؟»

تمكنت من التخلص منها على الهاتف واتصلت بفرن. كان في

---

44) Emma Lazarus هي شاعرة أمريكية يهودية، من روّاد الحركة الأدبية الأمريكية في القرن التاسع عشر. اشتهرت بقصائدها ومؤلفاتها الأدبية الرفيعة التي نالت استحسان معاصريها من النقاد والأدباء، غير أن أشهر أعمالها هي قصيدة التمثال الجديد (The New Colousses) والتي ألفتها عام 1883 في إطار جهود جمع التبرعات لبناء قاعدة تمثال الحرية. في عام 1903 – أي بعد 20 عامًا من كتابة هذه القصيدة و16 عاما من وفاتها – حُفرت كلماتها على لوح من البرونز لتوضع في مدخل قاعدة التّمثال. توفيت عن عمر يناهز 38 عامًا فقط ويرجّح أن يكون ذلك بسبب إصابتها بالسرطان.

سيارة أجرة في مكان ما على طريق الويست سايد السّريع. استطعت سماع صافرة الضّباب من محطة لرسو السّفن السياحية.

«من الأفضل أن أجد مكانًا آخر. نعم، إنه أفضل. هذا الأصيل نظرت إلى مكان في...» سمعت الأوراق تقلّب بحزن. «حسنًا، لا يهم. وسط مكان ما».

«فرن، أنت لا تعرف هذه المدينة – ولا ترغب أن تدفع إيجارًا هنا، صدقني. خذ الغرفة. سوف أشعر بالسوء حول الأمر إن لم تفعل. سأكون عند إيمي ليل نهار – هي ستقدم ذلك العرض خلال أسبوعين، سوف نكون منشغلين للغاية. أعدك – لن تراني إلا بالكاد».

أغلق نافذة، توقفت رياح النهر عن الدّخول. كان الهدوء حميمًا على نحو غير مساعد.

«أحب أن أراكِ».

«أوه فرن... من فضلك فقط خذ الغرفة!»

تلك الأمسية كانت الإشارة الوحيدة عليه فنجان قهوة فارغ في المطبخ وحقيبة ظهر طويلة من الخيش – النّوع الذي يحزمه طالب من أجل عطلة لمدة سنة – مسندة إلى إطار باب غرفته الفارغة. عندما صعد درجات العبّارة وهذه الحقيبة الوحيدة على ظهره، بدا أن بساطة فرن، اقتصاده، فيهما شيء نبيل، كنت قد طمحت إليه، لكن هنا في جرينتش فيليج صدمتني فكرة رجل في الخامسة والأربعين من عمره مع حقيبة ظهر وحيدة على أنها حزينة وغريبة وحسب. عرفت أنه اجتاز ليبيريا، وحيدًا وسيرًا على الأقدام، في عمر الرابعة والعشرين – كان تقديرًا للكاتب جراهام جرين من نوع ما – لكن الآن كل ما تمكنت من التفكير فيه كان: يا أخي، هذه المدينة سوف تأكلك حيًا. كتبت رسالة ترحيب لطيفة ومحايدة وعلّقتها تحت أربطة حقيبته وذهبت إلى النّوم.

كنت محقّة حول رؤيته بالكاد: انبغى عليّ أن أكون عند إيمي السّاعة الثامنة من كل صباح (هي استيقظت يوميًا عند الخامسة، لتتمرن ساعتين في القبو متبوعة بساعة من التأمل) وفرن نام دومًا – أو تظاهر بأنه نائم. كان كل شيء في منزل إيمي مخطّطًا على نحو مسعور، تدريب، قلق: كان العرض الجديد في مكان متوسط الحجم، كان مزمعًا أن تغني مباشرة، مع فرقة تعزف مباشرة، أمور لم تفعلها منذ سنوات. كي أبقى بعيدة عن خط النار، الانهيارات، الجدالات، بقيت قدر المستطاع في المكتب وتجاوزت التمرينات كلما استطعت إلى ذلك سبيلا، لكني جمعت موضوعًا غرب أفريقيا من نوع ما كان يحضر له. أرسلت مجموعة من طبول الأتومبان إلى المنزل، وآلة كورا طويلة العنق، أقمشة كينتي، وذات صباح يوم ثلاثاء فرقة من اثني عشر راقصًا، أفارقة من بروكلن أرشدوا إلى استديو القبو ولم يخرجوا إلى ما بعد العشاء. كانوا شبانًا، غالبًا سنغاليين من الجيل الثاني، وكان لامين مفتونًا بهم: أراد معرفة ألقابهم وقرى أهاليهم، يتصيّد أي اتصال ممكن بالعائلة أو المكان. وكانت إيمي ملتصقة بلامين: لم يكن ممكنًا أن تتحدث معها بمفردها بعد الآن، كان هناك طوال الوقت. لكن أي لامين كان؟ فكرت أنه مثير للغاية ومضحك أن تخبرني أنه لا يزال يصلي خمس مرات يوميًا، في خزانة ملابسها الكبيرة، التي كانت على ما يبدو تتجه نحو القبلة. شخصيًا أردت أن أصدّق بهذه الاستمرارية، بهذا الجزء منه الذي لا يزال بعيدًا عن متناولها، لكن مرّت أيام لم أتعرف إليه فيها إلا بالكاد. ذات أصيل جلبت صينية عليها مياه جوز الهند إلى الاستديو ووجدته، في قميصه الأبيض وبنطاله الأبيض الواسع، يؤدي حركة تعرفتها من الكانكورانج، تركيبة من خبطة جانبية، خطوة متثاقلة، وانحناءة. إيمي والفتيات الأخريات راقبنه بعناية وكررن الحركات. كنّ يتعرقن، يرتدين

كنزات تكشف عن البطن وملابس لاصقة خاصّة بالرّقص مفتوقة، وكنّ مضغوطات بإحكام شديد نحوه ونحو بعضهن البعض حتى أن كل حركة قام بها بدت مثل موجة واحدة تسري عبر خمسة أجساد. لكن كانت الإيماءة التي لا يمكن التعرف عليها بصدق عندما جرف زجاجة من ماء جوز الهند من صينيتي دون أن يقول شكرًا لك، دون العرفان المبهم – كنت لتظن أنه كان يتناول المشروبات عن صواني الخادمات المتذبذبة كل يوم من أيام حياته. ربما الترف هو المصفوفة الأسهل عبورها. ربما لا يوجد شيء يمكنك الاعتياد عليه بسهولة أكثر من المال. ولو أنه مرّت أوقات رأيت فيها خصلة مسكونة كما لو أنه كان مطاردًا من شيء ما. متجولة نحو غرفة الطعام في نهاية زيارته، وجدته لا يزال إلى طاولة الفطور، يتحدّث مع جرانجر، الذي بدا ضجرًا للغاية، كما لو أنه كان جالسًا هناك منذ وقت طويل. جلست معهما. كانت عينا لامين مثبتتين على مكان ما بين رأس جرانجر الحليق والجدار المقابل. كان يهمس مجددًا خطابًا محيرًا بنبرة رتيبة جرى مثل تعويذة: «والآن، نساؤنا يزرعن البصل في الأحواض اليمينية، من ثم البازلاء في الأحواض اليسارية، وإذا لم ترتو البازلاء كما ينبغي حينها عندما يأتين لحصاد الأرض بعد حوالي أسبوعين من الآن، سوف يكون هناك مشكلة، سوف يكون هناك تغضن برتقالي على الورقة، وإذا كان لها هذا التغضن، إذن حينها ستنتشر الآفة الزراعية من ثم سوف ينبشون ما بذر ويعيدون زراعة الأحواض حريصات كما آمل أن يضعوا طبقة من هذا التراب الغني الذي نجلبه من منبع النهر كما ترى عندما يذهب الرّجال إلى منبع النهر بعد حوالي أسبوع من الآن، عندما نسافر إلى هناك نحصل على تراب غني...»

كان جرانجر يقول بين كل جملة وأخرى: «آها، آها، آها».

ظهر فرن على نحو متقطّع في حيواتنا، في اجتماعات المجلس أو عندما طلبت إيمي منه الحضور ليتعامل مع مشاكل عملية متعلّقة بالمدرسة. بدا متألمًا في كل الأوقات – مجفلًا جسديًّا كلما تلاقت أعيننا – وأعلن عن بؤسه أينما ذهب، مثل رجل في مجلة هزلية وفوق رأسه سحابة سوداء. أمام إيمي وبقية المجلس قدم تحديثًا متشائمًا، مركزًا على تصريحات الرئيس العدائية الحالية المتعلقة بوجود الأجانب في البلاد. لم أسمعه يومًا يتحدّث بتلك الطريقة من قبل، بطريقة جبرية للغاية، لم تكن حقًا في شخصيته وعرفت أني كنت الهدف الحقيقي المنحرف لانتقاده.

ذلك الأصيل في الشّقة، بدلًا من الاختفاء في غرفتي كالعادة، واجهته في القاعة. كان قد عاد للتو من الجري، يتعرق، مقوّس الظهر، ويديه على ركبتيه، يتنفس بصعوبة، يرفع بصره نحوي من تحت حاجبين سميكين. كنت متعقّلة للغاية. هو لم يتحدث لكن بدا أنه يفهم كل شيء. دون نظارته بدت عيناه ضخمتين، مثل عيني طفل في الرسوم المتحركة. عندما انتهى كلامي استقام وانحنى في الاتجاه المعاكس، يدفع ظهره الصّغير إلى الأمام بيديه.

«حسنًا، أنا أعتذر إذا أحرجتك. أنت محقة: لم يكن تصرّفًا مهنيًّا».

«فِرن – ألا يمكن أن نكون صديقين؟»

«بالتأكيد. لكن أنت أيضًا تريدين مني أن أقول: أنا سعيد لأننا صديقين؟»

«لا أريدك أن تكون تعيسًا».

«لكن هذا ليس واحدًا من أفلامك الموسيقية. الحقيقة هي أني حزين للغاية. أردت شيئًا – أردتك – ولم أحصل على الإطلاق على ما

أردت، أو على ما أملت والآن أنا حزين. سوف أتجاوزه، أفترض ذلك، لكن الآن أنا حزين. هل هو حسن بالنسبة لي أن أكون حزينًا؟ نعم؟ حسنًا. الآن أنا أستحم».

كان صعبًا للغاية بالنسبة لي في ذلك الحين أن أفهم شخصًا تحدّث بتلك الطريقة. كان غريبًا في نظري، كفكرة – لم أكن قد نشأت بتلك الطريقة. أي رد يتوقعه مثل هذا الرجل – النموذج الذي يتخلى عن كل قوة – ربما من امرأة مثلي؟

لم أذهب إلى العرض، لم أتمكّن من مواجهته. لم أرغب بالوقوف على المدرجات المكشوفة مع فرن، أشعر باستيائه وهو يشاهد نسخًا مسليّة من الرّقصات التي رأيناها معًا في مصدرها. قلت لإيمي إنني سأذهب ونويت الذّهاب، لكن عند السّاعة الثامنة كنت لا أزال في منزلي أتعرق، استلقي نصف مسنودة في سريري وكمبيوتري المحمول على حِقوي، من ثم حلت السّاعة التاسعة، من ثم العاشرة. قطعًا كان عليّ الذهاب – ظل عقلي يردد هذه الحقيقة لي وكنت في وفاق معه – لكن جسدي تجمّد، بدا ثقيلًا وغير قابل للحركة. نعم، يجب عليّ الذهاب، ذلك كان واضحًا، وتمامًا بالوضوح نفسه كانت واقعة أني لست ذاهبة إلى أي مكان. فتحت موقع يوتيوب، تنقّلت من راقص إلى راقص: بوجانجلز على الدّرج، هارولد وفايارد على بيانو، جيني لوجون في تنورتها المصنوعة من العشب المهسهس، مايكل جاكسن في موتاون 25. أنا غالبًا انتهيت عند هذه الأغنية المصوّرة لجاكسن، على الرغم من أنه هذه المرة عندما مشى مشية القمر على الخشبة، الأمر الذي أثارني حقًا لم تكن صرخات الحشد المنتشية أو حتى الرشاقة السّريالية لحركاته، لكن قصر سرواله.

ومع ذلك لم يبد خيار الذهاب مفقودًا أو موصدًا تمامًا، إلى أن

رفعت بصري من تصفحي العشوائي ووجدت أن السّاعة الحادية عشرة وخمس وأربعون دقيقة، ما أفادني أننا كنا الآن في الزمن الماضي الذي لا جدال فيه: لم أذهب. أجريت بحثًا عن إيمي، عن المكان، عن فرقة رقص بروكلن، بحثًا بالصّورة، بحثًا في أخبار وكالة آسوشييتيد برس، بحثت في المدونات. في البداية ببساطة من إحساس بالذنب، لكن سريعًا بما فيه الكفاية مع إدراك أني قد أبني من جديد – 140 شخصية مرة واحدة، صورة صورة، منشورًا تلو منشور – تجربة وجودي هناك، إلى أن عند الساعة الواحدة صباحًا، لا أحد يمكن أن يكون هناك أكثر مني. كنت هناك أكثر من النّاس الذين كانوا بالفعل، كانوا مقيدين إلى مكان واحد ومنظور واحد – إلى تيّار زمني واحد – في حين كنت في كل مكان في تلك الغرفة في كلّ اللحظات، أشاهد الحدث من كل الزّوايا، في عمل ضخم من المطابقة. كان في وسعي أن أتوقّف هناك – امتلكت ما هو أكثر من كافٍ لأقدم رواية مفصّلة عن أمسيتي لإيمي في الصّباح – لكني لم أتوقف. العملية أرغمتني على المتابعة. أن أراقب النّقاشات في الوقت الحالي أثناء تشكّلها واندماجها، أن أشاهد الإجماع المتطور، أهم الأحداث أو الارتباكات التي كشف عنها، معانيها والرسالة الكامنة المقبولة أو المرفوضة. الإهانات والنّكات، الثّرثرة أو الشّائعات، الميمات[45]، الفوتوشوب، المرشّحات، وكل التّنويعات الكثيرة من النّقد التي يطلق لها العَنان هنا، بعيدًا عن متناول إيمي أو سيطرتها. في وقت مبكّر من هذا الأسبوع، أشاهد جلسة تجريب للزي – الذي كانت فيه إيمي، جاي

---

45) Meme: هو مصطلح يستخدم لوصف شعار أو فكرة تنتشر بسرعة من شخص إلى آخر من خلال شبكة الإنترنت، ويستند المصطلح إلى مفهوم الميمة على الرغم من أن هذا المفهوم يشير إلى فئة أوسع بكثير من المعلومات الثقافية. يمكن اعتبار الميم ثيمة، تشمل العبارات البسيطة أو الإيماءات. قد يكون ميم الإنترنت على شكل صورة، رابط تشعبّي، فيديو، صور، موقع. أو مجرّد كلمة أو عبارة. صاغ كلمة «ميم» ريتشارد دوكنز في كتابه 1976 الجين الأناني، بأنها محاولة لشرح طريقة نشر المعلومات الثقافية.

وكارا يتأنقان ليشبهان نبلاء شعب الأشانتي - كنت قد طرحت بتردد مسألة الاستيلاء. تأوّهت جودي، نظرت إيمي نحوي من ثم نحو هيئتها الشّاحبة كالشبح الأشبه بجنيّة والملتحفة بطبقات كثيرة من القماش الملون بحيوية وقالت لي إنها فنانة، ويجب أن يكون مسموحًا للفنانين أن يحبوا الأشياء، أن يمسوها ويستخدموها، لأن الفن ليس استملاكًا، ذلك لم يكن هدف الفن - هدف الفن هو الحب. وعندما سألتها فيما إذا كان ممكنًا أن تحب شيئًا وتتركه وشأنه على حد سواء، نظرت إليّ بغرابة، جذبت طفليها إلى جسدها وسألت: «هل سبق أن أحببت؟»

لكن الآن شعرت بأني محميّة، محاطة افتراضيًّا. لا، لم أشعر برغبة في التوقّف. واصلت التحديث مرارًا أنتظر بلادًا جديدة لتستيقظ وترى الصّور وتشكل آراءها أو تتغذى على آراء معرب عنها سلفًا. في ساعات الصّباح الباكر سمعت صرير الباب الرئيس وفرن يتعثّر داخل الشّقة، بالتأكيد مباشرة من الحفلة بعد العرض. لم أتحرك. ولا بد أن السّاعة كانت حوالي الرابعة صباحًا، وفيما كنت أتصفح الآراء الطازجة وأصغي إلى زقزقة الطيور في شجرة القرانيا، رأيت اللقب «تريسي لوجون»، العنوان الفرعي «راوية الحقيقة». كانت عدستاي اللاصقتان هشّتين في عيني، آلمني أن أطرف، لكني لم أكن أرى أشياء. نقرت. كانت قد نشرت الصّورة نفسها التي كنت قد رأيتها مئات المرات عندئذٍ - إيمي، الراقصين، لامين، الأطفال - كلهم مصطفّون عند مقدمة الخشبة، يرتدون الأثواب المنقوشة برموز الادينكرا[46] التي رأيتهم يقيسونها: أزرق لازوردي غني مطبوع عليه أشكال مثلثات سوداء وفي كل مثلث كان هناك عين. كانت تريسي قد التقطت هذه الصّورة، وسّعتها مرات

46) Adinkra: الرموز البصرية التي تمثّل المفاهيم أو الأمثال. ويستخدم الادينكرا شعبُ الأشانتي في غانا على نطاق واسع في الأقمشة والفخاريات من قبل.

كثيرة، قصّتها، لذا فقط المثلث والعين لا يزالا ظاهرين، وتحت هذه الصّورة طرحت السّؤال: يبدو مألوفًا؟

ثلاثة

عائدة مع لامين، ركبنا الطّائرة النّفاثة، لكن دون إيمي التي كانت في باريس، وقد منحت ميدالية من الحكومة الفرنسية – وهكذا كان علينا أن نسير عبر المطار الرئيس، تمامًا مثل الجميع، لندخل قاعة وصول مزدحمة بأبناء وبنات عائدين. ارتدى الرّجال بناطيل جينز فاخرة من قماش الدّنيم الثقيل، قمصانًا منشّاة منقوشة لها ياقات سماسرة البورصة، وكنزات ذات قبّعات مدموغ عليها أسماء علاماتها التجارية، سُتَرًا جلدية، وأحدث الأحذية الخفيفة. وكانت النّساء بطريقة مماثلة مصممات على ارتداء أفضل ما يملكن من الملابس في الوقت نفسه. شعر مسرّح على نحو جميل، أظافر مطلية حديثًا. بخلافنا، كانوا متآلفين مع هذه القاعة، وسريعًا ضمنوا خدمات الحمّالين الذين ناولوهم حقائبهم الضخمة، منوّهين إياهم أن يعتنوا بها – ولو أن كل حقيبة كانت ملفوفة بطبقات من البلاستيك – قبل أن يتقدموا مرهقين ومثقلين بالحر عبر الحشود نحو المخرج، ملتفتين بين الحين والآخر لينبحوا بالتعليمات مثل متسلقي جبال مع مرشديهم من شعب الشّيربا (في نيبال). من هذا الطريق، هذا الطريق! هواتف ذكية رفعت فوق رؤوسهم تشير نحو الطريق. بالنظر إلى لامين في هذا السّياق، أدركت أن لباس سفره لابدّ أن تكون اختيارًا مقصودًا: على الرغم من جميع الملابس والخواتم والسّلاسل والأحذية التي قدمتها له

إيمي خلال الشّهر المنصرم، فقد كان يرتدي الملابس نفسها التي كان يرتديها لدى مغادرته. نفس القميص القديم الأبيض، البنطال القطني وصندلًا بسيطًا جلديًا أسود ومهترئًا عند الكعب. جعلني أفكر أن هناك أشياء حوله لم أفهمها – ربما أشياء كثيرة.

ركبنا سيارة أجرة وجلست مع لامين في المقعد الخلفي. كان للسيارة ثلاث نوافذ مكسورة وفجوة في العرية السفلية تمكنت خلالها من رؤية الطريق تتدحرج تحتنا. جلس فرن في المقدمة، قرب السّائق: كانت خطته الجديدة أن يبقي على مسافة باردة مني طوال الوقت. على متن الطائرة قرأ كتبه وصحفه، في المطار حصر نفسه بمسائل عملية، تناول تلك العربة، انضم إلى ذلك الطابور. هو لم يكن أبدًا وضيعًا، لم يقل أبدًا أي شيء فظ، لكن الأثر كان عازلًا. سألني الآن من خلال المرآة الخلفية: «تريدين أن تتوقفي لتناول الطعام؟ أو يمكنك الانتظار؟»

أردت أن أكون من الأشخاص الذين لا يمانعون تخطي الغداء، من يتمكّن من مواصلة المضي بحزم رغم صعوبة الأمر، كما فعل فِرن غالبًا، مكررًا عادة العائلات الفقيرة في القرية بتناول الطعام فقط مرة واحدة في الأصيل المتأخر. لكني لم أكن ذلك النّوع من الأشخاص: لم أتمكن من تفويت وجبة دون أن أتأزم. قدنا مسافة أربعين دقيقة وتوقّفنا عند مقهى جانب الطريق مقابل ما تدعى أكاديمية الكلية الأميركية. كان يوجد قضبان على نوافذها ونصف الأحرف مفقودة من اللافتة. داخل المقهى صوّرت قوائم الطعام وجبات لماعة أميركية الطّابع مع «البطاطا المقلية»، الأسعار التي قرأها لامين بصوت مرتفع، يهز رأسه بشكل خطير، كما لو يواجه شيئًا مدنسًا للغاية أو مهينًا، وبعد محادثة طويلة مع النادلة وصلت ثلاثة أطباق من دجاج الياسا (المطهو على الطريقة السّنغالية) بتعرفة «محلية» متفاوض عليها. كنا منكبين

على طعامنا، نأكل في صمت، عندما سمعنا صوت دوي قادم من مؤخرة المقهى: «فتاي لامين! أخي الصّغير! إنه بشير! هنا!»

لوّح فرن. لامين لم يتحرك: كان قد لمح بشير هذا منذ وقت طويل وكان يدعو ألا يراه بالمقابل. التفت ورأيت رجلًا جالسًا وحيدًا إلى الطاولة الأخيرة قرب النّضد، في الظلال، الزبون الوحيد الآخر في المكان. كان عريض المنكبين مفتول العضلات مثل لاعب رغبي، ارتدى بدلة زرقاء داكنة مخططة، ربطة عنق، دبوس ربطة عنق، خفين دون جوارب وسلسلة ذهبية ثخينة حول رسغه. كانت البدلة مشدودة إزاء عضلاته ووجهه كان يتفصّد عرقًا.

«هو ليس أخي إنه واحد من أترابي. إنه من القرية».

«لكن ألست ذاهبًا إلى...»

كان بشير الآن قد وصل إلينا. عن قرب، رأيت أنه يضع سماعتي رأس مزودتين بميكروفون، لا تختلف عن النّوع الذي استعملته إيمي على المسرح، وبين ذراعيه حمل جهاز كمبيوتر محمول، تابلت (الحاسوب اللوحي)، وجهاز هاتف عريض جدًا.

«عليّ أن أجد مكانًا لأضع كل هذه الأشياء!» لكنه جلس معنا وهو لا يزال يشبك كل شيء إلى صدره.

«لامين! أخي الصّغير! مر وقت طويل!»

أومأ لامين إلى غدائه. فرن وأنا قدمنا أنفسنا وتلقينا مصافحة حازمة ومؤلمة ورطبة.

«أنا وهو نشأنا معًا، يا رجل! حياة القرية!» أمسك بشير برأس لامين وطوّقه بقبضة متعرقة. «لكن حينها كان عليّ الذهاب إلى المدينة، يا حبيبي، هل تعرف ماذا أقول؟ كنت أطارد المال، يا حبيبي! أعمل مع البنوك الكبيرة. أرني النقود! بابل حقيقية! لكن أنا لا أزال ابن قرية في

قرارة نفسي». قبّل لامين وتركه.

قلت: «تبدو أمريكيًا» لكن ذلك كان فقط خيطًا واحدًا من النسيج الثري لصوته. كانت فيه أفلام مختلفة كثيرة وإعلانات، والكثير من موسيقى الهيب هوب، مسلسل إزميرالدا وآز ورد تورنز، أخبار البي بي سي، السي إن إن، الجزيرة وشيء من موسيقى الريفي التي تسمعها في أرجاء المدينة، من كل سيارة أجرة، بسطات السّوق، الحلاقين. كانت أغنية قديمة للمغني الجامايكي المعروف باسم «الرجل الأصفر» تعزف الآن، من السّماعات الصّغيرة فوق رؤوسنا.

«حقيقي، حقيقي...» أراح رأسه الكبير جدًا المربع الشّكل على قبضته في وضعية من يفكر بعمق. «تعلمين، لم أذهب حقًا إلى أميركا حتى الآن، ليس بعد. حدثت مجريات كثيرة. إن كل شيء يحدث. كلام، كلام، كان عليّ مجاراة التكنولوجيا، أن أبقى مطلعًا. انظري إلى هذه الفتاة: هي تتصل برقمي، حبيبي، ليل نهار، نهار وليل!» أراني صورة على الحاسوب اللوحي، لامرأة جميلة لها شفاه مثيرة لمّاعة مطلية بالأرجواني الدّاكن. بدت لي أنها صورة تجارية. «فتيات المدينة الكبيرة تلك، إنهن في غاية الجنون! أوه، يا أخي الصّغير، أحتاج إلى فتاة من منبع النهر، أريد أن أؤسس عائلة لطيفة. لكن هؤلاء الفتيات لا يرغبن حتى بعائلة بعد الآن! إنهن مجنونات! كم عمرك مع ذلك؟»

قلت له.

«وما من أطفال؟ لست متزوجة حتى؟ لا؟ حسنًا! حسنًا، حسنًا... أشعر بك، يا أختي، أشعر بك: الآنسة مستقلة، ألست كذلك؟ تلك طريقك، حسنًا. لكن بالنسبة لنا، امرأة دون أطفال مثل شجرة دون ثمار. مثل شجرة» – رفع مؤخرته القوية قليلًا عن كرسيه مقرفصًا، مد ذراعيه مثل أغصان وأصابعه مثل أفانين – « دون ثمار».

جلس وأغلق يديه في قبضتين. «دون ثمار» كرر. للمرة الأولى خلال أسابيع كثيرة تمكن فرن من أن يبتسم لي نصف ابتسامة.

«أظن أن ما يقوله هو أنك مثل شجرة».

«نعم، فرن، فهمتها، شكرًا لك».

لمح بشير هاتفي القابل للطي، هاتفي الشّخصي. التقطه وقلبه في راحته بتعجب مبالغ فيه. كانت يداه كبيرتين للغاية فبدا مثل لعبة طفل. «هذا ليس هاتفك. هل أنت جادة؟ هذا هاتفك؟! هل هذا ما يستعملونه في لندن؟ هاهاها. أوه يا رجل، نحن أكثر حداثة هنا! أوه، يا رجل! مضحك، مضحك. ما كنت لأتوقع هذا. عولمة، صحيح؟ أزمنة غريبة، أزمنة غريبة!»

سأل فرن: «في أي بنك قلت إنك تعمل؟»

«أوه، أحداث كثيرة تجري، يا رجل. تطور، تطور. أرض هنا، أرض هناك. بناء. لكني أعمل لصالح المصرف هنا، نعم، تجارة، تجارة. أنت تعرف كيف هو، يا أخي! الحكومة تجعل الحياة صعبة أحيانًا. لكن أرني النقود، صحيح؟ أنت تحب ريهانا؟ تعرفها؟ لقد حصلت على نقودها! المتنورين، صحيح؟ تعيش الحلم، يا حبيبي».

همس لامين: «يجب أن نذهب الآن إلى العبّارة».

«نعم، أظن أن لدي الكثير من المعاملات هذه الأيام – عمل معقّد، يا رجل – عليك أن تقوم بتلك الخطوات، خطوات، خطوات». أقام الدّليل بتحريك أصابعه فوق أدواته الثلاث كما لو أنه مبرمج لاستعمال أي واحد منها في أية لحظة من أجل شيء طارئ. لاحظت أن شاشة الكمبيوتر المحمول كانت سوداء ومتصدعة في عدة أمكنة. «انظر، بعض الناس اعتادوا على حياة المزرعة تلك كل يوم، تقشير الفول السّوداني، صحيح؟ لكن كان عليّ أن أقوم بخطواتي. هذه

معادلة حياة العمل الجديدة هنا. هل تعرف عن ذلك؟ نعم، يا رجل! هذا أحدث الأمور! لكن في هذا البلد لدينا طريقة تفكيرنا القديمة، صحيح؟ الكثير من الناس هنا ليسوا متطورين. يستغرق هؤلاء الناس بعض الوقت حسنًا؟ لاستيعابها». رسم بأصابعه مستطيلًا في الهواء: «المستقبل. يجب أن تفكر فيه. لكن اسمع: من أجلك؟ في أي وقت! يعجبني وجهك، يا رجل، إنه جميل، صاف جدًا وخفيف. وقد آتي إلى لندن، يمكننا أن نتحدث عن العمل بصدق! أوه، أنت لست في تجارة؟ جمعية خيرية؟ منظمة غير حكومية؟ بعثة تبشيرية؟ أحب البعثات التبشيرية، يا رجل! كان لدي صديق جيد، كان من ساوث بيند، انديانا – مايكي. أمضينا وقتًا طويلًا معًا. كان مايكي ظريفًا، يا رجل، كان ظريفًا حقًا، كان ينتمي إلى طائفة مجيئيو اليوم السّابع، لكننا جميعًا أولاد الله بالتأكيد، بالتأكيد...»

قال لامين وهو يدير ظهره لنا محاولًا أن يلفت انتباه النادلة: «إنهم هنا يقومون بعمل تربوي، مع فتياتنا».

«أوه، بالتأكيد، أسمع عن التغييرات هناك. أزمنة كبيرة، أزمنة كبيرة. جيد من أجل القرية، صحيح؟ تطور».

قال فرن: «نأمل ذلك».

«لكن يا أخي الصّغير: هل تحصل على قطعة من ذلك؟ هل تعلمون يا شباب أن أخي الصغير هنا جيد جدًا من أجل المال؟ إن كل ما يفكر فيه هو الحياة الآخرة. أنا، لا: أريد هذه الحياة! هاهاهاها. نقود، نقود، تتدحرج. أليست تلك هي الحقيقة. أوه يا رجل، أوه يا رجل...»

نهض لامين: «وداعًا بشير».

«هذا الشّخص جادّ للغاية. لكنه يحبني. سوف تحبونني أيضًا. سوف تصبحين ثلاثة وثلاثين يا فتاة! يجب أن نتحدث! الوقت يطير.

يجب أن تعيشي حياتك، صحيح؟ المرة القادمة، في لندن، يا فتاة، في بابل – لنتحدث!»

عائدين نحو السّيارة، سمعت فرن يضحك في خفوت بينه وبين نفسه، مبتهجًا بالواقعة. قال: «هذا ما يدعوه النّاس شخصيّة» وعندما وصلنا إلى سيارة الأجرة المنتظرة والتفتنا لندخلها وجدنا بشير الشخصية واقفًا في الباب، لا يزال يضع سماعاتي الرأس، حاملًا جميع تقنياته المتنوعة ويلوح لنا. واقفًا بدت بدلته غريبة على نحو خاص، السّروال قصير للغاية عند الكاحلين، مثل ماشا الله يرتدي بنطالًا مخططًا. قال لامين بهدوء ونحن عائدين إلى السّيارة: «بشير خسر عمله منذ ثلاثة أشهر، هو في ذلك المقهى يوميًا».

نعم، كل شيء يخص تلك الرحلة بدا خاطئًا منذ البداية. بدلًا من كفاءتي البهية السابقة، لم أتمكن من تخليص نفسي من إحساس متذمر بالخطأ، من إساءة فهم كل شيء، بداية مع هاوا، التي فتحت باب مسكنها وهي ترتدي وشاحًا جديدًا، أسود، غطى رأسها وتوقف عند منتصف الطريق إلى جذعها، وقميصًا طويلًا لا شكل له من النّوع الذي دومًا سخرت منه عندما رأته في السّوق. عانقتني بحزم كما في كل مرة، وكانت لتومئ فقط لفرن، وبدت منزعجة من حضوره. جميعنا وقفنا في الباحة إلى حين، هاوا تتحدث حديثًا قصيرًا مهذبًا عالي الصّوت لم يوجه شيء منه إلى فرن – وأنا آملة إشارة إلى العشاء، الذي سرعان ما فهمت أنه سوف لن يأتي قبل مغادرة فرن. أخيرًا فهم الرسالة: كان متعبًا وكان ليتوجه عائدًا إلى المنزل الزهري. وحالما أغلق الباب خلفه عادت هاوا القديمة، تلقفت يدي، قبلت وجهي وصاحت: «أوه، يا أختي – أخبار جيدة – أنا سأتزوج!» عانقتها لكني شعرت الابتسامة المألوفة توصد نفسها على وجهي، نفس الابتسامة التي ابتسمتها في لندن ونيويورك

لسماع أخبار مشابهة، واختبرت نفس الإحساس الحاد بالخيانة. كنت خجلة من الشّعور بتلك الطريقة لكني لم أتمكن من منعه، قطعة من قلبي أغلقت في وجهها. أخذت يدي وقادتني إلى المنزل.

الكثير لتخبرني. كان اسمه بكاري، ينتمي إلى مجموعة التبليغ، صديق موسى، وسوف لن تكذب وتقول إنه وسيم، لأنه في الواقع كان العكس تمامًا، أرادتني أن أفهم ذلك مباشرة، وهي تسحب هاتفها كدليل.

«أترين؟ هو يبدو مثل ضفدع كبير! صدقًا أتمنى لو أنه لن يضع الشيء الأسود على عينيه أو يستعمل الحنة بتلك الطريقة، في اللحية... وأحيانًا هو يرتدي اللونجي[47]! جداتي يفكرن أنه يبدو مثل امرأة تدهن وجهها بالمساحيق التجميلية! لكن لا بد أنهن مخطئات لأن النبي نفسه وضع الكحل، إنه جيد لمنع عدوى العين، وهناك الكثير حقًا لا أعرفه وعليّ أن أتعلمه. أوه، جداتي تبكين ليل نهار، نهار وليل! لكن بكاري لطيف وصبور. هو يقول لا أحد يبكي إلى الأبد – أولا تظنين أن هذا صحيح؟»

جلبت ابنتا أخ هاوا التوأم العشاء: أرز من أجل هاوا، البطاطا المشوية من أجلي. أصغيت في نوع من خدر عندما تلت عليّ هاوا قصصًا مضحكة عن رحلتها الأخيرة إلى موريتانيا مع جماعة المستورات أبعد مكان سافرت إليه على الإطلاق، حيث نامت غالبًا في جلسات المحاضرة (« الرجل الذي يتحدث، لا يمكنك أن تريه، لأنه ليس مسموحًا له أن ينظر إلينا، لذا هو يتحدث من خلف ستارة، وجميعنا نساء جالسات على الأرض والمحاضرة طويلة للغاية، لذا أحيانًا نرغب في النّوم») وفكّرت أن تخيط جيبًا في داخل صدارها لتخفي هاتفها وترسل رسائل

47) Lungi: هو نوع من اللباس التقليدي الذي يُرتدى حول الخصر في سريلانكا والهند وبنغلاديش وباكستان والصومال ونيبال وكمبوديا وجيبوتي وميانمار وتايلاند. وهو يحظى بشعبية خاصّة في المناطق التي تخلق فيها الحرارة والرطوبة مناخا غير مريح للسراويل.

نصية خفية إلى بكاري خلال الحصص الجافة. لكنها دومًا اختتمت هذه القصص بعبارة تبدو متديّنة: «الأمر الهام هو الحب الذي أحمله لأخواتي الجديدات». «إنه ليس من أجلي أن أسأل». «إنه بين يدي الله».

قالت عندما جلبت لنا فتاتان أخريان كوبي شاي ليبتون من الصّفيح، شديدي الحلاوة: «في النهاية كل ما يهم هو تسبيح الله وترك أمور الحياة الدنيا خلفنا. أقول لك إنه في هذا المسكن أمور الحياة الدنيا هي كل ما تسمعينه. من ذهب إلى السّوق، من اشترى ساعة جديدة، من ذهب عبر «الطريق الخلفي»، من يملك المال، من لا يملكه، أريد هذا، أريد ذاك! لكن عندما تسافرين، وتقدّمين للنّاس حقيقة النبي، ليس هناك وقت لأي من أمور الحياة الدنيا على الإطلاق».

تساءلت لماذا كانت لا تزال باقية في المجمّع السّكني إذا كانت الحياة هنا أزعجتها كثيرًا الآن.

«حسنًا، بكاري جيد لكنه في فقر مدقع. حالما نستطيع سوف نتزوج وننتقل، لكن الآن هو ينام في المركز قريبًا من الله، بينما أنا هنا، قريبة من الدّجاج والماعز. لكن سوف نوفر الكثير من النقود لأن حفل زواجي سوف يكون صغيرًا جدًا جدًا، مثل زواج فأرة، وفقط موسى وزوجته سوف يكونان هناك، دون موسيقى أو رقص أو ولائم ولن أكون بحاجة لشراء فستان جديد» قالت بتألق خبير، وشعرت بحزن شديد فجأة، لأني إذا عرفت شيئًا على الإطلاق عن هاوا فقد كان أنها أحبّت كثيرًا حفلات الزفاف وفساتين الزفاف وولائم الزفاف وحفلات الزفاف.

قالت: «إذن، كما ترين، الكثير من النقود سوف توفّر هناك، بالتأكيد» وطوت يديها في حجرها لتشير رسميًا إلى نهاية هذه الفكرة، ولم أجادلها. لكني تمكنت من رؤية أنها أرادت أن تتحدث، وأن عباراتها المدروسة كانت مثل أغطية تتراقص على قدور طهو تفور، وكل ما كان

عليّ فعله كان الجلوس بصبر وانتظارها كي تنضج. دون أن أطرح أي سؤال آخر من جانبي بدأت تتحدث، بتردد أولًا من ثم بطاقة متزايدة، عن خطيبها. بدا أن أكثر ما يؤثر بها حول هذا البكاري كان حساسيته. كان مملًا وقبيحًا لكنه حساس.

«مملٌ كيف؟»

«أوه، ما كان عليّ أن أقول «ممل»، لكن أعني، يجب أن تريه مع موسى معًا، هما يصغيان إلى هذه الأشرطة المقدّسة طوال النهار، إنها أشرطة مقدّسة للغاية، موسى يحاول الآن أن يتعلم المزيد من اللغة العربية، وأنا أيضا أتعلم لأقدّر الأشرطة حقّ قدرها، في الوقت الراهن هي لا تزال مملة للغاية بالنسبة لي - لكن عندما يصغي بكاري إليها يبكي! هو يبكي ويمسك موسى من ذراعيه! أحيانًا أذهب إلى السوق وأعود وهما لا يزالان يعانقان بعضهما ويبكيان! أنا لم أرَ أبدًا متبطلًا يبكي! إلا إذا سرق أحدهم مخدراته! لا، لا، بكاري حساس للغاية. إنها حقًا مسألة قلبية. في البداية فكرت: أمي امرأة متعلمة، علمتني الكثير من اللغة العربية، سوف أكون متقدمة على بكاري في إيماني، لكن ذلك خطأ كبير! لأنه ليس ما تقرئين، بل ما تشعرين به. وأمامي طريق طويل عليّ اجتيازه قبل أن يمتلئ قلبي بالإيمان مثل بكاري. أظن أن رجلًا حساسًا يكون زوجًا جيدًا، ألا تظنين ذلك؟ ورجال الماشا الله - ليس عليّ أن أدعوهم هكذا، جماعة التبليغ[48] هي الكلمة المناسبة - لكنهم لطفاء للغاية مع نسائهم! لم أعرف ذلك. قالت جدتي دومًا: «هم نصف كبار،

48) جماعة التبليغ والدعوة هي جماعة إسلامية خصصت نفسها «للدعوة والزهد في الدنيا»، يعتمد أسلوبها على الترغيب والتأثير العاطفي الروحاني، بدأت دعوتها في الهند وتنتشر الآن في معظم البلاد العربية والإسلامية، تقوم الجماعة بأمرين أساسين: الأوّل هو تبليغ من لم تبلغه الدعوة الإسلامية، ومحاولة إدخاله الإسلام، والثاني هو وعظ المتساهلين من المسلمين إلى الصلاة بوصفها عماد الدين، ثم يخرجون بهم للدعوة أيّامًا ليروا صورة من صور إيمانهم والمحبّة بينهم، ورُغم حجم جماعة التبليغ الكبير فإنه ليس لها ناطق رسميّ ولا ممثّل أو مخاطب معتمد.

هم مجانين، لا تتحدثي مع هؤلاء الرّجال المخنّثين، ليس لديهم أعمال حتى». أوه يا فتى، هي تبكي كل يوم. لكنها لا تفهم، هي عتيقة الطّراز للغاية. يقول بكاري دومًا: «هناك حديث نبوي يقول: «خيرة الرّجال من يعين زوجته وأطفاله ويشملهم برحمته». وهكذا هو الأمر. لذا، عندما نذهب في هذه الجولات، مع جماعة المستورات[49]، حسنًا، لتفادي أن يرانا رجال آخرون في السّوق، يذهب رجالنا بأنفسهم ويتسوقون من أجلنا، يشترون الخضار. ضحكت عندما سمعت هذا، فكرت: لا يمكن أن يكون حقيقة – لكنه حقيقة! جدي لم يعرف حتى أين كان السّوق! هذا ما أحاول شرحه لجداتي، لكنهن عتيقات الطراز. هن يبكين كل يوم لأنه ما شاء الله – أعني، ينتمي إلى جماعة التبليغ. في رأيي هن يشعرن بالغيرة سرًا. أوه، أتمنى لو يسعني مغادرة هذا المكان الآن. عندما ذهبت لأكون مع أخواتي كنت سعيدة للغاية! صلينا معًا. مشينا معًا. بعد الغداء، كان على واحدة منا أن تؤم الصلاة كما تعلمين، وواحدة من الأخوات قالت لي: «أنت افعلي ذلك!» وهكذا كنت الإمام ذلك اليوم، تعلمين؟ لكني لم أكن خجلة. الكثير من أخواتي خجلات، يقلن: «ليس لي أن أتحدث» لكني حقًا وجدت في هذه الرحلة أني لست على الإطلاق شخصًا خجولًا. والجميع يصغي إليّ – أوه! حتى أن الناس طرحوا عليّ أسئلة فيما بعد. هل يمكنك أن تصدقي؟

«إنه لا يفاجئني على الإطلاق».

«تحدّثت عن المبادئ السّت. هذا عن كيف على الشخص أن يأكل؟ في الواقع، أنا لا أراعيها الآن، لأنك هنا، لكنها بالتأكيد في عقلي من أجل المرة القادمة».

---

49) مصطلح «المستورات» في أدبيات التبليغ والدعوة، يُشير إلى جماعة نسائية تتحرك دعويًا نحو نساء مثلهن ويرافقهن في الرحلة محارمهن الذين يقومون بدعوة الرجال في الوقت ذاته.

هذه الفكرة المذنبة قادت إلى أخرى: انحنت قدمًا لتهمس لي بشيء، ابتسم وجهها الذي لا يقاوم نصف ابتسامة.

قالت «البارحة ذهبت إلى غرفة التّلفاز في المدرسة وشاهدنا مسلسل ازميرالدا. لم يكن عليّ أن ابتسم» وتوقفت فجأة، «لكنك تعرفين بخاصّة كم أحب ازميرالدا، وأنا واثقة من أنك ستوافقين على أنه لا أحد يمكنه أن يخلّص نفسه من كل الأمور الدنيوية مرة واحدة». نظرت أسفل إلى تنورتها عديمة الشكل. «أيضًا ملابسي سوف ينبغي عليّ تغييرها، في النهاية، ليس فقط التنورة، كل شيء من رأسي حتى أخمص قدمي. لكن أخواتي جميعهن يوافقن أنه من الصّعب أولًا لأنك تشعرين بحر شديد والناس يحدقون، يدعونك بالنينجا أو أسامة في الشّارع. لكني تذكرت ما قلته لي مرة عندما جئت إلى هنا في البداية: من يهتم لما يفكر به الآخرون؟ وهذه فكرة قوية أحفظها معي، لأن مكافأتي ستكون في الجنة، حيث سوف لن يناديني أحد نينجا لأن هؤلاء الناس بالتأكيد سوف يكونون في الجحيم. أنا لا زلت أحب كريس براون[50]، لا يمكنني ألا أفعل، وحتى بكاري لا يزال يحب أغاني مارلي، أعرف لأني سمعته يغني واحدة ذلك اليوم. لكن سوف نتعلم معًا، نحن شابّان. كما قلت لك سلفًا، عندما كنا في رحلتنا، بكاري قام بكل الأعمال المنزلية بدلًا مني، ذهب إلى السّوق من أجلي، حتى عندما سخر النّاس منه، فعل هذا. وقام بالغسيل. قلت لجداتي: هل غسل جدي ولو جوربًا من أجل أي واحدة منكن خلال أربعين عامًا؟»

«لكن هاوا، لماذا لا يمكن للرجال أن يروك في السّوق؟»

بدت سئمة: طرحت السّؤال الأكثر بلادة مرة أخرى.

«عندما ينظر الرّجال إلى النّساء اللاتي لسن زوجاتهن، تلك

---

50) Chris Brown (1989) هو مغنٍّ آر أند بي، ومؤلف وملحن ومخرج أغانٍ وممثل أمريكي.

لحظة ينتظرها الشّيطان ليهب مسرعًا، ليملأهم بالذنب. الشّيطان في كل مكان! لكن ألا تعرفين ذلك؟»

لم أتمكّن من الإصغاء إلى المزيد من هذا وقدّمت عذري. لكن المكان الوحيد الذي كان متاحًا لي الذهاب إليه أو أعرف كيفيّة الوصول إليه في الظلمة كان المنزل الزهري. من مسافة على الطريق تمكنت من رؤية أن جميع الأنوار كانت مطفأة، وعندما وصلت إلى الباب وجدته معلقًا بزاوية من مفصلة مكسورة.

«هل أنت هناك؟ هل يمكنني الدّخول؟»

أجاب فرن من الظّلال بصوت جهوري: «بابي مفتوح دومًا». وضحكنا في الوقت نفسه. دخلت وحضر لي الشّاي، تقيأت جميع الأخبار التي سمعتها من هاوا. أصغى فرن لي وأنا أتحدث بصخب، يتراجع رأسه إلى الوراء أكثر فأكثر حتى شع الكشاف على السّقف.

قال عندما انتهيت: «عليّ أن أقول إنه لا يبدو لي غريبًا، هي تعمل مثل كلب في ذلك المسكن. هي بالكاد تغادره. أتخيل أنها مستميتة، مثل أي شاب متألق، لتكون لها حياتها الخاصّة. ألم ترغبي بالخروج من منزل أهلك في ذلك العمر؟»

«عندما كنت في سنها أردت الحرية!»

«وكنت لتعتبريها أقل تحررًا مما هي الآن، أعني بالتجوال تعظ في موريتانيا، موصدًا عليها في البيت؟» جر صندله عبر كسوة الغبار الأحمر المتراكمة على الأرض البلاستيكية. «ذلك مثير للاهتمام. إنها وجهة نظر مثيرة للاهتمام».

«أوه أنت فقط تحاول إزعاجي».

نظر نحو الشّكل الذي صنعه على الأرض وقال متحدثًا ببطء: «لا، أنا لم أقصد أبدًا أن أفعل ذلك، أحيانًا أتساءل إذا كان الناس

لا يرغبون بالحرية بقدر ما يطلبون المعنى. هذا ما أقصد قوله. على الأقل، تلك كانت تجربتي».

كنا سنتجادل لو تابعنا لذا غيرت الموضوع وقدمت له قطعة من البسكويت التي تطاولت عليها من غرفة هاوا. تذكرت أني أحفظ بعض التسجيلات على جهاز آي بود وكل واحد وضع سماعة وجلسنا جنبًا إلى جنب بسلام نقضم البسكويت ونستمع إلى روايات عن هذه الحيوات الأميركية، أحداثها الدرامية التافهة وما فيها من أمور باعثة على الرضى، متعها وغضبها ولحظات إلهامها المأسوية الكوميدية، إلى أن حان وقت ذهابي. عندما استيقظت صباح اليوم التالي فكرت أولًا بهاوا، هاوا ستتزوج سريعًا، الأطفال الذين سيتبعون بالتّأكيد، وأردت أن أتحدث إلى شخص يشاركني إحساسي بالخيبة. ارتديت ملابسي ورحت أبحث عن لامين. وجدته في باحة المدرسة، يبحث في خطة درس تحت شجرة المانجو. لكن لم تكن الخيبة ردّة فعله على أخبار هاوا، أو لم تكن ردة فعله الأولى – تلك كانت حسرة. لم تكن حتى التّاسعة صباحًا وكنت قد تمكّنت من كسر قلب أحدهم.

«لكن أين سمعت هذا؟»

«هاوا!»

كافح ليسيطر على وجهه.

«أحيانًا تقول الفتيات إنهن سوف يتزوجن من شخص ولا يفعلن. إنه شائع. كان هناك شرطي...» توقّف.

«أنا آسفة، لامين. أعرف كيف تشعر تجاهها». ضحك لامين بعناد وعاد إلى خطة درسه. «أوه لا، أنت مخطئة، نحن أخ وأخت. لطالما كنا كذلك. قلت هذا لصديقتك إيمي: هذه أختي الصّغرى. سوف تتذكر قولي هذا، لو تسأليها. لا، أنا فقط آسف على عائلة هاوا. سوف

يكون حزنهم شديدًا ».

رنّ جرس المدرسة. زرت القاعات الدراسية طوال الفترة الصّباحية، وشعرت للمرة الأولى بما أنجزه فرن هنا في غيابنا، على الرغم من تشويش إيمي، وبالعمل نوعًا ما دون علمها. احتوى مكتب المدرسة على جميع أجهزة الكمبيوتر الجديدة التي أرسلتها، مع وجود اتصال بشبكة الإنترنت أكثر موثوقية، وهذا استطعت رؤيته من خلال سجلات البحث، كانت مستعملة حتى الآن بشكل حصري من قبل المدرسين لغرضين: تصفّح موقع فيسبوك، وإدخال اسم الرئيس في مربع بحث موقع غوغل. في كل قاعة صف تناثرت أحجيات منطقية ثلاثية الأبعاد وأجهزة صغيرة محمولة باليد غامضة بالنسبة لي يمكنك أن تلعب الشّطرنج عليها. لكن هذه لم تكن الاختراعات التي أثّرت بي. تمامًا خلف المبنى الرئيس، استخدم فرن بعضًا من نقود إيمي لإقامة حديقة في الباحة، وهو لم يذكرها في اجتماعات مجلسنا على ما أذكر، وهنا كانت كل أنواع المنتجات تنمو، التي انتمت، كما شرح، إلى هيئة الأولياء بالتضامن، التي جنبًا إلى جنب مع الكثير من العواقب الأخرى – عنت أنه عندما ينتهي أول فصل، نصف عدد طلاب المدرسة لن يختفوا ليساعدوا أمهاتهم في المزرعة، بدلًا من ذلك يبقون ويتعهدون شجيراتهم بالعناية. علمت أن فرن عند اقتراح الأمهات في جمعية أولياء الأمور والمدرسين، كان قد دعا عدة مدرسين من المجلس المحلي إلى مدرستنا، حيث أعطوا غرفة لتدريس العربية والدراسات القرآنية، دفع لهم لقاءها رسمًا صغيرًا مباشرة، وهذا منع جانبًا كبيرًا آخر من سكان المدرسة من الاختفاء في منتصف النهار أو إمضاء جزء من كل أصيل يقومون بالأعمال المنزلية من أجل مدرسي المجلس هؤلاء كما فعلوا سابقًا بدلًا من الجزاء. أمضيت ساعة في غرفة الفن الجديدة، حيث

جلست الفتيات الأصغر سنًا إلى طاولاتهن يمزجن الألوان ويصنعن طبعات اليد – يلعبن – بينما أجهزة الكمبيوتر المحمولة التي تصورت إيمي أن جميعهن امتلكنها، اعترف فرن الآن، اختفت في الطريق إلى القرية، لا غرابة في الأمر بالنظر إلى أن ثمن كل واحد منها يساوي ضعف مرتب أي مدرس سنويًا. بالمجمل لم تكن الأكاديمية التنويرية للفتيات حاضنة المستقبل غير المسبوقة الجديدة الساطعة التي سمعت الكثير عنها إلى طاولات عشاء إيمي في نيويورك ولندن. كانت «الأكاديمية النّساجة» كما دعاها الناس محليًا، حيث كانت تحدث الكثير من توافه الأمور لكن المثيرة للاهتمام يوميًا حيث يتجادلون بشأنها نهاية كل أسبوع، في اجتماعات القرية، ما أدى إلى تعديلات مستقبلية وتغييرات، أحسست أن بعضًا منها لم تعرف إيمي به أو تسمع عنه لكن حضرها فرن عن كثب، مصغيًا إلى الجميع بأسلوبه المنفتح على نحو مدهش، مدونًا قدرًا كبيرًا من الملاحظات. كانت مدرسة تؤدي عملها، بنيت بنقود إيمي لكن ليست مشمولة بها، ومهما كان الدّور الذي لعبته في ابتكارها صغيرًا، شعرت الآن، مثل أي عضو ثانوي في القرية، بحصتي من الفخر بها. كنت أستمتع بهذا الشعور الدافئ بالإنجاز وأنا عائدة من حديقة المدرسة إلى مكتب المدير، عندما لمحت لامين وهاوا تحت شجرة المانجو، واقفين متقاربين من بعضهما يتجادلان.

سمعتها تقول وأنا أقترب: «أنا لا أصغي إلى محاضرات منك»، وعندما رأتني التفتت وكررت الفكرة: «أنا لا آخذ محاضرات منه. هو يريدني أن أكون آخر شخص يبقى في هذا المكان. لا».

عند مكتب المدير، على بعد ثلاثين ياردة عنا، وقف جمع من المدرسين الفضوليين الذين أنهوا للتو الغداء في ظل عتبة الباب يغسلون أيديهم من غلاية من الصفيح مملوءة بالماء ويشاهدون النقاش.

همس لامين وهو واع لهذا الجمهور: «لن نتحدث الآن»، لكن هاوا في دفق كامل كان يصعب إيقافها. «لقد تغيبت شهرًا واحدًا؟ أليس كذلك؟ هل تعلم كم الذين رحلوا من هنا في هذا الشهر؟ ابحث عن عبد اللاي. أنت لن تراه. أحمد وحكيم؟ ابن أخي يوسف؟ هو في السابعة عشرة. رحل! عمي جودفري – لم يره أحد. لدي أطفاله الآن. لقد رحل! هو لم يرغب بالبقاء ليتعفن هنا – الطريق الخلفي – جميعهم».

تمتم لامين: «الطريق الخلفي جنون» لكن حينئذٍ حاول أن يتجاسر: «الماشا الله مجانين أيضًا». تقدمت هاوا منه خطوة: انكمش على نفسه. إلى جانب كونه يحبها، فكرت، هو يخشاها قليلًا. أفهم ذلك – كنت خائفة قليلًا منها. قالت وهي تدفع إصبعها في صدره: «وعندما أذهب إلى كلية المدرسين في شهر أيلول، سوف تظل هنا يا لامين؟ أو سيكون لديك مكان آخر؟ هل ستظل هنا؟» رمقني لامين بنظرة مذعورة مذنبة التي اعتبرتها هاوا على أنها تأكيد:

«لا، لا أظن ذلك». تخللت همس لامين نبرة متملقة.

«لم لا تذهب إلى والدك؟ هو حصل لأخيك على التأشيرة. ويمكنه أن يحصل لك على واحدة إذا ما طلبت. إنه ليس مستحيلًا».

كنت قد فكرت بذلك مرات كثيرة، لكني لم أسأل يومًا هاوا مباشرة – هي لم تبد يومًا راغبة بالحديث عن والدها – والآن برؤية وجهها ينبض بالحنق الصادق، سررت للغاية لأني لم أسأل يومًا. انفجرت حلقة الأساتذة بالثرثرة مثل الحشد في مباراة الملاكمة عندما تسدد لكمة قاسية.

قالت: «ليس هناك حب بيني وبينه، عليك أن تعرف ذلك. هو لديه زوجته الجديدة، حياته الجديدة. بعض الناس يمكن أن يشتروا، بعض النّاس يمكنهم أن يبتسموا في وجه أناس آخرين لا

يحبونهم، فقط لكسب الامتيازات. لكني لست مثلك»، الضّمير يحط في مكان ما بين لامين وبيني، عندما التفتت وابتعدت عنا، تنورتها الطويلة تحف بالرمل.

ذلك الأصيل طلبت من لامين أن يأتي معي إلى بارا. قال نعم لكن بدا مهزومًا بالذل. كانت رحلتنا بسيارة الأجرة صامتة كما كانت رحلتنا بالعبّارة. احتجت أن أبدل بعض النقود، لكن عندما وصلنا إلى الفجوات الصغيرة في الجدار – حيث جلس الرّجال على مقاعد عالية خلف درفات، يعدون من أبراج ضخمة من الأوراق المالية القذرة المجموعة معًا بأربطة مطاطية – تركني. لامين لم يتركني بمفردي يومًا في أي مكان سابقًا، ليس حتى عندما أردته أن يفعل، والآن اكتشفت كم كنت مذعورة من الفكرة.

«لكن أين سوف ألتقيك؟ إلى أين أنت ذاهب؟»

«لدي بعض المهمات التي عليّ إنهاءها بنفسي، لكني سوف أكون هنا بالقرب، قرب العبّارة. لا بأس، فقط اتصلي بي. سوف آتي بعد أربعين دقيقة».

رحل قبل أن أحظى بفرصة للجدال. لم أصدق أمر مهماته: هو فقط أراد التخلص مني إلى حين. لكن تصريف نقودي استغرق دقيقتين فقط. تجولت حول السّوق، من ثم لتفادي الناس الذين ينادون علي، مشيت خلف العبّارة إلى حصن عسكري قديم، كان متحفًا، مهجورًا الآن، لكن يمكنك أن تتسلق استحكاماته وترى النّهر والطريقة المغضبة التي بنيت من خلالها كل هذه البلدة وظهرها للمياه، متجاهلة النهر في تذلل دفاعي ضده، كما لو أن الإطلالة الجميلة للضفة المقابلة، للبحر والدلافين الوثابة، كانت مهينة بشكل ما، أو فائضة عن الحاجة، أو ببساطة حملت ذكرى الكثير من الألم. نزلت عائدة وتوانيت قرب

العبّارة، لكن كان لا يزال في حوزتي عشرين دقيقة لذا ذهبت إلى مقهى انترنت. كان المشهد المعتاد: فتى تلو آخر والسّماعات على رأس كل واحد منهم، قائلًا: «أحبك» أو «نعم يا فتاتي» بينما لوحت على الشّاشات نساء بيضاوات في خريف العمر ونفخن القبلات تقريبًا دومًا نساء بريطانيات - أحكم من داخل منازلهن - وفيما أنا واقفة إلى المكتب، على وشك أن أدفع خمسًا وعشرين دلاسي مقابل خمس عشرة دقيقة، تمكنت من مشاهدتهم جميعًا في نفس الوقت خارجين من حماماتهم المزججة، أو يتناولن الفطور، أو يمشين حول الحدائق أو يستلقين في كرسي هزاز في المستنبت الزجاجي، أو فقط جالسات على أريكة، يشاهدن التّلفاز، هواتفهن أو حواسيبهن في اليد. لم يكن هناك شيء غير عادي في أي من هذا، سبق أن رأيته مرات كثيرة من قبل، لكن هذا الأصيل بالذات وأنا أضع النقود على المكتب، دخل رجل ثرثار مجنون المكان، وبدا يشق طريقه بين الكمبيوترات ملوحًا بعصا طويلة منحوتة ومالك المقهى ترك تعاملاتنا ليطارده حول أجهزة الكمبيوتر. كان المخبول جميلًا بشكل لا يصدق وطويل القامة، مثل واحد من أفراد شعب الماساي، حافي القدمين، يرتدي قميص الداشيكي التقليدي مطرزًا بخيط ذهبي، ولو أنه كان ممزقًا وقذرًا، وعلى قمة شعره المضفور جثمت قبعة بيسبول تعود إلى دورة جولف مينيسيوتا. ربت على أكتاف الشّبان مرة على كل جانب، مثل ملك يستعرض عددًا كبيرًا من طبقة الفرسان، إلى أن تمكّن المالك من اختطاف عصاه منه وراح يضربه بها. وبينما كان يُضرب ظلّ يتحدث بلكنة انكليزية مشذّبة هزلية، ذكرتني بلهجة تشالكي، من كل تلك السّنوات. «جيّد سيدي، ألا تعرف من أنا؟ هل يعرف أي منكم أيها الحمقى من أكون؟ أنتم أيها الحمقى المساكين؟ ألم تتعرفوا علي؟» تركت نقودي على النضد وتوجهت عائدة إلى الخارج لأنتظر في الشمس.

✧ أربعة ✧

عندما عدت إلى لندن تناولت طعام العشاء مع أمّي، كانت قد حجزت طاولة في مطعم أندرو إدموند، في الطّابق الأرضي – قائلة: «على حسابي» – لكني شعرت بالظلم بسبب الجدران الخضراء الدّاكنة ومشوشة بالنظرات المختلسة من الرواد الآخرين، ثم أرخت يدي اليمنى من قبضة مشدودة على هاتف وقالت: «انظري إلى هذا. انظري ماذا تفعل لك. ما من أظافر وأصابع مدمّاة». استغربت عندما بدأت أمي تتناول طعامها في سوهو ولماذا بدت نحيلة للغاية، وأين ميريام. لربما ازداد تفكيري عمقًا بعض الشيء حول كل هذه الأسئلة لو كان يوجد فسحة أفكر فيها بجدية، لكن أمي ذلك المساء حققت نجاحًا كبيرًا بالحديث، ومعظم الوجبة كانت مأخوذة بمونولوج حول تحسين وتطوير لندن – موجّه إلى الطاولات المجاورة بقدر ما هو موجه لي – ممتد بدءًا من الشّكاوى المعاصرة العادية عبر السّنوات إلى أن يتحول إلى عظة تاريخية مرتجلة. مع وصول الوجبة الرئيسة كنا قد وصلنا إلى بداية القرن الثّامن عشر. كان صف المنازل المتجاورة نفسه التي جلسنا فيها – عضو برلمان مستقلة ومساعدة شخصيّة لنجمة من نجوم البوب، نتناول المحار معًا – فيما مضى مسكنًا لعمال تركيب الأعمال الخشبية وصنّاع أطر النوافذ، البناءين، والنجارين، جميعهم دفعوا إيجارًا شهريًا حتى عندما سوي بسبب التّضخم المالي، ما كان ليغطي حاليًا ثمن محارة

واحدة كنت أضعها في فمي. شرحت وهي تتناول محارة لوتش ريان: «العمال، أيضًا المتطرفون، الهنود، اليهود، رقيق كاريبيّون هاربون. مؤلّفو الكتيبات ومثيرو الفتن. روبرت ويدربورن[51]! «الشّحارير[52]». هذه كانت بقعتهم أيضًا، تمامًا تحت أنف ويستمينستر.. لا شيء مثل ذلك يحدث هنا الآن - أحيانًا أتمنى لو أنه يحدث. أعطنا جميعًا شيئًا لنعمل معه! أو نحوه! أو حتى ضده...» مدت يدها نحو اللوح الذي يبلغ عمره ثلاثمائة عام قرب رأسها وضربته ضربة حزينة.

«الحقيقة هي أن معظم زملائي لا يتذكرون حتى ما هو اليسار الحقيقي وصدقيني هم لا يرغبون أن يتذكروا. أوه، لكن في قديم الزمان كان مرتعًا حقيقيًا...»

واصلت في هذا المجرى، لوقت طويل كالعادة لكن في دفق متحمس - انحنى زبائن مجاورون ليلتقطوا نبذًا منه - وما من شيء منه كان لاذعًا أو موجهًا نحوي، كل زواياها الحادة كانت قد نقحت. رفعت قواقع المحار الفارغة بعيدًا. بحكم العادة بدأت أمزق الجلد حول أظافري. فكرت: طالما هي تتحدث عن الماضي، حسنًا إذن هي لا تسألني عن الحاضر أو المستقبل، متى سوف أتوقّف عن العمل عند إيمي أو متى سأنجب طفلًا، ومتفادية هذين الاثنين - كان الهجوم الثنائي قد أصبح أولوية بالنسبة لي كلما رأيتها. لكنها لم تسألني عن إيمي، لم تسألني عن أي شيء. فكرت: هي بلغت المركز أخيرًا، هي «في السّلطة». نعم، حتى لو تحب وصف نفسها على أنها «شوكة في خاصرة الحزب»، الحقيقة هي أنها في مركز الأشياء، أخيرًا وهذا لابد أنه الفرق. امتلكت الآن ما أرادته

51) Robert Wedderburn (1762-1835) كان واعظًا راديكاليًا متطرّفًا، وُلد في جامايكا وكان مناهضًا للعبودية وقائدًا لحركات الطبقة العاملة في أوائل القرن التاسع عشر في لندن.

52) The St Giles Blackbirds: أوّل جالية من السود أقامت في حي سانت جيلز الفقير في لندن، وقد تكوّنت من العبيد الذين حُرّروا بعد أن حاربوا إلى جانب البريطانيين خلال حرب الاستقلال الأميركية.

وأكثر ما احتاجته طوال حياتها: الاحترام. ربما لم يعد يهمها بعد الآن ما فعلته في حياتي. لم يكن عليها أن تعتبرها حكم عليها بعد الآن، أو على طريقة تربيتها لي. ومع ذلك لاحظت أنها لم تكن تشرب، أضفت هذا أيضًا إلى نسختي من أمي: ناضجة، رزينة، واثقة من نفسها، لم تعد متحفزة للدفاع، نجاح على حد تعبيرها. كان سيل الأفكار هذا الذي جعلني غير مستعدة لما جاء تاليًا. توقفت عن الكلام، وضعت رأسها في يد، وقالت: «حبيبتي عليّ أن أطلب مساعدتك من أجل شيء ما».

جفلَت عندما قالت ذلك. لململت أطراف شجاعتي إزاء شكل من التجسيم الذاتي. رهيب أن أعود بالتفكير الآن وأدرك أن هذه التكشيرة كانت على الأرجح رد فعل حقيقي إلزامي على ألم جسدي أصيل. كانت تقول: «وأردت أن أتعامل معه بنفسي، كي لا أزعجك به، أعرف أنك مشغولة للغاية لكني لا أعرف شخصًا آخر ألتفت إليه في هذه اللحظة».

«نعم – حسنًا، ما هو؟»

كنت منخرطة للغاية في تشذيب الدّهن عن قطعة لحم الخنزير. عندما أخيرًا رفعت عيني إلى وجه أمي فبدت متعبة كما لم أرها يومًا.

«إنها صديقتك – تريسي». وضعت أدوات المائدة خاصتي. «أوه، إنه أمر سخيف، حقًا، لكني تلقيت هذه الرسالة الإلكترونية، وديًا... وصلت إلى مكتبي. لم أكن قد رأيتها منذ سنوات... لكني فكرت: أوه، تريسي! كانت بشأن واحد من أطفالها، الفتى البكر – كان قد طرد من المدرسة، شعرت بالظلم، وطلبت مساعدتي، كما ترين، وهكذا أجبت، وأولًا حقًا لم يبد الأمر بتلك الغرابة، تلقيت هذه الأنواع من الرسائل طوال الوقت. لكن الآن، كما تعلمين، أتساءل: هل كانت مجرد خدعة؟»

«أمي، عمّ تتحدثين؟»

«ظننت أنه كان غريبًا بعض الشّيء، كمية الرسائل التي كانت

ترسلها، لكن... حسنًا، أنت تعلمين، هي لا تعمل، هذا واضح، لا أعرف إذا ما سبق لها أن عملت، حقًا، وهي لا تزال في تلك الشّقة اللعينة... مجرد ذلك قد يقودك إلى الجنون. لابد أنها تملك الكثير من الوقت – وفي الحال كانت الكثير من الرسائل الإلكترونية، اثنتان أو ثلاث في اليوم. كان رأيها أن المدرسة طردت الفتيان السّود ظلمًا. قمت ببعض التحقيقات، لكن بدا في هذا الحالة، حسنًا... شعرت إدارة المدرسة أنها تملك حجة قوية، ولم أتمكن من التعاطي معها أكثر. كتبت لها وكانت غاضبة للغاية، وأرسلت الكثير من الرسائل الإلكترونية الغاضبة، وفكرت أن ذلك كان نهاية الأمر، لكنه – كان البداية».

حكّت بقلق مؤخرة غطاء رأسها، ولاحظت أن الجلد أعلى عنقها كان متصلبًا بالإثارة.

«لكن أمي، لماذا قد تجيبين على أي شيء من تريسي؟» كنت أمسك جانبَي الطاولة، «لقد أخبرتك أنها ليست متزنة. لقد عرفت ذلك منذ سنوات!»

«حسنًا، أولًا إنها ناخبتي، وأنا دومًا أجيب على ناخِبِيّ. وعندما أدركت أنها تريسي – هي غيرت اسمها، كما تعلمين – لكن رسائلها الإلكترونية أصبحت غريبة... للغاية، مميزة للغاية».

«منذ متى يحدث هذا؟»

«حوالي ستة أشهر».

«لماذا لم تخبريني عنه من قبل!»

قالت: «عزيزتي»، وتململت متابعة: «متى كنت لأحظى بالفرصة؟»

فقدت الكثير من الوزن حتى أن رأسها البهي بدا مكشوفًا على عنقه الشّبيه بعنق طائر التّم، وهذه الرهافة الجديدة، هذا الملمح لزمن قاتل يعمل عليها كما يعمل على الجميع بالضبط، خاطبني بصوت أعلى

من صوت أي واحدة من التهم القديمة لتجاهل لائق بابنة. وضعتُ يدًا فوق يدها.

«غريب في أي نحو؟»

«أنا حقًا لا أريد أن أتحدث عنه هنا. سوف أرسل بعض من الرسائل الإلكترونية إليك».

«أمي، لا تكوني دراماتيكية للغاية. يمكنك أن تعطيني فكرة».

قالت والدموع تتجمع في عينيها: «إنها مهينة للغاية، ولم أكن أشعر أني بخير كثيرًا، وأنا أتلقى الكثير منها الآن، أحيانًا دزينة في اليوم، وأعرف أنها حماقة لكنها تزعجني».

«لماذا لا تدعي ميريام تعالج الأمر؟ هي تتعامل مع مراسلاتك، ألا تفعل؟»

استعادت يدها واستعادت وجه عضو البرلمان، ابتسامة حزينة شديدة مناسبة لأسئلة مغالبة حول الخدمة الصحية لكنها تخلع القلب عندما تُرى على طاولة عشاء.

«حسنًا، سوف تكتشفين عاجلًا أم آجلًا: لقد انفصلنا. أنا لا أزال في شقّة سيدموث رود. عليّ أن أبقى في الحي، بصراحة، ولن أجد صفقة أخرى مثل تلك، على الأقل ليس الآن، لذا طلبت منها أن تنتقل. بالتّأكيد، إنها تقنيًا شقتها، لكنها كانت متفهمة للغاية بهذا الشّأن، تعرفين ميريام. بأية حال، إنها ليست شأنًا كبيرًا، ليس هناك مشاعر حقد وأبقيناه بعيدًا عن الصّحف. لذا هذه نهاية الأمر».

«أوه أمي، أنا آسفة حقًا».

قالت: «لا تكوني آسفة، لا. بعض الناس لا يمكنهم التعامل مع امرأة تملك قدرًا معينًا من السّلطة، وذلك هو الحال تمامًا. لقد رأيته من قبل وسوف أراه ثانية، أنا واثقة. انظري إلى راج!» وكان قد مر وقت

طويل منذ فكرت بالناشط الشّهير باسمه الحقيقي حتى أدركت بأني نسيته. «فرّ مع تلك الفتاة الحمقاء حالما أنهيت كتابي! هل هو خطئي أنه لم ينه يومًا كتابًا؟»

لا، أكّدت لها، ليس خطأها أن راج لم ينهِ كتابه، عن جهد «الحمّالين» في جزر الهند الغربية – ولو أنه كان يعمل عليه طوال عقدين – بينما بدأت أمي كتابها عن ماري سيكول[53]، وأنهته في سنة ونصف. نعم، لدى الناشط الشّهير نفسه وحدها كي يلقي عليها باللائمة. «الرّجال سخفاء للغاية. لكن تبيّن أن النّساء كذلك. بأية حال، إنه أمر جيد بشكل من الأشكال... عند حدٍّ معين شعرت أنها تحاول أن تتدخل في طرق، حسنًا، هاجسها تجاه ممارسات عملنا في غرب أفريقيا، انتهاكات حقوق الإنسان، وهلم جرا – أعني، كانت تشجعني على طرح أسئلة في البرلمان – في مجالات أنا لست مؤهّلة حقًا للتطرق إليها – وفي النهاية أظن أن كل ما في الأمر بطريقة مضحكة كان محاولة لدق إسفين بيني وبينك...» دافع أقل أرجحية بالنسبة لميريام بالكاد استطعت تخيله لكني لم أنبس بكلمة. «وأنا أشيخ ولا أملك الطاقة التي كنت أملكها، وحقًا أرغب أن أركز على المسائل المحلية، ناخبي. أنا نائبة محلية وهذا ما أريد فعله. ليس لدي طموحات تتجاوز ذلك. لا تبتسمي عزيزتي أنا حقًا لا أملك، ليس بعد الآن. عند حد معين قلت لميريام: «انظري، هناك أناس يدخلون مكتبي في المجلس كل يوم من ليبيريا، من السّنغال، من غامبيا، من ساحل العاج! عملي عالمي. هذا هو مكان عملي. هؤلاء الناس قادمون من شتى أنحاء العالم إلى دائرتي الانتخابية على متن

53) Mary Jane Seacol (1805 - 1881) ممرضة جامايكية المولد من أصول كريولية واسكتلندية، أنشأت مستشفى ميدانيًا خلف خطوط القتال أثناء حرب القرم لإسعاف جرحى الحرب. كُرّمت بعد مرور أكثر من قرن على وفاتها بمنحها وسام الاستحقاق الجامايكي سنة 1991، واختيرت سنة 2004 أعظم شخص بريطاني أسود في التاريخ.

هذه المراكب الصغيرة الرهيبة، إنهم مصدومون، لقد شاهدوا أناسًا يموتون بأم أعينهم وهم قادمون إلى هنا. إن الكون يحاول أن يخبرني شيئًا. أشعر أن هذا هو العمل الذي ولدت لتأديته». مسكينة ميريام... نواياها حسنة للغاية، والله يعلم إنها منظمة جيدًا لكنها تفتقر إلى وجهة النظر أحيانًا. هي تريد أن تنقذ الجميع. وهذا النّوع من الأشخاص لا يصنع الشّريك الأفضل بالتّأكيد ولو أني سوف أعتبرها دومًا مديرة فعّالة للغاية». كان مؤثرًا وحزينًا بعض الشّيء. تساءلت فيما إذا وجدت نقشًا بارد على نحو مماثل من أجلي: لم تكن البنت الفُضلى، لكنها كانت شريكة عشاء مناسبة تمامًا.

سألت أمّي: «هل تظنين، هل تظنّينها مشوّشة... مريضة عقليًا أو...

«ميريام واحدة من أكثر النّاس الذين رأيتهم في حياتي سلامة عقل».

«لا، صديقتك تريسي».

«أتمنى لو تكفّي عن مناداتها بذلك!»

لكن أمي لم تكن تصغي إلي، كانت في حلمها الخاص: «أنت تعلمين، بطريقة ما... حسنًا، إنها في ذمتي. اعتقدت ميريام أن عليّ الذّهاب إلى الشّرطة للإبلاغ عن الرسائل في المقام الأول لكن... لا أعرف... عندما تكبرين، بطريقة ما أمور من الماضي... يمكن أن تثقل كاهلك. أتذكر عندما اعتادت أن تأتي لطلب النصح في المركز... بالتّأكيد لم أرَ مدوناتها، لكني أحسست بالتحدث مع الفريق هناك، ثمّة مشاكل، مسائل صحّة عقليّة، حتى في ذلك الحين. ربما أخطأت في منعها عن المجيء، لكن حقًا لم يكن سهلًا أن أمنحها الموضع في المقام الأول، وأنا آسفة لكن في ذلك الوقت شعرت حقًا وبصدق أنها انتهكت ثقتي، ثقتك، ثقة الجميع... كانت لا تزال طفلة بالتّأكيد، لكنها كانت جريمة – وكان

مبلغًا كبيرًا من النقود – أنا واثقة أنه ذهب كله إلى والدها – لكن ماذا لو ألقوا عليك باللائمة؟ في تلك اللحظة فكرت فقط أنه من الأفضل أن تقطعي كل اتصال. حسنًا، أنا واثقة أن لديك الكثير من الأحكام حول ما جرى – أنت دومًا لديك كثير من الأحكام – لكني أتمنّى لو أنك تفهمين أن أمر تنشئتك لم يكن سهلًا، لم أكن في وضع هين، وفوق كل شيء كنت أركز على محاولة تثقيف نفسي، أحاول تأهيل نفسي، ربما كثير من وجهة نظرك... لكن كان عليّ أن أصنع حياة من أجلك ومن أجلي. عرفت أن والدك لم يتمكن من فعلها. لم يكن قويًا بما فيه الكفاية. ما من أحد آخر كان ليفعلها. كنا وحدنا. وكنت أتعامل مع كثير من الأمور في نفس الوقت، هكذا بدا لي، و...» مدت يدها عبر الطاولة وأمسكت بمرفقي: «كان علينا أن نفعل المزيد – لنحميها!» شعرت بأصابعها تقرصني، هزيلة في قبضتها. «كنت محظوظة، امتلكت ذلك الأب الرائع. هي لم تملك ذلك. أنت لا تعلمين كيف يبدو ذلك لأنك محظوظة، ولدت محظوظة – لكني أعلم. وكانت جزءًا من عائلتنا، عمليًا!» كانت تتشفعني. الدموع التي كانت تتجمع انهمرت الآن.

«لا أمّي... لا، لم تكن. أنت تعجزين عن التّذكر: أنت لم تعجبي بها يومًا. من يعلم ماذا جرى في تلك العائلة أو ما احتاجت أن تحتمي منه؟ لم يخبرنا أحد يومًا – هي بالتّأكيد لم تفعل. كل عائلة في ذلك الممر امتلكت أسرارًا». نظرت إليها وفكرت: هل ترغبين بأن تعرفي أسرارنا؟ «أمي، أنت قلت للتو ذلك بنفسك: لا يمكنك أن تنقذي الجميع».

أومأت عدّة مرات ومسحت خديها المبللين بمنديل وقالت: «هذا صحيح، صحيح جدًا. لكن في الوقت نفسه ألا يمكنك دومًا أن تفعلي المزيد؟»

✧ خمسة ✧

رنّ هاتفي البريطاني صباح اليوم التالي، رقم لم أتعرف عليه. لم يكن رقم أمي، أو إيمي، أو أي من أبوي طفليها، أو أصدقاء الجامعة الثلاثة الذين أملوا، مرة أو مرتين في السّنة، بإغوائي للخروج لاحتساء شراب قبل إقلاع طائرتي. لم أعرف الصّوت أولًا أيضًا: لم أسمع ميريام أبدًا تبدو صارمة للغاية أو باردة.

سألتني بعد بضع ممازحات خرقاء: «لكنك تفهمين، أن أمك مريضة حقًا؟»

أستلقي على أريكة إيمي الرمادية المخملية أتطلع نحو حدائق كنسيجتين – صخر الاردواز رمادي، سماء زرقاء، بلوط أخضر – ووجدت عندما شرحت ميريام الوضع، أن هذا المنظر اندمج مع منظر سابق: اسمنت رمادي، سماء زرقاء، على قمم أشجار كستناء الحصان، بعد ويلزدن لين، نحو السّكة الحديدية. في الغرفة المجاورة استطعت سماع المربية، إستيل، تحاول ضبط طفلي إيمي، بتلك اللكنة المرحة التي ربطتها بلحظاتي السّابقة، بالتهويدات وقصص وقت الاستحمام وموعد النّوم، ضربات بمعالق خشبية. مصابيح سيارات عابرة ليلًا تنزلق على السّقف.

«مرحبًا؟ أما زلتِ هناك؟»

الطّور الثّالث: كان قد بدأ في عمودها الفقري. عملية جراحية

ناجحة جزئيًا، في شهر شباط الماضي (أين كنت في شباط؟). الآن هي هاجعة، فجلسة العلاج الكيماوي الأخيرة تركتها خائرة. عليها أن تستريح، أن تسمح لنفسها بالتعافي. كان جنونًا أنها لا زالت تذهب إلى المجلس، جنونًا أنها تخرج للعشاء، جنونًا أنني لم أمنعها.

«كيف لي أن أعرف؟ هي لم تخبرني».

سمعت ميريام تصدر صوتًا بأسنانها تعبيرًا عن امتعاضها مني.

«أي شخص يملك قدرًا من الإحساس فقط عليه أن ينظر إلى المرأة ليعرف أن هناك خطبًا!»

بكيت. أصغت ميريام بصبر. كانت فطرتي تدفعني لإنهاء المكالمة والاتّصال بأمي، لكن عندما حاولت أن أفعل هذا توسّلت ميريام ألا أفعل.

«هي لا تريدك أن تعرفي. هي تعلم أن عليك أن تسافري وأيما شيء – هي لا ترغب بتشويش خططك. قد تعرف أني أخبرتك. أنا الشّخص الوحيد الذي يعلم».

لم أتمكّن من احتمال هذه الرؤيا لنفسي كشخص تفضّل أمي الموت على أن تزعجه. لأتفاداها، رميت من حولي نظرات درامية، ودون أن أعرف حتى فيما إذا كان ممكنًا أم لا، عرضت خدمات أطباء إيمي الكثر الخاصين في شارع هارلي. قهقهت ميريام بحزن.

«خصوصيين؟ ألا تعرفين أمك الآن؟ لا، لو ترغبين بفعل شيء من أجلها، يمكنني أن أقول لك ما سوف يحدث فرقًا الآن في هذه اللحظة. هذه المرأة المجنونة التي تزعجها؟ لا أعرف لماذا يشغلها كثيرًا لكن يجب أن يتوقف، إنه كل ما يمكنها التفكير فيه – وهذا ليس جيدًا في وقت كهذا. هي أخبرتني أنها تحدثت معك عنه؟»

«نعم. كانت تنوي أن ترسل لي الرسائل الإلكترونية، لكنها لم تفعل».

«أنا أملكها، سأفعل ذلك».

«أوه، حسنًا... فكرت – أعني، قالت على العشاء أنكما...»

«نعم، نعم، منذ عدّة أشهر. لكن والدتك شخص سوف يكون في حياتي دومًا. هي ليست من الأشخاص الذين يغادرون حياتك بمجرد أن يحلوا فيها. بأيّة حال، عندما يمرض شخص تهتمين لأمره، كل الأمور الأخرى... تمضي وحسب».

بعد بضع دقائق من إنهائي المكالمة بدأت ترد الرسائل الإلكترونية، في دفعات صغيرة، إلى أن صار في حوزتي خمسون أو أكثر. جلست حيث كنت أقرأها، مندهشة بالحنق. أشعرتني قوتها بالنّقص – كما لو أن تريسي امتلكت تجاه أمي مشاعر أكثر مما أملك – حتى ولو أنها لم تكن تعبر عن الحب هنا بل الكراهية. مندهشة أيضًا، بكيف كتبت جيدًا، ليست مملة أبدًا ولو لثانية، لم يكن ما تعانيه من عسر القراءة يعيقها ولا الكثير من الأخطاء النحوية: كانت موهوبة في إثارة الاهتمام. لم يكن في وسعك أن تبدأ بقراءة واحدة دون أن ترغب في إنهائها. كانت تهمتها المركزية ضد أمي هي الإهمال: مشاكل ابنها في المدرسة، لشكاوى تريسي ورسائلها الإلكترونية، ولواجبها – أعني واجب أمي – أن تدفع قدمًا مصالح ناخبيها. وحتى أصدقك القول، لم تبدُ لي الرسائل الإلكترونية السّابقة مغالية، لكن حينها تريسي وسّعت دائرتها. تجاهل للمدارس الحكومية في المقاطعة، تجاهل الأطفال السّود في تلك المدارس، السّود في إنجلترا، الطبقة العاملة من السّود في إنجلترا، الأمهات العازبات، أطفال الأمهات العازبات، ولتريسي الطفلة الوحيدة لأم عازبة، كل تلك السّنوات الماضية. أثار اهتمامي أنها كتبت «أمًا عازبة» هنا، كما لو أن والدها لم يوجد على الإطلاق. تحولت إلى نبرة شاتمة سفيهة. بدت في بعض الرسائل الإلكترونية ثملة أو منتشية. سريعًا تحولت إلى مراسلة

من طرف واحد، تشريح منظّم لكل الطرق العديدة التي اعتقدت تريسي أن أمي خيبتها بها. أنت لم تعجبي بي يومًا، لم ترغبي بوجودي، حاولت إذلالي دومًا، لم أكن جيدة يومًا بما فيه الكفاية في نظرك، كنت خائفة من كونك محسوبة علي، أنت دومًا أبعدت نفسك، تظاهرت بأنك من أجل المجتمع لكنك كنت فقط من أجل نفسك، أبلغت الجميع بأني سرقت تلك النقود لكنك لم تملكي إثباتًا ولم تدافعي عني يومًا.

كان هناك شريحة كاملة من الرسائل اكتفت بالإشارة إلى المجمّع السّكني فقط. لم ينجز شيء لتحسين الوحدات التي عاش فيها سكان المجلس، كانت هذه الوحدات متروكة لتتدهور - جميعها تقريبًا الآن في المبنى الذي تقطنه تريسي - لم تمس منذ بداية الثمانينيات. في هذه الأثناء، المبنى في الجهة الأخرى من الطريق - العقار الذي كان المجلس الآن منكبّا على بيعه - امتلأ بأزواج شبان بيض البشرة وأطفالهم وبدا مثل «فندق منتجع لعين». وماذا كانت أمي ستفعل بشأن الفتيان الذين يبيعون الكوكايين على ناصية شارع توربای رود؟ إقفال بركة السّباحة؟ بيوت البغاء في ويلزدن لين؟ كانت على ذلك الشّكل: مزيجًا سرياليًا من ثأر شخصي، ذكرى مؤلمة، احتجاج سياسي ماكر، وشكاوى قاطنٍ محلي. لاحظت أن الرسائل ازدادت طولًا مع مرور الأسابيع، تبدأ بفقرة أو اثنتين وتتوسع إلى آلاف وآلاف الكلمات. في الرسائل الأحدث انبثقت بعض التخيلات والتفكير التآمري، تذكرته من قبل عشر سنوات مجددًا، بالروح إن لم يكن حرفيًا. لم تظهر السّحالي: الآن ملّةٌ بافارية سريّة من القرن الثّامن عشر نجت من قمعها الذاتي وكانت تعمل في العالم الراهن، أعضاؤها كثير من السّود المتنفذين والمشاهير - مرتبطين بنخبة من البيض واليهود - وكانت تريسي تبحث عن كل هذا بعمق شديد فيما قناعتها تزداد أن أمي قد تكون نفسها

أداة لهؤلاء الناس، أقلية لكن خطرة، تمكنت من شق طريقها في قلب الحكومة البريطانية.

بعد منتصف النهار قرأت الرسالة الإلكترونية الأخيرة، ارتديت معطفي ومشيت على الطريق وانتظرت الحافلة رقم 52. نزلت عند محطة بروندسبري بارك، مشيت على طول جادة كريست تشرش، وصلت إلى المبنى الذي تقيم فيه تريسي، صعدت الدّرج وقرعت الجرس. لابد أنها كانت في الرواق لأنها فتحت الباب مباشرة، على وركها رضيعة حديثة الولادة تبلغ من العمر أربعة أو خمسة أشهر، وجهها محول عني. من خلفها تمكنت من سماع أصوات المزيد من الأطفال، يتجادلون، وشاشة تلفاز بصوت مرتفع. لا أعرف ماذا توقعت، لكن المرأة الواقفة أمامي كانت في خريف العمر، ممتلئة الجسم، قلقة ترتدي بنطال بيجاما قطنيًا سميكًا، خفين منزليين وقميصًا فضفاضًا أسود كُتب عليه كلمة واحدة: أطع. بدوت أصغر سنًا منها بكثير.

قالت: «إنها أنت». وضعت يدا حامية على ظاهر رأس طفلتها: «تريسي، يجب أن نتحدّث».

صرخ صوت من الدّاخل: «أمي! من الطّارق!»

«نعم، حسنًا، أنا أحضّر الغداء؟»

قلت: «أمي تُحتضر» - عادت عادة الطفولة القديمة تلك في المبالغة تلقائيًا إلي - «وعليك أن تكفي عما أنت...»

حينها بالضبط مدّ طفلاها الأكبر سنًا رأسيهما من الباب ليحدقا بي. بدت الفتاة بيضاء، ذات شعر بني مموج وعينين خضراوين مائلتين إلى الزرقة. امتلك الفتى لون بشرة تريسي وتسريحة شعر أفرو نابضية، لكن لم يبدُ مثلها: لا بد أنه أشبه بوالده. كان لون بشرة الطفلة أكثر دكنة من لون بشرتنا جميعًا وعندما أدارت وجهها نحوي رأيت أنها

كانت شبه تريسي وجميلة بما لا يصدق. لكنهم جميعًا كانوا كذلك.

«هل يمكنني الدّخول؟»

لم تجب. تنهّدت، دفعت الباب وفتحته بقدمها المنتعلة خفًّا وتبعتها إلى الدّاخل.

سألتني الفتاة الصّغيرة: «من أنت، من أنت، من أنت؟» وقبل أن تحصل على جواب دسّت يدها في يدي. عندما مشينا عبر الردهة، رأيت أني قاطعت عرضًا لفيلم ساوث باسيفيك الموسيقي. هذا التفصيل زعزعني، وجعل من الصّعب أن أضع نصب عيني تريسي الحاقدة صاحبة الرسائل الإلكترونية، أو تريسي التي دسّت تلك الرسالة عبر بابي قبل عشر سنوات. عرفت تريسي التي بددت أصيلًا وهي تشاهد ساوث باسيفيك وأحببت تلك الفتاة.

سألتني ابنتها: «تحبينه؟» وعندما قلت إني أحبه، شدّت ذراعي إلى أن جلست على الأريكة بينها وبين أخيها الأكبر الذي كان يلعب على هاتف. كنت قد اجتزت محطة برونDسبوري بارك يملؤني غضب مبرر، لكن الآن بدا ممكنًا تمامًا أني قد أجلس على هذه الأريكة وأمضي الأصيل في مشاهدة ساوث باسيفيك ويد فتاة صغيرة استكنّت في يدي. سألتها عن اسمها.

«ماريا ميمي اليسيا شانتيل!»

قال الفتى دون أن يرفع بصره: «اسمها جيني»، فكرت أنه بدا في الثامنة، وجيني في الخامسة أو السّادسة.

سألت: «وما اسمك؟» منكمشة لسماع صوت أمها فيّ، أتحدث إلى كل الأطفال، مهما كان عمرهم كما لو كانوا ناضجين.

قال مقلّدًا نبرتي، جاعلًا نفسه يضحك - كانت الضحكة ضحكة تريسي خالصة: «اسمي بو! وما قصتك أيها الآنسة المرأة؟ هل

أنت من قسم العناية الاجتماعية؟»

«لا، أنا صديقة أمك. نشأنا معًا».

قال: «أمم، ربما»، كما لو أن الماضي كان افتراضًا أمكنه أن يصدقه أو يتركه. أعاد نفسه إلى اللعبة التي كان يلعبها. «لم أركِ من قبل قط، لذلك انتابتني الشكوك».

قالت جيني مبتهجة مشيرة إلى الشّاشة: «هذا المقطع حديث سعيد!».

وقلت: «نعم، لكن عليّ أن أتحدث إلى والدتك»،

على الرغم من أن كل شيء في داخلي أراد البقاء على الأريكة، ممسكة بيدها الحارة الصّغيرة أشعر بركبة بو تستند على ركبتي عن غير قصد.

«حسنًا، لكن عودي مباشرة بعد أن تنهي حديثك!»

كانت تقعقع في المطبخ وطفلتها الرضيعة على وركها ولم تتوقف عندما دخلت.

وجدت نفسي أقول: «ولدان عظيمان، عذبان وذكيان»، عندما كومت الأطباق وجمعت أدوات المائدة فتحت الفرن تقريبًا حك الجدار المقابل. «ماذا تصنعين؟»

دفعت الباب مغلقة إياه ثانية ونقلت طفلتها إلى الجانب المقابل وهي تدير ظهرها لي. كان كل شيء معكوسًا بطريقة خاطئة: كنتُ المضطربة الاعتذارية، هي في مكان الاستقامة. بدت الشّقة نفسها تستخلص هذا الدور الخنوع مني. على مسرح حياة تريسي لم أمتلك دورًا آخر أؤديه.

قلت ثانية: «أنا حقًا يجب أن أتحدّث معك»، التفتت. كانت تتلبس ملامح وجه لائقة، كما اعتدنا أن نقول، لكن عندما التقت

عينانا ابتسمنا دون قصد. كانت ابتسامة متكلفة متبادلة.

قالت وهي تستعيد ملامحها السّابقة: «حتى أني لا أضحك، مع ذلك، وإذا أنت تأتين إلى هنا فقط لتضحكي معي من الأفضل أن تغادري ثانية لأني لست قادرة على ذلك».

«أتيت إلى هنا لأطلب منك أن تكفي عن مضايقة أمي».

«هل ذلك ما قالته لك!»

«تريسي، قرأت رسائلك الإلكترونية».

وضعت الطفلة على كتفها وبدأت تهزهزها وتربت على ظهرها مرارًا وتكرارًا.

قالت: «اسمعي، أعيش في هذه المنطقة، بخلافك. أرى ما يجري. يمكنهم أن يتحدثوا في البرلمان بقدر ما يشاؤون، لكني على الأرض هنا وأمك قصدت أن تكون نائبة عن هذه الشوارع. هي تظهر على التّلفاز كل ليلة، لكن هل ترين أي شيء مختلف هنا؟ حصل فتاي على 130 درجة الذكاء – لا بأس؟ لقد أختبر. هو يعاني من متلازمة قصور الانتباه وفرط النّشاط، دماغه يعمل بسرعة كبيرة، وهو سئم كل يوم في ذلك المكان القذر. نعم، هو لديه مشكلة. لأنه سئم. وكل ما يستطيع هؤلاء المدرّسون أن يفكروا بفعله هو طرده!»

«تريسي، لا أعرف أي شيء عن ذلك – لكن لا يمكنك فقط – »

«أوه، كفي عن التشديد، افعلي شيئًا مفيدًا. ساعديني لأدخل هذه الأطباق».

ناولتني إياهم، وضعت أدوات المائدة فوقهم ووجهتني لأعود إلى غرفة الجلوس، حيث وجدت نفسي أعد الطاولة الصغيرة المدورة لعائلتها، تمامًا كما فعلت مرة موعد الشّاي من أجل دُماها.

قالت: «وجبة الغداء جاهزة!» فيما بدا أن يكون تقليدًا لصوتي.

صفعت على نحو لعوب الطفلين الأكبر سنًا على مؤخرة رأسيهما.

قال بو: «إذا كانت اللازانيا ثانية سوف أشرع بالبكاء جاثيًا على ركبتي».

وقالت تريسي: «إنها لازانيا»، وبو زيّف الوضعية وعلى نحو هزلي وضرب الأرض بقبضتيه.

قالت تريسي: «انهض أيها الجوكر»، وكانوا جميعًا يضحكون، ولم أعرف كيف أواصل مهمتي. إلى الطاولة جلست بهدوء بينما تجادلوا وضحكوا على كل أمر تافه، يبدو الجميع أنهم يتحدثون بصوت مرتفع قدر الإمكان، يشتمون بحرية، والطفلة لا تزال على ركبة تريسي، تتقافز أعلى وأسفل بينما تناولت تريسي الطعام بيد وتمازحت مع طفليها، وربما هكذا كانت أوقات غدائهم تسير دومًا، لكني لم أتمكن من نزع الشّك من نفسي، كان أيضًا من ناحية طريقة تريسي للقول: انظري إلى امتلاء حياتي. انظري إلى فراغ حياتك.

سألت فجأة مقاطعة إياهم جميعًا: «ألا تزالين ترقصين؟ أعني باحتراف؟»

هدأت الطاولة والتفتت تريسي نحوي.

«هل أبدو كما لو أني لا أزال أرقص؟» نظرت إلى نفسها وحول الطاولة وضحكت بقسوة. «أعرف أني كنت الذكية لكن... لكنك تعرفين كيف هو الحال».

«أنا – لم أخبرك يومًا، تريسي، لكني رأيتك في عرض المسرح العائم».

لم تبد متفاجئة ولو قليلًا. تساءلت فيما إذا لمحتني في ذلك الحين.

«نعم، حسنًا، ذلك كله تاريخ عتيق. أمي مرضت، لم يكن هناك

أحد ليعتني بالأولاد... وأصبح الوضع قاسيًا للغاية. أنا أيضًا عانيت من أمور صحية. لم يكن من أجلي».

«ماذا عن والدهم؟»

«ماذا عن والدهم ماذا؟»

«لماذا لا يمكنه الاعتناء بهم؟» كنت أستعمل المفرد عن عمد، لكن تريسي دومًا يقظة للتلميح أو الرياء، لم تكن مخدوعة به.

«حسنًا، كما يمكنك أن تري، جربت الفانيليا، القهوة بالحليب، والشوكولا، وهل تعلمين ما الذي استنتجته؟ من الدّاخل، هم جميعًا متشابهون: رجال».

كنت مشوّشة بلغتها، لكن الأولاد - تحولت كراسيهم نحو ساوث باسيفيك - لم يبد أنهم يلاحظون أو يهتمون.

«ربما المشكلة هي نوع الرّجال الذين تختارينهم».

قلبت تريسي عينيها: «شكرًا لك، دكتور فرويد! لم أفكر في ذلك! أي جواهر أخرى من الحكمة من أجلي؟»

بقيت هادئة وتناولت اللازانيا، لا تزال جزئيًا متجمدة في الوسط، لكنها لذيذة. ذكرتني بوالدتها وسألت عن حالها.

«فارقت الحياة منذ بضعة أشهر. أليس صحيحًا، أيتها الأميرة؟ ماتت».

«جدتي ماتت، ذهبت إلى الملائكة!»

«نعم. نحن فقط الآن. نحن بخير، مع ذلك. هؤلاء العمال الاجتماعيّون يواصلون إزعاجنا، لكننا بخير. أربعة جنود مسلحين».

«أحرقنا جدتي في نار كبيرة!»

استدار بو: «يا لك من بلهاء - نحن لم نحرقها، هل فعلنا؟ كما لو أننا فقط وضعناها على نار مضرمة أو شيء ما! كانت مرمّدة.

إنه أفضل من أن تعلقي في الأرض، في صندوق مغلق. لا شكرًا لك. هكذا أرغب أن يفعلوا بي أيضًا. كانت جدتي مثلي، لأنها كرهت الأماكن المغلقة. كانت تعاني من رهاب الاحتجاز. لهذا السّبب كانت تستعمل السّلالم دومًا».

ابتسمت تريسي بحنان لبو ومدت يدها نحوه، تجنبها وتفاداها.

تمتمت لنفسها تقريبًا: «مع ذلك رأت الأطفال. حتى بيلّا الصّغيرة. هذا يجعلني أشعر بشيء من الارتياح بهذا الشأن».

رفعت بيلّا عاليًا نحو شفتيها وقبلتها على أنفها. ثم تطلعت نحوي وأومأت نحو رحمي: «ماذا تنتظرين؟»

دفعت أنفي في الهواء، مدركة متأخرة جدًا أنها كانت إيماءة مستعارة – إيماءة كنت أستعملها لسنوات في لحظات من الفخر أو العناد – وانتمت على نحو ملائم إلى المرأة الجالسة قبالتي.

قلت: «الظرف المناسب، التوقيت المناسب».

ابتسمت، نفس القسوة القديمة على وجهها وقالت: «أوه، حسنًا. حظًا طيبًا مع ذلك. مضحك، أليس كذلك» مضخمة لهجتها لإحداث الأثر، وملتفتة نحو شاشة التّلفاز، ليس نحوي: «أناس أثرياء بدون أولاد، أناس فقراء مع الكثير. بالتّأكيد والدتك سيكون عندها الكثير لتقوله بذلك الشّأن».

أنهى الأولاد تناول طعامهم. تناولت أطباقهم وأخذتها إلى المطبخ وجلست هناك لدقيقة على مقعد عال، أتنفس بانتباه – كما علّمتنا مدرّسة إيمي لليوغا جميعًا كيف نفعل – وأنظر عبر شريط النافذة نحو أماكن ركن السيارات. هناك أجوبة أردتها منها، عائدة طريقًا طويلًا إلى الوراء. كنت أحاول أن أعرف كيف أعيد دخول غرفة الجلوس بطريقة تعيد الأصيل لصالحي، لكن قبل أن أعرف ذلك دخلت تريسي وقالت:

«الأمر هو، ما بيني وبين والدتك هو بيني وبين والدتك لا أعرف حتى لماذا أتيت إلى هنا صدقًا».

«أنا فقط أحاول أن أفهم لماذا قد...»

«نعم، لكن ذلك هو الأمر! لا يمكن أن يكون هناك سوء فهم بينك وبيني بعد الآن! أنت جزء من نظام مختلف. أمثالك يفكرون بأن في وسعك أن تتحكمي بكل شيء. لكنك لا تستطيعين أن تحكميني!»

«أمثالي؟ عم تتحدثين؟ تريسي، أنت امرأة ناضجة الآن، لديك ثلاثة أطفال جميلين، أنت حقًا يجب أن تسيطري على هذا النّوع الوهمي...»

«يمكنك أن تسميه بأي اسم مبهرج تودينه، حبيبتي: هناك نظام، وأنت وأمك اللعينة كليكما جزء منه».

نهضت.

قلت عندما خرجت بشكل هادف من المطبخ، تتبعني تريسي عبر غرفة الجلوس نحو الباب الرئيس: «كفّي عن مضايقة عائلتي، تريسي، لو يستمر سوف تتدخل الشّرطة».

قالت «نعم، نعم، واصلي السّير، واصلي السّير»، وصفقت الباب من خلفي.

ستة

في بداية شهر كانون الأول عادت إيمي لتتحقق من تقدم سير العمل في أكاديميتها، مسافرة مع جمع أصغر - جرانجر، جودي، وكيلة بريدها الإلكتروني الغافلة، ماري بيث، فرن وأنا - دون صحافة ومع برنامج محدد: أرادت اقتراح عيادة صحة جنسية ضمن ساحات المدرسة نفسها. لم يعارض مبدئيًا، لكن كان أيضًا في غاية الصّعوبة أن تجد طريقة ليُشار على الملأ إليها كونها عيادة صحة جنسية أو كيف يمكن الإعلان عن استطلاعات فِرن المحتاطة حول الحساسية الجنسية للفتيات المحليات - التي جمعها ببطء، وبقدر كبير من السّرية، من بعض المدرسات اللواتي جازفن كثيرًا بالتحدث معه - للقرية دون أن تسبّب بلبلة بين الأشخاص وأذية، وربما نهاية مشروعنا برمته. سحابة الرحلة على متن الطائرة ناقشنا الأمر. حاولت بشكل متعثر أن أتحدث مع إيمي حول الحاجة إلى الدّقة، وما عرفته عن البيئة المحلية، أفكر، واضعة في ذهني هاوا، بينما ناقش فِرن على نحو أكثر بلاغة، تدخلات سابقة لمنظمة غير حكومية طبية ألمانية في قرية قريبة ينتمي سكانها إلى قبيلة الماندينكا، حيث مورس ختان الإناث، والممرضات الألمانيات وجدن طرقًا ملتوية حققت اجتذابًا حيث استهجنت طرق أكثر مباشرة. قطبت إيمي على هذه المقارنات من ثم استأنفت ثانية من حيث توقفت: «انظري، حدث لي في بنديجو، حدث لي في نيويورك، يحدث في كل مكان.

إنه ليس عن بيئتك المحلية – هذا في كل مكان. كان لدي عائلة كبيرة، أبناء عم يأتون ويذهبون – أعرف ما يجري. وسوف أراهنك بمليون دولار أن تذهبي إلى أي قاعة دراسية تشمل ثلاثين فتاة في أي مكان في هذا العالم وسوف يكون هناك واحدة على الأقل تملك سرًّا لا يمكنها البوح به. أتذكر. لم يكن لدي مكان أذهب إليه. أريد أن يكون لأولئك الفتيات مكان يذهبن إليه!»

إلى جانب شغفها وتعهدها بدت مؤهلاتنا ومخاوفنا محدودة ومثيرة للشفقة، لكننا تمكنا من حملها على تغيير رأيها والاكتفاء بكلمة «عيادة»، والتشديد – على الأقل عند مناقشة العيادة مع أمهات محليات – على الصّحة الطمثية، التي كانت مضاعفاتها للكثير من الفتيات أكبر من قدرتهن على دفع ثمن المنتجات الصحيّة. لكن شخصيًا لم أفكّر في أن إيمي مخطئة: تذكرت قاعات دروسي الخاصّة، صفوف الرّقص، باحات اللعب، المجموعات الشّبابية، حفلات أعياد الميلاد، ليالي توديع العزوبية. أعرف أنّ هناك دومًا فتاة تحمل سرًّا، شيئًا خفيًّا ومنكسرًا فيها. وبالسّير عبر القرية مع إيمي، أدخل بيوت الناس، أصافحهم، أتناول طعامهم وشرابهم، يعانقني أطفالهم، غالبًا فكرت أنني رأيتها ثانية، تلك الفتاة التي تعيش في كلّ مكان وفي كل الأزمان في التاريخ، التي تكنس الباحة أو تصب الشّاي أو تحمل طفل شخص آخر على وركها، وتتطلع نحوك بسِرٍّ لا يمكنها إفشاؤه.

كان يومًا أولًا عسيرًا. سررنا لعودتنا وكان هناك متعة غير متوقعة في الطّواف في قرية لم تعد غريبة للغاية أو مستهجنة بالنّسبة لنا، برؤية وجوه مألوفة – في حالة فِرن، الأشخاص الذين أصبحوا أصدقاء أعزاء – ومع ذلك كنا جميعًا أيضًا متوترين لأننا عرفنا أن إيمي، ولو أنها واظبت على أداء واجباتها، وابتسمت في الصّور التي كلف

جرانجر بالتقاطها، كان عقلها متخمًا بلامين. كل بضع دقائق حملقت في ماري بيث، التي حاولت الاتصال ثانية لكنها لم تحصل إلا على بريد صوتي. سألنا عنه في بعض المساكن المتصلة بمسكن لامين بصلة الدم أو الصّداقة، لكن لم يبد أن أحدًا يعرف مكانه، لقد رأوه البارحة أو في الصّباح الباكر، ربما ذهب إلى بارا أو بانجول، ربما إلى السّنغال ليرى العائلة. مع الأصيل المتأخر كانت إيمي تكافح لإخفاء حنقها. كان يفترض بنا أن نسأل الناس عن شعورهم حيال التغييرات في القرية، وما المزيد الذي أرادوا أن يروه، لكن إيمي شعرت بالسّأم إذا تحدث الناس إليها لأي مدة من الوقت وبدأنا ندخل ونخرج من باحات الدّور بسرعة كبيرة، مسببين أذية. أردت أن أتريث: تساءلت فيما إذا ستكون هذه زيارتنا الأخيرة وشعرت ببعض الإلحاح أن أتذكر كل ما رأيته، أن أدمغ القرية في الذاكرة، ضوءها المستمر، الأخضر والأصفر، تلك الطيور البيضاء بمناقيرها الحمراء القانية، والناس، شعبي. لكن في مكان ما في هذه الشّوارع كان شاب يختفي عن إيمي، شعور مخزٍ وجديد عليها، هي التي كانت دومًا الشّخص الذي هرع الناس نحوه. لتفادي التفكير في هذا، أمكنني أن أرى، أنها كانت مصممة على المضي، وبقدر ما أبطلت مآربها مآربي، شعرت نحوها بالأسف. كنت أصغرها باثنتي عشرة سنة لكني أنا أيضًا شعرت بعمري بين كل تلك الفتيات الصّغيرات للغاية اللاتي التقينا بهنّ في كل دار، جميلات للغاية، يواجهننا نحن الاثنتين في ذلك الأصيل الحار بالأمر الوحيد، ما من قدر من القوة أو المال يمكن أن يعود إليك مرة ثانية ما إن يرحل. قبل مغيب الشّمس تمامًا انتقلنا إلى أقصى شرق القرية، على الحدود حيث لم تعد قرية وأصبحت الأجمة مرة أخرى. لم يكن يوجد مساكن هنا، فقط أكواخ من الحديد المموج، وكان في واحدة من هذه أن التقينا بالطفلة. بتنا منهكين للغاية، والحر على أشده، لم

نلاحظ للوهلة الأولى أنه كان هناك شخص آخر في المكان الصغير سوى المرأة التي كانت إيمي تصافحها حاليًا، لكن عندما خطوت لأفسح المجال لجرانجر كي يدخل ويبتعد عن الشّمس، رأيت طفلة ممددة على قطعة قماش على الأرض، وفتاة أخرى في التاسعة من عمرها تقريبًا، إلى جانب الطفلة، تلاطف وجه الطفلة. كنا قد رأينا الكثير من الأطفال بالتّأكيد لكن ما من واحد منهم كان بحداثة سن هذه: كان عمرها ثلاثة أيام. لفتها المرأة ومررت اللفافة الصّغيرة إلى إيمي، التي أخذتها في ذراعيها ووقفت هناك تحدّق بها، دون أن تطلق أي تعليق من التعليقات المعتادة التي يشعر الناس أن عليهم قولها عندما يحملون مولودًا حديث الولادة. اقتربنا أنا وجرانجر وأطلقنا هذه التعليقات: فتى أو فتاة، يا لجمالها، يا لصغرها، يا لها من عينين، يا له من شعر جميل أسود كثيف.

كنت أقول هذه الأمور تلقائيًا – رددتها مرات كثيرة من قبل – إلى أن نظرت إليها. كانت عيناها واسعتين، برموشها الرائعة، سوداء وأرجوانية غير مركزة. مهما حاولت أن ألفت نظرها ما كانت لتلتفت نحوي. كانت إلهًا صغيرًا يرفض أن يرحمني، ولو أني كنت راكعة على ركبتي. أمسكت إيمي الطفلة بإحكام والتفتت عني ووضعت أنفها على شفتي الطفلة الصغيرتين. خرج جرانجر ليتنفس قليلًا. اقتربت أكثر ثانية من إيمي ومددت عنقي نحو الطفلة. مرّ الوقت. كلانا جنبًا إلى جنب متدانيتين على نحو كريه نتعرق على بعضنا لكن كلانا غير راغبتين بالمجازفة بالابتعاد عن مدى رؤية الطفلة. كانت الأم تتحدث لكني لا أظن أن واحدة منا سمعتها. أخيرًا التفتت إيمي على مضض ووضعت الطفلة في ذراعي. إنه أمر كيميائي ربما مثل هرمون الدوبامين الذي يفيض عبر الناس في الحب. بالنسبة لي كان غرقًا. لم أختبر يومًا أي شيء مثله من قبل أو من بعد. قال رجل بشوش كان قد ظهر من مكان ما: «تعجبك؟

تعجبك؟ خذيها إلى لندن! هاها! تعجبك؟» بطريقة ما أعدتها إلى أمها. في الوقت نفسه، في مكان ما من مستقبل بديل، ركضت خارجة مباشرة من هناك والطفلة بين ذراعي، هتفت لسيارة أجرة إلى المطار، وطرت إلى الوطن. عندما غربت الشّمس ولم يعد هناك المزيد لفعله في طريق الزيارة، قررنا أن ننهي اليوم ونجتمع صباح اليوم التالي للقيام بجولة في المدرسة واجتماع القرية. إيمي والبقية تبعوا فِرن إلى المنزل الزهري. أنا وقد كان لدي الفضول لأعرف ما حدث من تغيرات منذ زيارتي الأخيرة، توجهت إلى دار هاوا. في ظلمة مطبقة شققت طريقي ببطء شديد نحو ما اعتقدت أنه التقاطع الرئيس، أمد يدي نحو جذوع الأشجار مثل شخص ضرير، ومندهشة عند كل منعطف بالبالغين الكثر والأطفال الذين شعرت بهم يمرون بي، مشوا بسرعة وبفعالية، دون كشّافات، إلى وُجهتهم. وصلت نحو التقاطع وكنت على مسافة خطوات من باب هاوا عندما ظهر لامين بجانبي. عانقته وقلت له إن إيمي كانت تبحث عنه في كل مكان وتوقعت أن تراه غدًا.

«أنا هنا. لم أكن في أي مكان».

«حسنًا، أنا ذاهبة لأرى هاوا هل ستأتي؟»

«لن تجدها. ذهبت منذ يومين لتتزوج. سوف تعود للزيارة غدًا، تودّ أن تراكِ».

أردت أن أواسي، لكن لم أجد عبارة مناسبة.

كررت: «يجب أن تأتي إلى جولة المدرسة غدًا، إيمي بحثت عنك طوال النهار».

ركل حجرًا على الأرض.

«إيمي سيدة لطيفة للغاية، هي تساعدني وأنا شاكر لها، لكن»، توقّف عن المتابعة، مثل رجل يسيء أداء قفزة طويلة، لكن

حينها فجأة قفز بأية حال: «هي امرأة مسنة! وأنا شاب. والشّاب يريد أن ينجب أطفالًا!»

وقفنا عند باب هاوا، ننظر إلى بعضنا. كنا متقاربين للغاية، شعرت بأنفاسه على عنقي. أظن أنني عرفت حينها أنه سوف يحدث بيننا ما سيحدث، تلك الليلة، أو الليلة التالية، وأن ذلك قد يكون مواساة مقدّمة بالجسد، في غياب أي حلّ أكثر وضوحًا أو فصاحة. لم نتبادل القبل، ليس في تلك اللحظة، هو حتى لم يمد يده نحو يدي. لم يكن هناك داع. نحن كلانا فهمنا أنه كان منبتّا سلفًا. قال أخيرًا وهو يفتح باب مسكن هاوا كما لو أنه بيته: «حسنًا، ادخلي، أنت هنا، والوقت متأخر. سوف تأكلين هنا». واقفة على الشّرفة أنظر إلى الخارج في نفس البقعة تقريبًا التي رأيته فيها سابقًا، كان بابو شقيق هاوا. تبادلنا التحية بمودة شديدة: مثل كل شخص التقيته اعتبر حقيقة أني اخترت العودة مرة ثانية كنوع من الفضيلة في ذاتها، أو تظاهر أنه يجدها هكذا. اكتفى بالإيماء للامين إما بسبب الألفة أو الجمود، لم أستطع أن أعرف. لكن عندما سألت عن هاوا قسا وجهه بشكل حاسم.

«كنت هناك البارحة لحضور الزواج، الشّاهد الوحيد. بالنسبة لي لا أهتم إذا كان هناك مغنّون أو فساتين أو أطباق كبيرة من الطعام – لا شيء منها يهمني. لكن جداتي! أوه، كانت قد شنت حربًا في هذا المكان! سيتوجب عليّ الإصغاء إلى نساء يشتكين حتى آخر أيامي!»

«هل تظن أنها سعيدة؟»

ابتسم كما لو أني كنت أطرح سؤالًا محرجًا بطريقة ما.

«آه، نعم – بالنسبة للأميركيين هذا يشكل السّؤال الأكثر أهمية دومًا!»

جلب لنا العشاء، وليمة حقًا وأكلنا في الخارج والجدات تشكل

حلقة مهذارة عند الطرف الآخر من الشّرفة، يتطلعن نحونا بين الحين والآخر لكن منشغلات للغاية بنقاشهن فلم يمنحننا كثيرًا من الاهتمام. كان يوجد مصباح شمسي عند أقدامنا أضاءنا من أسفل: تمكنت من رؤية طعامي والأجزاء السفلية من وجه كل من لامين وشقيق هاوا، من ثم خلف المكان كانت الجلبة المعتادة المتشاغلة للعمل المنزلي والأطفال ضاحكين، باكين، صارخين، وأناس يعبرون الباحة جيئة وذهابًا إلى المراحيض الخارجية العديدة. الذي لم تسمعه كان أصوات الرّجال، لكن الآن سمعت البعض عن قرب شديد، ولامين وقف فجأة وأشار إلى جدار المسكن، حيث عند كل جانب من جوانب عتبة الباب، نصف دزينة من الرّجال الآن جلسوا سيقانهم متجهة نحو الطريق. دنا منهم لامين خطوة، لكن شقيق هاوا أمسكه من كتفه وأجلسه، مقتربًا هو بدلًا منه، واثنتين من جدّاته إلى جانبه. رأيت واحدًا من الشّبان كان يدخن في باحتنا، لكن عندما وصل شقيق هاوا إليهم تبيّن أنها محادثة سريعة: قال شيئًا، ضحك فتى، جدة قالت شيئًا، تحدّث ثانية بحزم أكبر، وست مؤخرات انزلقت خارج مدى الرؤية. الجدة التي تحدثت فتحت الباب وشاهدتهم يمشون على الطريق. ظهر القمر من خلف غطاء من السحب ومن حيث وقفت استطعت أن أرى واحدًا منهم على الأقل يحمل سلاحًا على ظهره.

قال شقيق هاوا وهو يعاود الانضمام إلي: «إنهم ليسوا من هنا، إنهم من الطرف الآخر للبلاد». هو لا زال يتلبس ابتسامة غرفة المؤتمرات الباردة، لكن خلف نظارته المبتكرة استطعت أن أرى في عينيه كم كان مهزوزًا: «نراه أكثر فأكثر. يسمعون أن الرئيس يريد أن يحكم لبليون عام. إنهم يفقدون صبرهم. بدأوا يستمعون إلى أصوات أخرى. أصوات أجنبية. أو صوت الله، إذا كنت تؤمنين، هذا يمكن أن

يشتري على شريط كاسيت كاسيو مقابل 25 دالاسي في السّوق. نعم، فقدوا الصبر ولا ألومهم. حتى لامين الهادئ، لامين الصابر – هو أيضًا فقد صبره».

مد لامين يده ليتناول شريحة من الخبز الأبيض لكنه لم يتحدث. سأل بابو عن لامين بنبرة مفعمة بالحكم وباللوم: «ومتى تغادر؟» استنتجت أنه أشار إلى الطريق الخلفي، لكنهما كلاهما ضحكا من الذعر الذي لا بد عبر وجهي: «لا، لا، لا، سوف يمتلك أوراقًا رسميّة. كل شيء رتب، بفضلكم أنتم الذين هنا. نحن الآن نفقد شباننا الأكثر تألقًا، والآن تأخذون واحدًا آخر. إنه لمحزن لكن ما باليد حيلة ».

قال لامين متجهمًا: «أنتَ غادرت». وسحب حسكة من فمه.

«ذلك كان وقتًا مختلفًا. لم أكن ضروريًا هنا».

«أنا لست ضروريًا هنا».

لم يجب بابو، ولم تكن أخته موجودة لتملأ الفراغات بيننا بالثرثرة. عندما أنهينا وجبتنا الهادئة، استبقت هؤلاء الخدم الأطفال الكثر، جمعت الأطباق معًا ودخلت بالاتجاه الذي رأيت تلك الفتيات يذهبن منه نحو الغرفة الأخيرة في المبنى، التي اتضح أنها غرفة نوم. وقفت في الضّوء الشّاحب، غير واثقة ماذا أفعل تاليًا، عندما واحد من نصف دزينة من الأطفال النائمين هناك، رفع رأسه من سريرهم المفرد وقد رأى الحمل في ذراعي وأشار لي عبر السّتارة. وجدت نفسي في الخارج، في الباحة ثانية، لكن هذه كانت الباحة الخلفية، وهنا كانت الجدات وبعض الفتيات الأكبر سنًا جاثمات حول عدة أحواض من المياه كانت فيها الملابس تغسل بألواح كبيرة من الصّابون الرمادي. أضاءت حلقة من المصابيح الشّمسية المشهد. عندما اقتربت منهم توقّف العمل لمراقبة عرض حي للحيوان: ديك صغير يطارد دجاجة، يتغلّب عليها واضعًا

مخلبه على عنقها، يدفن رأسها في التراب، يمتطيها أخيرًا. استغرقت هذه العملية دقيقة وحسب، لكن بدت الدجاجة سئمة، هلوعة للقيام بمهماتها الأخرى، لذا بدا إحساس الدّيك الهمجي بسلطته عليها هزليًا بطريقة ما. صرخت واحدة من الجدات وهي تلمحني مشيرة إلى الدّيك: «رجل كبير! رجل كبير!» ضحكت النّساء، أطلق سراح الدجاجة: تجوّلت في حلقة مرة، مرتين، ثلاث مرات، دائخة فيما يبدو، قبل أن تتحوّل نحو القنّ ونحو أخواتها وأولادها. وضعتُ الأطباق على الأرض حيث قيل لي، وعدت لأجد أن لامين غادر الآن. فهمت أنها إشارة. أعلنت أني أيضًا ذاهبة إلى النّوم، لكن بدلًا من أن أتمدد في غرفتي في ثيابي منتظرة أن يتبدّد آخر صوت للنشاط البشري. تمامًا قبل منتصف الليل أخذت كشّاف الرأس وتوجهت بهدوء عبر الباحة خارج المسكن وعبر القرية.

اعتبرت إيمي هذه الزيارة «رحلة استطلاعية»، لكن لجنة القرية اعتبرت كل شيء سببًا للاحتفاء، وفي اليوم التالي، عندما أنهينا جولة المدرسة ودخلنا الباحة، وجدنا حلقة طبول بانتظارنا تحت شجرة المانجو، اثنتا عشرة امرأة في أواخر مرحلة الكهولة، وطبول بين أفخاذهن. حتى فرن لم يكن مخطرًا، وكانت إيمي مضطربة لهذا التأخير الجديد في البرنامج، لكن لم يكن هناك وسيلة لتفاديه: هذا كان كمينًا. جرى الأطفال نحو الخارج وشكلوا حلقة ثانية كبيرة حول أمهاتهم قارعات الطبول، ونحن «الأميركيين» طلب إلينا الجلوس في الحلقة الدّاخلية على كراسٍ صغيرة جلبت من قاعات الدروس. ذهب المدرسون ليحصلوا على هذه ولمحت بينهم فيما كنت أقترب من الطرف القصي للمدرسة بجانب صف لامين للرياضيات، لامين وهاوا يمشيان معًا، يحمل كل واحد منهما أربع كراسٍ صغيرة. لكن عندما رأيته لم أشعر بالخجل ولا كنت خجِلة: كانت أحداث الليلة السّابقة منفصلة

للغاية عن حياتي النهارية حتى بدت لي أنها حدثت لشخص آخر، جسد ظلي طارد أهدافًا منفصلة ولم يكن ممكنًا إرغامه على الخروج إلى الضوء. لوحت لهما، لم يظهرا أيّ إشارة على أنهما رأياني. بدأ التطبيل فلم أتمكن من رفع صوتي فوقه. التفت نحو الحلقة وأخذت مجلسًا قُدِّم لي، قرب إيمي. بدأت النّساء بتبادل الأدوار في الحلقة، يضعن طبولهن جانبًا ليرقصن في اندفاعات دراماتيكية مدة كل منها ثلاث دقائق، نوع من ضد الأداء، لأنه على الرغم من تأنق حركة أقدامهن، العبقرية في أوراكهن، لم يلتفتن نحو جمهورهن لكن بدلًا من ذلك بقين يواجهن أخواتهن قارعات الطبول، وظهورهن لنا. عندما بدأت المرأة الثانية، دخلت هاوا الحلقة وجلست على المقعد قربي الذي كنت أحجزه لها، لكن لامين فقط أومأ لإيمي قبل أن يجلس على الجانب الآخر من الحلقة، بعيدًا عنها وعني كما أفترض، بقدر ما استطاع. عصرت يد هاوا وقدمت تهانيّ.

«أنا في غاية السّعادة. لم يكن سهلًا بالنسبة لي أن أكون هنا اليوم لكني أردت أن أراك!»

«هل بكاري معك؟»

قالت: «لا! هو يظن أني أبيع السّمك في بارا! هو لا يحب الرّقص مثل هذا» وحركت قدميها قليلًا ردًا على المرأة التي تخبط على مسافة بضع ياردات عنا. «لكن بالطبع سوف لن أرقص، فلا ضرر».

عصرت يدها ثانية. كان هناك شيء رائع كوني بالقرب منها، هي نقلت كل حالة إلى بعدها الخاص، آمنت أنها استطاعت ملائمة أي شيء حتى يتناسب، حتى عندما لم تعد المرونة عصرية. في الوقت نفسه أبوية – أو ربما عليّ أن أكتب هنا «أمومية» – اصطخب النبض في ثناياي: لبثت ممسكة بيدها بإحكام شديد، على أمل، الأمل غير العاقل، أنها قد

تكون – مثل تميمة رخيصة تشتريها من مرابط (ولي) – تمنح الحماية، يحفظها سالمة من الأرواح الشّريرة، التي لم أعد أشك بوجودها في العالم. لكن عندما التفتت ورأت التغضنات في جبهتي، ضحكت علي وحررت نفسها، مصفقة لترحب بوصول جرانجر إلى الحلقة، الذي تحرك حولها كما لو أنها كانت حلقة راقص بريك دانس، مستعرضًا حركات قدميه الثقيلة، ما أثار بهجة الأمهات قارعات الطبول. بعد دقيقة مناسبة من التّحفظ، انضمّت إليه إيمي. لأتفادى مشاهدتها، نظرت من حول الحلقة نحو كل الحب القاسي الصّلب، المضلل على نحو محزن. استطعت أن أشعر بفرن إلى يميني، يحدق بي. شاهدت لامين يرفع بصره بين الحين والآخر، نظراته وجهت فقط نحو هاوا، وجهها المثالي ملفوف بشدة مثل هدية. لكن في النهاية لم يسعني تجنب صورة إيمي، ترقص من أجل لامين، عند لامين، إلى لامين، مثل شخص يرقص من أجل المطر الذي لن ينهمر. ثمانية نساء يقرعن الطبول لاحقًا، حتى ماري بيث جرّبت أن ترقص. ثم جاء دوري، جاءت إليّ امرأتان تحملانني على النهوض. إيمي ارتجلت، جرانجر قدم رقصات من الماضي – السّير على سطح القمر، الروبوت، الرجل العداء – لكني حتى ذلك الحين لم تكن لدي فكرة عن الرّقص، فقط غرائز. شاهدت المرأتين لدقيقة، عندما رقصتا عندي، تزعجانني، وأصغيت بعناية إلى الضّربات المتعددة، وعرفت أن ما كانتا تفعلانه أنا أيضًا استطعت فعله. وقفت بينهما وطابقتهما خطوة فخطوة. الأولاد جن جنونهم. كان هناك الكثير من الأصوات تصرخ نحوي فلم أعد قادرة على سماع صوت الطبول، والطريقة الوحيدة التي مكنتني من الاستمرار تجلت في أن أستجيب لحركات النسوة أنفسهن، اللاتي لم يخرجن عن الإيقاع قط، وسمعنه مهما كان الصّخب شديدًا من حولهن. انتهيت بعد خمس دقائق وكنت

متعبة أكثر مما لو ركضت مسافة ستة أميال.

انهرت قرب هاوا، ومن ثنية من ثنايا حجابها الجديد أخرجت قطعة صغيرة من مادة مسحت بها بعض العرق عن وجهي. «لماذا يقولون: سيء جدًا، هل كنت بذلك السوء؟»

«لا! كنتِ رائعة للغاية! هم يقولون: توباب – هذا يعني...»

مررت يدها عبر بشرة وجنتي. «إذن هم يقولون: حتى لو كنت فتاة بيضاء البشرة، فإنك ترقصين كما لو أنك سوداء! أقول هذا صحيح: أنت وإيمي، كلاكما – ترقصان حقًا كما لو أنكما سوداوان. يمكنني القول إنه إطراء كبير. أنا ما كنت لأخمن أبدًا هذا عنك! حتى أنك ترقصين مثل جرانجر!»

إيمي كانت على مرمى السّمع، انفجرت ضاحكة.

✧ سبعة ✧

قبل بضعة أيام من عيد الميلاد، كنت جالسة في منزل لندن، إلى المنضدة في مكتب إيمي، أضع اللمسات الأخيرة على القائمة من أجل حفل رأس السّنة، عندما سمعت إستيل، في مكان ما في الطابق الأعلى كانت تقول: «عزيزتي، عزيزتي». كان يوم أحد، ومكتب الطابق الثاني مغلقًا. لم يكن الطفلان قد عادا بعد من مدرستهما الدّاخلية الجديدة، وكانت كلًا من جودي وإيمي في ايسلندا، لليليتين، في رحلة بقصد الترويح. لم أكن قد رأيت أو سمعت عن إستيل منذ أن غادر الطفلان وافترضت – لو حتى فكرت بها على الإطلاق – أن خدماتها لم تعد مطلوبة بعد الآن. الآن سمعت ذلك الهزج المألوف: «عزيزتي، عزيزتي». هرعت طابقًا إلى الأعلى ووجدتها في غرفة كارا القديمة، فيما اعتدنا أن نسميها حجرة الأطفال. وقفت إلى النوافذ ذات الأطر المنزلقة، تتطلع نحو المتنزه، تنتعل خفيها المريحين وترتدي سترة سوداء مطرزة بخيط ذهبي، مثل بهرجة، وسروالًا بحريًّا معقولًا مثْنيًّا. كانت تدير ظهرها لي، لكن عندما سمعت وقع خطاي، التفتت، في ذراعيها طفلة مقمّطة. كانت ملفوفة بإحكام شديد حتى بدت غير حقيقية مثل دعامة. اقتربت بسرعة مادة يدي.

«لا يمكنك أن تصعدي وتلمسي الطفلة! يداك يجب أن تكونا نظيفتين!» واستغرق وقتًا طويلًا من ضبط النفس لأبتعد خطوة عنهما

ووضعت يدي خلف ظهري.

«إستيل، طفلة من تلك؟»

تثاءبت الطّفلة. نظرت إستيل نحوها بشغف.

«جرى تبنيها منذ ثلاثة أسابيع، كما أعتقد. ألا تعرفين؟ يبدو لي أن الجميع يعلم! لكنها وصلت إلى هنا الليلة الماضية. اسمها سانكوفا – لا تسأليني أي نوع من الأسماء هو، لأني لا أستطيع أن أخبرك. لماذا يمنح أي شخص طفلة صغيرة جميلة مثل هذه اسمًا مثل ذاك، يجب أن أقول إني لا أعلم. سوف أدعوها ساندرا إلى أن يمنعني أحدهم».

نفس النظرة المحدقة غير المركزة الداكنة الأرجوانية تنزلق عني مفتونة بنفسها. استطعت أن أسمع في صوت إستيل البهجة التي تلقتها سلفًا من الطفلة – بدت لي أكثر بكثير مما تلقته من جاي وكارا على الإطلاق، اللذين ربتهما عمليًا – وحاولت أن أركز على حكاية هذه «الفتاة الصّغيرة المحظوظة» بين ذراعيها، أنقذت من «المكان القصي »، وضعت «في حضن الترف». من الأفضل ألا تتساءل كيف كان ممكنًا تدبيره: تبني عالمي في أقل من شهر. مددت يدي ثانية. يداي كانتا تهتزان.

«إذا كنت ترغبين بشدة بحملها، أنا على وشك أن أحممها الآن: تعالي إلى الأعلى معي، يمكنك غسل يديك».

ذهبنا إلى جناح إيمي الضّخم، الذي أعد في وقت من الأوقات بهدوء من أجل طفل: طقم من المناشف لها أذني أرنب، مساحيق الأطفال وزيوت، اسفنجات للأطفال وصوابين للأطفال، ونصف دزينة من البط البلاستيكي المتعدد الألوان مصفوفة على طول حافة حوض الاستحمام.

«كل هذا الهراء!» جثمت إستيل لتتفحص أداة صغيرة غريبة صنعت من قماش قطني سميك مع إطار معدني علقت على جانب

الحمام وبدت مثل كرسي للتشمس لرجل مسن ضئيل. «كل هذه المعدات. الطريقة الوحيدة لتحميم طفل بهذا الصّغر هي في المغسلة».

ركعت قرب إستيل وساعدتها في فك الرزمة الصّغيرة. انبسطت أطراف ضفدعية، مندهشة. شرحت إستيل عندما ناحت الطفلة: «الصّدمة. كانت دافئة ومشدودة والآن هي باردة ومرخيّة».

وقفت بالقرب عندما أخفضت سانكوفا، هائجة وصارخة، في قطعة ضخمة يبلغ ثمنها سبعة آلاف جنيه إسترليني من البورسلين الفيكتوري تذكّرت طلبها. قالت إستيل: «عزيزتي، عزيزتي»، وهي تمسح بقماشة ثنايا الطفلة المغضّنة الكثيرة. بعد دقيقة تقريبًا كوّبت مؤخرة سانكوفا الصّغيرة في يدها، قبّلتها على وجهها الذي لا يزال صارخًا وطلبت مني أن أطوي غطاء التقميط على شكل مثلث وأضعه على الأرضية السّاخنة. جلست على عقبي وشاهدت إستيل تمسح جسد الطفلة بزيدة جوز الهند. بالنسبة لي أنا التي لم أحمل طفلًا أكثر من لحظة عابرة، العملية كلها بدت بارعة.

«هل لديك أطفال، إستيل؟»

ثمانية عشرة، ستة عشرة، وخمسة عشرة – لكن يداها كانت ملوثتين بالزيدة لذا وجهتني إلى جيبها الخلفي وأخرجت هاتفها. سحبت إلى اليمين. رأيت للحظة الصّورة الواضحة لشاب طويل في رداء التخرج من المدرسة الثانوية، تحيط به من الجانبين أختاه الأصغر سنًا المبتسمتين. أخبرتني بأسماءهم ومواهبهم، أطوالهم وطباعهم، وكم كثيرًا أو قليلًا اتصل بها كل واحد منهم عبر برنامج سكايب أو أجابها على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك. ليس كافيًا في أحوال كثيرة. خلال السّنوات العشر تقريبًا التي عملنا فيها كلانا عند إيمي، هذا كان الحوار الأطول والأكثر حميمية الذي أجريناه أبدًا.

«أمي تعتني بهم من أجلي. إنهم يرتادون أفضل مدرسة في كينغستون. لاحقًا سوف يكون متوجهًا إلى الجامعة في ويست ايندیز لدراسة الهندسة. إنه شاب رائع. الفتيات يتخذن منه نموذجًا. إنه النجم. وله معجبات».

قلت: «أنا جامايكية»، وإستيل أومأت وابتسمت برقة نحو الطفلة. كنت قد رأيتها تفعل هذا مرات عدة، عندما تساير الأطفال برفق، أو إيمي نفسها. متوردة، استدركت نفسي:

«أعني، شعب أمي من سانت كاثرين».

«أوه، نعم. أرى. أنت لم تذهبي يومًا إلى هناك؟»

«لا، ليس بعد».

«حسنًا، أنت لا تزالين صغيرة». لفّت الطفلة مصونة في غطائها وحملتها إلى صدرها. «الزمن في صفّك».

جاء عيد الميلاد. قدمت الطفلة لي، إلينا جميعًا، باعتبارها تحصيل حاصل، تبنٍ قانوني، مقترح ووافق عليه الوالدان، ولم يشكك أحد في هذا، أو ليس علنًا. لم يسأل أحد ما الذي يمكن أن يعني أي «اتفاق» حتى في مثل هذه الحالة من عدم التوازن العميق. كانت إيمي في نوبة انفعال من حب الطفلة، الجميع بدا سعيدًا من أجلها – كانت أعجوبة عيد الميلاد. كل ما امتلكته كان شكوكًا وواقعة أن العملية برمتها أخفيت عني إلى أن كانت منتهية سلفًا.

بعد بضعة أشهر عدت إلى القرية للمرة الأخيرة، أستقصي بأفضل ما استطعت. ما كان أحد ليتحدث معي عن الأمر أو يقدم أي شيء سوى ملاحظات تافهة سعيدة. الوالدان لم يعودا يعيشان هنا، لم يبد أحد أنه يعرف بالضّبط إلى أين انتقلا. إذا عرف فرناندو شيئًا حوله فما كان ليخبرني، وهاوا انتقلت إلى سيريكوندا مع بكاري. لامين تسكع في

أرجاء القرية، كان في حداد عليها - ربما أنا كنت أيضًا. كانت الأمسيات في المسكن دون هاوا طويلة، مظلمة، موحشة، ومساقة كليًا في لغات لم أعرفها. لكن ولو أني قلت لنفسي، عندما توجّهت نحو بيت لامين - خمس أو ست مرات بالمجمل، ودومًا في وقت متأخر من الليل - أننا نحن الاثنان كان تصرفنا نابعًا عن رغبة جسدية لا يمكن ضبطها، أظن أننا كلانا عرفنا أن أي شغف وجد بيننا كان موجهًا عبر الشّخص الآخر نحو شيء آخر، نحو هاوا، أو نحو فكرة كونك محبوبًا، أو ببساطة كي نثبت لأنفسنا استقلالنا المشترك عن إيمي. كانت حقًا الشّخص الذي كنا نستهدفه بكل جماعنا المفتقر إلى الحب، بقدر ما كان جزء من العملية كما لو أنها كانت في الغرفة.

عدت متسلّلة من مسكن لامين إلى مسكن هاوا، في وقت مبكّر جدًا ذات صّباح قبل الخامسة تمامًا عندما أشرقت الشّمس سمعت أذان الصّلاة وعرفت أني كنت الآن متأخرة جدًا على أن أمر دون أن يراني أحد - امرأة تجرّ حمارًا عنيدًا، جمْع من الأطفال يلوحون من عتبة باب - وهكذا غيّرت الاتجاه، كي يبدو كما لو أني كنت في الخارج لأتمشى ليس لسبب خاص، كما عرف الجميع أن الأميركيين يفعلون أحيانًا. وفيما كنت أطوف عائدة من حول المسجد رأيت فرناندو تمامًا أمامي يستند على الشّجرة التالية يدخن. لم يسبق لي أن رأيته يومًا يدخّن. حاولت أن أبتسم كيفما اتفق محيّية، لكنه سايرني في الخطو وأمسكني من ذراعي على نحو مؤلم. كان لأنفاسه رائحة البيرة. بدا كما لو أنه لم ينم على الإطلاق.

«ماذا تفعلين؟ لماذا تفعلين هذه الأمور؟»

«فرن، هل تتبعني؟»

لم يجب إلى أن وصلنا إلى الطّرف الآخر من المسجد، بجانب

تلة النّمل الأبيض الضّخمة، حيث توقفنا محجوبين عن النظر من ثلاث جهات. تركني وبدأ يتحدث كما لو كنا في حمأة نقاش طويل.

«ولدي بعض الأخبار الجيّدة من أجلك: الفضل لي، هو سوف يكون معك قريبًا جدًا بشكل دائم، نعم الفضل لي. أنا ذاهب إلى السّفارة اليوم في الواقع. أبذل جهدًا كبيرًا وراء الكواليس لأجمع العاشقين، الفتي والذي ليس فتيًا للغاية. ثلاثتهم جميعًا».

بدأت إنكارًا لكن لم يكن من فائدة ترجى. كان دومًا من الصّعب أن تكذب على فرن.

«لا بد أن يكون شعورًا قويًا بحق تملكينه تجاهه كي تجازفي كثيرًا. كثيرًا جدًا. آخر مرة كنت هنا، كما تعلمين، شككت بهذا، والمرة التي سبقتها – لكن بطريقة ما لا تزال صدمة، أن يكون مؤكدًا».

«لكني لا أملك أي مشاعر تجاهه!» انجلى كل الشّجار من وجهه. «أنت تتخيلين أن هذا يخفف عنّي؟»

أخيرًا، شعور بالعار. عاطفة مشبوهة، قديمة جدًا. كنّا دومًا ننصح الفتيات في الأكاديمية ألا تشعرن بها، لأنها كانت مهجورة وغير مفيدة وتقود إلى ممارسات من نوع لم نستحسنه. لكني شعرت بها أخيرًا.

«من فضلك لا تقل شيئًا. من فضلك. أنا مغادرة غدًا وهذا كلّ شيء. لقد بدأ للتو وقد انتهى الآن. من فضلك، فِرن – عليك أن تساعدني».

قال: «حاولت». ومشى في اتجاه المدرسة.

كانت بقية النهار عذابًا، واليوم التالي، ورحلة الطيران أيضًا، السّير عبر المطار، وهاتفي قنبلة في جيبي الخلفي. لم تنفجر. عندما دخلت منزل لندن كان كل شيء كسابق عهده، فقط أكثر سعادة. كان الطفلان مستقرين تمامًا، على الأقل لم نسمع عنهما – استُقبل آخر

ألبوم استقبالًا جيدًا. صور فوتوغرافية للامين وإيمي معًا، كل منهما يبدو جميلًا – في عيد ميلاد جاي، من الحفل الموسيقي – كانا في جميع صحف الثرثرة وكانا على طريقتهما أكثر نجاحًا من الألبوم نفسه. وظهرت الطفلة لأول مرة. لم يكن العالم فضوليًا على نحو خاص بشأن الأمور اللوجستية، كما تبين، والصّحف اعتبرتها مبهجة. بدا منطقيًا للجميع أن إيمي لا بد قادرة على تأمين طفلة بسهولة كما يمكن لها أن تطلب حقيبة يد محدودة العدد من اليابان. جالسة في مقطورة إيمي ذات يوم أثناء تصوير فيديو، أتناول الغداء مع ماري بيث، المساعدة الشخصية الواقعة في المرتبة الثانية بين المساعدات، مبدئيًّا افتتحت الموضوع، على أمل أن أحصل بالتملق على بعض المعلومات منها، لكنني لم أكن بحاجة لأن أكون شديدة الحذر، كانت ماري بيث سعيدة للغاية لتخبرني، حصلتُ على القصة الكاملة، عقد حرّره أحد المحامين بعد بضعة أيّام من لقاء إيمي للطفلة، وماري بيث كانت هناك لتشهد على توقيعه. كانت مبتهجة بهذا الدّليل الذي يُثبت أهميّتها كمساعدة، وما ألَمح إليه حول مكاني في التراتبية. أخرجت هاتفها وقلبت عبر صور سانكوفا، والديها، وإيمي يبتسمون معًا وبينها لاحظت كان لقطة للعقد نفسه. عندما ذهبت إلى الحمام وتركت هاتفها أمامي أرسلت اللقطة إلى نفسي. وثيقة من صفحتين. قدر هائل من النقود، بالمعايير المحلية. أنفقنا المبلغ نفسه تقريبًا على زهور منزلية خلال سنة. عندما نقلت هذه الحقيقة إلى جرانجر، حليفي الأخير، فاجأني باعتباره تصرّفًا نبيلًا من حيث أنها «تتبع قولها بالفعل»، وتحدّث بحنان شديد عن الطفلة، حتى أن كل ما كان عليّ قوله بدا ضخمًا وعديم الشّعور بالمقارنة. رأيت أن المحادثة المتعقّلة لم تكن ممكنة. الطفلة فتنتهم. كان جرانجر يحب كوفي، كما سميناها، كل هذا الحب الكبير، كما فعل جميع من اقتربوا

منها، والله يعلم أنّه كان من السّهل أن تحبها، لم يكن أحد حصينًا، ولا حتى أنا. كانت إيمي سكْرَى: أمكنها أن تمضي ساعة أو اثنتين فقط جالسة والطفلة على ركبتها، تحدق فيها، دون أن تفعل أي شيء آخر، ولعلمنا جميعًا بعلاقة إيمي مع الوقت، بقيمته أو قلته بالنسبة لها، فهمنا أي مقدار جليل من الحب مثّل هذا. افتدت الطفلة كل أنواع الحالات المخففة – اجتماعات مسهبة مع محاسبين، جلسات تجريب فساتين مملة، جلسات عصف ذهني استراتيجية – علاقات عامة – غيرت لون نهار ببساطة بحضورها في زاوية أي غرفة، على ركبة إستيل أو تتأرجح في «سلّة موسى» على منصب، تضحك، تقرقر، تبكي، غير ملطخة، طازجة وجديدة. أول فرصة حصلنا عليها كنا جميعًا نحتشد من حولها. رجالًا ونساء، من كل الأعمار والأعراق، لكن جميعنا وقد قضينا فترة زمنية في العمل ضمن فريق إيمي، من خيول معركة قديمة بالية مثل جودي، إلى ضباط الصف مثلي، إلى أولاد صغار خارجين للتو من الجامعة. جميعنا تعبدنا عند مذبح الطفلة. كانت الطفلة تبدأ من البداية، كانت الطفلة كاملة غير منقوصة، الطفلة لم تكن على عجلة من أمرها، الطفلة لم تكن بحاجة إلى إمضاء إيمي المزيّف على أربعة آلاف صورة شخصية متجهة إلى كوريا الجنوبية، الطفلة لم يكن عليها أن تولّد معنًى من الشّظايا المكسورة من هذا وذاك، لم تكن الطفلة تشعر بالحنين، لم تملك ذكريات ولا حسرات، لم تحتج إلى تقشير بشرة كيميائي، لم تملك هاتفًا، ليس لديها أحد لترسل إليه بريدًا إلكترونيًا، حقًا كان الوقت في صفّها. مهما حدث بعد ذلك، لم يكن نابعًا من أي نقص في حب الطفلة. كانت الطفلة محاطة بالحب. إنها مسألة ما يمنحك الحب من حق لتفعل.

ثمانية

في ذلك الشّهر الأخير من العمل لصالح إيمي – في الواقع تمامًا قبل أن تطردني – ذهبنا بجولة أوروبية صغيرة، تبدأ بعرض في برلين، ليس حفلًا موسيقيًا، بل عرضًا لصورها الفوتوغرافية. تلك كانت صورًا لصور، صورًا مستولى عليها أعيد تصويرها، كانت قد أخذت الفكرة من ريتشارد برنس – صديق قديم من سالف الأيام – ولم تضف شيئًا إليها فيما عدا واقعة أنها هي، إيمي، كانت تنفذها. مع ذلك، واحدة من صالات العرض الأكثر احترامًا في برلين عبرت عن بالغ سعادتها في أن تستضيف «عملها». كانت جميع الصّور لراقصين – فكرت في نفسها أولًا وقبل كل شيء كراقصة، وتطابقت بعمق معهم – لكني قمت بالبحث كاملًا وكانت جودي التي التقطت معظم الصّور، لأنه كلما حان الوقت للذّهاب إلى الأستديو وأعادت تصوير الصّور كان هناك دومًا شيء آخر يجب فعله: استقبال في طوكيو، «تصميم» عطر جديد، أحيانًا حتى تسجيل أغنية راهنة. أعدنا تصوير كل من باريشنيكوف ونورييف، بافلوفا، فرِد آستر، أيزادورا دونكان، جريجوري هاينز، مارتا جراهام، سافيون جلوفر، مايكل جاكسن. تجادلت من أجل جاكسن. لم ترغب إيمي به، لم يكن فنانًا بحسب رأيها، لكني أدركتها في لحظة تعب وتمكّنت من إقناعها، في حين ضغطت جودي من أجل «امرأة ملونة». كانت قلقة حول سوء التصوير، كانت غالبًا كذلك، ما عنى حقًا أنها قلقة حول ما قد يشعر

به الآخرون على أنه تصوير سيء، وكلما دارت بيننا هذه المحادثات راودني الإحساس الغريب برؤية نفسي على أني حقًا واحدة من هذه الأشياء، لست شخصًا على الإطلاق بل غرضًا من نوع ما – لا تكون دونه سلسلة رياضية معينة من أغراض أخرى مكتملة – أو لست حتى غرضًا بل حجابًا تصوريًا من نوع ما، ورقة تين معنوية، تحمي كذا وكذا شخص من كذا وكذا مقالة نقدية، ونادرًا ما فكر أحدهم بها إلا عندما تؤدي هذا الدور. لم أشعر بالإهانة، لا سيما: أني كنت مهتمة بالتجربة، كانت كما لو أني شخصية خيالية. فكرت في «جيني لوجون».

حظيت بفرصتي خلال ركوب سيارة عبر الحدود بين لوكسمبورغ وألمانيا حيث كانت إيمي ذاهبة للقيام ببعض الأعمال الصّحفية. أخرجت هاتفي وبحثت من خلال محرك البحث غوغل عن لو جون، ونظرت إيمي نحو الصّور شاردة الذّهن – كانت ترسل رسائل نصيّة عبر هاتفها في الوقت نفسه – بينما تحدثت بأسرع ما أمكنني عن لو جون كشخص، ممثّلة، راقصة، رمزًا، أحاول المحافظة على القبض على اهتمامها المتذبذب، وفجأة أومأت بشكل حاسم نحو صورة لو جون وبوجانجلز معًا، لو جون واقفة، ترقص، في وضعية بهيجة مفعمة بالحياة، وبونجانجلز راكعًا عند قدميها، مشيرًا نحوها، وقالت: «نعم، تلك الصّورة، تعجبني، نعم، أحب الانعكاس، رجل على ركبتيه، وامرأة مسيطرة». ما إن حصلت على «نعم»، حتى استطعت على الأقل أن أبدأ بالبحث عما سوف يظهر كنص في الفهرس، وبعد بضعة أيام التقطت جودي الصّورة، مائلة بعض الشّيء، مقتطعة أجزاءً من الإطار، لأن إيمي كانت قد طلبت أن يعاد تصويرها جميعًا بهذه الطريقة، كما لو أن «المصوّرة كانت ترقص هي نفسها».

وبقدر ما تستطيع هذه الأمور تحقيقه، كانت القطعة الأكثر

نجاحًا في العرض. وكنت مسرورة لفرصة إعادة اكتشاف لو جون. باحثة عنها، بمفردي وفي وقت متأخر من الليل غالبًا، في سلسلة من غرف فندقية أوروبية، أدركت كم استغرقت كثيرًا في طفولتي في تخيلها، كم كنت ساذجة بشكل أساسي حول كل جانب من جوانب حياتها تقريبًا. كنت قد تخيلت على سبيل المثال، رواية كاملة لعلاقة صداقة واحترام تربط بين لوجون وبين من عملت معهم، الراقصين والمخرجين، أو رغبت أن أصدق أن علاقة صداقة واحترام أمكنها أن توجد، بنفس روح التّفاؤل الطفولي الذي يجعل فتاة صغيرة ترغب في تصديق أن علاقة حب تربط بعمق بين والديها. لكن آستر لم يتحدّث يومًا مع لو جون في موقع التصوير، في عقله هي لم تؤد فقط دور الخادمة، كانت في الحقيقة مختلفة قليلًا فقط عن الخادمة، وكان الأمر مماثلًا مع معظم المخرجين، هم لم يروها حقًا ونادرًا ما وظفوها، ليس من أجل أي دور ما عدا أدوار الخادمات، وسريعًا حتى هذه الأدوار ذوت، إلى أن ذهبت إلى فرنسا حتى بدأت «تشعر مثل شخص». عندما علمت كل هذا كنت في باريس، جالسة في الشّمس المشرقة، أمام مسرح أوديون، أحاول قراءة المعلومات على شاشة هاتفي التي بهتتها الشّمس، أحتسي كأس كامباري، أتحقق من الوقت كرهًا. شاهدت الاثنتي عشرة ساعة التي خصصتها إيمي لاختفاء باريس، دقيقة تلو أخرى، أسرع مما تمكنت من اختبارها تقريبًا، وسرعان ما ستصل سيارة أجرة، من ثم مهبط طائرة سوف ينزل تحتي، وسوف نمضي قدمًا، إلى اثنتي عشرة ساعة أخرى في مدينة أخرى جميلة لا سبيل لمعرفتها – مدريد. فكرت بكل المغنين والراقصين وعازفي الترومبيت والنّحاتين والمؤلفين التافهين الذين ادعوا أنهم يشعرون كأناس أخيرًا هنا في باريس، لم يعودوا ظلالًا بل أناسًا ينتمون إلى أنفسهم، أثرًا قد يتطلّب أكثر من اثنتي عشرة ساعة كي يسري مفعوله،

وتساءلت كيف كان هؤلاء الناس قادرين أن يعرفوا، بدقّة متناهية، اللحظة التي بدأوا فيها يشعرون مثل شخص. المظلة التي جلست تحتها لم تمنح فيئًا، ذاب الثّلج في كأسي. كان ظلي ضخمًا وأشبه بسكين تحت الطاولة. بدا أنه يمتد حتى منتصف الطريق نحو السّاحة وليشير نحو المنزل الأبيض الفخم عند الناصية، احتلّ معظم المربع السّكني وعند بابه رفع دليل في تلك اللحظة علمًا صغيرًا وبدأ يعلن سلسلة من الأسماء، بعضها أعرفه وبعضها جديد: توماس بين، إميل سيوران، كاميّ ديسمولان، سيلفيا بيتش... تحلقت مجموعة صغيرة من السّياح الأميركيّين المسنين من حوله يومئون متعرقين. نظرت إلى هاتفي. كتبت هذه الجملة بإبهامي: وهكذا كان في باريس أن لو جون بدأت تشعر مثل شخص. ولم أكتب هذا الجزء: ما عنى أن الشّخص تريسي كانت قد قلدت على نحو متقن للغاية كل تلك السّنوات المنصرمة، الفتاة التي شاهدناها ترقص مع ايدي كانتور، تركل بساقيها، تهز رأسها - تلك لم تكن حقًا شخصًا على الإطلاق، تلك كانت مجرّد ظل.

حتى اسمها المحبّب، الذي حسدناها عليه كلانا، حتى ذلك كان زائفًا، في الواقع كانت ابنة هكتور وهارييت ليجون، مهاجرين من جورجيا، من نسل مزارعين بالمحاصّة، بينما كانت لوجون الأخرى، تلك التي اعتقدنا أننا عرفناها - تلك الراقصة المحترفة خليّة البال - كائنًا من وحي الخيال، مولودة من خطأ مطبعي، من بنات أفكار لويلا بارسونز[54] ذات يوم عندما أخطأت في تهجئة ليجون في عمود الثرثرة الصّحفي واسع الانتشار الذي كانت تكتبه في صحيفة لا إكزامينيه.

---

54) Louella Parsons (1881-1972) أوّل محرّر عمود صحفي للأفلام وكاتبة سيناريو. في ذروة شهرتها، كان يقرأ أعمدتها أكثر من 20 مليون شخص في 400 صحيفة حول العالم. وقد بقيت ملكة هوليوود حتى وصول هيدا هوبر الشهيرة، وكانتا تتنافسان بالموهبة بشراسة لسنوات.

⟡ تسعة ⟡

انفجرت القنبلة أخيرًا يوم عيد العمّال. كنّا في نيويورك، قبل بضعة أيام من مغادرتنا إلى لندن، مع خطة للقاء لامين هناك، استكملت تأشيرته البريطانية. كان الجو حارًّا بشكل كريه: استطاع هواء الصّرف الصحي الزنخ أن يحثّ غريبين في الشّارع على تبادل الابتسام وهما يعبران جوار بعضهما: هل يمكنك أن تصدق أننا نعيش هنا؟ كان مثل عصارة صفراوية، وكانت رائحة شارع مولبيري ذلك الأصيل. وضعت يدي على فمي عندما مشيت، إيماءة تنبؤيّه: عندما وصلت زاوية شارع برومي كنت مطرودة. جودي هي من أرسل الرسالة النّصية - والدزينة التي مثلها تبعتها - كانت كلها متخمة بإهانة شخصية كما لو أن إيمي كتبتها بنفسها. كنت عاهرة وخائنة، لعينة هذا ولعينة ذاك. حتى غضب إيمي الشّخصي أمكن أن يكون مستعينًا بمصادر فريق ثانوي. مصابة بالدوار قليلًا، مشوّشة الذهن، وصلت حتى كروسبي وجلست على الدرجة الأمامية لجمعية هاوسينج وركس، على جهة الملبوسات المعتّقة. كل سؤال ولّد المزيد من الأسئلة: أين سأعيش وماذا سأفعل وأين كتبي وأين ملابسي وما وضع تأشيرتي؟ لم أكن غاضبة للغاية من فِرن بقدر ما كنت منزعجة من نفسي لأني لم أتنبأ مسبقًا بالتوقيت. كان عليّ انتظاره: ألم أعلم بالضّبط كيف كان يشعر؟ أمكنني أن أعيد تركيب تجربته. مشتغلًا على أوراق التأشيرة للامين، يحجز تذكرة رحلة

لامين الجوية، ينظم مغادرة ووصول لامين، استقباله ووداعه، متكبدًا الرسائل الإلكترونية جيئة وذهابًا بينه وبين جودي عند كل مرحلة من هذا التخطيط، مكرسًا كل وقت وطاقة لوجود شخص آخر، لرغبات شخص آخر وحاجاته ومتطلباته. إنها حياة ظل وبعد حين تصل إليك. مربيات، مساعدات، وكالات، سكرتيرات، أمهات – نساء اعتدن عليها. الرّجال أقل تسامحًا. لابد أن فرن أرسل مئات الرسائل الإلكترونية المتعلقة بلامين خلال هذه الأسابيع القليلة الماضية. كيف أمكنه أن يقاوم إرسال الرسالة التي سوف تفجّر حياتي؟ رنّ هاتفي مرارًا لدرجة أنه بدا يملك روح حيوان. توقفت عن النظر إليه وركزت بدلًا من ذلك على أخ طويل القامة للغاية في واجهة الهاوسينج وركس، كان حاجباه ضخمين مقنطرين، ويحمل سلسلة من الفساتين إزاء جسده البدين، ينتعل حذاء ذا كعب عال عريض. وقع بصره علي، ابتسم وشفط معدته، التفت التفاتة صغيرة وانحنى. لا أعرف لماذا أو كيف لكن مرآه حمّسني. نهضت وهتفت لسيارة أجرة. كانت بعض الأسئلة مجابًا عليها سريعًا. جميع ممتلكاتي في نيويورك كانت في صناديق على الرصيف عند باب شقة الشّارع العاشر والأقفال استبدلت سلفًا. وضع تأشيرتي مرتبط برب عملي: كان أمامي ثلاثون يومًا لأغادر البلاد. أين أقيم استغرق وقتًا أطول. أنا لم أدفع يومًا ثمن أي شيء في نيويورك: عشت على حساب إيمي، تناولت طعامي مع إيمي، خرجت مع إيمي، والأخبار التي جلبها لي هاتفي عن سعر ليلة واحدة في فندق مانهاتن جعلتني أشعر مثل بطل القصة «ريب فان وينكل» وهو يستيقظ من نومه الذي طال مائة عام.

جالسة على الدّرج الأمامي لمنزل ويست الشّارع العاشر، حاولت التفكير بالبدائل، أصدقاء، معارف، علاقات. كانت كل الصّلات واهية وتفضي إلى إيمي بأية حال. فكرت بأمر مستحيل: السّير شرقًا على

هذا الشّارع حتى يلتقي، في حلم عاطفي، بالطّرف الغربي لسيدموث رود، حيث ستفتح أمي الباب وتقودني إلى غرفة المخزن الاحتياطية في شقتها، نصف مدفونة بالكتب. أين سوى ذلك؟ أين لاحقًا؟ لم أمتلك إحداثيات. مرت بي سيارات الأجرة غير مطلوبة واحدة تلو الأخرى وسيدات مبهرجات مع كلابهن الصّغيرة. ولكونها مانهاتن، لم يتوقّف أحد ليشاهد ما لا بد أنه بدا مثل إعادة تمثيل لحدث سابق: امرأة باكية، جالسة على درجة، تحت لوحة لازاروس تلك، محتشدة بالصّناديق، بعيدة عن الوطن.

تذكّرت جيمس وداريل. كنت قد التقيتهما معًا ذات يوم في آذار، كانت ليلة سبت – وكنت في إجازة – سافرت نحو الجانب الصّاعد من المدينة وحيدة لأرى راقصي مسرح الفين ايلي، وفي المسرح تحدثت مع رفيقي في المقعد، سيدان محترمان من نيويورك في أواخر خمسينيتاهما، ثنائي، واحد أبيض والثاني أسود. كان جيمس انجليزيًا، طويل القامة وأصلع، صوته كئيب وله ضحكة مرحة للغاية، لا يزال مكتسيًا كما يليق بغداء ممتع في حانة في ضيعة في أوكسفورد شاير – ولو أنه عاش هنا سنوات عديدة – وداريل كان أميركيًا، شعره أفرو أشيب، عينان صغيرتان خلف نظارة، وسروال ذو حواف مهترئة تناثر عليه الطلاء، مثل طالب يدرس الرسم. عرف الكثير عما كان يحدث على الخشبة، تاريخ كل مقطوعة، عن باليه نيويورك بالعموم، والفين ايلي على وجه الخصوص، اعتقدت أولًا أنه لابد أن يكون مصمم رقصات أو راقصًا سابقًا هو نفسه. في الواقع، كان كلًا منهما كاتبًا، مسلّيًا ومُفعمًا بالنباهة، استمعت بآرائهما المهموسة المتعلقة باستعمالات وحدود «القومية الثّقافية» في الرّقص، وأنا التي لم أمتلك آراء حول الرّقص، فقط دهشة، أمتعتهما أيضًا، مصفقة بعد كل تغيير طفيف وقافزة على

قدمي حالما تسدل السّتارة.

علّق داريل: «إنه لأمر لطيف أن ترى الإلهام مع شخص ما لم يره خمسين مرة»، وفيما بعد دعياني على شراب في حانة الفندق المجاور، وسردا قصّة طويلة مؤثرة عن منزل كانا قد اشترياه في هارلم، من أنقاض عهد الكاتبة الأميركية إديث وارتون، كانا يرممانه بمدخرات حياتهما. من ثم الطلاء. بالنسبة لي كان جهدًا بطوليًا بوضوح، لكن واحدة من الجوار، امرأة في العقد الثّامن من عمرها، استنكرت كلا من جيمس وداريل، والتحويل الحثيث للحي من منطقة فقيرة إلى منطقة غنية: أحبت أن تصرخ عليهما في الشّارع وتدفع موادًا دينية عبر صندوق البريد. أحدث جيمس أثرًا جسديًا استثنائيًا على هذه السّيدة، وضحكتُ كثيرًا وأنهيت كأس مارتيني ثانٍ. كان مريحًا أن أخرج مع أشخاص لم يهتموا لأمر إيمي ولم يرغبوا بأي شيء مني.

قال داريل: «وذات أصيل، كنت أسير وحيدًا، كان جيمس في مكان آخر، وإذ بها تقفز من الظلال، تمسك بذراعي وتقول: لكن يمكنني أن أساعدك للتخلص منه. أنت لست بحاجة إلى سيد، يمكن أن تكون حرًا – دعني أساعدك! كان يمكن لها أن تذهب من باب إلى باب، تخطب متجولة من أجل باراك، لكن لا: كانت تظن أن جيمس يستعبدني. كانت تقدّم لي خريطة السّكك الحديديّة السريّة[55]. تهرّبني نحو هارلم الأسبانية!»

التقيت بهما بين الفينة والأخرى منذ ذلك الحين، في ليالي عطلتي يوم الأحد في المدينة. شاهدتهما يكشطان الجبس ليكشفا عن أفاريز أصلية، ورخام سمّاقي زائف، بنقر بقع الطلاء عن جدار زهري

---

55) شبكة سرية لمساعدة العبيد على الهروب من الجنوب إلى الشمال وإلى كندا في السّنوات التي سبقت الحرب الأهلية الأمريكية.

داكن اللون. كلما زرتهما تأثرت: بمدى سعادتهما معًا، بعد سنوات عديدة! لم أعرف نماذج أخرى كثيرة من تلك الفكرة. شخصان يخلقان وقت حياتيهما، محميان بالحب بطريقة ما، ليسا جاهلين للتاريخ لكن ليسا مشوّهين به أيضًا. أحببتهما كثيرًا، ولو أني لم أستطع دعوتهما أكثر من معارف. لكني فكرت بهما الآن. وعندما أرسلت رسالة نصية متعقّلة من درج ويست العاشر، كان الرد فوريًا، سخيًا على نحو مميز: مع حلول وقت العشاء كنت إلى طاولتهما، أتناول طعامًا أفضل من أي شيء قاربته عند إيمي يومًا. طعام مقلي مترع بالدسم لذيذ النّكهة. كان قد جهز من أجلي سريرًا في إحدى الغرف العديدة الاحتياطية، ووجدت أنهما كانا مثل والدين منحازين بتحبب: كلما رويت قصة محنتي رفضا أن يعتبرا أي جزء منها على أنه خطئي. من وجهة نظرهما كان عليّ أن أكون الغاضبة، كان اللوم كله ملقى على إيمي، ولا أي منه كان علي، وذهبت إلى غرفتي الجميلة ذات الألواح الخشبية، مرتاحة بهذا المنظر الوردي. لم أكن غاضبة إلى أن أرسلت جودي عقد عدم الإفشاء، صباح اليوم التالي. نظرت إلى ملف بي دي إف، لقصاصة ورقية لابد أني وقّعت عليها، بعمر الثالثة والعشرين، ولو أني لم أستطع تذكر أني فعلت هذا. قالت مصطلحاتها الجامدة إن الأمور التي خرجت من فمي لم تعد تنتمي إليّ بعد الآن، ليست أفكاري أو آرائي أو مشاعري، ليست حتى ذكرياتي. كلها كانت تخصها. كل ما حدث في حياتي في العقد انتمى الماضي إليها. ثار الحنق فيّ فورًا: أردت أن أحرق منزلها. لكن كل ما تحتاجه لتحرق منزل شخص ما هذه الأيام هو الآن في يدك. كان كل شيء في يدي – لم أحتج حتى للخروج من السّرير. أسّست حسابًا خفي الاسم، اخترت أكثر موقع ثرثرة كرهته، كتبت رسالة إلكترونية تحتوي على كل ما عرفته عن سانكوفا الصّغيرة، وأرفقت صورة «شهادة تبنيها»، وضغطت زرّ إرسال.

قانعة، نزلت لتناول الفطور، أفترض أني ترقبت ترحيبًا من بطليّ. لكن عندما أخبرت صديقي بما فعلته – وما اعتقدت أنه عنى – تحوّل وجه جيمس الوقور إلى ما يشبه تمثال سانت موريس القروسطي الموجود في القاعة، ونزع داريل نظارته، جلس وطَرَفَ نحو طاولة الطعام المصنوعة من خشب الصّنوبر. قال لي إنه أَمِل أنني فهمت كم أحبني كثيرًا هو وجيمس خلال مدة قصيرة – ولأنهما أحباني يمكنهما أن يخبراني الحقيقة – وأن الأمر الوحيد الذي عنته رسالتي الإلكترونية هو أني لا أزال غضة العود للغاية.

عشرة

خيموا عند باب منزل إيمي المشيّد من الحجر البني. وكان مدعاة للخجل أنهم بعد يومين كانوا يطرقون على باب جيمس وداريل. لكن ذلك الجزء كان من صنيع جودي، خبر في صحيفة مغفل الاسم: علاقة محظورة، «موظفة سابقة حاقدة». جاءت جودي من عصر مختلف، عندما ظلت الأخبار المغفلة الأسماء مغفلة، وأمكنك التحكم بالقصّة. حصلوا على اسمي خلال بضع ساعات، وبعد وقت قصير على مكاني، يعلم الله كيف. ربما تريسي على حق: ربما تعقبونا طوال الوقت من خلال هواتفنا. لزمت السّرير، بينما حمل جيمس إلى الأعلى فناجين الشّاي، وفتح وأغلق الباب لصحفيين ملحين، وداريل وأنا شاهدنا المد يقلب كمبيوتري المحمول في زمن حقيقي مع مضي النهار. دون أن أفعل أي شيء مختلف، دون أن أتصرف على الإطلاق، ذهبت من التابعة الغيرى التافهة في نظر جودي، إلى فاضحة الفساد الجسورة عند الناس، كله خلال بضع ساعات. تحديث، تحديث. إدماني.

اتصلت أمي وقبل أن أتمكن من سؤالها عن حالها قالت: «الآن أراني على الكمبيوتر، وأظن أنه كان تصرّفًا شجاعًا حقًا. تعلمين، لطالما كنتِ جبانة بعض الشيء، لا أعني جبانة – بل هيّابة قليلًا. إنه خطئي، لقد أفرطت في حمايتك ربما، دللتك. هذا الأمر الأول الشّجاع حقًا الذي رأيتك تفعلينه وأنا فخورة للغاية!»

من كان الآن؟ بدا خطابها مفككًا وليس على النحو الذي اعتادت التحدث به، زائفًا، أكثر تأنقًا مما سبق لي أن سمعته. سألت بطريقة لطيفة عن صحتها. لم تبح بشيء – كانت مصابة ببرد خفيف، لكنه انقضى – ولو أني عرفت في الواقع أنها تكذب علي، بدت قاسية للغاية، فبدا كما لو أنها الحقيقة. وعدتها بأني سآتي لزيارتها حال عودتي إلى إنجلترا وقالت بقناعة أقل بكثير مما قالت كل شيء آخر: «نعم، نعم، لا شك سوف تفعلين».

اتّصالي التالي كان من جودي. سألتني إذا كنت راغبة بالخروج. هي الآن تملك تذكرة من أجلي على متن رحلة جوية متأخرة الليلة. عند الطرف الآخر سوف يكون هناك شقة يمكن استعمالها لبضع ليال قرب ساحة اللورد للكريكت، حتى تخفت الضّجة. حاولت أن أشكرها. ضحكت ضحكتها الأشبه بنباح الفقمة قائلة: «أوتظنين أني أفعل هذا من أجلك؟ ما خطبك؟»

«حسنًا، جودي، أنا قلت للتو سوف آخذ التذكرة».

«هذا لطف منك حبيبتي. بعد جبل القذارة الذي خلقته من أجلي».

«ماذا عن لامين؟».

«ماذا عن لامين!».

«هو توقع المجيء إلى إنكلترا. لا يمكنك فقط...»

«أنت سخيفة».

انطفأ الهاتف.

بعد مغيب الشّمس ومغادرة آخر رجل على عتبة الباب، تركت صناديقي مع جيمس وداريل، وركبتُ سيارة أجرة إلى لينوكس. كان لون بشرة السّائق من تلك الدرجة الأكثر دكنة، مثل هاوا، وبدا اسمه

ملائمًا، وكنت في حالة رؤية إشارات ورموز في كل مكان. انحنيت قدمًا وأنا لا يزال يتملكني الحماس من سنة إجازتي وأشياء مختلطة من وقائع محلية وسألته عن بلده. كان من السّنغال لكن ذلك لم يعرقلني كثيرًا: تحدثت دون توقف عبر نفق منتصف البلدة وحتى جامايكا. ضرب عجلة القيادة بين الحين والآخر بقبضة يمناه وتنهد وضحك.

«إذن تعرفين كيف هو الحال في الوطن! حياة القرية تلك! إنها ليست سهلة لكن تلك هي الحياة التي أفتقدها! لكن يا أختاه، كان عليك أن تأتي لترينا! أمكنك فقط أن مشيت على الطريق!»

قلت وأنا أرفع بصري للحظة عن شاشتي: «في الواقع، الصّديق الذي كنت أخبرك عنه من السّنغال؟ نحن رتبنا لنلتقي في لندن، كنت للتو أرسل له رسالة».

كبَتُّ توقي لأخبر هذا الغريب أني أنا بكرم مني قد دفعت ثمن تذكرة لامين.

«أوه لطيف لطيف. لندن أفضل؟ أكثر جمالًا من هنا؟»

«مختلفة».

«ثمانية وعشرين عامًا كنت هنا. هنا مرهق للأعصاب، عليك أن تكوني غاضبة للغاية لتستمري هنا، أنت تتغذين على الغضب... إنه كثير».

كنا نتوقف عند مطار جون.إف.كينيدي، وعندما حاولت منحه بقشيشًا أعاده. قال ناسيًا أني لم أفعل: «شكرًا لك على مجيئك إلى بلدي».

✧ أحد عشر ✧

الآن الجميع يعرفونك على حقيقتك. مع وصولي كانت الرّقصة القديمة من عهد بنوتتنا انتشرت في العالم. وجدت الأمر مثيرًا للاهتمام أن تريسي اختارت ألا ترسلها لي حتى بعد مضي يومين كاملين. في رؤيتها للأمور سوف يعرف الآخرون حقيقة أمري قبل أن أعرف – لكن من ناحية ثانية ربما لطالما عرفوا. ذكرتني بطريقتها مع حكاياتنا السّابقة عن راقصات الباليه اللواتي يتعرضن للخطر، كيف سوف تصحح لي وتنقّح: «لا: ذلك الجزء هنا». «إنه من الأفضل لو ماتت في الصّفحة الثانية». تحرك وتعيد ترتيب الأشياء لخلق أعظم الأثر. الآن حقّقت الأثر نفسه على حياتي، واضعة بداية القصة عند نقطة سابقة، فكل ما أتى لاحقًا يفسر على أنّه النّتيجة المشؤومة لهاجس مديد. كانت أكثر إقناعًا من نسختي. اجتذبت أغرب ردود الأفعال من النّاس. أراد الجميع رؤية المشهد المصوّر ولم يفعل أحد: كان مسحوبًا حال نشره تقريبًا. بالنسبة للبعض – ربما أنت – كانت حالة استغلال جنسي لطفلة، إن لم يكن في النية ففي الأثر. آخرون وجدوها فقط استغلالية، ولو أنه من الصّعب أن تحدد من يستغل من. هل يمكن للأطفال أن يستغلوا أنفسهم؟ هل هو أي شيء سوى زوجان من الفتيات تعبثان، ببساطة فتاتان ترقصان – فتاتان سمراوان ترقصان كالكبار – تقلدان حركات الكبار ببراءة، لكن بمهارة، كما يمكن للفتيات السّمراوات غالبًا؟ وإذا تظنه أكثر من ذلك،

إذن من لديه المشكلة بالضّبط، الفتيات في الفيلم – أم أنت؟ أيا كان ما قيل أو اعتقد بشأنه، يبدو أنه يجعل من المشاهد شريكًا: أفضل الأمور هو ألا تشاهده على الإطلاق. هذا هو الامتياز الوحيد الممكن. بخلاف ذلك، هذه الغمامة من الذّنب، التي لا يمكن تمييزها بالضبط لكن مع ذلك تشعر بها. حتى أنا بمشاهدتي الفيديو امتلكت الفكرة المقلقة: حسنًا، لو فتاة تتصرف بتلك الطريقة في عمر العاشرة، هل يمكن أن يقال إنها بريئة؟ ما الذي لن تفعله في عمر الخامسة عشرة، في الثانية والعشرين، في الثالثة والثلاثين؟ الرغبة في أن تكون في صف البراءة قوية للغاية. لقد ضربت هاتفي في موجات، بكل تلك المنشورات، الثرثرات، والتعليقات. في مقابل ذلك، كانت الطفلة بريئة، كانت الطفلة خالية من الذّنوب. إيمي أحبت الطفلة، والدا الطفلة أحبا إيمي، رغبا منها أن تربي طفلتهما. نشرت جودي تلك الرسالة على نطاق واسع. من كان يحق له أن يحكم؟ من كنت أنا؟ الآن الجميع يعلم من أنت حقًا.

انقلب المدّ ثانية، بعنف وبتعاطف عظيم مع إيمي. لكن كان لا يزال هناك أناس على عتبة شقة جودي، على الرغم من كل استعداداتها ووعود البواب، وفي اليوم الثالث غادرت مع لامين إلى شقة أمي في سايدموث رود، التي عرفت بكل الدّلائل المتاحة أنها سوف تكون مسجلة باسم ميريام. لم يكن هناك أحد على العتبة. عندما رننت الجرس لم يكن هناك جواب وهاتف أمي ذهب إلى البريد الصوتي. أخيرًا أدخلتنا جارة. بدت مشوشة – مصدومة – عندما سألت عن مكان أمي. هذه المرأة أيضًا سوف تعرف الآن من كنت حقًا: نوع من ابنة لم تسمع بعد أن أمها كانت في دار العناية بالمرضى.

بدت مثل كل الأماكن التي عاشت فيها أمي، كتب وأوراق في كلّ مكان، تمامًا كما تذكرت، لكن أكثر: تخفف المكان المخصص لحياة

فعلية. كانت كراس مستخدمة كرفوف للكتب، وكل الطاولات المتاحة، معظم الأرضية، سطوح العمل في المطبخ. لم تكن فوضى، مع ذلك، كان لها منطق. في المطبخ احتلت قصّة الشّتات والشّعر المكان، وكان الحمام غالبًا تاريخ الكاريبيين. كان هناك جدار من روايات الرقيق وتعليقات عليها يقود من غرفة نومها عبر القاعة إلى السّخان. وجدت عنوان دار رعاية المرضى على الثلاجة، كان مكتوبًا بخط يد شخص آخر. شعرت بالحزن وبالذّنب. ممن طلبت أن يكتبه؟ من قادها إلى هناك؟ حاولت أن أرتب قليلًا. ساعدني لامين بتراخ بعض الشّيء فقد كان معتادًا أن تفعل النّساء هذا من أجله وسرعان ما جلس على أريكة أمي ليشاهد التّلفاز القديم الثقيل نفسه من عهد طفولتي، ظل نصف مخفيّ خلف كرسي، ليبين أنه لم يشاهده أحد أبدًا. حركت أكداس الكتب جيئة وذهابًا، صانعة فسحة صغيرة للمرور، وبعد حين استسلمت. جلست إلى طاولة أمي وظهري للامين، فتحت جهاز الكمبيوتر المحمول وعدت إلى ما أمضيت البارحة بطوله أفعله، أبحث عن نفسي، أقرأ عن نفسي، وأسعى لتريسي أيضًا، في التعليقات. لم يكن من الصّعب العثور عليها. عمومًا التعليق الرابع أو الخامس، وهي مضت إليه بسرعة خارقة دومًا، كلّ مرة، دون تسوية، عدوانية، مفعمة بالمكيدة. كانت تنعم بالكثير من الحلفاء. بعض منهم كانوا بارعين فعلًا: إشارات صغيرة إلى لحظات من تاريخنا المشترك، أغانٍ أحببناها، ألعاب امتلكناها، أو إعادة تجميع رقمية للسّنة التي التقينا فيها أول مرة أو تواريخ ميلادنا. لاحظت أنها أحبت أن تستعمل كلمات «دنيئة» و«مشين» وجملة: «أين كانت أمهاتهم؟» كلما رأيت ذلك السّطر أو تنويعًا عليه، عرفت أنه كان لها. وجدتها في كل مكان، في الأماكن المستبعدة إلى أقصى حد. في صفحات أناس آخرين، تحت مقالات صحفية، على جدران فيسبوك، تسيء إلى

أي شخص لم يتفق مع حججها. عندما تبعت أثرها، العروض النهارية البلهاء بدأت وانتهت دون أن أشاهدها. إذا التفت لأتفقد لامين وجدته لا يزال مثل تمثال يشاهد.

«هل يمكن أن تخفض الصّوت قليلًا؟»

كان قد رفع الصّوت فجأة على عرض إعادة بناء مبنى من النّوع الذي أحب والدي مشاهدته سابقًا.

«الرجل يتحدث عن ايدجوير. لدي عم في ايدجوير. وابن عم».

قلت وأنا أحاول ألا أبدو مشجعة للغاية: «حقًا؟».

انتظرت لكنه عاد إلى عرضه. غربت الشّمس. بدأت معدتي تقرقر. لم أتحرك من مقعدي، كنت عازمة للغاية على مطاردتي لتريسي، أدفعها لتخرج من المخبأ وأتحقق من نافذة ثانوية كل خمس عشرة دقيقة تقريبًا لأرى إذا كانت قد غزت صندوق بريدي. لكن كانت طرقها معي فيما يبدو مختلفة عن أساليبها مع أمي. كانت تلك الرسالة الإلكترونية المؤلفة من سطر واحد كل ما أرسلته لي. عند الساعة السادسة جاءت الأخبار. كان لامين منفعلًا للغاية لاكتشافه أن شعب ايسلندا كانوا فجأة فقراء على نحو مشؤوم. كيف يمكن لمثل هذا الأمر أن يحدث؟ محصول فاشل؟ رئيس فاسد؟ لكنها كانت أخبارًا جديدة بالنسبة لي أيضًا، ولم أفهم كل ما قاله مذيع الأخبار فلم يسعني تقديم أي تفسير.

اقترح لامين: «ربما سوف نسمع معلومات أيضًا عن سانكوفا»، وضحكت، نهضت وقلت له إنهم لا يضعون ذلك النّوع من الهراء على أخبار المساء. بعد عشرين دقيقة عندما استرقت النظر إلى الثّلاجة المتلئة بمنتجات فاسدة ناداني لامين لأعود. كانت القصة الختامية على الأخبار الواقعية، أخبار التّلفزة البريطانية كما دعاها، وهناك

في الزاوية اليمنى العليا كانت صورة لإيمي. جلسنا على حافّة الأريكة. مكتب في مكان ما خافت الإضاءة، وصورة للرئيس مدى الحياة الذي له وجه ضفدع مائلة على الجدار، أمامها جلس الوالدان في ملابسهما المحلية، يبدو عليهما الشعور بالحر وعدم الارتياح. جلست امرأة من وكالة التّبني إلى يسارهما وترجمت. حاولت أن أتذكر إذا كانت الأم هي نفسها التي رأيتها ذلك اليوم في الكوخ الحديد المموّج لكني لم أستطع التيقن. أصغيت إلى امرأة الوكالة تشرح الحالة للمراسل الأجنبي الذي جلس أمامهم جميعًا، كان يرتدي نسخة من بدلتي القديمة المتغضنة من اللينين والخاكي. كل شيء نفّذ وفقًا للإجراء، ما كان مسربًا لم يكن شهادة التبني على الإطلاق، كان مجرد وثيقة وسيطة من الواضح أنها ليست معدة للاستهلاك العام كان الوالدان راضيين بالتبني وفهما على ماذا وقعا.

قالت الأم بإنجليزية غير متقنة تبتسم لآلة التصوير: «ليس لدينا مشكلة».

وضع لامين كلتا يديه خلف رأسه، غرق في الأريكة وقدم لي مثلًا: «المال يبعد المشاكل».

أطفأت التّلفاز. انتشر الصّمت في أرجاء المنزل، لم يكن لدينا شيء على الإطلاق نقوله لبعضنا البعض، النقطة الثّالثة على مثلثنا رحلت. منذ يومين كنت مستمتعة بإيماءاتي المؤثرة – أنجز واجب عناية تجاهلته إيمي – لكن التصرف ذاته ضبّب واقع لامين: لامين في سريري، لامين في غرفة الجلوس هذه، لامين في حياتي لأجل غير مسمى. هو لم يمتلك عملًا ولا نقودًا. لا شيء من مؤهلاته التي حصل عليها بشق الأنفس عنت أي شيء هنا.

كلّما غادرت الغرفة – لأجلب شايًا، أو لأذهب إلى المرحاض –

كانت فكرتي الأولى عند رؤيته ثانية: ماذا تفعل في منزلي؟ عند السّاعة الثّامنة طلبت وجبة اثيوبية. عندما أكلنا أريته خرائط غوغل، وأين مكاننا في لندن بالنظر إلى بقية أنحاء المدينة. أريته ايدجوير. الطرق المتعددة التي يمكنك الوصول بها إلى ايدجوير.

«سأذهب لرؤية أمي غدًا، لكن لك حرية التجول هنا، بوضوح. أو كما تعلم، اذهب استكشف».

أي شخص يشاهدنا ذلك المساء سوف يخطر له أننا التقينا قبل بضع ساعات. شعرت بالخجل منه مرة أخرى، من احتوائه الفخور لنفسه وقدرته على الصّمت. لم يكن لامين إيمي بعد الآن، لكنه لم يكن لي أيضًا. لم أملك أية فكرة عمن كان. عندما بدا واضحًا بأني سأنتهي من المحادثة الجغرافية وقف ودون أي نقاش ذهب إلى غرفة المخزن. ذهبت إلى غرفة أمي، وأوصدنا أبوابنا.

كانت دار رعاية المرضى في هامبستيد، في زقاق مسدود تحف به الأشجار، هادئًا، على مرمى حجر من المستشفى حيث ولدت وعلى بعد بضعة شوارع من بيت الناشط الشّهير. كان الخريف جميلًا هنا، خمريًا وذهبيًا إزاء كل ذلك المبنى الفيكتوري من الآجر الأحمر النّفيس، وكان لدي ذكريات قوية ترابطية عن أمي تمشي عبره في صباحات نشطة مثل هذا الصّباح، ذراعًا بذراع مع الناشط الشّهير، تتحسر على الأرستقراطيين الإيطاليين والمصرفيين الأميركيين، رجال الأعمال الروس المتنفذين ومتاجر ملابس الأطفال الراقية، الأقبية المحفورة في الأرض. نهاية فكرة بوهيمية تائهة منذ زمن طويل عن المكان الذي أحبته. كانت في السّابعة والأربعين من عمرها حينها. ولم تتجاوز السّابعة والخمسين الآن. من كل المستقبل الذي تخيلته من أجلها في هذه الشّوارع بدا الواقع الحالي بطريقة ما مستبعدًا أكثر. عندما كنت طفلة كانت

خالدة. لم أستطع تخيلها تغادر هذا العالم دون تمزيق نسيجه. بدلًا من ذلك هذا الشّارع الهادئ، أشجار الجنكو هذه تريق أوراقها الذهبية. أعطيت اسمي لمكتب الاستقبال، وبعد انتظار قصير جاء ممرض شاب من أجلي. حذرني من أن أمي كانت على المورفين وأحيانًا مشوشة، قبل أن يقودني إلى غرفتها. لم ألحظ أي شيء حول هذا الممرض، بدا وصفه عسيرًا تمامًا، لكن عندما وصلت إلى الغرفة وفتح الباب دفعت أمي نفسها إلى الأعلى في سريرها وصرخت: «آلان بيننغتن! إذن التقيت بالشّهير آلان بيننغتن!»

«أمي هذه أنا!».

قال الممرض: «أوه، أنا آلان». والتفت لأنظر ثانية إلى هذا الشّاب الذي كانت أمي تبتسم له بإشراق بالغ. كان قصير القامة، وشعره بني رملي اللون، عينان زرقاوان صغيرتان، وجه بدين بعض الشّيء وأنف عادي مع بعض النمش على الجسر. الأمر الوحيد الذي جعله غير عادي في نظري، في سياق جميع الممرضين النيجريين، البولنديين، والباكستانيين الذين سمعتهم يتحدثون في الممرات، كان كم بدا انجليزيًا. قالت أمي وهي تلوح له: «آلان بيننغتن مشهور هنا، لطفه أسطورة». ابتسم آلان بيننغتن لي كاشفًا عن زوج من القواطع المدببة مثل أسنان كلب صغير.

قال: «سأترككما بمفردكما».

«كيف حالك يا أمي؟ هل تتألمين كثيرًا؟»

أعلمتني بعد أن أغلق الباب من خلفه: «آلان بيننغتن يعمل فقط من أجل الآخرين. هل تعلمين ذلك؟ سمعت عن هؤلاء النّاس لكنه أمر آخر أن تلتقيهم. بالتّأكيد عملت من أجل الآخرين طوال حياتي – لكن ليس بهذه الطريقة. إنهم هكذا هنا جميعًا. أولًا كان لدي

فتاة من أنغولا، فاطمة، فتاة محبوبة، كانت مشابهة... للأسف انبغى عليها أن تنتقل. ثم جاء آلان بيننغتن. كما ترين: إنه معتنٍ. لم أفكّر يومًا بتلك الكلمة بهذا العمق الشديد. آلان بيننغتن يهتم».

«أمي لماذا تستمرين في مناداته بآلان بيننغتن هكذا؟»

نظرت أمي إليّ كما لو أني كنت بلهاء.

«لأن ذلك هو اسمه. آلان بيننغتن، هو مقدم رعاية يهتم».

«نعم أمي هذا ما يتقاضى مقدمو الرعاية الأجر من أجله».

«لا، لا، لا، أنت لا تفهمين: هو يهتم. الأمور التي يفعلها من أجلي! لا أحد يجب أن يفعل هذه الأمور من أجل انسان آخر – لكنه يفعلها من أجلي!»

متعبة من موضوع آلان بيننغتن، أقنعتها أن تدعني أقرأ إلى حين بصوت مرتفع من كتاب صغير كان على الطاولة الجانبية، نسخة صغيرة مستقلة من قصة «Sonny's Blues»، من ثم وصل الغداء على صينية آلان بيننغتن. قالت أمي بحزن عندما كان آلان يضعها على حجرها: «لكن لا يمكنني أكل ذلك».

«حسنًا، ما رأيك أن أتركه معك لعشرين دقيقة وإذا كنت واثقة تمامًا من أنك لا تستطيعين تناوله فقط رني الجرس وسوف آتي وآخذه؟ كيف سيكون ذلك؟ هل يبدو ذلك جيدًا؟»

انتظرت أن تنفجر أمي غاضبة من آلان بيننغتن – طوال حياتها كرهت ووجلت من أن تستصغر أو يتحدثون معها مثل طفل، لكن الآن أومأت بجدية كما لو أن هذا كان عرضًا حكيمًا للغاية وسخيًا، أخذت يدي الآن في يديها المرتعشتين الأشبه بيدي شبح وقالت: «شكرًا لك آلان من فضلك لا تنسى أن تعود».

قال آلان: «ونسيت المرأة الأكثر جمالًا في المكان؟»

ولو أنه مثليّ بجلاء، وأمي النسوية طوال عمرها، انفجرت في قهقهات بنّاتية. ولبثا على ذلك الحال، بأيدٍ متشابكة، إلى أن ابتسم آلان وأفلتها وذهب ليعتني بشخص آخر، تاركًا إياي وأمي لبعضنا البعض. راودتني فكرة خبيثة كرهت امتلاكها: تمنيت لو أن إيمي معي. رافقت إيمي لزيارة المحتضرين أربع مرات، وفي كل مناسبة كنت متأثرة ومتذللة بطريقتها في كونها مع المحتضر، نزاهتها، دفئها وبساطتها، التي لم يبد أحد آخر في الغرفة أبدًا قادرًا على تدبرها، ليس حتى أفراد العائلة. لم تخش الموت. نظرت في عينه مباشرة، ارتبطت مع الشّخص المحتضر في حالته الراهنة. لا يهم مدى تقبلهم لخوفك عندما كنت خائفًا، وألمك إذا كنت تشعر به، دون حنين أو تفاؤل زائف. كم عدد الأشخاص الذين يسعهم القيام بهذه الأمور المستقيمة ظاهريًا؟ أتذكر إحدى صديقاتها، رسامة أنفقت عقودًا تعاني من فقدان الشهية القاسي الذي قتلها أخيرًا، قائلة لإيمي على ما تبين أنه فراش موتها: «يا الله، إيمي، ألم أضيع الكثير من الوقت!» وعليه أجابت إيمي: «أكثر مما تعلمين». أتذكر تلك الهيئة النحيلة بين ملاءات السّرير وفمها الفاغر مصدومة للغاية حتى أنها انفجرت بالضّحك. لكن كانت الحقيقة، لم يجرؤ أحد آخر على إخبارها واكتشفت أن المحتضرين برمين طلبًا للحقيقة. لم أتحدث بالحقيقة مهما كانت مع أمي، أنا أجريت معها فقط ذلك الحديث المختصر الاعتيادي، قرأت لها المزيد من محبوبها بالدوين، أصغيت إلى حكايات عن آلان بيننغتن، ورفعت كوب العصير فأمكنها أن تشربه من خلال مصاصة. عرفت أني عرفت أنها تحتضر لكن لسبب ما – شجاعة، رفض للوهم – لم تشر إليه في حضوري فيما عدا لتقول عندما سألتها عن مكان هاتفها ولماذا لم تجب عليه: «أنظري أنا لا أريد أن أنفق الوقت الذي بقي لي على ذلك الأمر اللعين».

وجدته في حجيرة طاولتها الجانبية في كيس غسيل خاص بالمستشفى، جنبًا إلى جنب بنطال بدلة، مجلد أوراق، دليل للسلوك البرلماني، وحاسوبها المحمول. قلت وأنا أصله بالكهرباء وأضعه على الطاولة: «ليس عليك أن تستعمليه، لكن دعيه فقط كي يكون لدي وسيلة للاتصال بك».

بدأ منبه الإشعارات يتدفق – أز الهاتف ورقص عبر النضد – وأمي تطلعت إليه بشيء من الرعب.

«لا، لا، لا – لا أريده! لا أريده مشتغلًا! لماذا انبغى عليك أن تفعلي ذلك؟»

التقطته. استطعت أن أرى رسائل إلكترونية غير مقروءة، عشرات منها تملأ الشّاشة، بذيئة حتى في عناوين مواضيعها، لجميعها العنوان نفسه. بدأت أقرأها أحاول مقاومة فهرس الألم: متاعب دعم طفل، متأخرات إيجار، مناوشات مع الأخصائيين الاجتماعيين. كانت الأحدث هي الأكثر سعارًا: خشيت من أن أطفالها كانوا على وشك أن يؤخذوا منها.

«أمي، هل سمعت من تريسي مؤخرًا؟»

«أين الآن بيننغتن؟ أنا لن آكل هذا».

«يا إلهي، أنت مريضة للغاية الآن – ليس عليك أن تتعاملي مع هذا!»

«إنه ليس كما لو أن الآن لن يدخل...»

«أمي هل سمعت من تريسي؟»

«لا! قلت لك أنا لا أنظر إلى ذلك الشيء!»

«لم تتحدثي إليها؟»

تنهدت بثقل.

«لا يزورني كثير من النّاس عزيزتي. ميريام تأتي. لامبرت جاء مرة. زملائي أعضاء البرلمان لا يأتون. كما قال آلان بيننغتن أنت «تكتشفين هنا من هم أصدقاؤك». أنام غالبًا. أحلم كثيرًا. أحلم بجامايكا، بجدتي. أعود في الزمان...» أغمضت عينيها. «حلمتُ بصديقتك، عندما جئت إلى هنا أولًا، كنت أتلقى جرعة عالية من هذا» – شدّت على قطرة في ذراعها – «نعم، صديقتك جاءت لزيارتي. كنت نائمة واستيقظت وكانت واقفة في الباب، لا تتحدث. ثم عدت إلى النّوم وكانت قد رحلت».

عندما عدت إلى الشّقة ضعيفة عاطفيًا لا أزال متلكئة، صليت أن يكون لامين في الخارج وكان كذلك.

عندما لم يعد على العشاء شعرت بالارتياح. فقط صباح اليوم التالي عندما قرعت على بابه، دفعته برفق ولاحظت غيابه هو وحقيبته حتى أدركت أنه غادر. عندما اتصلت تلقيت بريدًا صوتيًا. اتصلت كل بضع ساعات على مدى أربعة أيام وكان الأمر نفسه. كنت أركز بشدة على كيف يمكنني أن أنقل له النبأ عن ضرورة رحيله وأن لا مستقبل لنا معًا وأني لم أتخيل ولو للحظة أنه طوال الوقت كان يخطط لهربه مني.

كانت الشّقة هادئة للغاية من دونه والتّلفاز مطفأ. كنا فقط أنا والكمبيوتر والراديو الذي سمعت عبره أكثر من مرة صوت النّاشط الشّهير لا يزال قويًا مفعمًا بالآراء. لكن قصتي كانت تخبو على شبكة الانترنت وفي كل الوسائط الأخرى، جميع تلك التعليقات المنارة ببهاء خمدت الآن، متردية إلى سواد ورماد. متحيرة أمضيت يومًا أكتب رسائل إلكترونية إلى تريسي. أولًا وقورة وقويمة ثم ساخرة، ثم غاضبة، ثم هستيرية، إلى أن أدركت أنها بصمتها كان أثرها أكبر علي مما كان لكل هذه الكلمات. القوة التي امتلكتها عليّ هي نفسها التي امتلكتها دومًا، حكم وتعجز الكلمات عن وصفه. ما من حجة يمكنني الإدلاء بها قد

تغير واقعة أني شاهدتها الوحيدة، الشّخص الوحيد الذي يعلم كل ما لديها، كل ما كان مهملًا وضائعًا ومع ذلك تركتها هناك في مصاف غير المشهودين، حيث عليك أن تصرخ كي تسمع.

لاحقًا اكتشفت أن لتريسي تاريخ طويل في إرسال الرسائل الإلكترونية المزعجة. مخرج في مسرح «ترايسيكل» لم يوظفها، ظننت بسبب اللون. المدرسون في مدرسة ابنها. ممرضة في مكتب الطبيب. لكن ما من شيء من هذا يغير الحكم. إذا كانت تعذب أمي وهي ترقد محتضرة، إذا كانت تحاول تدمير حياتي، إذا كانت جالسة في تلك الشّقة الصّغيرة التي تثير الخوف، تشاهد رسائلي الإلكترونية تتراصف على هاتفها وببساطة تختار ألا تقرأها – أيا كان ما تفعله، عرفت أنه كان شكلًا من أشكال الحكم علي. كنت أختها: كان لدي واجب مقدس تجاهها. حتى إذا عرفناه هي وأنا فقط وأدركناه لا يزال حقيقيًا.

غادرت الشّقة بضع مرات نحو دكان النّاصية لأشتري السّجائر ورزم الباستا، لكن بخلاف ذلك لم أرَ أحدًا ولم يتصل بي أحد. ليلًا تناولت كتبًا عشوائية من كومة أمي، حاولت أن أقرأ قليلًا، فقدت الاهتمام وبدأت بآخر. خطر لي أني مكتئبة وفي حاجة للتحدث مع شخص آخر. جلست وخط الهاتف الجديد القائم على الدفع أولًا بأول في يدي أنظر إلى قائمة الأسماء الشّخصية القصيرة والأرقام التي نسختها من هاتف العمل القديم، وحاولت تخيل أي شكل قد يأخذه كل تفاعل، وإذا وكيف يمكنني عبوره، لكن بدت كل محادثة محتملة مثل مشهد مسرحي، قد أؤدي فيها دور ذلك الشّخص الذي لطالما كنته، الذي يبدو أنه يتناول غداءه معك لكن هو بالفعل تحول نحو إيمي، يعمل عند إيمي، يفكّر في إيمي، ليل نهار، نهار وليل. اتصلت بفرن. كانت الرنة نغمة مفردة طويلة غريبة وأجاب قائلًا: مرحبًا بالإسبانية. كان في مدريد.

«تعمل؟»

«مسافر. سوف تكون سنة الإجازة. ألا تعلمين أني استقلت؟ لكني سعيد للغاية في كوني حرًا!»

سألته عن السّبب، متوقعة هجومًا شخصيًا، وجه نحو إيمي، لكن رده لم ينطو على جانب شخصي، كان مهتمًا بالأثر المحرف لنقودها في القرية، انهيار خدمات الحكومة في المنطقة. وسذاجة المؤسسة، تعاملات شريكة مع الحكومة. عندما تحدث تذكرت وشعرت بالخزي من الفرق العميق بيننا. لطالما كنت أسرع في تفسير كل شيء على نحو شخصي، في حين رأى فرن المشاكل البنيوية الأكبر.

«حسنًا، جيّد أن أسمع منك فرن».

«لا، أنت لم تسمعي مني، أنا اتصلت بك».

ترك الصّمت معلقًا. وكلما استمر مدة أطول كلما كان التفكير فيما تقول أقسى.

«لماذا تتصلين بي؟»

جلست أصغي إليه يتنفس لبضع ثوان أخرى إلى أن انتهى رصيد هاتفي. بعد حوالي أسبوع أرسل لي رسالة إلكترونية ليقول إنه في لندن في رحلة قصيرة. لم أكن قد تحدثت مع أي شخص سوى أمي خلال عدة أيام. التقينا عند السّاوث بانك، في واجهة مقهى الـ فيلم كافيه، جالسين جنبًا إلى جنب، نواجه المياه، ومستغرقين في الذكريات قليلًا لكن كان محرجًا، أصبحت مريرة بسهولة كبيرة، كل فكرة جرت نحو الظلمة، إلى شيء مؤلم. كل ما فعلته كان الشّكوى، ومع أني تمكنت من رؤية أني أزعجه لم أستطع منع نفسي.

قال مقاطعًا إياي: «حسنًا، بوسعنا القول إن إيمي تعيش في فقاعتها، وهكذا تفعل صديقتك، وبالمناسبة أنت تفعلين. يمكن أن

يكون هذا حال الجميع. حجم الفقاعة مختلف، هذا كل شيء. وربما سماكة الـ- ماذا تسمون هذا بالإنجليزية؟ القشرة – الغشاء. الطبقة الرقيقة على الفقاعة».

جاء النّادل، بالغنا في لفت انتباهه. عندما غادر شاهدنا مركب سياح يشقّ طريقه في نهر تيمز.

قال فجأة وهو يلطم البار فخشخش صحن الفنجان: «أوه! أعرف ما أريد أن أخبرك به، سمعت من لامين! إنه بخير – هو في بيرمنجهام. طلب مني رسالة تزكية. هو يأمل بالدراسة. تبادلنا الرسائل الإلكترونية قليلًا. أعلم أن لامين قدريّ. كتب لي: كان مقدّرًا لي أن آتي إلى بيرمنجهام. لذا كنت دومًا قادمًا إلى هنا. أليس ذلك مسليًّا؟ لا؟ حسنًا، ربما أستعمل الكلمة الخطأ بالإنجليزية. أعني أن المستقبل بالنسبة للامين مؤكد مثل الماضي. إنها نظرية فلسفيه».

«يبدو مثل كابوس».

بدا فِرن مشوشًا ثانية: «ربما أعبّر عنها بطريقة خاطئة، أنا لست فيلسوفًا. بالنسبة لي إنه يعني أمرًا بسيطًا، كما لو أن تقولي إن المستقبل هناك سلفًا، بانتظارك. لماذا لا أنتظر، وأرى ماذا يحمل؟»

كان وجهه مشجعًا للغاية حتى أنه جعلني أضحك. استعدنا بعضًا من إيقاع ألفتنا القديمة، وجلسنا نتحدث لوقت طويل، وفكرت أنه ليس من المستحيل أن أهتم لأمره في المستقبل. كنت أقر في فكرة أني لست ذاهبة إلى أي مكان، لم يعد هناك عجلة بعد الآن، سوف لن أكون على متن الطائرة التالية. الزمن كان إلى جانبي بقدر ما هو إلى جانب أي شخص. بدا كل شيء ذلك الأصيل مفتوحًا لي، نوع من صدمة، لم أعرف ما كان سيحدث في الأيام القليلة التالية أو حتى السّاعات القليلة التالية – شعور جديد. تفاجأت عندما رفعت بصري عن فنجان قهوتي

الثّاني ورأيت النهار يتبدد والليل يكاد يحل علينا. فيما بعد أراد أن يستقل قطار الأنفاق عند محطة واترلو، كانت المحطة الأفضل بالنسبة لي أيضًا، لكن بدلًا من ذلك تركته واخترت الجسر. متجاهلة الحاجزين، مشيت مباشرة في المركز فوق النهر إلى أن وصلت إلى الجانب الآخر.

خاتمة

آخر مرة رأيت أمي على قيد الحياة تحدّثنا عن تريسي. هذا ليس بليغًا كما ينبغي: كانت تريسي حقًا الأمر الوحيد الذي سمح لنا الوقت أن نتحدث عنه عمومًا. كانت أمي في أغلب الأحيان منهكة للغاية لتتحدث أو ليحدّثها أحدهم، وللمرة الأولى في حياتها لم تسترعِ الكتب انتباهها. بدلًا من ذلك غنّيت لها، وبدا أن الأمر يروقها - طالما لم أحِد عن كلاسيكيات شركة موتاون القديمة. شاهدنا التّلفاز معًا، وهذا أمر لم نفعله سابقًا قط، وأجريت مع آلان بيننغتُن حوارًا قصيرًا، هو الذي دخل بين الحين والآخر لمراقبة فواق أمي العنيف وبرازها وتطوّر أوهامها. أحضر طعام الغداء الذي لم تعد قادرة على النظر إليه أبدًا رافضة أن تأكل، لكن في ذلك اليوم الأخير تناولناه معًا، عندما غادر آلان الغرفة فتحت عينيها وقالت لي بصوت هادئ جازم، كما لو أنها تعلّق على أمر كان حقيقة واضحة وموضوعية - مثل الطقس في الخارج أو ما كان موضوعًا في طبقها - إن الوقت قد حان «لنفعل شيئًا» بشأن عائلة تريسي. للوهلة الأولى اعتقدت أنها كانت ضائعة في الماضي، هي كثيرًا ما كانت كذلك في تلك الأيام الأخيرة، لكن سرعان ما فهمت أنها تتحدّث عن الأطفال، أطفال تريسي، برغم أنها في التّحدث عنهم تنقّلت بحرية بين واقعهم كما تخيّلته، تاريخ عائلتنا الصّغيرة، وتاريخ موغل أكثر في القِدَم: كان الخطاب الأخير الذي ألقته على الإطلاق.

قالت أمي: «هي تكدح في العمل والأطفال لا يرونها، والآن يريدون أن يبعدوا عني أطفالي، لكن والدك كان ممتازًا، ممتازًا، وغالبًا ما أفكّر: هل كنتُ أمًّا صالحة؟ هل كنت؟ والآن يريدون أن يأخذوا مني أطفالي... لكني كنت مجرّد طالبة، أدرس، لأن عليك أن تتعلمي كي تعيشي وكنتُ أُمًّا وعليّ أن أتعلم، لأنك عرفت أن كلّ من ضُبط وهو يقرأ أو يكتب واجَه عقوبة السّجن أو الجلد أو ما هو أسوأ، وأي شخص ضبطوه يعلّمنا القراءة أو الكتابة واجَه العقوبة نفسها، سُجن أو جُلد، هذا كان القانون في ذلك الحين، صارمًا للغاية، وهكذا اقتلعنا من زماننا ومكاننا، ثم توقّفنا حتى عن معرفة زماننا ومكاننا – ولا يمكنك أن تُقدِمي على فعل ما هو أسوأ من ذلك لشعب. لكني لا أعرف إذا ما كانت تربيتي أُمًّا صالحة، ولو أنني بالتّأكيد بذلت قصارى جهدي لأربيهم جميعًا، لكنني أعرف على وجه اليقين أن والدك كان ممتازًا، جيدًا جدًا...»

قلت لها إنها صالحة. البقية لا تهم. قلت لها إن الجميع بذلوا قصارى جهدهم ضمن حدود طاقة كل منهم. لا أعرف إذا سمعَتني.

كنت أجمع حاجيّاتي عندما سمعت آلان بيننغتن قادمًا عبر القاعة يغني على طريقته بصوت منخفض متنافر، أغنية من أغاني أمي الأثيرة للمغني الأميركي أوتيس، تلك التي تتحدث عن كونك وُلدت بجوار النهر وتجري منذ ذلك الحين. قال لي وهو يظهر في المدخل مداعبًا على الدوام: «سمعتك تفعلين ذلك البارحة. صوتك رائع. والدتك فخورة بك للغاية، كما تعلمين، هي تتحدث عنك دومًا».

ابتسمَ نحو أمي. لكنها كانت بعيدة عن آلان بيننغتن. تمتمَت مُغمضة عينيها عندما نهضتُ أنوي المغادرة: «إنه واضح وضوح الشّمس، يجب أن يكونوا معك. أفضل مكان متاح لهؤلاء الأطفال هو أن يكونوا معك».

في الوقت المتبقي من ذلك الأصيل تسلّيت بالخيال، ليس بجدية، لا أظن ذلك، كانت مجرد أغنية حالمة مصوّرة بالألوان تعزف في رأسي: عائلة جاهزة تملأ حياتي فجأة هنا والآن. ذهبت في اليوم التالي في نزهة صباحية حول المحيط القاحل لمركز تيفرتون لإعادة التّدوير، والريح تسوط السّياج الشّبكي، حاملة عِصِيًّا مطروحة للكلاب، ووجدت نفسي أواصل السّير في الاتجاه المعاكس للشّقة ومرورًا بالمحطة التي قد تقودني إلى دار الرعاية. فارقَت أمي الحياة عند السّاعة العاشرة واثنتي عشرة دقيقة، عندما انعطفت نحو شارع ويلزدن لين.

تجلّى برج تريسي للعيان فوق أشجار الكستناء وتجلّت معه حقيقة واقعية. هؤلاء لم يكونوا أطفالي وسوف لن يكونوا أطفالي أبدًا. كدت أتراجع، مثل شخص أوقظ على حين غرّة من سيره في نومه، غير أن فكرة جديدة تبادرت إلى ذهني، وهي أنه قد يوجد شيء آخر يمكنني تقديمه، أبسط وأكثر صدقًا، بين فكرة أمي عن الخلاص واللاشيء على الإطلاق. نافدة الصّبر، غادرت الدّرب وتوجّهت نحو الممشى المسقوف أدوس على العشب قُطْريًّا. كنت على وشك دخول بيت الدّرج عندما سمعت صوت موسيقى، توقّفت ورفعت بصري. كانت فوقي تمامًا على شرفتها ترتدي قميص نوم وخفين، يداها في الهواء، تدور وتدور، أطفالها من حولها، والجميع يرقصون.

المؤلفة

ولدت زادي سميث في لندن عام 1975 . لعائلتها جذور تنحدّر من جامايكا. كتبت خمس روايات: "في الجمال" و"أسنان بيضاء" و"شمال وغرب لندن" و"رجل الأوتوغراف" وأخيرًا "سوينغ تايم" التي وصلت القائمة الطويلة لجائزة مان بوكر عام 2017. اختيرت زادي عضوًا في جمعية الأدب الملكيّة عام 2002. تهتم في رواياتها بمسألة العودة إلى الجذور، وكيف أن الناس قد يعيشون في مكان واحد لكن ثقافاتهم الآتية من جذورهم قد ترسم لكُلّ منهم مستقبلًا مختلفًا. تعمل زادي مُحاضرة في جامعة نيويورك.

المترجمة

أماني لازار، مترجمة سورية مقيمة في الدنمارك. ترجمت إلى العربية رواية كنوت هامسن (أسرار)، وزيبالد (المغتربون) وسلافوي جيجك (بداية كمأساة وأخرى كمهزلة) وأخرى كثيرة.

سوينغ تايم

«أعرف أنّ هناك دومًا فتاة تحمل سرًا، شيئًا خفيًا ومنكسرًا فيها. وبالسّير عبر القرية مع إيمي، أدخل بيوت الناس، أصافحهم، أتناول طعامهم وشرابهم، يعانقني أطفالهم، غالبًا فكرت أنني رأيتها ثانية، تلك الفتاة التي تعيش في كلّ مكان وفي كل الأزمان في التاريخ، التي تكنس الباحة أو تصب الشّاي أو تحمل طفل شخص آخر على وركها، وتتطلع نحوك بسرٍّ لا يمكنها إفشاؤه».

فتاتان سمراوان تحلمان أن تصبحا راقصتين - لكن واحدة منهما فقط، تريسي، ابنة أحد الرّاقصين المصاحبين لمايكل جاكسن، تحمل الموهبة الحقيقية، فيما الأخرى لا تحمل سوى أفكار: عن الإيقاع والزّمن، الجسد الأسود والموسيقى السّوداء، ما هي البذرة التي تنمو منها القبيلة؟ وما الذي يجعل الإنسان فردًا حُرًا. إنها قصّة تسير منذ الطفولة، حيث تلك الصّداقة العميقة التي جمعت الفتاتين منذ المدرسة وحصص الرّقص، وإلى النضج، حين لا تعودان تزوران بعضهما، لكنهما لم ينسيا بعضهما أبدًا.

«إنها رقصة في حدّ ذاتها، رخيمة وصادمة الأحداث..
سوينغ تايم مليئة بالحياة»
كلير مسعود، ***The New York Review of Books***

Photograph: Shutterstock
Cover design: Diana Chamma



